

عبد الكريم الخطيب

إعجاز القرآن

الأعجاز في درر السابقين

دراسة كاشفة لمفاتيح البلاغة العربية ومبادئها

الطبعة الأولى ١٩٧٤

ملنزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« الحمد لله رب العالمين . . الرحمن الرحيم . . مالك يوم الدين . . إياك نعبد وإياك نستعين . . إهدنا الصراط المستقيم . . صراط الذين أنعمت عليهم . . غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين . . »

* * *

أما بعد . . فإن للقرآن الكريم على المسلمين حقاً لم يرعوه حق رعايته منذ عصور مضت ، وأمانة لم يؤدوها على وجهها منذ أزمنة خلت ، فلقد قصروا في رعاية هذا الحق ، وفرطوا في أداء هذه الأمانة . . ثم لقد كان حسابهم على هذا التقصير وهذا التفريط ؛ حساباً معجلاً في هذه الدنيا ، قبل حسابهم الطويل العسير المؤجل ليوم الحساب . . يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وإنه ما أخلى المسلمون مكانهم من قيادة ركب الحياة ، على طريق الحق ، والعزة — إلا بعد أن تراخت أيديهم عن التمسك بكتاب الله ، وإلا بعد أن عزلوا أنفسهم أو كادوا يعزلونها عن الحياة في ظل من هدى هذا الكتاب .

وتاريخ المسلمين مع القرآن الكريم يشهد لذلك شهادة قائمة على هذا الحساب . . مقدرة بهذا التقدير ، جارية معه ، طرداً وعكساً .

فإنه على قدر ما كان يقترب المسلمون من كتابهم الكريم ، وبقدر ما كانوا

يرعون حقه ، ويؤدون أمانته — كان نصيبهم من الخير ، وكان حظهم من السلامة والأمن . . . في أنفسهم ، وأموالهم ، وأوطانهم ، وكان مكانهم من العزة والسيادة في المجتمع البشرى .

والعكس صحيح . . . فإنه على قدر ما كان يبعد المسلمون عن كتابهم ، وبقدر ما يفرطون في حقه ، ويستخفون بشأنه — كان بعدهم من الخير ، وكان ابتعادهم من السلامة والأمن ، وكان وضعهم الحرج المضطرب بين الأمم !

وليس هذا شأن المسلمين وحدهم . . . بل هو شأن كل من يُدعى إلى الحق فيلقاه معرضاً ، أو يصحبه على دخل وجفاء !

وفي واقع الحياة وعلى مسرح أحداثها كثير من المثالات والعبر .

بنو إسرائيل مثلاً . . .

أطعمهم الله خير طعام ، تشتهيه النفس ، وتطيب معه الحياة . . . فأنزل عليهم المن والسوى . . . يحدونه حيث يشاءون ، حاضراً عتيداً بين أيديهم ، لا يتكلفون له جهداً ، ولا يذلون من أجله دافعاً ، أو درهماً .

ومع هذا . . . فقد عافت نفوسهم هذا الطعام الطيب الكريم ، المنزل من السماء ، الخفوف بالرحمات والبركات ، وأبت نفوسهم الملتوية الخبيثة إلا أن تضع فمها على التراب ، وأن ترعى مع الأنعام ، وتأكل مما يأكل الحيوان ! وقد كشف القرآن الكريم هذا الموقف اللئيم الذي وقفوه إزاء هذه النعمة الكريمة . . . حيث يقول الله تعالى :

« وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى إِنَّ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ . . . مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا

«فوقِها»^(١)، وعدسها وبصلها.. قال: أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ اهبطوا مصرًا فإنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُم، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله»^(٢).

وقد هبطوا مصر - وهو المدينة - فهبطوا هبوطاً مادياً ومعنوياً معاً.. فضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله!

فهذه مائدة كانت ممدودة لهم من السماء.. وكان جديراً بالقوم أن يهتموا إليها، وأن يشدوا أيديهم وقلوبهم عليها.. ولو أنهم فعلوا ما زایلهم هذا الخير أبداً، ولعاشت فيه أجيالهم جيلاً بعد جيل، يطعمون من هذا الطعام الطيب، الذي تصفو عليه النفوس، كما تصح عليه الأبدان.

ومن يدرى؟.. فلعله لو ذهب بنو إسرائيل بالتجربة إلى غايتها لتغير وجه الحياة الإنسانية بهم، ولظهرت في الحياة سلالات بشرية لا تحمل «معدة» الحيوان، ولا بهيمية البهائم.. ولكن الله بالغ أمره! «قد جعل الله لَكُم شئاً قدراً»^(٣).

فبدل الله نعمة القوم نقمة، وضربهم بالذلة والمسكنة، فما استقام لهم وجه في الحياة، ولا كان لهم فيها من زاد إلا السحت الخبيث من الطعام..

«واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانساخَ منها فاتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين... ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنهُ أخلدَ إلى الأرض، واتبعَ هواهُ... فثله كمثل الكلبِ... إنَّ تحملَ عليه يلهثُ

(١) القوم: الخنطة.

(٢) سورة البقرة: آية ٦١.

(٣) سورة الطلاق: آية ٣.

أَوْ تَتْرَكُهُ يَلَيْثٌ ، (١) .

ونحن — المسلمين — ماذا كان منافي شأن القرآن الذى بين أيدينا ؟
لقد أنزله الله علينا مائدة من السماء . . مائدة حافلة بالطيبات من الرزق ،
محملة بالكريم الغدق من النعم !

ذاكم هو « القرآن الكريم » الذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :
« وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهِرًا شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » (٢) وقوله تبارك اسمه :
« إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
أَن لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » (٣) ، وقوله جلَّ شأنه : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » (٤) وقوله عزَّ من قائل : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » (٥) .

والذى يقول فيه النبي ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ أَمْرًا وَزَجَرًا وَسَنَةً خَالِيَةً ، وَمَثَلًا مَضْرُوبًا ، فِيهِ نَبَأُكُمْ ،
وَخَبْرُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ ، لَا يُخْلِقُهُ طَوْلُ الرَّدِّ ، وَلَا
تَنْقُضِي عَجَائِبِهِ ، هُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ،
وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ أَقْسَطَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ
هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ حَكَمَ
بِغَيْرِهِ قَضَاهُ اللَّهُ ، هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَحَبْلُ
اللَّهِ الْمَتِينِ . . عَصَمَةَ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ، وَنَجَاهَ لِمَنْ اتَّبَعَهُ . . . » ويقول فيه :
« الْقُرْآنُ مَادِبَةُ اللَّهِ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَادِبَتِهِ » .

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٥ ، ١٧٦ . (٢) الإسراء : آية ٨٢ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٩ (٤) سورة ص : آية ٢٩

(٥) سورة الزخرف : آية ٤٤

فالقرآن الكريم مآدبة الله ، ومآدبة الله هذه . . تحمل الشفاء والرحمة ، كما تحدث الآية الكريمة بهذا ، عن القرآن الكريم .

وإن هذه المائدة التي أعدها الله للمسلمين ليست على شاكاة تلك المائدة التي أنزلها على بنى إسرائيل ، طعاما يغذى الأجسام ، ويشبع البطون !

وإنما المائدة الممدودة للمسلمين ، مائدة يتغذى منها العقل والروح ، فتتخلق منها ملكات علوية ، ووجدانات ربانية ، بها يسمو الإنسان ، ويعلو ، وبها يرتفع على هذا الضعف الإنساني الكامن فيه ، وينتصر على هذه النزعات الحيوانية المندمسة في كيانه .

ولهذا يقول الرسول الكريم عن تلك المائدة الكريمة : « فاعملوا من مآدبه » ولم يقل — صلوات الله وسلامه عليه — « فكلوا من مآدبه » . . . ذلك لأن القرآن مآدبة علم وحكمة وخلق . . وليس مآدبة معدة ، ولا طعام بطون !!

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدر هذه الأمة وأعلى شأنها ، وكيف جعل غذاءها السماوى الذى أنزله عليها ، غذاء يتصل بالعقل والروح ، ولم يجعله فيما يساق إلى البطن والمعدة ! وفى ذلك ما فيه من كرامة وتكريم لهذه الأمة ، التى تتلو القرآن وتدين بالإسلام ، وتأخذ بحظها من هذا المقام العظيم الذى أقامها الله تعالى فيه ، ويخاطبها الحق سبحانه بقوله :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (١) .

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

فمن شأن القرآن الكريم أن يقيم المتصلين به على طريق الحق ، فيأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله . . .

إن الذى يستقيم على دعوة القرآن ، هو إنسان سليم ، مُعافى فى نفسه ، ثم هو مع ذلك قادر على أن يحمل الهدى والخير إلى غيره ، فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويكون خليفة الله فى الأرض ، وخليفة الرسول فى الدعوة إلى الله !

واسكن صحبة المسلمين للقرآن ، لم تكن صحبة كريمة قائمة على العدل والإحسان فى جميع الأحوال . . فكثيرا ما أساء المسلمون هذه الصحبة ، وأوسعوها جفاء وعقوقا . . يعيش القرآن فيهم غريبا ، لا يقفون عنده ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يتلقون بعض ما فيه من خير وهدى ! وكأنهم لم يتلوا من آيات القرآن هذه الآية الزاجرة: « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (١) .

وليس حال المسلمين - مع القرآن - فى كثير من الأحوال - بأحسن من حال بنى إسرائيل مع ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى ، ومع ما فضل به عليهم من نعم كانت تساق إليهم مع كل نبي !

وإذا كان بنو إسرائيل قد عافوا هذا الطعام السابى الطيب ، واستبدلوا به ما تنبت الأرض ، فإن المسلمين قد زهدوا فيما حمل القرآن إليهم من رحمة وهدى ، ومن أحكام وتعاليم ، فعافوا هذا كله ، وولوا وجوههم إلى ما أخرجت الأرض من ضلالات وسفاهات ، فهاموها ، وعاشوا فيها ، وأبوا أن يرتفعوا إلى المنزلة الكريمة التى دعاهم الله إليها . . وكانت عاقبة أمرهم أن جفتهم الحياة ، وأنزلتهم

منها هذا المنزل الدُّون . . وأخذتهم البأساء والضراء ، فأخلوا مقامهم الذى كانوا قد رُفِعوا إليه ، يوم تلقوا القرآن من يدى الرسول الكريم ، وأُشربوا فى قلوبهم حُبَّة ، والاستغلال به .

وهكذا كان شأن المسلمين فى كل دور من أدوار حياتهم . . كما عافوا هذا الطعام السماوى ، وهاموا على وجوههم ، يطعمون مما ترمى به الحياة إليهم من زَبَدها وغُثائها — هانوا . وذَلُّوا . . وكما نظروا فى كتاب الله واستقاموا على هديه ؛ رشدوا ، وعلوا ، وكانوا خلقاء الله فى الأرض ، وعادوا إلى مقامهم الذى دعاهم الله تعالى إليه ، ووعدهم به ، فى قوله سبحانه :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَما استخلفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ،
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... » (١) .

والجفوة التى بين المسلمين وبين القرآن الكريم جفوة غليظة مستحكمة . .
قد تظاهرت عليها دواع كثيرة أحكت بنيانها ، وثبتت دعائمها ، فلم يعد بين المسلمين
وبين القرآن طريق يصلهم به ، إلا تلك الطرق الدارسة الطامسة ، التى تتصاعد منها
أتربة وأدخنة ، تعمى على الناظر فى كتاب الله وجوه الحق والخير الذى فيه .

والجفوة القائمة بين المسلمين وبين كتاب الله الذى فى أيديهم ، قد تظاهرت عليها
دواع كثيرة — كما أشرنا من قبل — منها هذا الضعف البادى فيهم منذ تركوا كتاب الله ،
ونسوا اليوم الذى تركوه فيه ، أو تناسوه ، ثم نظروا فوجدوا أنهم — وهم محسوبون

على القرآن - قد تخلفوا عن ركب الحياة ، وأن القرآن لم يخفّ للأخذ بيدهم ، ثم كان أن اتخذ أعداء الإسلام والمتربصون به - اتخذوا من هذه المشاعر مدخلاً يدخلون به إلى ضعاف الإيمان ، فأكدوا عندهم هذه المشاعر الجافية للقرآن ، وصرخوا في آذانهم أن التمسوا غير القرآن داعياً تدعونه لاستنقاذكم ! وإذا لم تجد هذه الصرخات آذاناً كثيرة تستمع إليها ، وتستجيب لها - جاءوا لحرب القرآن من جهة أخرى ، وهى اللغة العربية التى هى ترجمان آيات الله ، يقطعون الصلة بينها وبين أهلها ، ومن ثم يقطعون الطريق بين المؤمنين وبين كتاب الله بطمس معالم اللغة الناطقة به . . وقد وجدت تلك الدعوة كثيرين من المستجيبين لها فى غير تخرج أو تأثم ، إذ كان فى حساب هؤلاء المستجيبين أن اللغة لاصلة لها بالدين ، وأنه إذا صح أن يتخرج المرء فى أمور دينه ، فإنه لا يصح أن يتخرج فى أمور لغته ! وما درى هؤلاء الأغرار الخدوعون أنه لا طريق لهم إلى دين الله ، إلا عن كتاب الله ، وأنه لا سبيل للاتصال بكتاب الله إلا عن طريق اللغة التى نزل بها . . وما دروا أنهم وقد استخفوا باللغة العربية وتهاووا فى شأنها ، قد استخفوا بدينهم ، واعتزلوا أو كادوا يعتزلون طريقه ! !

إن كل حظ المسلمين من القرآن اليوم هو حظهم من مخلقات الآباء والأجداد مما تضمنه المتاحف ودور الآثار . . يزورونها لما ، ويطرقونها حيناً بعد حين . . . قد تثير فيهم نشوة عارضة ، أو تبعث فيهم عزة كاذبة . . ينفضونها من نفوسهم قبل أن يزايروا المزاراة ، كما ينفضون ما قد يكون علق على ثيابهم من التراب وهم يحوسون خلال الديار . . هذا إذا كان معهم من المشاعر ما يدعوهم إلى لقاء كتاب الله ، ولو على أزمان متباعدة ! !

فنحن نلّم بالقرآن إلاماً ، ونلقاه حيناً بعد حين . . وقد نذكر به ما نذكر من

مواعظَ وزواجر .. ثم لا نلبث حتى ننزع عن ذلك قبل أن نضع المصحف من أيدينا ، لنلقى الحياة ، ونختلط بها ، كما نحن ؛ على الوجه الذى كنا نصحبها به ، ونعيش معها عليه !

فما يحدث به القرآن شيء .. وحياتنا التى نحياها ونتقلب فيها شيء آخر .. بعيد كل البعد عن القرآن ، وما يتحدث به القرآن .

إن المسلم يعيش فى هذه الحياة بشخصية « مزدوجة » ويلقأها بنفس منقسمة على نفسها .. ! ولهذا كان مسيره فيها مختلفاً مضطرباً .. تتأرجح أبعاضه بين مشرق ومغرب ، وشمال وجنوب .. فهو يتحرك فى مكانه حركة متماوجة .. فلا يتقدم خطوة إلى الأمام على كثرة هذا الضرب المضطرب فى الأرض !

فالمسلم حين يلتقى بكتاب الله يذكر الإسلام ، وشرعية الإسلام ، وتنتصب لعينيه مثل رفعة كريمة للحياة الإنسانية الكريمة الرفيعة ، يهفو إليها قلبه ، وتتحرك لها نوازعه ، وتنطلق نحوها آماله .. ولكنه حين يزائل هذا الموقف ، ويدخل معترك الحياة مع الناس ، ويضطرب فيما يضطربون فيه ، لا يجد شيئاً مما كان فيه مع القرآن ؛ من مُثل ، ونوازع ، وآمال .. وإذا هو إنسان غير هذا الإنسان الذى كان مع القرآن منذ قليل ... إنسان كأن لم يعرف القرآن ولم يعرفه القرآن .. وهكذا يظل المسلم فى أحسن أحواله سائراً فى هذين الاتجاهين المتضادين .. بل المتنازعين المتخاصمين .. وهذه حال أشبه بحال « المنافقين » فى مقام الإيمان ! ! ليسوا مؤمنين وليسوا كافرين .. والنفاق شر من الكفر .. إذ لا يرجى لصاحب النفاق استقامة على طريق ، ولا رجعة إلى حق ..

أما صاحب الكفر فإنه قد يتجه إلى الإيمان يوماً ، وقد يفتح قلبه للخير

والهدى ، بعد أن يلجّ في النقي والضلال .. ولهذا توعد الله المنافقين بما لم يتوعد به الكافرين ، فقال تعالى :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَوِيْرًا » (١) .
وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الْكُفْرَ نَارَ جَهَنَّمَ » (٢) .

فقدمهم في هذا المقام السكريه على الكفار ، وجعلهم قادة هذا الركب الضالّ المساق إلى عذاب السعير !

وإن المسلم ليحيا في هذه الحياة الدنيا على نفاق مع نفسه .. إذ يلقى كتاب الله بوجه ، ثم يلقى الحياة والناس بوجه ، أو بوجهه ... ! فانظر أى حال تلك الحال ، وقدّر أى مصير يصير إليه أهلها ! !

* * *

ولم يؤت المسلمون في دينهم من نقص قد ظهر لهم في هذا الدين ، أو عيب بدا لهم منه ، خف ميزانه في نفوسهم ، وضمّر وجوده في كيانهم .. ليس لشيء من هذا دخل على المسلمين ما دخل عليهم فيما بينهم وبين دينهم من نفور وجفاء .. فالمسلم — أى مسلم — أحرص ما يكون على دينه ، وأكثر ما يكون تعلقاً به ، وذكرآ له ، وحديثاً عنه ، وغيرةً عليه .. ولكن مع هذا مغلوب على أمره في الدفاع عن هذه المشاعر الضاغطة عليه ، وفي الاحتفاظ بتلك الأحاسيس ، التي يحملها في كيانه من جهة الدين .. إنه لا يكاد يلقى الحياة حتى تغرب شخص هذه المعالم الدينية من نفسه ، وتولّى الأدبار .. وهو يرقبها في ألم وحسرة ، ويشعرها في وجعة وكد ! !

والسبب في هذا يرجع — في تقديرنا — إلى تَمَيُّع العقيدة الدينية في نفس

(١) سورة المائدة : آية ١٤٥ (٢) سورة التوبة آية : ٦٨

المسلم ، وإلى اختلاط كثير من مسائلها في تفكيره ، وعدم وضوح المعالم والحدود لكثير من أمور الدين عنده ، وذلك لأمر كثيرة منها :

أولاً : هذه الخلافات السياسية والمذهبية التي وقعت بين المسلمين منذ أعقاب الخلافة ، الراشدة فانعكست آثارها على المسائل الدينية التي تشكل منها الفقه الإسلامي ، فجاءت تلك المسائل على وجوه كثيرة متناقضة متضاربة ، يلطم بعضها وجه بعض ، بحجج تسندها آية أو آيات من كتاب الله ، متأولةً على غير وجهها ، أو حدث ضعيف ، أو أثر مكذوب . . فتجد كل هذه الأقوال منطقاً يقيمها ، وذكاء يدارى عوارها ، بما دخل على المسلمين من مذاهب الجدل والفسطة منذ قيام الدولة العباسية . . وكان من هذا أن تشعبت مسائل الدين بين الطوائف المختلفة ، التي انقسمت كل طائفة منها على نفسها ، فكانت فرقاً تبغ المئات عداء . . وقد ذهبت كل فرقة في الدين مذهباً ، وأقامت لمذهبها حجته من كتاب الله وسنة رسوله . . . وهذا هو أفدح مافي الأمر ، وأشنع مافي هذا الخلاف . . فالمسألة الواحدة من مسائل الدين تأخذ دورة طويلة لا تنتهى ، فلا يكاد المسلم يسك منها بطرف حتى تجره جرّاً إلى مسائل كثيرة تتولد منها ، وتتفرع ، وإذا هو أمام صورة « مبهوزة » تتراقص أمام عينيه كما يتراقص الشبح في ضوء مصباح ، عبثت بذبالته الريح في يوم عاصف ! وإذا هو على مشاعر ومفاهيم مختلفة عن مشاعر الجماعة ، وإذا كل فرد في المجتمع الإسلامي أمة وحده ، في فهمه لدينه ، وفي إقامة سلوكه عليه . . وصدق الشاعر العربي ، الذي ساءته تلك الحال فقال واصفاً لها :

كنّا أناساً على دين ففرقنا قرعُ الكلام وخط الجِدّ باللاعب
ما كان أغنى رجالاً ضل سعيهم عن الجدال وأغناهم عن الخطب

ثانياً : التعويل على هذا الفقه الذي تولد من تلك الخلافات المذهبية والسياسية .

تعوّيلاً تامّاً ، وربط المسلمين به ربطاً محكماً ، حتى لقد أصبح عند كثير من علماء المسلمين وفقهائهم أنه هو دستور الشريعة الإسلامية وترجمان كتابها الكريم . وكان من هذا أن أصبح أكثر العلماء والفقهاء متعلّقاً بهذا الفقه ، أكثر من التعلّق بكتاب الله . . فهم يرجعون إلى مقولات المذهب أو المذاهب الفقهية ، في كل أمر يعرض لهم ، وفي كل داعية من دواعي الحياة ، يُراد للدين أن يزنّها بميزانه ، ويقيسها بأحكامه ! فإذا خرج رأى ديني من محصل هذا النظر في أقوال المذاهب الفقهية خرج مذعوراً قلقاً ، يوج في أخلاط من الآراء المتناقضة ، والأقوال المتخالفة . . لا يكاد المرء يعرف منها أين وجهه وأين ظهره !

من أجل هذا « تميّعت » مسائل الدين ، وغامت في أنظار المسلمين ، فهم يُطيقون بها في إجلال وتقديس . . أشبه بإجلال المجهول وتقديسه . . لا يقوم في النفس مقاماً ثابتاً مطمئناً أبداً ، بل سرعان ما يذهب ذلك الشبح الباهت ، إذا طلع عليه بصيص من نور ، أو لمعة من سراب !

والقرآن ، هو مصدر الشريعة الإسلامية ، وهو دستورها القائم أبداً الدهر . . وقد استغنى به المسلمون في الصدر الأول للإسلام فأغناهم عن كل شيء ، لا يمدون أبصارهم إلى غيره ، ولا يأخذون لدينهم ودنياهم إلا بما توحى به إليهم كلماته ، وتوحى به إليهم آياته .

وطبيعي أن هذا القول الذي نقوله في كتاب الله ، نقوله أيضاً فيما ثبت من سنة الرسول الكريم القولية والفعلية . . إذ كانت السنة المطهرة تطبيقاً شارحاً للكتاب الكريم :

« وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (١) .

* * *

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

ولا يستقيم هذا القول الذى نقوله : بأن القرآن هو مصدر التشريع الإسلامى إلا بفهم سليم صحيح لكتاب الله ، ولا يكون هذا الفهم السليم الصحيح إلا عن طول تأمل وتدبر لكتاب الله ، وتذوق لأساليب بيانه ، ووقوف على بعض أسرارہ . من طول الدراسة للغة العربية ، وفقه أساليبها ..

وبهذا الفهم لكتاب الله يتحقق لنا أمران :

أولهما : تصوير مسائل الدين تصويراً واضحاً دقيقاً محدداً ، بلا ذبول ، ولا مغلطات .. وبهذا يعرف المسلم الحكم قاطعاً فيما أحلّ الله وما حرّم .

وثانيهما : جعل مسائل الدين واقعة فى مفهوم المسلمين ، واضحة فى تصورهم ، إن لم يكن ذلك لهم جميعاً ، فللجمهرة العظمى فيهم ، حيث تُعرض مسائل الدين فى كلمات يسيرة ، مفهومة ، لا تتجاوز آية كريمة من آيات الله ، فإن احتاجت إلى شرح ، فلا يتجاوز ذلك أكثر من بضع كلمات تزداد عليها ..

وبهذا يتصل المسلم اتصالاً مباشراً بدينه ، وبهذا يرى الأمور ويقسها بعينه هو ، لا بعينى غيره ، ممن يذهب به كل مذهب ، ويسلك به كل طريق ، فلا يدرى أين مذهبه ، ولا أين طريقه ! .. إنه - حينئذ - يكون هو الذى يقيم رأى لنفسه ، بما أراه الله فى كتابه .. وبهذا يعرف المسلم وجه طريقه فى الحياة ، ويستقيم عليه .

* * *

من أجل هذا - كان هذا البحث ، الذى لا يمدو أن يكون نظرات فى كتاب الله ، تتمثل فيها مفاهيم المسلمين للقرآن الكريم ، على اختلاف وجهات نظرهم ،

وتغائر أزمانهم ، وثقافتهم .. وقد استقبلنا هذه النظرات جميعها بنظر خاص لنا ، أجريناها معها ، وجعلناه في حسابها ، راجين أن يزداد به العلم الذى تستبين به معالم الطريق إلى كتاب الله ، وإلى تدبر آياته ، وفهمها فهما يقيم فى كيان المسلم إيمانا راسخا بها ، ووازعا قويا ملهما ، وإذا هو من كتاب الله ، فى حراسة أمينة ، وفى نهج مبصر .. فلا يضل ولا يشقى ..

* * *

وإذن ، فنحن الآن مقدمون على البحث فى كتاب الله ، متجهون إلى النظر فى أسرارهِ وعجائبهِ .. فما طريقنا إليه ؟ وما وجهة نظرنا فيه ؟

والحق أن طريقنا هنا متشعب المسالك ، مختلف آفاق النظر .. وإن كان كل مسلك ، يسلك بنا إليه ، وكل أفق ، يصلنا به ، ويدنينا منه .. إذ القرآن بالمقام الذى يجمع المسالك كلها ، ويعلو على الآفاق جميعها .. وهذا من شأنه أن يبسر أمرنا وأن يعسره معا .. فأمرنا مع القرآن سهل ميسور إذا نحن قصدنا قصداً واحداً منه ، وأخذنا سبيلاً واحداً إليه .. ولكن هذا الأمر مرهق أشد الإرهاق عسير غاية العسر ، إذا نحن مددنا البصر إلى كل أفق من آفاق القرآن ، وأطمعنا النفس فى كل خير من خيره .. هنالك يكون الجرى اللاهث ، والعدو الذى تتقطع به الأنفاس على مدى العمر .. ثم لا يكون ذلك إلا خطوة قصيرة فى هذا الكون العظيم الذى لا حدود له :

« قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لَنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » (١) .

ولهذا فإنه من الحق أن نقرر هنا - أنه ربما كان من عيوب هذا البحث ،

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩

أو من حسناته ، لا أدري — أنه لم يواجه الموضوع مواجهة مباشرة .. بل جعل يطوف حوله — مدانيًا ومباعدًا — تطوفا طويلا ، استنفد كثيرا من الوقت ، وكثيرا من الجهد ، الأمر الذى ربما يكون قد تحيف الموضوع الأصلي ، وأدخل الضيم عليه .. !

* * *

وأحسب أن الأمر يحتاج إلى إيضاح وتجلية .. إن الحقائق التى تضمها الفنون الجميلة — كفن القول ، والنحت ، والتمثيل ، والتصوير ، والموسيقى — هذه الحقائق لا تظهر على مسرح الحياة فى العمل الفنى واضحة المعالم والحدود ، كما هو الشأن فى الحقائق العلمية .. ولكنها أشبه بالأطياف ، تلوح وتختفى ، وتروح وتغدو ، وتقرب وتبعد .. لا يستطيع أحد أن يستولى عليها جملة ، ويضمها إليه جميعا .. وإنما غاية ما ينال منها لمحات خاطفة ، وإشارات لاهضة ، ومنطق هامس خافت ، لا بكاد يبين .

هكذا شأن الحقائق الفنية .. ليست حقائق خالصة ، وإنما هى حقائق وظلال .. أو هى ظلال تتحرك فى أحشائها حقائق ، كما تتحرك الأجنّة فى الأرحام !! .

فالذى يطلب الحقيقة الفنية لا يبلغ شيئا منها ، إلا إذا سار إليها من خلال هذه الظلال ، ببصيرة نافذة ، ووجدان يقظ ، وحس مرهف ... فتلك هى وسائله التى يتخطى بها مواقع الحقيقة ، وتلك هى الأصابع التى تشير له إلى مطاعها ، وترفع له بعض أستارها ، ليرى ما يستطيع أن يرى من مفاتها وسحرها !

* * *

والإعجاز القرآني حقيقة الحقائق ، ولبّ لبابها . .

قد أودعه الله سبحانه وتعالى في كلمات نُظمت نظم الدر المكنون ، فكانت
قلائد من البيان الرباني العربي !

فهل في مقدور إنسان يطلب هذه الحقيقة الكبرى أن يلقاها لقاءً مباشراً ،
وأن يهجم عليها بلا استئذان أو استئناس ؟

إن ذلك مقام مهيب جليل كريم . . تقوم دونه حجب وأستار ، من الرهبة
والروعة والجلال . . ! فإذا لم يكن الساعي إلى هذا المقام الكريم المهيب على شيء
غير قليل من الكياسة والتلطف ، والتأدب — لم ير إلا أبواباً مغلقة دونه ، ولم
يظفر بغير الرد والحرمان .

لهذا — ونحن نحرص على أن نطالع وجه الإعجاز ، وأن نملأ العين والقلب
منه — فقد جئنا إليه مترققين ، متلطفين ، بنسطة يد الضراعة والرجاء ، عسى أن
يفتح لنا ، فنقف حيث نرى ونشهد ، أو يؤذن لنا لدخول ، حيث نطمع ، ونزود !
وندع هذا الحجاز من القول ، إلى الحقيقة ، ونتجاوز هذا الضرب من التلميح
إلى التصريح . . فنقول :

إن لقاءنا مع إعجاز القرآن لن يكون إلا بعد أن ننظر نظرات كثيرة هنا
وهناك . . نظرات نرود بها الطريق ، ونستأنس بما يقع لنا في طريقنا من معالم
ومعارف . . حتى إذا دأبنا الغاية لم نجد وحشة ، ولم تنقطع بنا السبل !

وقد كان من تديبرنا في هذا أن جعلنا طريقنا إلى الإعجاز مراحل . . كل مرحلة
منها تعتبر مدخلاً إلى الإعجاز ، وطريقاً قاصداً إليه ، يديننا منه ، ويصلنا به !

وعلى هذا جاء الكتاب عدة مباحث . . لا مبحثاً واحداً . . وكان دخولنا
إليه من أكثر من باب ! مع مدخل ندخل به إلى تلك الأبواب . .

فأبواب الأول: كان : « نظرة في كلام الله .. وكلام الناس » وكان غايثنا من هذه النظرة الكشف عن معدن الكلام القرآنى .. ولم انفرد عن سائر الكلام ، مع أنه لم يخرج عن أنه كلام مما يجرى على ألسنة العباد ؟

وقد جعلنا هذا الباب فى صدر الكتاب ، ليرى القارئ الذى يصحبنا فى هذا البحث ، أى كلام هذا الذى جعله الله قرآنا ، ويشهد مطالع من وجوه هذا الكلام ، يأنس إليها قبل أن يلتقى مع وجوه الإعجاز فى القرآن .

وأما الباب الثانى : فقد جعلناه : « المعجزة .. فى زمانها ومكانها » .. إذ كان لابد من الكشف عن وجه الحكمة فى اختيار الجزيرة العربية موطناً للرسالة الإسلامية ، وتخير العرب ولسان العرب لحل هذه الرسالة .. ثم : هل هناك حكمة فى توقيت الرسالة بهذا الوقت الذى جاءت فيه ؟

كل هذا كان لابد من الإجابة عليه . ، فإذا استبان ذلك كان فيه شاهد حق على أن الرسالة ليست من تدير بشر ، ولا من تقدير إنسان ..

والباب الثالث : « آراء ومباحث .. فى الإعجاز » .. حيث عرضنا هنا وجوهاً من آراء الباحثين فى الإعجاز ، منذ بدأ التأليف فيه ، إلى اليوم ، وذلك لنتبين فى هذا العرض ، المفاهيم المختلفة التى وقعت فى قلوب الناس وعقولهم ، للقرآن الكريم ، وكيف كانت هذه المفاهيم خاضعة للمؤثرات الذاتية التى تقع للناس من أزمانهم ، وأحوالهم ، وثقافتهم .. فنحن نلتقى فى هذا الباب بوجوه كثيرة من الناس ، كما نلتقى بوجوه كثيرة مختلفة من الآراء ، والمفاهيم ، ومن مختلف هذه الوجوه وتلك المفاهيم ترسم لنا صورة للإعجاز القرآنى ، فى سيره مع الحياة ، خلال تلك القرون المتطاولة .

والباب الرابع : أخذ هذا العنوان : « شبهات ، ودعاوى ومفتريات » . .
إذ كان لابد بعد أن ندفع تلك الشبهات ، وندمغ تلك الدعاوى والمفتريات التي
أريد لها أن تغشى حى القرآن ، وأن تثير غباراً فى سمائه الصافية ، لتحجب
أضواءه ، وتعمى الطريق على أتباعه والمتجهين إليه . (وهذا ما تضمنه الكتاب
الأول من كتابي الإعجاز) .

أما الباب الخامس والسادس فقد جعلناها مجالا لنظرتنا الخاصة فى كتاب الله،
تلك النظرة التي نرود فيها الإعجاز ومواقعه ، على قدر طاقتنا ، وعلى ما يسمح به
فهمنا ، وذلك بعد أن عرضنا وجوه الإعجاز عند السلف ، ونظرتهم إليها ، وبعد أن
دفعنا تلك الشبهات والدعاوى والمفتريات التي أريد — عن قصد أو جهل —
إلصاقها بكتاب الله . .

وكان أحد البابين (الباب الخامس) نظراً مقصوراً على الإعجاز كما يبدو من
مطالعة الأحداث ، التي لا بست الدعوة ، وصاحبت نزول القرآن ، واستدعى الحال
والمقام نزول ما نزل من الآيات حسب كل حال ومقام . . فكان عنوان هذا
الباب : « الإعجاز . . فى منطق الأحداث » .

أما الباب الآخر وهو : (الباب السادس) فقد كان نظراً مواجهاً لمواقع
الإعجاز ، والاستدلال على تلك المواقع بما تحمل كلمات الكتاب الكريم وآياته ،
من دلائل ناطقة ، وحجج دامغة ، على أن هذا الكلام ليس مما يستطيعه البشر ،
ولو اجتمعوا له ، ولهذا كان عنوان هذا الباب : « مواقع الإعجاز . . فى القرآن » .

وأما الباب السابع والأخير فقد جعلناه استقبالا لما يتضوع من آيات الله
من نفحات زكية ، وما يترقرق على محياها الكريم من نور وأقى . . فما كان
فى وقوفنا فى هذا الباب معاناة تفكير ، وتحديق نظر ، وإنما كان وقوفا خاشعاً ،

متعبداً ، بين يدي آيات الكتاب الكريم ، وكان ماسطره القلم في هذا الموقف
كلمات مهزورة مترنحة ، أشبه بما يسجله قلم المرصد ، لهزة ، أو زلزلة ، تقع في محيطه !!
ولهذا ، فإنك ترى في هذا الباب : « مع مواقع الإعجاز في القرآن » قما
شاحخة ، ومنحدرات عميقة من مواقع الرأى والنظر . حيث كانت النفس في نشوة
غامرة ، أخرجتها عن التماسك والتوازن في كثير من الأحوال . . فخذ لنفسك
حذرهما ، وأنت تدخل هذا الباب ، وتنظر فيما وراءه . .

هذا ، ولم أحدثك عن « المدخل » الذى تدخل به إلى أبواب الكتاب . .
فها هو ذا بين يديك ، وهو على ما به من طول ، فإنه لا يعدو أن يكون طَرَقات
خفيفة ، تستفتح بها الباب الذى يصلك بكتاب الله ، ويهيى كيالك للوقوف على
موارده . .

وأما الخاتمة فإنها مقطع الرأى عندنا فيما ينبغى أن يكون عليه متجه أنظار
للمسلمين من كتاب الله ، وكيف تقوم السبل التى تصلهم به ، وتدينهم منه ، لينالوا
من خيره ، وليطعموا من ثمره . .

نسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينزلنا به منازل
الرضى والقبول عنده ، فضلاً منه ومثوبة ، « والله عنده حسن الثواب » .

* * *

ملحوظة : لم نشأ أن نضع مقدمة جديدة للطبعة الثانية من هذا الكتاب ،
اكتفاءً بمقدمة الطبعة الأولى ، بعد أن أدخلنا عليها شيئاً يسيراً من التعديل . .
سائلين الله تعالى عوناً وتوفيقاً ، وأن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن
ينزله منازل القبول .

المؤلف

عبد الكريم الخطيب

المحرم سنة ١٣٩٣ هـ
فبراير سنة ١٩٧٣ م } القاهرة

مدخل إلى البحث

لأول مرة أمسك بالقلم ؛ فلا أجد شيئاً من تلك الخواطر المضطربة القلقة ،
التي كانت تلقاني كلما هممت بالكتابة في موضوع يُصور في كتاب ، ويعرض
على الناس . . . ذلك أن هذا الموقف للمؤان - فيما يبدو لي - هو امتحان قاس ،
يعرض فيه المرء عقله على عقول الناس جميعاً ، وكأنه يدعوهم بهذا إلى أن يقولوا
رأيهم فيه ، وأن يضعوه موضعه من العقول !

والناس هم الناس ! !

لا ينظرون إلى الحسنات بقدر ما ينظرون إلى السيئات !

ولا يلتبسون وجه العذر ، بقدر ما يقيمون أدلة الاتهام . . . !

داء قديم . . . !

ابتلى به كل من وقع بين أيدي الناس ، بشيء من قوله أو عمله . . . !

وويل للشجى من الخلى . كما يقولون !

إن صاحب القول أو العمل ، يقول ما يقول ، وهو مكدود بما يقول ، معني بما
يعمل . . . أما الذي ينظر فيما قيل أو عمل ، فإنما ينظر بقلب جميع ، ونفس جميع ،
فيصرف ذلك كله في ذوق ما على المائدة من طعام ! ثم لا يتكلف لذلك أكثر
من أن يقول : هذا مُنَّ ، وهذا حاذق ، وهذا حريص ، وهذا مُزَّ . . . إلى آخر
ما يقع لمذاقه من طعوم ! وشتان بين من يعد المائدة ويحلب لها ما وسع جهده ،
وبين من يجلس ليخضم ويقضم ، ويتنقل بين ألوان الطعام ، كما فرغ من لون ،
زوى وجهه عنه ، وودعه وداعاً غير كريم ! !

أقول : إن هذه لأول مرة أمسك فيها بالقلم لأكتب في « إيجاز القرآن » ،
ثم لا أحاسب نفسي هذا الحساب العسير ولا آخذها بشيء من الحذر والخوف ،
مما قد يقع من خطأ ، أو يكون من زلل ، كما كان ذلك شأنى فيما كتبت من كتب ،
وما أعددت من دراسات .

وكدت أنكر نفسى ، وأنكر عليها هذا الاطمئنان العجيب ، إزاء هذا
الموقف الرهيب العظيم !!
« القرآن » و « إيجاز القرآن » ؟ ..

ثم يلقاها قلم كان يرجف إذا هو وقف أمام موضوعات لا وزن لها ، إذا هي
ووزنت بالكتاب الكريم ، ونظر إليها فى مجاله ؟
أهذا ! وتسكن النفس هذا السكون ، فلا يكون لها اضطراب ، ولا للقلب
وجيف ؟

ما هذا ؟ أين نفسى ؟ بل أين حذرى وتخوفى ؟
إنه إن لم يصحبنى الحذر والإشفاق فى هذا الموقف العظيم الجليل فأين
يصحبانى ؟ وأين للإنسان ما يحذر ويخاف ؟

اطمئنان عجيب .. غير متوقع أبداً فى هذا الموقف الجليل المهيب .. !
ولكن هذا سر من أسرار القرآن .. وكفى فى القرآن من أسرار وأسرار !!
القرآن الكريم بحر لا ساحل له .. ولكنه - مع ذلك - مأنوس أبداً
بأنفاس الهدى وأضواء الحق ، ومعالم الخير .. فحيث كنت معه ، فأنت مع وجودك
الحق .. مع فطرتك المندسة فى كيانتك .. مع الوجود كله ، وما فيه من حق ،
وخير ونور ! وهل يجد المرء أمام البحر المحيط ، وهو واقف على ساحله ، إلا جلالاً
وروعة وأنساً ؟ وأين البحر المحيط من كلمة من كلمات الله ، أو آية من آياته ؟

فأينما تول فشمّ النور والهدى ، وشمّ البر والرحمة . فأين يكون خوف ؟ ومن أين يطلع ما يخيف ؟ وبين يدي الإنسان ومن خلفه وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وفي ظاهره وباطنه هذه المعالم المنصوبة ، وتلك المنارات المضئية ، التي يجدها كل من يصحب القرآن الكريم إلى أى مدى . . بعيد أو قريب . . فأين يكون خوف ، ومن أين يطلع ما يخيف ؟ .

سئل بعض الأعراب عن النبيّ الكريم : بم عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : « ما أمرَ بشيء ، فقال العقل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقال العقل : ليته لم ينه عنه » . . فهذا التجاوب التام المطلق بين معاني القرآن والفطرة الإنسانية هو مدخل عتيد من مداخل القرآن إلى القلوب ، وسلطانة على النفوس ، وهو داعية من الدواعي الهائقة إلى شغف النفوس به ، ومهوى الأفتدة إليه . . وهو ما دعا ذلك الأعرابي إلى الاطمئنان إلى الرسول ، وإلى الإيمان به ، وبكتابه الذي بين يديه ، إذ وجد صدق الرسول الكريم في صدق هذا الكتاب ، وفي تطابقه مع الفطرة ، وتجاوبه مع الحياة ، في أعدل صورها ، وأجمل وجوها .

ولعلّ هذا الذي انكشف لى من القرآن ، في كل مرة كنت أتلو فيها آياته ، أو أستمع إليها على مدى عشرات من السنين — لعل هذا هو الذي ملأ قلبي طمأنينة ، وأفاض على نفسي ثقة ورضى ، وأنا أقدم على هذه الدراسة التي أريد أن أطوف بها في حنى القرآن ، وأجنى من قطوفه الدانية ، وثماره الطيبة المباركة . . ! فما أن دنوت منها حتى زالت من نفسي كل وحشة ، وزايلها كل خوف ، وبدأ لي الطريق واضحاً ذلولاً . . تحف بي فيه مجاني الخير من كل جهة ، وتشرق علىّ فيه أضواء الهدى من كل ناحية . . ولعل هذا مما تحمل الآية الكريمة :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ^(١) » .

لعل هذا بعض ما تحمل تلك الآية الكريمة من معنى يجده كل من يتصل بالقرآن ، أويذو منه . . فهذا اليسر الذى جعله الله سبحانه سمة من سمات القرآن ، وجعل اتصال الناس به من قريب . . بلا معاناة ، ولا مشقة - هذا التيسير هو الصفة البارزة فى أسلوب القرآن ، وفى معانيه ، وأحكامه ، التى جعلها هذا الأسلوب السمع السهل اليسر ، الذى يخاطب فى الإنسان فطرته السليمة ، ووجدانه الصحيح ، المعافى من الأسقام والعدل . . فمن كان على السلامة فى فطرته ، وعلى الصفاء والنقاء فى وجدانه ، التقى مع كتاب الله ، لقاءه مع وجوده الحق ، وذاته الكاملة . .

فالقرآن الكريم كله يسر ، لا عسر فيه . . قريب من كل نفس ، دان من كل قلب ، وعقل . . ليس فيه ما فى العلوم والفنون من مستغلات ، ومصطلحات ، لا يعرفها إلا أربابها ، ولا يعلمها إلا من راض نفسه على تعلمها ، وتناولها من أهلها ، وأصحاب الراى فيها .

دمع أن الناس فى القرآن على حظوظهم منه ، كل حسب ما عنده من استعداد عقلى وروحى ، للتلقى عنه ، والأخذ منه - مع هذا فإن كل إنسان له نصيبه منه ، قل أو كثر . . فما يرد على القرآن وارد ، بقلب سليم ، ونية صادقة ، إلا أصاب منه خيرا ، وتزود منه بزا ، طيب كريم ، عتيد . . وذلك شأن الخير العام الذى تتعلق به حياة الأحياء . . لا يجب أحد عنه ، ولا يجرم حى منه . . وإن اختلفت حظوظهم منه وتباينت درجات انتفاعهم به .

تخير أية آية من آيات الكتاب الكريم ، أو أية سورة من سورده ، واقرأها

على عامة الناس ، ولتكن هذه الآية أو تلك السورة ، مما يبدو فيها علو عن الأفهام ، والبعد عن مدركات العامة — فإنك ستجد لكل إنسان فهماً لما تقرأ عليه من كتاب الله ، وهو فهم يقع في قلوب المستمعين قبل أن يدور في عقولهم ، وهو فهم متقارب متساوق ، لا يختلف في المضمون والمحتوى ، وإن اختلف في الصورة والشكل . .

هذا الشعور الذى وقع فى نفسى عندما صحت النية على أن ألتقى بالقرآن دارساً ، بعد أن التقيت به لقاءً طويلاً قارئاً ومستمعاً ، ومتدبراً — هذا الشعور من الرضى والاطمئنان ، يسنده شعور آخر ، هو شعور الإلف ، وطول الصحبة لكتاب الله ، أكثر من أربعين عاماً — فهذه الصحبة الطويلة التى اتصلت بينى وبين القرآن وعلومه ، كان لها أثر كبير فى قيام هذا الإحساس الرضى المطمئن ، الذى أجده الآن وأنا بين يدى الكتاب الكريم ، أمد يداً قصيرة إلى قطوفه الدانية وثماره الكريمة الطيبة ، لعل أصيب من خير ، وأقطف من ثماره !

وإنها لصحبة طويلة ، لجناب خصب كريم ، ينبعث من يدنو منه ، أو يتصل به ، نفحات طيبة ، ينفذ شذاها إلى مسارب النفس ، وخلجات الضمير .

وعلى هذا ، فإنى لست أخشى شيئاً من أمر القرآن ، ولا أخاف العثار من جهته ، فأنا على ثقة من أنى فى ضمان يد قوية أمينة . . هى يد القرآن نفسه . . تمسك بى إن ضعفت ، وتُقِيلْنى إن عثرت ، وترُدْنى إليها إن شردت . . !

« إنه لقرآن كريم . . » !

ولكن الذى أخشاه هو أن يقصُر قلمي عن تصوير تلك المشاعر التى أحلها من القرآن ، وتلك المشاهد التى تشبع فى النفس جلالاً وخشوعاً وإيماناً ، وتبعث فى كل خالجة منى رضى وروحاً وتسليماً . . ! والقلم أياً كانت براعته ،

ان يستطيع حمل هذه المشاعر ، ولا الوصول إليها ، على تلك الصورة التي أجدّها وأشعر بها !

ذلك وحده هو ما أخشاه من أمر القرآن ، ومن تقصير في حقه ، ومن عجز عما يجب أن يؤدّى له ، في هذا المقام .

وإذا كان الأمر كذلك -- فإني لن أقدم في هذه الدراسة للقرآن صورة كاشفة لبلاغته ، مصورة لجلاله وعظمته ، وإنما الذي يمكن أن أقوم به أو يقوم به غيري في هذا المقام — هو وضع ما يشبه « اللافئات » التي توضع على رؤوس الطرق ، ليكون منها معالم تدل على اتجاه الطريق القاصد القويم ، لمن يريد أن يتخذ له طريقاً إلى كتاب الله : وأن يطلب وجهاً للاتصال به . . وأما من أراد أن يكون له في القرآن نظر ، فليس تغنيه أية دراسة يقدمها له غيره ، وليس ينفعه أى نظر ينظر به أحد سواه ، وإنما سبيله — إن أراد الخير — أن يتجه إلى القرآن بنفسه ، وأن يعيش في ظلاله بوجوده ، وأن يفتح له عقله ، ويفرغ له قلبه ، فذلك هو الذي يدنى الإنسان مما في القرآن من خير ، ويرزقه مما فيه من رزق .

أما الذي يجعل نظره وراء نظر غيره في كتاب الله ، فإنه قد يفتح له ذلك طريقاً أو طرقاً إلى القرآن ، وقد يجد في ذلك رائداً يرود له معالم الخير منه ، ومشيراً بشير له إلى مواقع الهدى فيه . . ولكن كل ذلك ان يغنى عنه النظر الذاتي في القرآن ، نظراً مباشراً ، ولن ينتفع الإنسان منه بأكثر مما ينتفع بوصف الشمس دون أن يراها ، أو بالحديث عن البحر دون أن تكون له غدوة أو روحه إليه ، أو بالإشارة إلى الروض دون أن يرتاده ، ويشتم عبيره ، ويقطف من ثمره !

إن الذي ينظر في القرآن بنظر غيره أشبه بمن يعصب عينيه ، ثم يحيا في الحياة

بمعنى من يقوده ، ويغذو به ويروح ، غير مبصر شيئاً مما يفيض به هذا الوجود من آيات مبصرات !

والاتصال بالقرآن سهل ميسور . . ليس من دونه حجاب ! فما على من يريد أن يكون مع القرآن إلا أن يحمل بين يديه كتاب الله ، وأن يفتح أية صفحة من المصحف الكريم ، فإذا هو مع كلام الله ، وبين يدي آياته المطهرة . . . فإن كان قارئاً قرأ ماشاء الله أن يقرأ ، وإن لم يكن قارئاً أقرأ غيره . فسمع ما يقرأ ، وإذا لم يجد من يقرأ له حضر مجلساً من مجالس القرآن فكان من المستمعين الواعين . . إن الأمر سهل ميسور . .

« ولقد يسرنا القرآن للذِّكر فهل من مُدَّكر ^(١) » .

فالقرآن ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال الدين وحدهم ، وليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون الناس ، وإما هو كتاب رب الناس للناس جميعاً . . كلُّ يأخذ منه على قدر ما يبلغ جهده ، ويتسع له عقله وقلبه : . . ! « يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور » .

ولكن القرآن مع هذا اليسر ومع هذه الساحة - لا يسمح بخيره إلا لمن كان له قلب حاضر معه . . يتدبر به آياته ، ويخشع لعظاته ، وكان من الذين قال الله فيهم :

« إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ^(٢) » .

أما من يقرأ القرآن بلسان بينه وبين قلبه حجاب ، أو يستمع إليه بأذن مضروب بينها وبين القلب بسور له باب ، فإنه لن ينتفع من القرآن بشيء ، ولن يبلغ من خيره إلا كباسط كفيه إلى الماء ليملغ فاه ، وما هو بهالغ !

إن القرآن مع علوه ذلك العلو السامق البعيد ، هو قريب المتال ، سهل
المورد . . ولكن لمن جاء إليه بأذن واعية ، وقلب سليم ، أشبه بالشمس تملأ
العيون الناظرة إليها ضياءً ، على حين تمتلئ العيون المغلقة دونها ظلاماً مطبقاً !
يقول صاحب البرهان متحدثاً عن أسلوب القرآن :

« فأخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجمل صورة ، تشتمل على أدق
دقيق ، ليفهم العامة من جليله ما يقنعهم ويأزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها
ما يوفي على ما أدركه فهم الدّهاء .

« وعلى هذا حُمل الحديث المروى : « إن لكل آية ظهراً وبطناً ، ولكل
حرف حداً ومطاعاً » .

« ومن هذا الوجه ، كل من كان حظه من العلوم أوفر ، كان نصيبه من علوم
القرآن أكثر » (١) .

وإذن فقد وجب على المسلم بعد أن يوجه وجهه خالصاً لكتاب الله ، أن يُعد
نفسه للقاء القرآن إعداداً علمياً بكل ما يدخل تحت دائرة العلم ، حتى يجد العقل
المدرّك لآيات الله ، والقلب المستضيء بنور الحق الذي يهdy إلى مواقع الحق من
كلمات الله .

« وتلك الأمثال نضربُ بها للناس ، وما يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » (٢) .

* * *

وعصر العلم الذي نعيش فيه اليوم ، يهيء لدارس القرآن سبلاً كثيرة إلى اجتناء
محصول وفير من هذا الخير الذي لا ينفد أبداً . .

(١) البرهان جزء ٢ - ص ٢٥ . (٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .

إن العلم هو الذى يجعل لنا نظراً كاشفاً لبعض مافى آيات القرآن من روائع وعجائب . . والعلم هو الذى يعين على فهم بعض المستور من أسرار الكتاب التى لا تنفذ أبداً . . وما أودع فيه من علم وحكمة سيظلان بكراً على مدى الأزمان إلى يوم الدين . .

فإننا على طول صحبتنا - نحن المسلمين - للقرآن الكريم هذه القرون الطويلة، لم نأخذ منه إلا كما يحسو الطير من ماء النيل . . والذى أخذناه من القرآن - على قلته - لم ننتفع به انتفاعاً كاملاً ، ولم نتمثله فى قلوبنا وعقولنا تمثلاً تاماً . . كما كان سلفنا الأول ينتفع بما يأخذ منه ، من قليل أو كثير ، انتفاعاً كاملاً . . فليس المهم هو الكم الذى نأخذ ، وإنما المهم هو أن نحسن الانتفاع بما نأخذ ، ولو كان قليلاً ، بل وأقل من القليل !

والعلم هو الذى يمكن لآيات القرآن فى قلوبنا ، ويفسح لها مكاناً مكيناً فى عقولنا ، فتخالط مشاعرنا ، وتمتزج بوجداننا ، وتقوم على ضبط نوازعنا ، واستقامة سلوكنا .

العلم هو الذى يخدم قضية الإسلام ، بما يكشف عن جوهر هذا الدين ، وما حمل كتابه الكريم من آيات بينات ، تتهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . « وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » ^(١) « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » ^(٢) . . حيث تشرق حقائق الوجود على ضوء القرآن ، وتزداد وضوحاً وبياناً .

إن العلم يلتقى مع القرآن لقاء الماء ، يدفع به السيل إلى صدر المحيط فيذوب

(٢) سورة الإسراء : آية ٩ .

(١) سورة الإسراء : آية ٨٢ .

فيه ويصبح بعض مائه ، إذ ليس العلم كله — ما عرف الناس منه وما سيعرفون — إلا قطرة أو قطرات من هذا البحر الزخار .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » (١) .

فإذا انكشف للناس في الحياة ضوء من أضواء العلم ، فهم من بعض ما في القرآن من علم ، إذ كان مجتمع آيات الله ومكون علمه . .

« إِنَّهُ أَقْرَبُ أَنْ كَرِّمُ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ؛ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ؛ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٢) .

وإذا بدت للناس آية من آيات الوجود ، أو انكشف لهم سر من أسرار الكون كان ذلك عينا جديدة من عيون الحق ، تفتح على كتاب الله ، ويرى مصداقها فيه . . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في شأن المعاندين المكذابين بهذا الكتاب الكريم :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ . . مَنْ أَضَلُّ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ أَنْفَهُ الْحَقُّ . . » (٣) .

فالأيات التي تنكشف للناس في هذا الوجود ، أو التي تبدو لهم ماثلة في أنفسهم ، مما يطالعهم العلم عليها — هذه الآيات هي التي تفتح الطريق إلى قولة الحق في كتاب الله ، وهي التي تقضي على هذا السفه والجهل الذي يحجب عن العيون ضوء هذا

(٢) سورة الواقعة : ٧٨ - ٨٠

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩

(٣) سورة فصلت : آية ٦٢ ، ٥٣

الصباح المبين ، وعندئذ يرى الناس أن هذا القرآن هو الحق من عند الله ، كما رأوا فيما رأوا من آيات الوجود وأسرار الكون . . فكشف لهم ذلك عن قدرة الله وعلمه وحكمته . . وهذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة في وصفها للقرآن الكريم :

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » (١) .

فالقرآن الكريم آيات بينات ، أى واضحات مشرقات ، في صدور الذين أوتوا العلم . . أما من لم يكن له حظ من علم ، فلا تقع آيات القرآن الكريم من قلبه هذا الموقع الواضح البين . .

وفي آية أخرى يقول الله تعالى في صفة القرآن أيضاً :

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ » (٢) . ويقول الله سبحانه : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (٣) .

فالذين أوتوا العلم ، والذين لهم قلوب وألباب ، هم الذين تنكشف لهم آيات الكتاب الكريم ، ويرون أنها الحق الذي ليس وراءه حق .

إن العلم — كما قلنا — هو الذي يخدم قصية القرآن . . إذ هو الذي يكثر من القوى المبصرة التي ترى ما فيه من حكم وأمرار ، وهو الذي يحشد له العقول

(٣) سورة الحج : آية ٥٤ .

(١) سورة العنكبوت : ٤٩ .

(٢) سورة الرعد : آية ١٩ .

المستنيرة التي ترى بعض جلاله ، وتشهد الروائع من آياته ، . وفي هذا يتجلى وجه جديد من وجوه الإعجاز في القرآن ، وهو خلوده على الزمن ، مع احتفاظه بمكانه من السمو والهيمنة على كل ما تباهه القول من مدركات ، وما تلده الحياة من أسرار . . !

* * *

ولا نحسن أننا نذهب بهذا مذهب الذين يتعسفون طريق الفهم لكتاب الله ، ويشطحون في تأويل آياته ، ليأخذوا منها حجة للقرآن ، على أنه حوى كل شيء ، واشتمل على جميع المعارف والعلوم ، فهم لهذا يقتدرون المعاني اقتساراً ، ويخرجون بالألفاظ عن مدلولاتها ، بل ويحرفون الكلام عن مواضعه ، في أكثر أحوالهم ومحاولاتهم ، وهذه بضاعة رخيصة لا يليق بجلال القرآن أن تستجلب له ، وتحسب عليه !

فنحن - وإن قلنا بأن القرآن قد حملت آياته الكريمة المطهرة أسراراً عجباً ، تنكشف حالاً بعد حال ، كما جاء إليها الناس بمزيد من العلم والمعرفة - نحن وإن قلنا هذا ، فإننا لا نفرض القرآن على المخترعات العلمية ولا الآيات الكونية ، التي تنكشف للناس زمناً بعد زمن ، ثم نجهد الجهد كله في استجلابها للقرآن الكريم ، وضمها إليه ، وجعل مقرراتها وجهاً من وجوه تفسيره - لا ، إننا لن نسلك هذا الطريق أبداً ، فالقرآن في غنى واسع عن كل هذه المعروضات ، وفي ثراء عريض يستغنى به عن تلك المدعيات والتخرصات ، فمن السفه والجهل أن يستجدي له هذا الزبد الذي يذهب جُفاء !

وإنما الذي يكون منا في نظرنا إلى القرآن الكريم من هذا الجانب ، هو أن ننظر في كتاب الله بما أَرانا العلم من آيات جديدة في هذا الوجود ، وبما كشف (٣ - إعجاز القرآن)

لنا من حقائق في هذا السكون الرحيب ، فإذا انكشف لنا فهم جديد لآية من آيات الكتاب الكريم ؛ في آفاق هذه النظرة وعلى ضوءها ، أخذنا به وجعلناه وجهاً من وجوه الفهم للكتاب المجيد . . وإلا أمسكنا عن أن نقول قولاً . . فقد يحىء من هو أحد نظراً ، وأدق فهماً ، فيرى مالا نرى .. ويفهم عن الكتاب الكريم مالا نفهم . !

وشتان بين طريقنا هذا الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو أننا لا نفترض سلفاً أن في القرآن مفهوماً أو منطقاً لكذا أو كذا من الحقائق العلمية أو النظريات المذهبية ، ثم نعرض آيات الكتاب الكريم عليها ، ونتأول لها ونشتط في التأويل نحن لا نفعل هذا ، وشتان بين ذلك الذي نأخذ به موقفنا من آيات الله ، وبين أصحاب الطريق الآخر الذين يرصدون سير الحياة ، وكألاح لهم جديد ، في أي جانب من جوانبها ، وعلى أي أفق من آفاقها ردوه إلى القرآن ، وأقحموه عليه إقحاماً ، سواء أكان هذا الجديد قد أصبح حقاً مسأماً به ، وواقعاً من وقائع الحياة ، أم كان مجرد لمحة بارقة لا تلبث أن تزول ، أو فرضاً محتملاً قد لا يقع أبداً . وسواء أكان هؤلاء القوم عندهم الاستعداد العقلي والنفسى للمقابلة والموازنة أم لم يكن ، لأنهم هم كنه هو أنه مادام القرآن قد حوى كل شيء فلا بد أن يكون كل شيء تلده الحياة مضافاً للقرآن ، فيحملونه إليه ، ويلحقونه به ، في أي مكان تمتد إليه أيديهم ، من غير وزن له ، ومن غير بصر بالمكان الذي يرد إليه . . شتان بين طريقنا وهذا الطريق !

هذا ، وقد يكون لقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد حوى أسرار هذا الوجود ، وضمَّ على حقائق هذا السكون ؛ فكيف غاب ذلك كله أو بعضه عن

سلف هذه الأمة ؟ وكيف لم ينكشف لهم وجه هذه الحقائق وتلك الأسرار ؟ وهم الذين تلقوا القرآن غصاً ، تقطر آياته بأنوار السماء ، كيف ؟ وهم قد كانوا يأخذون هذه الكلمات المنزلة ، من أظھر فم ؟ كيف غاب عنهم ما فيه من هذه الحقائق والأسرار ؟ وإذا كانت تلك الحقائق والأسرار قد انكشفت لهم ، فلماذا لم ينتفعوا بها في الحياة ؟ ولماذا لم يقيموا منها ما أقام العلم الحديث من معالم المدنية والحضارة ؟ وكيف لم يحطموا الذرة ، ولم يتخذوا المراكب إلى الكواكب ؟

وجوابنا على هذا من وجهين :

فأولاً : أن القرآن الكريم لم يكن كتاباً علمياً يكشف أسرار الطبيعة ، ويضع مفاتيحها في أيدي أتباعه . . وإنما هو كتاب عقيدة وشريعة ، يتجه أول ما يتجه إلى ضمير الإنسان ، ليصحح صلته بخالقه ، ثم يقيم لهذه الصلة من التشريع ما يمسك بها سليمة قوية في كيانه . . فإذا كان ذلك صحح صلة الإنسان ، بالله ، وبالإنسانية وبالكون ، ووضع لذلك من التشريعات ما يقيم هذه الصلة على أساس من الحق والعدل والإحسان . .

تلك هي المهمة الأولى للقرآن الكريم ، وقد انكشفت هذه الغاية من القرآن الكريم للمسلمين في الصدر الأول للإسلام انكشافاً تاماً ، فأخذوا حفظهم كاملاً منها على نحو لم يكن للخلف من بعدهم أن يستقيم فيه على خطاهم ، أو يبلغ منه بعض مبالغهم منه ، وعلى وجه لم تشهد الحياة مثيلاً له ، في سمو الإنسان ، وعظمته ، واستعلائه على كل ضعف بشري ! فكان منه هذا المجتمع المثالي الذي صحب الرسول الكريم ، وصحب الصدر الأول من الخلافة الراشدة .

وثانياً : إذا كانت مهمة القرآن الأولى هي ما أشرنا إليه من قبل ، فإن

ذلك لا يمنع أن يكون وراء هذه المهمة غايات أخرى يمكن أن يجدها من يطلبها . .

فالشمس مثلاً، هي آية هذا الضوء الذي يغمر الوجود ، وغاية ما يرى عامة الناس منها أنها تكشف لهم معالم الطريق في الحياة ، وتجعل الليل نهارة . . فإذا جاء بعد هذا من الناس من يستولد من ضوءها طاقات حرارية تدار بها المعامل والمصانع ، فإن ذلك لا ينقص من قيمتها في أعين الناس ، ولا يعطل وظيفتها التي صحبت الناس وصحبوها عليها . .

هذا ، ويبدو هنا سؤال آخر هو :

إذا كانت الأسرار والحقائق التي يقال إن القرآن قد ضمّ عليها لا تنكشف إلا بعد أن يكشف العلم عنها — فما فائدة اشمال القرآن عليها ، وحمله لها ، وبقائها مستورة فيه خلال هذه القرون الطويلة ، حتى يحىء العلم الحديث فيتحدث عنها ، ويكشف عن وجهها ؟

والجواب على هذا من وجهين أيضاً :

فأولاً : أن الأسرار والحقائق التي نقول إن القرآن قد اشمتمل عليها — لا يقصد بها الأسرار والحقائق العلمية ، وإنما يقصد بها أولاً وبالذات الحقائق النفسية والروحية ، التي تُعَلَى من قدر الإنسان ، وتدفع بإنسانيته إلى السكّال ، وهذه الحقائق يمكن أن يجدها في القرآن علماء النفس وعلماء الاجتماع والأخلاق ، حيث يعتبر القرآن المصدر الصحيح لها ، وقد انكشفت هذه الحقائق للمسلمين في المصدر الأول انكشافاً مشرقاً ، فعرفوها معرفة مستقيمة ، وعاشوا فيها حياتهم ، وأسلموا لها وجودهم .

ولانياً : ماذا يضير القرآن إذا اشمتمل في كيانها على دلائل إعجازه ، بما

أودع فيه الحق سبحانه ، من أسرار وحقائق ، تحدث الناس عن آياته ، في كل عصر وفي كل جيل ؟

وبذلك ، يخلد إعجازه ، ويتجدد على الزمن . . لا شيء يضير القرآن من هذا ولا مانع يمنع من أن يشتمل في كيانه على كثير من الأسرار التي لا تنتهى . إذ أنه رُوح من روح الله . . تتبدى آياته كل حين ، وتلتقى بعقول الناس في كل مستوى . . على اختلاف أجيالهم ، وأمصارهم ، وأحوالهم .

وعلى أى ^ط فإن القرآن في إعجازه إلى الحد الذى يقيم الحجة على صدقه ، وصدق النبي الذى جاء به ، لا يحتاج إلى عقول العلماء وبصائر الفلاسفة بقدر ما يحتاج إلى فطر سليمة ، وإنسانية مستقيمة على هذه الفطرة ، فتجدد في القرآن روح الحق تجذبها إليه ، وتخلطها به ، وإذا هي وقد خشعت له ، وخرت ساجدة بين يديه . . !

فكم من الناس من لم يفهموا المرامي البعيدة لآيات الكتاب الكريم ، ومن لا يتجاوزون ما وراء مدلول الكلمات في لغة التخاطب . . ومع هذا فإن روح القرآن تنفذ إلى أعماقهم ، وتبلغ الصميم من قلوبهم . . بل وأكثر من هذا ، فإن كثيرا ممن يستمعون إلى القرآن من أهل الكتاب . تأخذهم لسماعه روعة وتعشاهم لتلاوته خشية . . وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة في قوله تعالى :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذْ سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا

آمناً فاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَا نَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ » (١) .

ولكن إذا كان — بعد هذا — في الناس ذو البصر النافذ ، والبصيرة الملهمة ، والعقل الحصيف الذكي — فإن لكل هذه القوى المدركة في الإنسان مجالاً فسيحاً في القرآن ، فلا ينتهي نظره في القرآن عند أفق ، ولا يرتد عقله منه عند نهاية مطاف ، ولا تستولى مدركاته على ماتصوّل وتجوّل فيه ، بل إن المدركات الإنسانية كلها تأخذ ما تأخذ من كتاب الله ، ثم تجد نفسها أخيراً أنها ما زالت على الشاطئ ، تغترف غرقات من هذا البحر العظيم . . . ومن أجل هذا كان الوصف الذي وصف به الرسول الكريم القرآن ، في قوله ، صلى الله عليه وسلم ، « لا يخلق على الرد » — أي لا يبلى على كثرة ترداد تلاوته — كان هذا الوصف ملازماً للقرآن لا ينفك عنه أبداً . . . وكان لزومه على هذا الوجه القائم أبداً الدهر أبليغ شهادة على صدق الرسول ، والكتاب الذي شهد لهذا الرسول .

نقول إن اشتمال القرآن على ما اشتمل من حقائق وأسرار ، هو إعجاز من إعجاز القرآن ، وهو آية خلود معجزته على الزمن . . . حيث يلتقي بالعقول كلها ، في كل زمان ومكان ، فتجد فيه زادا ومرعاها . . . وحيث تظل العقول دائماً متطلعة إليه ، ناظرة فيه ، آخذة منه . . . كما جاءت إليه أصابت خيراً ، ووجدت عنده رزقا !

ونقول أيضاً : إن هذه الحقائق ، وتلك الأسرار لا تجيء من خارج القرآن ثم تحمل إليه ، فتكون أشبه بالأجسام الغريبة التي تعلق بالماء لتكدر صفوه ، وربما أفسدت طبيعته . . . وإنما تلتبس هذه الحقائق وتلك الأسرار من آيات الكتاب

الكريم ، من غير تعسف في التأويل ، ولا التواء بالمعنى إلى غير ما أُريد له . .
وبهذا يسلم القرآن من مناقضات النظريات التي يكشفها العلم ، ثم لا تخرج إلى الحياة
مرة أخرى .

أما الحقائق التي تؤخذ من القرآن على حسب ما تعطى آياته للفهم السليم ،
والإدراك الرشيد، فإنها ستظل ثابتة قائمة على وجه واحد ، هو وجه الحق ، الذي
لا يختلف أبداً ، والذي يزول الوجود كله ، وهو لا يزول ، وتتحول الدنيا وهو
ثابت لا يتحول ولا يتبدل .

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ، (١) .

هذا ، وإن داء التحكك بالقرآن الكريم ، أو عرضه في معرض المناظرة
للعلم ومعطياته الناضجة وغير الناضجة — هذا الداء ، داء قديم ، أصيب به كثير
من الناس ، فأنحرفت نظراتهم عن كتاب الله ، ونظروا إليه بعيون حواء ،
تذهب بآياته مذاهب مختلطة مضطربة ، إلى مقررات العلوم والفنون ، فتخرجها عليها ،
وتلوى زمامها نحوها ، في جرأة لا يصحبها وقار لجلال آيات الله ، وقدس
كلماته !

وقد وقف كثير من العلماء في وجه هذه المذاهب التي تخاطب بين حقائق
القرآن ، ومقررات العلم . . وأنكروا على أصحابها أن يضعوا آيات الكتاب
الكريم هذا الوضع المقلوب ، وأن يقرءوها من الشمال إلى اليمين ! . . برون ،

أو يسمعون أن مخترعاً علمياً قد ظهر ، أو ظاهرة من ظاهرات الطبيعة قد انكشفت ، فيديرون القرآن الكريم إليها ، ويخرّجون آياته على مفهومها ، ويفسرونها كما تفسر الرؤى والأحلام ! .

وكان الإمام الشاطبي^(١) — رضى الله عنه — ممن كشفوا عن هذا الداء ، ونبهوا إليه ، وحذروا منه . .

يقول الإمام الشاطبي في هذا : « إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين والمتأخرين : من علوم الطبيعيات ، والتعاليم — أى العلوم الرياضية — والمنطق ، وعلم الحروف — اليازرجة — وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها .

ثم يقول :

« وهذا إذا عرضناه على ما تقدم^(٢) لم يصح ، وإلى هذا ، فإن السلف الصالح — من الصحابة والتابعين ومن يليهم — كانوا أعرف بالقرآن وبعلمه ، وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلي ذلك . .

« ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر ، لبغنا منه ما يدل على أصل المسألة . . إلا أن ذلك لم يكن ، فدلّ على أنه غير موجود عندهم .

ثم يقول :

« وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير شيء مما زعموا !

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي القرناطي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ .
(٢) يشير الشاطبي إلى ما قرره قبل هذا ، من أن القرآن الكريم إنما خاطب العرب بما كان واقعاً في حياتهم .

« نعم ، تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب ، أو ما ينبني على معهودها ، مما يتعجب منه أولو الأبواب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره .. »

ويقول :

« وربما استدلوا^(١) على دعواهم بقوله تعالى :

« وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » ، وقوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

« ونحو ذلك .. وبفوائح السور - وهي مما يعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها ، وربما حكى ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره - أشياء .

« فأما الآيات^(٢) فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعب ، أو المراد بالكتاب في قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » - اللوح المحفوظ .. ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم العقلية والعقلية » .

« وأما فوائح السور ، فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً ، كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب حسب ما ذكره أصحاب السير ، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ،^(٣) .. هذا ما يقرره الإمام الشاطبي في جلاء لا يحتاج إلى تعقيب .

(١) يقصد الذين يعرضون آيات القرآن على مقررات العلم ..

(٢) يقصد الآيات السابقة مثل قوله تعالى : « وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » .

(٣) الموافقات للشاطبي - الجزء الأول ص ٨١ .

إن القرآن الكريم لم يكن كتاباً قد جاء بمقررات تشرح أسرار الوجود، وتضع في أيدي الناس مفاتيح هذه الأسرار . . . ولو كان من تديره أن يكون هكذا، لما جاء على هذا الأسلوب ، ذى الرنين النفاذ ، والإشعاع اللامع من النظم ، بل جرى على ذلك الأسلوب العلمى ، الذى تبرز فيه الحقائق العلمية مضغوطة في قوالب من اللفظ ، أشبه بالأرقام الحسابية ، لا يختلف عليها أحد ، ولا تسكتم عن أحد شيئاً وراءها . . . ولو كان ذلك من شأن القرآن لما كان معجزة الدهر الخالدة، ولأخذ الناس منه كل ما فيه لأول عهدهم به ، ثم تطلعوا إلى جديد غيره . . . ولو كان ذلك من شأن القرآن أيضاً لكان ذلك داعية من دواعي التخدير للعقل الإنسانى ، والتحريض له على الاستنامة في ظل هذا الغذاء المحدود الممدود، الذى لم يعمل له ، ولم يسمع إليه !

وليس هذا من شأن القرآن أبداً ، ولا من تديره بحال . . . فإن دعوة القرآن هى إيقاظ مشاعر الإنسان ، وتنبيه ملكاته ، وتوجيه نواذعه وسلوكه إلى العمل فى طريق مستنير ، واضح ، مستقيم .

ومن هنا كانت آيات القرآن دائماً فى حياة مستمرة متجددة مع مسيرة الإنسانية فى الحياة ، لا ينفد عطاؤها على كثرة ما ترددت الأنظار إليها وأخذت العقول منها ، فهى أبداً موفورة الثمر ، تعطى كل من مدّ يده إليها . ماتطول منها ، دون أن يكون فى ذلك ما ينقص من ثمرها . . . ولهذا يظل القرآن الكريم فى صحبة المسلمين ، مثاراً لعقولهم ، وجامعة لمدارساتهم ، للتعلمة عليه ، وتلقى العلم العزيز منه ، وليس كذلك أى كتاب علمى ، فإنه سرعان ما تصبح الحقائق التى ضمها بين دفتيه ، من بدهيات العلم بعد زمن قليل ، وسرعان ما يتحول إلى متحف من متاحف التاريخ ، لا ينظر إليه إلا على أنه أثر من آثار التفكير الإنسانى فى مرحلة من مراحل الحياة البشرية على هذا السكوك الأرضى . . .

ومن هنا أيضاً كانت آيات الكتاب الكريم كلها متجهة إلى القلب أولاً . . إلى المشاعر ، والوجدانات ، والأحاسيس المائجة فيه ، المتقلبة بين صفو وكدر . . وبين نور وظلام . . فإذا أصابها صوب من نور الحق الذي نزل به القرآن ، سكن مأنجها ، وصفا كدرها ، وانجلي ظلامها ، وأصبح الإنسان وقداطمأن قلبه ، وعمرت بالحق جوانبه ، وخلت من وساوس الشر نوازعه ، وإذا ملك الإنسان قلباً مطمئناً ، فقد ملك الخير كله . . ملك عقلاً متزناً ، ورأياً صائباً ، لا ينجح به هوى ، ولا تستبد به غواية . . وفي هذا يقول النبي الكريم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

* * *

وعلى هذا ، فإننا في غايتنا إلى الكشف عن إعجاز القرآن ، لن يكون طريقنا إليه هذا الطريق الذي يزعم القرآن بمقررات الكشف العلمية ، وبأجهزتها وأدواتها . فإن ذلك يذهب بكثير من جلال القرآن الكريم ودروعه ، بل ويُزيل من قدره ، حين يجرى مع العلم والعلماء في ميدان ، وحين يكون مبلغ فضله وإعجازه ، أنه من فرسان هذه الخلبة ، أو من السابقين فيها !

سئل أبو العباس البناء . . فقيل له : لمَ لم تعمل « إن » في « هذان » من قوله تعالى :

« إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » .

فقال : « لَمَّا لم يؤثر القول في المقول ، لم يؤثر العامل في المعمول !! » فقال السائل : وما وجه الارتباط بين عمل « إن » وقول الكافرين في النبيين ؟

فقال للسائل : « يا هذا . . إنما جئتكم بنوارة يحسن رونقها . . فأنتم تريد
أن تحكمها بين يديك ، ثم تطلب منها ذلك الرونق ؟ »^(١)

إنه لفرق بعيد بين منطق العقل ولمسة الوجدان !

إن إعجاز القرآن — في نظرنا — سر محجوب عن الأنظار ، لا يقع موقع
الحس ، ولا يستجيب لدواعي الحواس . . ولا يخضع للتحاليل الكيميائية ،
وإنما هو أشبه بريح طيبة تهب عليك من روض أريض ، قد أينعت أزهاره ،
وتفتتح نواره ، فجاءك من ريحه الطيبة ، ما انتعشت به روحك ، وانتشى منه
وجدانك ، فإذا أنت ذهبت تفتش في هذا الروض ، وتمسك بأزهاره زهرة زهرة ،
ثم ذهبت تمسك بتلك الريح ، تحاول أن تشم عبير كل زهرة مرت عليها — إذ
أنت ذهبت هذا المذهب أعميتك المذاهب ، وعُدت بغير طائل ، وفاتك ما كنت
تنعم به من استقبال هذه الريح ، وما تحمل من طيب .

إن القرآن الكريم يحمل إلى الناظر فيه ، والمستقبل لأضوائه ، ما يحمل
الروض إلى من يستقبل ريحه من أريج الزهر ، وعبير النور ، مطوياً في غلائل
من نور . . والقلب السليم ، والعقل المتحرر من الضلالات ، والوجدان المتفتح ،
هي الأدوات التي يكشف بها الإنسان عن بعض ما ضمت عليه آيات الله من
أسرار . .

ومن هذه الأسرار المتحجبة في غلائل النور العلوى تنفلت تجليات من الجلال
والروعة والبهاء ، ثم تخلص إلى القلوب ، فتصفو وتخشع ، وإلى العقول فتعنو وتخضع ،
وإلى النفوس فتتهز ، وتربو ، وتنبث من كل زوج بهيج !

(١) الموافقات للشاطبي — الجزء الأول ص ٨٥ .

هذا ، وليس من غایتنا فی هذا البحث — كما قد يبدو لأول خاطرة — مجرد الكشف عن إعجاز القرآن ، وأن إعجازه قد تحقق على الزمن . . إذ كان ذلك أمراً مفروغاً منه ، واقعاً موقع اليقين والإيمان ، عند المسلمين جميعاً ، على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ! إذ ليس بين المسلمين من لا يؤمن بهذه الحقيقة ، ويعرفها ، على أى لون من ألوان المعرفة . . فالمسلمون جميعاً على رأى واحد بأن القرآن قد تحدّى ، وقد أعجز جميع المتحدّين من يوم نزوله إلى اليوم ، وإلى يوم الدين . .

ونحن لا نلتفت فی هذه الدراسة إلا إلى المجتمع الإسلامی ، ولم يكن من همّنا إلا هذا المجتمع ، دون غيره من المجتمعات الأخرى ، التى لا تدين بهذا الدين ، ولا تعتقد معتقد المسلمين فی كتابهم الكريم ، وفى إعجازه !

فحديثنا إذن عن الإعجاز یرمى إلى مقصد أبعد من مجرد تقرير هذه الحقيقة المقررة ، بل والمستقرة ، عند من نتحدث إليهم بهذا الحديث ، فى إعجاز القرآن ! فما هو هذا المقصد الذى نسعى إليه ؟ وما الثمرة المرجوة من ورائه !

نحن نقصد من دراسة الإعجاز القرآنى أولاً ، وقبل أى مقصد آخر — أن نقيم فی قلب المسلم صلة وثيقة بكتاب الله ، الذى يؤمن به ، ويؤمن بأنه كلام الله المنزل على رسوله الكريم ؛ « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، أو بمعنى آخر : نريد أن يقوم إيمان المؤمن بكتاب الله ، على معرفة به ، وفهم له ، وإحساس صادق بما تحمل آياته وكلماته من معانى الحق والخير ، ومن أسرار قدرة الله وحكمته وعلمه . . كما يتكشف ذلك كله من آیات القرآن الكريم ، فى دلالتها اللغوية ، فى مواضع اللسان العربی المبين .

ذلك ، على حين أن الإيمان الذى يقع فى قلوب أكثر المسلمين اليوم من

كتاب الله ومن كلمات الله ، هو إيمان ساكن بارد « مُجَمَّد » ، لا يثير شعورا ، ولا يحرك عاطفة ، ولا يقيم وزعا يستمد أحكامه وسلطانته من هذا الكتاب ! إنه إيمان عادي ، وميراث تقاليد .. لا أكثر من هذا .
والشيء إذا اتصل بالإنسان اتصال العادة الموروثة المألوفة ، برّد شعوره به .
وقتر إحساسه له ، وتأثره به .

ولهذا فقد صار إحساس المسلمين بالقرآن إلى هذا الحد من البرود والجود .
يقرءون ما يقرءون من كلام الله في صلاتهم ، وفي غير صلاتهم ، فلا تختلف بهم الحال عما كانوا عليه قبل أن يقرءوا ، وقبل أن يُصَلُّوا !

فما هي إلا حركات أشبه بحركة من يمشي في طريق اعتاد أن يقطعه كل يوم ذهاباً وإياباً ، عشرات السنين . . وما هي إلا كلمات مرددة أشبه بتلك الكلمات التي يرددها البائع الجائل على سلعة يقطع عمره كله في صحبتها ، والإعلان عنها .. ينادي عليها بصوت منغوم ، ويصفها بأطيب الصفات ، وينعتها بأكرم النعوت .. لا يجاوز شيء من ذلك لسانه ، ولا ينتقل شيء من تلك النعوت والأوصاف إلى قلبه ، أو عقله .. إنه آلة متحركة تعلن عن بضاعة ، أو لافتة صامتة كتب عليها إعلان !! هذه حال المسلمين مع القرآن الكريم في أغلب أحوالهم اليوم ، وما قبل اليوم ، إلى نهاية الصدر الأول للإسلام ؛ وإلى حيث كان لكلمات القرآن سلطان قاهر على النفوس ، ومكان مكين من القلوب .. حيث كان المؤمن لا يسمع أو يقرأ آية من آيات الله حتى تستولي على وجوده كله ، وحتى يكون هو مدلولاً حياً من مدلولاتها ، ومعنى مجسداً من معانيها .. فإذا كانت الآية دعوة إلى معروف تجسد منه حال هو جواب هذه الدعوة في أكل صورة ، وأتم أداء .. وإذا كانت آية نهى عن منكر ، كان المسلم هو المفهوم الحيّ للجانب المنكر

واجتنابه . . . وإذا كانت آية رحمة ومغفرة ، كان المسلم هو الأرض الخشعة التي تستشرف مواقع الرحمة والمغفرة من معطيات تلك الآية . . . وإذا كانت الآية آية عذاب ؛ كان المسلم كيانا متصدعا من خشية الله وسطوة عذابه . . . !
هكذا كان المسلمون الأولون مع كتاب الله ، وهكذا كانوا يحيون في آياته وبها . . . فهم التفسير الحق لكتاب الله في أكل صورة تحملها النفس البشرية ، من مؤدّى كلمات الله ، وفي أتم مفهوم يمكن أن يقع في عقل بشر منها .

* * *

إن القرآن الكريم هو شريعة ووازع معاً . . . هو قانون ، وهو في الوقت نفسه سلطان يقر أحكام هذا القانون . . . أو هو بلغة العصر ، هو سلطات : تشريعية ، وقضائية ، وتنفيذية . . . جميعا .

وبالكلمة ، وبالكلمة وحدها جاء القرآن ليقم في كيان المسلم قانونا يدركه بقله ، ويحتكم إليه بقلبه ، ويمضيه بوجدانه ، وينفذه بجوارحه . . .

ذلكم هو قانون السماء الذي جاء به القرآن . . . ليس أحكاما صامتة ، ولا نظريات مجردة . . . وإنما هو كيان واحد في أحكامه ، وفي الولاء لهذه الأحكام ، والخضوع لسلطانها الذاتي الذي لها .

* * *

وقد شغل المسلمون زمناً بالتعرف على هذا القانون السماوي ، تعرف دراسة ، ونظر ، أشبه بالدراسات « الأكاديمية » لمسائل الفلسفة والأخلاق والاجتماع ونحوها — دراسة نظرية بعيدة عن مجال التطبيق العملي ، في أية صورة من صورته .

وحسن أن يعنى المسلمون هذه العناية بفقهاء قانونهم السماوى ، وأن يلقوه بهذا النظر المحدث الجديد ، وأن يحشدوا له هذه الجهود وتلك العزمات على مر القرون ، وحسن أن يتدبر المسلمون نصوص هذا القانون حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ، وأن يدوروا حولها ، وأن يرقبوها من كل أفق ، ليرصدوا كل ما يلوح لهم منها من دلالات وإشارات ومفاهيم .

حسن كل هذا ، ولكن على ألا يجور ذلك على سلطان هذا القانون ، ويُجْلِيه من القلوب والسرائر ، أو يقيمه فيها مقاماً خامداً ساكناً ، لا يرتبط بشعور ، ولا يختلط بوجودان ، ومن ثم فلا ترعى له جريمة ، ولا يُعصى له حى ! إن العناية التى يبذلها فقهاء القانون الوضعى ، والدراسات التى يصلونها به ، والشروح ، والتعليقات والمبادئ التى يستخلصونها منه ، هى أمر مطلوب لضبط أحكام هذا القانون ، وتحديد حدوده . . وإنه مهما يبذل الفقهاء فى هذا المجال من جهد ، فإنه لن يُدخل ذلك أى ضيق على سلطان هذا القانون ، وتنفيذ أحكامه . . إذ أن وراء هذا القانون سلطة قضائية وضعية تقضى به ، ثم سلطة تنفيذية وضعية أيضاً تنفذ أحكامه !

وخطأ قاحش غليظ أن نحسب القانون السماوى بهذا الحساب الذى تجرى عليه القوانين الوضعية ، وأن نحمله مجرد أحكام يقوم على تنفيذها خليفة المسلمين ، أو الحكومة التى تحكمهم ، أياً كانت ، وأياً كان قربها أو بعدها من أحكام هذا القانون ورعايتها له . . إن القانون السماوى الذى نزل به القرآن ، هو — كما قلنا — قانون وسلطان معاً ، وأنه إذا تجرد من هذا السلطان لم يكن هو القانون الذى حملته الرسالة الإسلامية ، ودعت الناس إليه .

وهذا مفهومه ، هو أن يدخل الإسلام قلب المسلم بهذا القانون وما تلبس

به من سلطان ، حيث ينفذ أحكامه في شخصه أولاً ، دون حاجة إلى قوة خارجية ،
من حكومة أو مجتمع !

إن الدين بغير وازع من الدين نفسه ، لا يحسب ديناً بحال أبداً .. بل إنه
إذا كان كذلك لم تكن له داعية أصلاً ، ولم يكن للرسول ولا لرسالاتهم معنى ..
فالناس فيهم الحكماء والفلاسفة والمشرعون الذين يضعون لهم القوانين التي تحفظ
عليهم النظام ، وتدفع بأس بعضهم عن بعض .. فما جاءت الشرائع السماوية إذن لجرد
أن تقول للناس هذا حلال ، وهذا حرام .. فالناس يعرفون الحلال والحرام ،
والرسول الكريم يقول : « الحلال بين والحرام بين » .

وإنما الذي جاءت له الشرائع السماوية ، هو إقامة سلطان وازع في كيان
الإنسان ، حتى لا يفلت الإنسان من سلطانها في أى حال من أحواله . وبهذا يكون
لدين رسالة ، في الحياة ، ويكون له بهذه الرسالة مفهوم جدى يطلبه الناس من أجله ،
ويبدلون النفس والمال في سبيله . إنهم إذ ذاك يجدون أن في كيانهم شيئاً حياً عاملاً ،
يرشدهم إذا ضلوا ، ويعينهم إذا هجزوا ، ويقويهم إذا ضعفوا .. إنه إشراق يملأ
حياتهم نورا ، وإنه خير يعمر قلوبهم بالطمأنينة ، ويغمر نفوسهم بالسعادة ، فتجدهم
لهذا في حرص شديد عليه ، وفي يقظة دائمة لحمايته ، ودفع كل ما يطرقة من مؤثرات
تتحكك بسلطانها ، أو تعيث بنوره !

ولهذا كان المسلم في مطلع الإسلام ، إذا اقترف إثماً ، أو ألمَّ بمعضية اضطرب
وفزع ، وأحس أن النعمة التي كان يعيش بها ، ويسعد بصحبتها ، قد بدأت تشد
رحالها لتفارقه فراقاً لا لقاء بعده .. فلا يملك من نفسه إلا الندم الطويل ، وإلا التوبة
النصوح ، والرجاء في عفو الله ورحمته !

ويحدث تاريخ الإسلام عن كثير من المسلمين كانوا إذا غلبتهم أنفسهم على
(٤ — إعجاز القرآن)

سلطان دينهم ، فقفاروا إثمًا ؛ فزعوا إلى رسول الله أو إلى خليفته من بعده يطلبون إقامة حدود الله فيهم ، ليتطهروا . من هذا الرجس الذى أفسد عليهم الأحاسيس الطيبة الراضية التى كانوا يعيشون فيها . . . وقصة « ماعز » ، والمرأة الغامدية — قصتهما مع رسول الله معلومة مشهورة . . . فقد اقترف « ماعز » جريمة الزنا ، فلم يحتمل إثمها فى ضميره ، ولم يقو على الصراع بين وازع الدين الذى فى قلبه ، وبين هذا الشر الذى دخل عليه ، فعذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول له : طهرنى يا رسول الله . . . فقد زنى !! ورسول الله مشفق أن يكون بالرجل غمرة سكر ، أو مسة جنون . . . والرجل يدفع فى إصرار عنيف عن نفسه أن يكون به شئ من هذا . . . ولم تسكن نفسه إلا بعد أن رضى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بإقامة الحد عليه ، ورميه بالأحجار حتى يموت . . . وقد كان . . . ومثل هذا الموقف تماما بل وأعظم منه كان موقف « الغامدية » فقد جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرت على نفسها بهذا الجرم ، وأبت إلا أن تقدم شاهداً قاطعاً بين يدى الرسول الكريم . . . فتعترف بأنها حبلى ، ويدعها الرسول الكريم حتى تلد ، فلما ولدت جاءت تستعجل الحد ، لأنها فى عذاب أليم مع هذا الإنثم الذى يعيش فى كيانها . . . ويعلمها الرسول حتى تفتطم الصبي ، فلما فطمته جاءت إلى الرسول تستعجل تنفيذ العقوبة ، فكان أن رجمت ، واستراحت من هذا الهم الثقيل الذى كانت تعالجه ! وقد يكون الموت — وهو داء — أنجع دواء .

ومرة أخرى نقول : إننا منذ انتهى الصدر الأول للإسلام ، ومنذ أخذت تلك الدراسات الفقهية ، والكلامية تدور حول القرآن الكريم ، وترد موارد — أقول : منذ ذلك الحين أخذ الكتاب الكريم يتحول فى نظرنا شيئاً فشيئاً إلى نصوص ، لا تعطى أكثر من أحكام ومقررات فى شئون الشريعة أو العقيدة . . . أما السلطان الوازع الذى كان من شأنه أن يكون هو الذى يسبقها إلى العقل

وإلى القلب ، وأن يفتح لها الطريق إليهما — أما هذا السلطان فقد أهمل العلماء
والفقهاء والدارسون أمره إهمالاً مطلقاً ، فلم ير مذهباً من مذاهب الفقه ، ولا متجهاً
من اتجاهات الرأي — إذا استخلص حكماً أو قرر مبدءاً من مبادئ الإسلام مستنداً
في ذلك إلى آية أو آيات من كتاب الله — لم يره التفت لفتة واحدة إلى مافى الآية
أو الآيات من مفاهيم نفسية وروحية ، وهى مفاهيم ليس لها شأن مباشر فى تصوير
الحكم ، ولا فى تقرير المبدأ ، وإنما هى فى صميمها ذلك الوازع الذى يدخل مع
— أو قبل — الحكم أو المبدأ إلى كيان الإنسان . . ويقع فى مفهومه ! ومن
ثمّ يصبح هذا المفهوم قوة حيّة عاملة فى كيان الإنسان ، وفى ضبط سلوكه ،
وفى محاسبته إذا هو انحرف عن سواء السبيل . .

وأحسب أن الذى صار بعلماء المسلمين وبفقهائهم ومتكلميهم إلى هذا الاتجاه
فى تجريد الدراسات القرآنية من المعانى النفسية والروحية — أمران :

أولهما : هذه الخلافات المذهبية بين تلك الطوائف الكثيرة التى نجمت منذ
الصدر الأول للإسلام . . وكانت غاية هذه المذاهب فى الاتصال بالقرآن — اتصال
دراسة — هو الانتصار للمذهب ، والاحتجاج للرأى . وذلك إنما يقتضى عرض
النص القرآنى على أساليب الجدل ، وعلى مقاييس المنطق ، بعد عرضه على مدلول
اللغة ، وهذا من شأنه أيضاً ألا يدع مجالاً لمراعاة شىء من المؤثرات النفسية
أو الروحية التى يحملها النص ، ويقدم بها الحكم الذى بين يديه ، لأن الغاية
لم تكن إلا الحصول على مستند للرأى أو المذهب ، يتفق مع الرأى أو المذهب
الذى اتخذته كل فرقة من تلك الفرق المتنازعة ، عقائدياً ، سياسياً ، واجتماعياً ،
بل وقومياً .

ومن أجل هذا كانت مسائل الخلاف بين أصحاب تلك المذاهب والفرق ؛

مسائل ذهنية ، رياضية ، عاطفية ، تتصادم فيها الآراء ، وتتصارع الحجج . . دون أن يكون لذلك محصل ، إلا الغلب في حلبة المصاولة والمقاولة والمصادرة لآراء الآخرين .

وثانيهما : أن الفقه الإسلامى — لسوء الحظ أو لحسنه ، لا أدرى — قد نما وازدهر في ظل الخلفاء ، والأمراء والولاة . . إذ كان معظم هؤلاء الفقهاء الذين كان لهم شأن كبير في تقرير المذاهب الإسلامية — كانوا قضاة ، أو مفتين ، أو مستشارين للخلفاء والأمراء والولاة . . ومن لم يطرق منهم باب السلطان طرق السلطان بابه ليسأله رأى والفتيا في الأحداث التي تقع ، وفي الشؤون التي تعرض .

فكانت هذه الفتاوى ، وتلك الآراء ، وهذه الأحكام ، هي عمود المذاهب التي قامت عليه ، فجاءت هكذا : مسائل وأجوبتها ، وقضايا وأحكامها ، ومشكلات وحلولها ، واستفتاءات وفتاواها . . ولا شيء وراء هذا .

وبهذا ، وبذاك عُزل المسلمون عن النظر في كتاب الله نظراً يرمود العبرة والموعظة ، التي يخشع لها القلب ، وتسكن إليها النفس ، وصاروا أكثر النظر في كتاب الله إما لتلاوة سرودة ، ابتغاء الله ، أو الثواب أو « البركة » ! وإما التماسا لفهم جديد في مسألة فقهية ، أو استجلاء لغامضها ، أو ترجيحاً لمقولة من مقولاتها ، وذلك على الطريق المرسوم في دراسة النص القرآنى ، دون أن يلتفت الناظر في كتاب الله كثيراً إلى الأنوار المشعة من آياته وكلماته ، ودون أن يستعد روحياً ونفسياً إلى استقبال ما يتغشاه من روحانية القرآن ، وجلال طلعته . .



وكون القرآن هو معجزة ، وكون إعجازه في هذه الكلمات المقروءة المسموعة ،

من شأنه أن يقيم القرآن في نفوس المسلمين حياة متجددة أبداً . . . وخاصة عند أولئك الذين يحسنون العربية ، ويدركون أسرارها .

فما كانت قراءة القرآن أو تلاوته إلا لتلقى العبرة والعظة منه ، والعبرة والعظة إنما تكون عن إدراك وفهم لمواقع العبرة والعظة .

ومستويات الإدراك والفهم ، درجات متفاوتة أشد التفاوت ، ومنازل متباعدة ، يعد ما بين السماء والأرض !

وانظر كيف كان تدير اللطيف الخبير لإقامة شريعة الإسلام ، وجعلها خاتمة الشرائع ، وكال كالاتها . .

لقد جعل الحكيم العليم مفاهيم هذه الشريعة في كلمات ، وجعل من هذه الكلمات معجزات . . فحيث نظر ناظر في كتاب الله ، بقلب سليم ، ونفس مجتمعة — وجد وراء كل آية معجزة أو معجزات . . يرى في منطوقها المعنى الذي جاءت له ، والشرع الذي دعت إليه . . وبهذا يتلقى المسلم أحكام شريعته على أضواء معجزات مشرقة نيرة ، تغمر بنورها الآفاق كلها من حوله ، فلا يرى إلا نوراً علوياً يشرح صدره للحق ، ويفتح قلبه للإيمان :

« وَمَنْ كَفَرَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

* * *

وهنا أمر يجب أن نلتفت إليه ، وأن نذكره دائماً — وهو أن المعجزة القرآنية لم تكن موقوتة بوقت الدعوة في تحديها للناس ، وإنما هي قائمة ما دامت الحياة ، وما عاش الناس ، والتحدى بها قائم في كل زمان ومكان . . ومن أجل هذا كانت معجزة القرآن — كما قلنا أكثر من مرة — محمولة في كلمات

القرآن ، معروضة في معرض التجدي والإعجاز للناس : أفراداً وجماعات ، وطوائف وأئمة . . فإذا تقرر هذا - وهو ما يجب أن يتقرر - كان لازماً على المسلم أن يقف بين يدي القرآن الكريم وقوف من دعاه داعي الحق ليشهد معجزات السماء تنزل عليه من كلمات القرآن الكريم وآياته . . !

فآيات القرآن الكريم ، هي رسول يحمل بين يديه ، وعلى فمه كلمة الله ، إلى عباد الله ، كما تحمل تلك الآيات من بين يديها ومن خلفها الشاهد لمعجز الذي يشهد لها أنها رسالة الله إلى الناس . . فالقرآن الكريم ، هو في ذاته الرسالة والرسول ، والمعجزة ، التي تشهد بصدق الرسالة والرسول . . ومن هنا كان القرآن الكريم حجة قائمة على كل من بلغته آيات هذا القرآن ، ووعى ما حملت إليه من معانٍ ومقاصد . . وهنا ندرك السر في أن كان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الرسل ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات . . لأن القرآن الكريم - بكلماته وآياته . رسول قائم في الناس أبد الدهر : يلقاهم برسالة الله ، ويحاجهم بالإعجاز المتجدد منه . . وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى للنبي الكريم : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (١) .

فإذا لم يلق المسلم كتاب الله هذا اللقاء الذي يقيم نفسه فيه مقامه بين يدي رسول الله ، ولم يقف منه هذا الوقف الذي يقفه مستمعاً إلى آيات الله يتلوها رسول الله ، وإذا لم يطالع وجه الرسول ، وصدقه فيما يبلغ عن ربه - إذا لم يكن المسلم على تلك الصورة بين يدي القرآن الكريم ، فليعلم أنه ليس من كتاب الله في شيء . . فما كان القرآن مجرد آيات تتلى ، ولا كانت شريعته نصوصاً وأحكاماً وحسب ، وإنما القرآن قوة مضيئة هادية ، فيث كان ، كان منه الهدى والنور . . ولهذا كانت صفته دائماً « الهدى » كما يقول الله تعالى :

(١) سورة الأنعام : ١٩

« ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ »^(١).

وما كانت القوانين في ذاتها - وضعية أو سماوية - ما كانت « هدى » إلا لأنه يقوم من ورأها سلطان مادي خارج عنها ، أو نفسى منبعث منها ، يقيم الناس عليها ، ويأخذهم بأحكامها ، كرهاً أو طوعاً . .

* * *

أحسب أنى ربما أكون قد أسرفت في توضيح هذا المعنى ، ولكن أرجو ألا يُحسب ذلك على أنه سوء ظن بفهم القارئ . . وإنما هو أسلوب من البيان القرآنى في عرض الحقائق ذات الأثر والخطر ، عرضاً كاشفاً ، وذلك بتكرار عرضها في صور متعددة ، ليتقرر معناها ، ويرسخ مضمونها في النفس ، فتقوى دوافع العمل بها ، وتشتد نوازع الثبات عليها ، والتعلق بها .

والمعجزة القرآنية معجزة خالدة أبد الدهر ، تصحب المسلمين أينما كانوا ، وحيثما وجدوا ، ولكن جرى أمر المسلمين مع القرآن على غير هذا النحو ، إذ صرفوا وجوههم عن معجزاته وإعجازه ، وصحبوه هكذا . . كلاماً يردد على الأفواه كما تردد الأدعية والتعاويذ ! !

أفليس هذا مما يحزن له المسلم ويكرب منه ؟ بل ويطول له حزنه وكربه ؟ وأليس هذا مما يحمل المسلم على أن يفكر ، بل ويطيل التفكير في التماس وجه التحول عن هذه الحال التي صار فيها القرآن كلاماً يردد على الأفواه ، ويمر على الأذان ، دون أن يخلف في القلب أثراً ، أو يحدث في النفس ذكراً ! !

نعم ، فإن الغفلة عن هذا الأمر ، أو السكوت عليه ، معناه الاستخفاف بالعقيدة ، والاستهانة بها ، بل والانحلال عنها . . إذ لا عقيدة لمسلم بغير هذا القرآن ، ولا قرآن

فى كيان مسلم ، بغير فهم له ، وإحساس به ، ولا فهم له ، ولا إحساس به إلا إذا شوهدت فيه آياته ومعجزاته ، وإلا إذا وقع فى النفس بهرّة ، وإعجاب ، وإعجاز . . من تلك الآيات والمعجزات !

ذلك هو مقصدنا من هذا البحث ، وهو غايتنا من هذا الحديث ، الذى نرجو أن يصل بنا إلى ما نريد من هذا الخير الخبوء لنا فى كتاب الله ، والمخير لأجيال المسلمين فى آياته وكلماته ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ، وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » (١).

صدق الله العظيم

الباب الأول

كلمات الله .. وكلام الناس

من أوائل سور « القرآن » نزولاً ، سورة « المزمل » إذ تعد ثالث سورة نزلت على النبي بعد أن جاءه الوحي ، وأذنه بالنبوة .. وتبدأ هذه السورة الكريمة بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا » (١) .

فما شأن هذا القرآن الذي يقوم له النبي الليل كله .. إلا قليلاً ؟
يرتله ترتيلاً .. ! ؟

يملاً به فمه ، وأذنه ، وقلبه ، وكيانه كله ! ويخلو معه الليل كله إلا قليلاً ،
مناجياً مسامراً ، مناجاة الروح للروح ، ومسامرة الحبيب للحبيب !
هكذا .. ليلة بعد ليلة ، لثلاث وعشرين سنة ! ؟

وليس النبي وحده هو الذي كان يقوم للقرآن هذا القيام ، ويحتفى به هذا
الاحتفاء ، بل لقد كان يتأسى به في ذلك كثير من صحابته .. يقومون له الليل ..
يرتلونه ترتيلاً .

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ،
وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ .. وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عِلْمَ أَنْ لَنْ
تُحْصُوهُ فَتَأْتِيكُمْ فَاقِرًا مِمَّا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » (٢) .

ما شأن هذا القرآن الذى يقوم له النبى والمسلمون هذا القيام . . يقرءونه ويرتلونه ؟ وماذا تجد النفوس منه على كثرة التريد والترتيل على مدى الأيام والسنين ؟ وهل فى حرّ الكلام كلام تطول مع الإنسان صحبته يوماً أو بعض ، ثم يلقاه من قريب أو بعيد بما يشبه ذلك اللقاء الحفى ، الذى كان منه لأول عهده به ، وصحبته له ؟ وهل يجد له فى نفسه ما كان يجد من دَهَشٍ وبَهرٍ وإعجاب ؟ إن أى كلام مهما يكن ما يحمل من كريم المعاني ونيل المشاعر ، فى رائع النظم ، وعجيب الصوغ - فإن جديده إلى بلى ، وإن جماله إلى زوال ، وإن سحره إلى لعب ولهو . . حين تلقاه النفس لقاء مكرراً . . فهو يقبل على النفس فى كل مرة وقد برد شيئاً ما ، شوقها إليه ، وإعجابها به ، إلى أن ينتهى بها الأمر معه إلى حال التشبع ، فيقبل عليها دون أن تأبه له أو تلتفت إليه ! تماماً كما تزور العين ، وتزهد النفس فى حالة الشبع من ألوان الطعام ، وإن طابت وكرمت ! !

ولك أن تختبر هذا فيما بينك وبين نفسك !

منطق التجربة :

وتخير أروع وأبلغ ما يقال عنه من منشور الكلام ومنظومه . . ثم عش معه يوماً أو أياماً ، وعد إليه بعد هذا مرة ، ومرة ومرات ! فماذا تجد لهذه التجربة عندك ؟

أريدنى على أن أكشف لك عن معطيات هذه التجربة فى نفسك ؟ لا ! أنت أولى بهذا ، وأقدر عليه .

ولكى : أحدثك عن نفسى لو أخذت مكانك فى هذه التجربة ، ووقفت منها موقفك . . لاشك أن لى فى اللقمة الأولى مع هذا الكلام المتخير لحظات طيبة مسعدة ، تنتشى فيها الروح ، وينشرح لها الصدر ، ويرضى بها العقل والقلب !

ذلك أبلغ ما يبلغه فن القول من النفس في أول لقاء به ، وعند أول ذوق له ،
وتجاوب معه !

ثم على قدر مافيه من قوى الإثارة والتأثير ، يكون حظ النفس منه في الغدوات
والروحيات بعد هذا ، فلقد تأخذ النفس كل حظها منه في أول مرة ! ثم لاتذكره
بعد ذلك أبداً ! وقد تنفصل عنه النفس وهي بعدُ مشوقة إليه ، وعلى موعد معه ،
فتلتقي به لقاء مسعداً . . مرة ، ومرة . ومرة !

ثم ماذا ؟

ثم يحىء الوقت الذى يكون فيه لقاء ، ثم لا إثارة ولا تأثير !
ثم أتريدنى أن أزيدك علماً بما يقع فى نفسى من معطيات اللقاء بعد هذا . .
مع هذا الكلام البليغ المتخير ؟

حسبك أن تعلم أن أقسى عقوبة تقع على نفسى هنا ، هو أن يُفرض على ترديد
هذا الكلام ، وملء فى وسمى به ، مرة بعد مرة . بعد أن أخذت النفس
حاجتها منه إن الأمر قد يصل بعد هذا إلى حد الاختناق !

أرأيت إلى من امتلأ بالطعام والشراب ، ثم أريد له أن يزداد طعاماً وشراباً ؟
ثم يزداد طعاماً وشراباً ، حتى يصاب بتخمة وكِظَّة - ثم لا يكون بعد ذلك
إلا الموت بالبطنة ؟ مثل ذلك تماماً يكون حال من يُحمل على ترديد كلام بعينه
ولو كان من أطيب الكلام وأحسنه ، فإن هذا الكلام على حسنه وطيبه هو
صنعة بشر ، وما كان لصنعة بشر إلا أن تذبذب بعد نضارة ، وتموت بعد حياة . .
تماماً كما يذبذب الصانع نفسه بعد نضارة ، ويشيخ بعد شباب ، ويموت بعد حياة ! !
وليس ذلك شأن فن القول وحده ، بل إنه حكم قائم على الفنون الجميلة كلها . .
وما أودع فيها من كل آيات العجب والروعة !

فإنها مهما تكن فهي صنعة إنسان ! فيها الإنسان كله بخيره وشره ، بقوته وضعفه ، بصحته ومرضه ، بشبابه وهرمه ، بحياته وموته . .

وإنها لتأخذ من الإنسان الذى خلقها ما فيه من مَلَل وضجر ، وتقلب ، كما أخذت منه ما فيه من مهارة وحذق وذكاء . . فإذا هى أعطت فإنما تعطى من كل ما فيها من هذه الأخلاط : من مهارة وحذق وذكاء ، وملل وضجر وتقلب ، مطبوع ذلك كله بطابع الفناء المحكوم به على البشر ! !

فإذا أثارَت هذه الآثار فى الإنسان ذكاءه وأرضت حذقه ومهارته ، فإنها تستدعى فى الوقت نفسه ، مسارب ضجره وسأمه ، وملاها ! إنها تشرق وتغرب فى قلبه ، وتحيا وتموت فى كيانه ! !

ماذا فى كلمات القرآن ؟ :

والقرآن كلام . . ليس فى هذا شك أبداً .

كلام تحركت به الألسنة ، ونطقت به الأفواه . . حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ؛ قبل أن يتلقاه النبي ﷺ آياتِ بينات من السماء . ووحيا يوحى إليه من رب العالمين . !
« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ،
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (١) .

فكيف يكون هذا شأنه من الخلود ذى السلطان الأسر على النفوس إذا أخذ المسلم بتلاوته وترتيله على مدى العمر . . ليالى وأياماً ؟ وتأخذ الجواب على هذا من القرآن الكريم نفسه ... يقول الله تعالى :

« اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » (١) .

هو حديث .. ولكنه أحسن الحديث !!

وهو كلام .. ولكنه أصدق الكلام !!

كلام الله سبحانه وتعالى .. وحديث الحق جل شأنه ..

وكلام الله صفة من صفاته سبحانه ، كامل كمالها ، جليل جلالها ، باق بقاءها .. تلك صفة كلام الله ..

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٢) .

قد استولى القرآن الكريم على عقول المسلمين ومالك قلوبهم .. فشغلوا به ، وفرغوا له .. حتى لقد أخذ عليهم كل سبيل إلى راحة الجسد ، مما يعرض لهذا الجسد من فتور من العمل وطول السهر ، وحتى لقد وصف القرآن ما كان من حالهم معه وشأنهم به ، فقال تعالى :

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا » (٣) ، وقال سبحانه : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » (٤) .. إذ كان في القرآن الكريم حياة نفوسهم ، وغذاء أرواحهم ، وملاك حياتهم ووجودهم .. وقال سبحانه في النبي الكريم وصحابه في قيامهم بأمر القرآن :

(٢) سورة فصلت : ٤٢

(١) سورة الزمر : ٢٣

(٤) سورة النازيات : ١٧

(٣) سورة السجدة : ١٦

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ » (١) .

لأنهم على هذا المورد العذب الروى الذى أوردهم الرسول الكريم إياه ، فَكَلَّوْا وَنَهَلُوا ، مُتَمَسِّينَ وَمُصْبِحِينَ ، لا يريدون أن يرفعوا رؤوسهم عن هذا المورد السماوى ، مهما طال وقوفهم عليه ، وكثر أخذهم منه . . هكذا أهل الجنة مع ما يرد عليهم من ألوان النعيم . . « كَلِمَاتٌ رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتَا بِهِ مُتَشَابِهًا » (٢) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو قدوة المسلمين وإمامهم فى صحبته للقرآن الذى نزل على قلبه ، فهو صلوات الله وسلامه عليه على صلة دائمة به . . لا تنقطع أبدا .

يتلقى ما ينزل عليه من السماء فى شوق ولهف ، فما أن يسمع الكلمة من كلمات الله يُلقى بها جبريل على سمعه ، أو فى قلبه ، حتى يحملها على لسانه ، لِيُطْعِمَ مِنْ حَلَاوَتِهَا ، وَيَرْتَوَى مِنْ رَحِيقِهَا ، وكان ذلك داعياً له إلى العجلة التى ربما تشغله بالسابق عن اللاحق ، ولهذا دعاه الحق سبحانه وتعالى أن يأخذ نفسه بشيء من الأناة والرفق . . فقال سبحانه :

« لَا تَجْرُكْ بِهِ لِسَانُكَ لَتَتَعَجَّلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » (٣) .

فكان النبى — صلوات الله وسلامه عليه — إذا تلقى ما شاء الله أن يتلقى من آيات الكتاب ، ضمَّ ذلك إلى ما فى صدره من كتاب الله ، وآذن أصحابه به ، وتلاه عليهم ، فكان

(٢) سورة البقرة : ٢٥

(١) سورة المزمل : ٢٠

(٣) سورة القامة : ١٦ - ١٨

ذلك نعمة جديدة إلى ما عندهم ، يحيون فيها حياتهم كلها ، في غدو ورواح ، مع كلمات الله . . مرتلين آياته ، أو مستمعين إلى المرتلين .

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » فقلتُ أعليك أقرأ ، وعليك أنزل ؟ قال : « فإني أحب أن أسمع من غيري » . . قال ابن مسعود فافتتحت سورة النساء ، فلما بلغت قوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » (١) .

« قال ابن مسعود : فرأيت عيناه تذرِفان ، فقال : حسبك ! » . . وهذا يكشف لنا عما كان يجد النبي من النشوة الروحية ، والنعيم النفسى ، فى اتصاله بالقرآن ، حتى لقد دعاه ذلك إلى أن يُعطى كل حاسة من حواسه حظها منه ، فإذا فاض قلبه بنور القرآن وطعم لسانه من جنى تلاوته ، أراد لأذنه نصيبها من أنعامه العلوية ، وألحانه السماوية ، فطلب إلى من يحسن القراءة أن يقرأ عليه ! !

ويحدث تاريخ نزول القرآن ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، فتر عنه نزول الوحي فترة من الزمن أول النبوة ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم لذلك حزناً شديداً ، وضيقاً بالغاً ، حتى لقد ظهر ذلك لقريش التى كانت ترصد حركاته وسكناته ، فقال قائلهم إن ربَّ محمد قَلَاة - أى هجره - فنزل قوله تعالى :

« والضحي والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، وسوف يعطيك ربك فترضى » . . فكان فى ذلك عزاءً أجمل العزاء للنبي ، لما ورد عليه من ضيق وألم ، بإبطاء الوحي عنه !

ومن ذاق عرف ! كما يقال .

وقد ذاق المسلمون الأولون حلاوة القرآن ، تلك الحلاوة التي لم يجدوا لها شبيها فيما يقع للسان من مذاقات الشراب والطعام ، وفيما تجد الأذن من نغمات الأصوات والألحان ، وفيما يروع القلب من آيات الحسن والجمال ، وفيما ينشده العقل من بينات العلم والحكمة . . إنها حلاوة آسرة ، تستولى على كيان الإنسان كله ، وتأخذ عليه حسه ، ووجدانه ، وقلبه ، وعقله ! !

وهيمات أن يقنع الإنسان بحظ من هذا الجمال العلوى ، أو يستطيع صرف نفسه عنه مهما طال وقوفه عنده ، ومهما قطف من طيب ثماره ، وطعم من جنى كرمه .

عن ابن إسحاق عن أبي بردة عن عبد الله بن عمرو قال : قلت يا رسول الله . . « في كم أقرأ القرآن ؟ قال : « اختمه في شهر » قلت : « إني أطيق أكثر من ذلك » قال : « اختمه في عشرين^(١) » قلت : « إني أطيق أفضل من ذلك . . قال : « اختمه في خمسة عشر » قلت : « إني أطيق أفضل من ذلك ؟ قال : « اختمه في عشر » قلت : « إني أطيق أفضل من ذلك ؟ قال : « اختمه في خمس » قلت : « إني أطيق أفضل من ذلك . . فما رخص لي ! أي فما أجاز لي قراءته في أقل من خمس ليال .

ولقد كان بعض المسلمين يختم القرآن مرة بالنهار ، وأخرى بالليل ! !
ولو أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن يفعل ذلك لفعل ، ولكن ذلك أرضى لنفسه ، وأهنا لقلبه !

(١) أى عشرين يوماً وليلة .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم — وقد جاء بالشرعة السمحة وبالدين اليسر — وقف بهذا الصحابي الكريم عند هذا الحد ، حتى يجد من فضل نشاطه وقوته ، ووقته ، ما ينفقه في خاصة شأنه ، وشأن بيته وولده .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذا التدبير أن تكون قراءة القرآن على الوجه الذى يتحقق به قوله تعالى :
« وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

ولا بد لهذا من فسحة من الوقت يختم فيها القرآن ، حتى يؤدي القارىء له هذا الخلق من الترتيل ، وحتى يتيح لنفسه فرصاً للتأمل والنظر ، عندما تشرق في نفسه ضوء من أضواء الكتاب الكريم .

ففي البخارى . . عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كانت مَدًّا » ثم قرأ — أى أنس — « بسم الله الرحمن الرحيم » يدالله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم ! أى يثقل بهذا أسلوب القراءة التى كان يقرأ بها النبي الكريم .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلاً قال : « إني أقرأ المفصل ^(١) » في ركة واحدة . فقال : « أَهَذَا كَهَذَا الشَّعْر ^(٢) ؟ .. » إن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه ، نفع » وإنه لا يقع في القلب موقع النفع حتى يكون عن فهم وتدبر ، ولا يكون الفهم والتدبر إلا بالوقوف المستأنى المتأمل ، ولو طال هذا الوقوف وامتد أياماً وليالى وسنين مع الآية الواحدة ، أو الآيات من كتاب الله !

(١) المفصل، قصار السور ، وقد اختلفت فيها ، والرأى أنها تشمل أربعة الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم .

(٢) الهدى : الإسراع والتمطيع .

ونعود مرة أخرى لنسأل :

ما شأن هذا الكلام الذى لا يملئه اللسان ، ولا نسأله الأذن ، ولا يضيق به الصدر ، على طول الصحبة وكثرة اللقاء ؟ ما هذا الشيء الذى لا يُشَمَّع منه أبداً ، ولا تفقد النفس شهيتها له فى حال من أحوالها ؟

إنه — كما قلنا — كلام مما جرت به ألسنة العرب . . بحروفه وكمالاته ، حتى إذا تلقاه الرسول قرآنًا يوحى إليه ، وجد الناس لكمالاته شأنًا غير ما عرفوا من الكلام ، وما سمعوا من منظوم ومنثور !

وماذا فى هذا الكلام القرآنى من جديد لم يعرفه العرب ولم ينطقوا به من قبل ؟

إن كلمات القرآن كلمة كلمة كانت معروفة للعرب ، جارية على ألسنتهم ، فى شعرهم ونثرهم ، حتى لقد كان الشعر الجاهلى مرجعاً عتيداً عند العلماء ، فى الاستدلال على بعض غريب القرآن . . من مفردات وتراكيب . !

هناك إذن سر ضُمَّت عليه هذه الكلمات القرآنية ، لجعل لها هذا السلطان الأسمر على القلوب ، وهذه الغلبة القاهرة على العقول ، وهذا الجلال القائم على كل نفس ، تقرؤه أو تستمع إليه !

فما هذا السر ، وما السبيل إلى الاستدلال عليه ؟

وكيف يكون لهذا السؤال جواب ؟ أميرٌ يُزال حجابُه ، وترفع سُتْرُه ، ويكشف غطاؤه . . ثم يكون بعد ذلك سرًّا ؟ ! إنه لو كشف هذا السر لما كان سرًّا ، ولما كان موضع عجب ودهش . . وفى المثل : « إذا ظهر السبب بطل العجب » ! وإذا كان من الممكن الميسور كشف السر عن كثير من حقائق الوجود المودعة فى كيان الموجودات ، كما هو واقع فيما تسكشف الإنسانية من

أسرار الكون - إذا كان ذلك ممكناً في هذا المجال ، فإنه من غير الممكن أن ينكشف
لنا مجال أبداً سرّ هذا الجلال المودع في كلمات الله ، إنه سر علوى منزل من
السماء ، مودع بيد الحكمة والقدرة ، محجب في نور الجلال والجمال ..

إن دون ذلك السرّ ، حُجُبٌ وأستار ، دونها حجب وأستار .. لا تنتهى أبداً
حصراً وعداً ! وذلك فيما يبدو وهو مركز القوة السكّانة في القرآن ، تلك القوة التي
تجذب الناس إليه ، وتحملهم على مداومة النظر فيه ، ومتابعة التطلع إليه ، لكشف
ما وراء حجبهِ وأستاره ! وهيهات أن ينكشف ما وراء الحجب والأستار ! وإن
تفاح طيبه ، وعَبَق في الأجواء مسكه ! !

ودعني أكون هنا شاعراً ، فما بغير خيال الشعراء أستطيع أن أتحدث إليك ،
ولا بغير لغة الشعر أقدر على تصوير هذه الرؤى التي أريد أن أحدثك عنها !
وإذن فأنا معك منذ الآن شاعر ، يستجيب لمتاف عواطفه ، ودواعي مشاعره ،
أكثر مما يستجيب لمنطق العقل ، ومنزع الرأي .. !

وان يطول وقوفي معك هنا أكثر من لحظات ، نقضى بها حق هذا الموقف ،
ثم نودّع عواطفنا ، ومشاعرنا ، أو نتخفف كثيراً منها ، لنفسح للعقل وللرأي
مكانهما الذي ينبغي أن يكون معنا في مجال النظر في كتاب الله .

* * *

رحلة إلى الملأ الأعلى :

إن كلمات القرآن التي كانت على فم الناس ، كان لها رحلة إلى الملأ الأعلى ..
من الأرض إلى السماء .. من أفواه الناس إلى عالم الروح .. والحق .. والنور .
وهناك في هذا العالم - عالم الروح .. والحق .. والنور .. عاشت تلك
الكلمات دهرًا طويلاً بين ملائكة ، وولدان ، وحور ، فنفضت عليها هذه الحياة

الجديدة رُوحاً من روحها ، وجلالاً من جلالها ، ونوراً من نورها . . . حتى إذا أُذِن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجها إلى الأرض وتلتقي بأفواه الناس مرة أخرى ، وتطرق أسماعهم ، وتتصل بعقولهم وقلوبهم ، لم ينكروا شيئاً من وجودها ، وإن سرى إليهم من هذا الوجود ما يخطف الأبصار ويخلب الألباب !! أرأيت إلى إنسان تعرفه على حال يتقلب فيها كما يتقلب الناس في الحياة ، بين وجوه الخير والشر . . . إنسان لا يختلف وجهه عن تلك الوجوه التي تعرفها في كل مجال من مجالات اللهو أو الجد .

ثم تكون لهذا الإنسان هجرة إلى الله ، ينسحب بها من مواطن الزلل والعار إلى وجهة الحق والخير ، ثم ها أنت ذا تلقاه بعد غيبة ، فلا يخفى عليك وجهه ، ولا يختلف عليك شخصه . . . إنه هو هو . . . ولكن شيئاً ما يطلع عليك من وراء ظاهره ، يرفعه في عينك ، ويدنيه من قلبك ، وإذا أنت منه بين يدي بارقة من بارقات الخير ، ولحمة من لحات الحق . . . تحشع لها ، وتطمئن إليها . . . تعرفه وتنكره في آن واحد ! ! تعرفه بما عهدت فيه من ملامح وقسمات ، وتعجب لما يطلع عليك منه من هبة وجلال !

هذا في إنسان حمل نفسه حملاً ، ونازعها نزاعاً في هجرته تلك إلى الله . . .
تثقله قيود جسده ، وتعوقه شهوات نفسه !

فكيف بتلك الكلمات وقد دعاها الحق سبحانه إليه ، وأنزلها في ضيافته ، وأوسع لها في ساحات كرمه وفضله ونفخ فيها من روحه ؟ ؟ إنهن منذ حللن هذا الحل الكريم ، وانتسبن إلى هذا النسب العالي الرفيع ، قد صرن من عالم غير هذا العالم الأرضي ، وإن عُدن إليه من جديد ، وجَرَيْن على الألسنة ، وطرقن الآذان ، واتصلن بالعقول والقلوب . لقد نفخ فيهن الحق من روحه كما نفخ في مريم ، فكانت هي وابنها آية للعالمين .

إنهن يعدّْن وفي قلوبهن أسرار لا تنتهى . . . كلما كشفن للناس منها عن سر لاح من ذلك سر . . . وهكذا . . . أسرار وراء أسرار . . . لا تنفذ على الزمن أبداً .
إنهن كلمات الله . . . ! وحسبك بكلمات الله وما أدع فيهن من خير لا نفاذ له !

« وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلامٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ . . . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

يقول « سهل بن عبد الله » : لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه . . . لأنه كلام الله ، وكلام الله صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية ، فكذلك لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه . . . وكلام الله غير مخلوق (٢) ، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهو محدثة مخلوقة (٣) .

يزيد على طول التأمل بهجة كأنّ العيون الناظرات صياقل وفي أسرار الرسول الكريم إلى الملائ الأعلى ، شاهد لهذا ، فلقد دعا الله سبحانه النبي الكريم إلى ضيافته في الملائ الأعلى ، وأراه من آيات ربه الكبرى ، ما لا يستطيع قلب بشر أن يخطر عليه ، وما لا تستطيع الكلمات أن تحمل بعضاً منه . « إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (٤) . ولقد عاد النبي الكريم من تلك الرحلة المباركة إلى هذا العالم وفي قلبه أسرار يجدها في كيانه ، ولا يجد اللغة التي ينقل بها ما وجد . هكذا كانت رحلة الكلمات القرآنية المباركة من الأرض إلى السماء . لقد عادت

(١) سورة لقمان : ٢٧ .

(٢) هذه المسألة ، وهى القول بمخلق القرآن لها مدخل كبير ، في مفهوم الإعجاز القرآني وسترى بحثاً خاصاً بها في هذا الكتاب .

(٣) البرهان في علوم القرآن جزء ١ ص ٩

(٤) سورة النجم : ١٦ — ١٨

عملة بأسرار لا تنتهى أبداً ، تُنظّل بها على الناس من وراء حجاب من نور ،
فلا ترى بعض ملاحظيها إلا قلوب مشرقة بنور الحق ، وإلا بصائر تنظر بعين الحق :
« ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور » (١) .

كلام الناس وعروده :

هذا كلام الله .. وهذا قرآنه !
فأين منه كلام الناس .. وما يجلبون له من صنوف التويه والتهويل ؟ ..
والمقايسة هنا لا وجه لها !

وكيف يُقايَس بين الحق والباطل ؟ ويوازن بين الخلود والفناء ؟ ويقابل
بين ماله ، وما خلق الله ؟ تعالى الله سبحانه ، وتعالى كلام الله عن ذلك علواً كبيراً .
ومع هذا فلا بأس من أن ننظر في كتاب الله نظرة ، وأن ننظر في كلام
الناس نظرة .. نظرة واحدة هنا وهناك .. ينكشف بها الأمر ، وتزول بها
الشبهة ، ثم لا يُعاد بعدها نظر ، ولا يعود صاحب النظر إلى هذا الموقف أبداً ..
انظر . !

تطلع على الناس في الحين والحين أغنية حلوة النغم ، عذبة اللحن ، جميلة
المعنى ، رائعة اللفظ .. فإذا هي على كل فم ، وفي كل سمع ، يغدو بها الناس
ويروحون .. رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ، ثم يكون لها دورة في الحياة ،
حتى إذا بلغت مداها ؛ سكنت وخذت إلى يوم النشور ، فلا ينطق بها فم ،
ولا تصغى لها أذن !

وتعرف الحياة نماذج طيبة من الشعر والنثر .. يلهج الناس بها زمناً ثم تغتر
وتبرد ، بعد أن تزايلها الحياة التي خرجت بها إلى الحياة .. فإن بقي لها بعد ذلك في

للناس شأن ، فهو شأن تلك الأجسام « المحنطة » التي أعجب ما فيها أنها خر على المألوف ، فلم تتحول إلى تراب بعد شهر أو سنين ، وإن كان لابد أن تلتقي يوماً باليوم الذي تصبح فيه تراباً في التراب !

هذه « المعلقات » التي كانت الصورة الكاملة للشعر الجاهلي ، والتي فتن بها العرب ، لجعلوها حديث سمرهم ، ومادة طربهم ، جماعات وأفراد ، في الحِلل وفي السفر . . . وحتى ليقال إنهم كتبوها في قباطى بماء الذهب ، وعلقوها في أستار الكعبة ، لتكون منسكا من مناسك حجهم وشعيرة من شعائره ؟

هذه « المعلقات » - وهي رائعة حقاً - ما أن تنزل آيات القرآن الكريم على النبي ، وما أن يرددها ويرتلها الناس حتى تستخذى هذه المعلقات من مكانها في صدور الناس وعقولهم ، وحتى يذهل الناس عنها . وإذا هي غارقة تأهة في محيط الصحراء . . . لا يلتفت إليها أحد ، ولا يذكر إنسان من أمرها شيئاً ، حتى في مقام التحدى الذي قام على العرب جميعاً . . . فلم يُشر إليها أحد من أولئك المعاندين الذين تصدوا للدعوة وحاربوا الله ورسوله . ولم يقل أحد للنبي هات معاقبة كإحدى هذه المعلقات !! إذ أنهم عرفوا ألا وجه لهذه المعلقات تظهر به إزاء القرآن ، وأنها إذ جيء بها بين يدي القرآن ، كانت حصى وتراباً يُطاول الكواكب والنجوم . . . وهيهات أن يعترض صاحب الحصا والتراب ، ليسوم صاحب الجواهر والآلىء !! إنه إن يفعل فقد شهد على نفسه بالسفه والجنون !

وحتى أصحاب هذه المعلقات الذين أدركوا الإسلام وذاقوا طعم « البلاغة القرآنية » هؤلاء قد مات الشعر في صدورهم ، حين بدا لهم ضالة شعرهم ، وقمائه وسخفه ؛ إزاء آيات القرآن الكريم ووضاءتها وإشراقها وسموقها . . . وحين بان أنهم في وجه فضيحة فاضحة وخزى مبين ، إذا هم أظهروا شعراً من شعرهم ، وخرجوا به على أنفسهم أو على الناس ؛ شهد من القرآن وبين يدي آياته ! وأية

فضيحة لعائل ، وأى اتهام لعقله ، أكثر من أن يخرج على الناس فى وضوح النهار
وتحت ضوء الشمس بمصباح ذى فتيل ، ليقول لهم : إن هذه الشمس التى يغمر
الوجود ضوءها ، ليست إلا كهذا المصباح الذى ترون ! ؟

فأى سخف بعد هذا السخف ؟ وأى عبث بعد هذا العبث ؟

لقد جنب كثير من الشعراء - ومن بينهم بعض أصحاب المعلقات - جنبوا
أنفسهم خزى هذا الموقف ومعرته ، فنفضوا أيديهم من الشعر ، وأخلوا صدورهم
منه ، بعد أن كان الشعر أجمل حلية يتخلون بها ، ويعيشون بالناس فيها ، فى
أكرم منزلة وأرفع شأن !

مع وقائع التاريخ :

ويحدث تاريخ الأدب عن لبيد بن ربيعة العامرى ، صاحب المعلقة التى مطلعها :

عَفَتِ الدِّيارَ محلَّها فقامها بِمَنى تَأَبَّدَ غولُها ورجامُها

يحدث هذا التاريخ ، أن هذا الشاعر الفحل ، عزل نفسه عن الشعر منذ دخل فى
الإسلام ، وجرت على لسانه آيات القرآن الكريم . فلم ينطق ببيت شعر ، وود
لو أن مقاله من قبل قد دفن ، وتوارى فى عالم النسيان ، كما يتوارى الأموات فى
التراب ! إنه لفضيحة أن يكون هذا الكلام هو بضاعته التى عزَّ بها فى الناس ،
وبلغ بها ما بلغ من مكانة فيهم ، وكيف لا يكون هذا الكلام فضيحة وخزيا
عند من ينظر فى هذا الكلام الذى نزل به القرآن ، ثم هو يقول عن نفسه
إنه فصيح ، وبلغ ، وصاحب رسالة فى الناس ؟

ومن شواهد ذلك ما يروى عن « لبيد » هذا ، من أنه كان إذا هبَّت الصَّبَا
نحرا الجُرُور ، ودعا الأيتام والأرامل إلى انتهاها ليطعموا منها . . وكانت تلك عادته
فى الجالية ، وقد صحبها معه فى الإسلام ، وفاءً لنذر كان منه !

وجاء عام مجذب ، وقد هبت الصبّا ، ولم يكن للبيد جزر ينحرها ، على ما جرت به عادته . . وعرف الوليد بن عقبة — وهو والى الكوفة — هذا الأمر ، فخطب الناس ، ثم قال : « إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ألا تهب صبّا إلا أطعم . وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت صبّا فأعينوه ، وأنا أول من فعل » . ثم بعث إلى « لبيد » بقطار من الإبل ، يفي به نذره ، ويجرى به على عادته . . وبعث مع هذا العطاء أبياتا من الشعر ، يقول فيها :

أرى الجزار يشحذُ شفرَتيه إذا هبت رياح أبي عقيلِ
أشُمّ الأنف : أبيض عامريّ طويل الباع كالسيف الصقيلِ
وفى ابنُ الجعفرى بحلقتيه على العلات والمال القليلِ
ينحرا الكوم^(١) إذ سُحِبَتْ عليه ذبولُ صبّا تجاوبُ بالأصيلِ

ولم يدر لبيد بماذا يجب هذا السيد الكريم ، وهو شاعر قد هجر الشعر ! ولم ترض ابنة لبيد لأبيها أن يخذله شعره في هذا الموقف ، ورأت أن ذلك يكون عقوقاً للمروءة وتنكراً للمعروف . . ولن يشفع أى عذر يعتذر به لبيد عن الإمساك عن لقاء هذا الفضل بالشكران . . وهو الشاعر الفحل الذى عرف الناس له قدره في هذا المجال !

ولم يجد لبيد مخرجاً من هذا الحرج إلا أن يجعل لابنته القيامَ بهذا الأمر ، وأن تتولى عن أبيها شكرَ هذا المعروف . . فصنعت أبياتاً ، عرضتها على أبيها ، تقول فيها :

إذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبتها « الوليدا »

(١) جمع كوماه ، وهى الناقة العظيمة الجسيمة .

أشم الأنف أروع «عشمياً»^(١) أعان على مروثه «ليدا»
بأمثال المضاب كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا «وهب» جزاك الله خيرا نحرنها وأطعمنا الثريدا
ثم ختمتها بقولها :

فَعَدَّ إِن الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادَ وَظَنِّي بَابِنَ أُرْوَى أَنْ يَعُودَا
فَقَالَ لَهَا « لَيْدَا » أَحْسَنْتِ يَا بِنْتِي . . لَوْلَا أَنْكَ سَأَلْتِهِ ! فَقَالَتْ : إِنْ الْمُلُوكَ
لَا يُسْتَحْيَا مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ ! . . فَقَالَ لَهَا : وَأَنْتِ فِي هَذَا أَشْعَرُ ! «^(٢) .

ولقد أرادت قریش فی أول مواقفها من النبی - صلوات الله علیه - أرادت
أن تتخذ من الشعر سلاحاً فی حربها الكلامية معه ، ووقع فی وهما أنها بسلاح
الشعر - وهو أقوى أسلحتها فی هذا المجال ، أنها بهذا تستطيع أن تتصدى للنبي ،
وأن تمسك لسانه عن الحديث إليها بما يحدثها به من كلمات الله ، فأغرت شعراءها به ،
ينجحونه بنج الكلاب ، فما حجب هذا النباح ضوء الشمس ، ولا شفى ما بصدر
القوم من مرارة وحسد ، لما تسمع من النبي من هذا الكلام الذي أخذ على
عقولها ، وقلوبها كل سبيل . . ثم سرعان ما انجحر هؤلاء الشعراء ، وخذت
أصواتهم ، فلم يجد القوم بداً من لقاء النبي بسيوفهم ، بعد أن عيّت ، وخرست
ألسنتهم . .

وهذه أم جميل (العوراء) امرأة أبي لهب تسمع ما نزل فيها وفي زوجها في
قوله تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات
لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد » - تسمع هذا فتخرج مولودة

(١) نسبة إلى عبيد شمس جد بني أمية ، وهو الجد الأكبر لهذا الأمير .

(٢) الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ج ١٥ ص ٣٧٠

صارخة كالجنونة ، تعوى في طرقات مكة ، وتقول إن محمداً قد هجاني ، وتستنجد بالشعراء أن يهجوا محمداً كما هجاها ، فيخف إليها بعضهم ، ويلقنها هذا الشعر تهيجو به محمداً :

مذمماً هــونا وأمره عصينا
ودينه قلىنا

هذا كل ما كان في جعبة القوم من سهام طائشة رموا بها نحو النبي ، فارتدت إلى محورهم . . . إنهم هم المذمومون ، وما كان النبي مذمماً ، إنه محمد ، وفي هذا يقول الرسول الكريم : « ألا تعجبون كيف صرف الله عنى هجاء قريش وكيدها ، يهجون مذمماً ، وأنا محمد ؟ »

هذا شأن كلام الناس ، وإن كان شعراً ، وإن كان في الدرجة العليا من الشعر ! ! يعيش أعماراً كأعمار الكائنات . . ثم يتحول حاله وينتهي وجوده ! ويصير كما يصير الناس تراباً في التراب . . أما كلام الله ، أما القرآن الكريم ، فقد عرفت من أمره أنه وإن يكن كلاماً مما نطق به الناس ومما جرى على ألسنتهم ، فإنه ليس على ما عهدوا لمواقع الكلام وآثاره في القلوب والعقول . . فما كل بيضاء شحمة ! كما يقولون !

استمع إلى قول الله جلّ وعلا :

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ . . لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . . ومثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » (١)

قف عند هاتين الآيتين ، ناظرًا متأملاً . . مقدراً مفكراً ، وارشفهما
رشقة رشقة . . حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة . . ثم عد إليهما مرة ، ومرة ،
وعشرات المرات ومئاتها وألوفها ، فإنك لن تجد إلا نشوة روحية ، تزداد كلما
ازددت ترتيلاً ، وتلاوة . ولو أقمت على هذا الأيام والسنين . . لن تزيالك
النشوة أبداً ، ولن تزيذك الصحبة إلا شوقاً . . فإنك لبين يدي كلمات «تؤتى
أكلها كل حين بإذن ربها» وهذا هو فيصل ما بين الكلام والكلام - كلام الله
وكلام خلق الله !

والتجربة العملية دائماً هي التي تؤدي إليك أصدق شهادة وأعدلها ، فيما بين
آيات الكتاب وما يكتبه الكتّابون ، ويقول القائلون .

اقرأ من كتاب الله آية أو آيات ، واجعلها على لسانك وعلى سمعك ، وفي
قلبك وعقلك ، واقرأ من كلام الناس أحسن ما يعجبك ويروقك . ثم عدْ
إليه . . ولا أذهب معك إلى أبعد من هذا ، فإنك غير محتاج بعد هذه التجربة
إلى من يقول لك قولاً أو يكشف لك عن الحق وجهاً !

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

كلمات القرآن وآثار الزمن :

لقد صحب القرآن الحياة قرابة أربعة عشر قرناً منذ نزل من السماء إلى يوم
الناس هذا . وهو حديث الدنيا ، في سرها وجهرها ، وهو ملء الأسماع والأفواه ،
مؤمنة وغير مؤمنة ، وهو حركة عاملة دائبة . . مادة للأقلام ،
ومسيحاً للخواطر ، ومسرّاً للعقول ، ومجالاً للجدل والمناظرة . . هو في الأفواه
صلاة وعبادة ، ودعاء ، وهو على الصحف أدب وحكمه وعلم ، وهو شريعة دين
ونظام لمئات الملايين من الناس ، تلقاه أجيالهم جيلاً بعد جيل ، وتعيش فيه أممهم

عصرًا بعد عصر .. أربعة عشر قرنا أو نحوها .. وهو حيث هو .. لا يفرغ
الناس منه أبداً ، ولا تنتهى حاجاتهم منه ، ولا تنقطع ثمراته عن الواردين
والطالبين .

فالؤمنون ، فى شوق متجدد معه ، وفى خير متصل منه ، وفى عطاء موصول ،
من ثمره ، كلما مدوا أيديهم إليه ، قطفوا من أدبه أدبا عالياً ، ومن علمه علماً نافعا ،
ومن شريعته ديناً قيماً !

وغير المؤمنين ، فى عجب من أمره ودهش .. يتناولونه بالأسنة حديد ، ويرمونهم
بسهام مسمومة ، وبكيد عظيم ، فما يصل إليه من كل هذا شيء يضره ، أو يحجب
سنه ، بل يزيده ذلك ألماً وبهاءً ، ويكسب بهذا الاحتشاك أو التحكك به ،
قلوباً تهفو إليه ، وعقولا تتجاوب معه ، والله در الشاعر العربى الذى يقول :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلة طُويت أتاح لها لسانَ حُسودٍ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العودِ

ولو كان القرآن كلاماً من الكلام لفرغ الناس منه - أولياؤه وأعداؤه -
منذ أمد بعيد ، ولقال كلٌّ فيه ما عنده .. من خير أو شر .. من رضى أو سخط ..
من تقدير أو تحقير .. ثم مضوا جميعاً إلى ما فى الحياة من شئون غيره وشئون ،
ولما عاد لهذا الكلام شأن مع الناس بعد هذا أبداً ، شأنهم فى هذا مع كل
عمل إنسانى ، مهما كان له من سلطان على العقول والقلوب ، فى أول مولده
فى الناس .

ولكن ما هذا القرآن ؟ وما كلامه الذى صيغ منه ؟

قد كان ما حير العرب منه ، واخلط عليهم رأيهم فيه .. ذلك أنهم مع ما يجدون

في أنفسهم من روعة له ، ورجفة منه ، واستخذاء دونه - لا يلقاهم منه إلا كلام عرفوه ، ونظم ألقوه ، ومعانٍ دارت في عقولهم ، وجرت على ألسنة حكماهم وخطبائهم ، حتى ليخيل إليهم أنهم قادرون على الإتيان بمثله . . فيقول قائلهم ما حكى القرآن عنهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فإذا شاءوا هذا وأقدموا على تحقيقه ، وجدوا السماء أقرب إليهم من أن يقفوا لآية واحدة من آياته . . إنه كلام . . لاشك أنه كلام ! لم ينكروا منه كلمة ، ولم يجهلوا منه أسلوبا . . ولكنه طعوم وألوان لم يألّفوها من قبل ، ولم يعرفوا لها مثيلا فيما تقلبوا فيه من ألوان البيان ، وطعوم البلاغة ! وأقرب مثل لهذا ما يجده أصحاب الجنة من طعوم ثمارها التي تقدم إليهم في صورة ما عرفوا منها في الحياة الدنيا ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » (١) .

ومرة أخرى . . ما هذا القرآن ؟ وما هذا الكلام الذي صيغ منه ؟
لا نستطيع أن نعطي هنا جوابا عجزت العرب عنه ، ولا أن نكشف وجها لم يستطيع أرباب البلاغة والبيان أن يطلعوا عليه . . ولو أننا أردنا أن نقول قولاً في هذا المقام لما وجدنا لهذا السؤال جوابا إلا قول الحق سبحانه وتعالى في هذا الكلام : « وإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (٢) وقوله جل شأنه : « وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٣) . . ذلك إذا وقف المرء أمام القرآن وقفة المؤمن بالله ، المصدق برسالة

(١) سورة البقرة: ٢٥

(٢) سورة الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤ .

(٣) سورة فصّات: ٥١ ، ٤٢ .

رسوله وما بلغ به عن ربه . أما إذا وقف أمامه وقفة الأديب الذي يستفتى أدبه وذوقه ، ووجدانه ، ولا يسأل عقيدته وإيمانه ، فإنه لا يستطيع أن يقول إلا تلك الأقوال المتناقضة المتضاربة التي كانت تقولها قريش فيه : « إن هذا إلا سحر يُؤثر »^(١) إما أن يكون من كلام البشر فذلك مالا يقول به من له مسكة من عقل ، أو ذوق للكلام ، ولو كان لهذا القول مساعاً لقاتله قريش ، ولافتضاها - والقوم بشر - أن يقولوا مثل هذا القرآن ، ولكنهم وقد عجزوا عن هذا عجزاً مطلقاً ، فقد خرسست ألسنتهم عن أن تنطق بهذا الادعاء .

ومرة ثالثة . .

ما هذا القرآن ؟ وما هذا الكلام الذي صيغ منه ؟

وجوابنا هو : أنه كلام . . عرفته العرب ونطقت به . .

ولكن . . ماذا ؟

انظر :

أرأيت إلى عصا موسى ؟

ما هي ؟ إنها عصا من تلك العِصِيَّ التي تتخذ من الشجر . . ليس فيها شيء يختلف عما في غيرها من العِصِيَّ . .

ولم يكن موسى حين اتخذها قد أجهد نفسه في اختيارها ، وفي البحث عن صفات خاصة فيها ، بل اعلمه مدّ يده إلى أى فرع من أشجار الزيتون التي تغطي دموعس الجبال في ارض مَدْيَنَ ، فسوّى هذا الفرع واتخذهُ عَصاً ! أو لعله وجد تلك العصا مسوّاة عند من يستصنع العِصِيَّ ويسوّيها ، ويعرضها لمن يشتري - فاشتراها !

هذه عصا موسى .. إنها عصا من العصى .. لا أكثر ولا أقل .. وفي هذا يقول الله سبحانه مخاطباً موسى :

« وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » (١) . إنها عصا موسى ، قد أضافها إلى نفسه ، ولم يضيفها إلى الله ، لأنه كان لا يرى فيها شيئاً يخاف العصى التي في أيدي الناس في زمانه ، لا يدرى من أمر عصاه ، إلا أنها قطعة من الخشب . يتوكأ عليها ، ويهشُّ بها على غنمه .. أما المآرب الأخرى التي له فيها فهي ما تستخدم فيه العصا من شئون صغيرة مختلفة .. كأن يدفع بها الأذى ، أو يعلق عليها ثوباً ، أو يحمل بها إداوة .. لم تكن تختلف في شيء أبداً عن تلك العصى التي في يد الرعاة ! ولكن أدرك بعد هذا إلى تلك العصا ، وقد نفخت فيها القدرة من روحها . كيف أصبحت تضم في كيائها قوى خفية ، تظهر عند استدعاء النبي الحكيم لها ؟ فحين أراد الله سبحانه لتلك العصا أن تحمل في كيائها ما تحمل من آيات بينات — قال سبحانه لموسى :

« أَلْقِهَا يَا مُوسَى ! فَآَلَقَهَا ، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ! قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى » (٢) .

لقد فرع موسى من هذا المنظر العجيب الذي صارت إليه تلك الخشبة الميتة الهامدة في يده .. لقد صارت حية تسعى !

« فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » (٣) .

(٢) سورة طه : آية ١٩ - ٢١

(١) سورة طه : آية ١٧ - ١٨

(٣) سورة القصص : آية ٣١

أرأيت إذن كيف كانت العصا في يد موسى؟ ثم كيف أصبحت في يده أيضاً؟ وهى في كلا حالتيها لم تختلف عليه في هيئتها، وفي أوصافها التى عرفها عليها... إنها هى فى كلا الحالين... لم يتغير منها شيء ولم يجد موسى جديداً دخل عليها... ومع هذا فهى بين يديه تحمل ما تحمل من قوى الحق التى تعجز يد البشر عن أن تنال منها منلاً... يلقيها من يده فإذا هى حية تسعى، ويضرب بها البحر فينفلق، فإذا كل فرق كالطود العظيم! ويضرب بها الحجر فتتفجر منه اثنتا عشرة عينا!!

* * *

والكلمات التى نزل بها القرآن الكريم، هن أشبه بتلك العصا فى حالتها معاً... هن كلمات معروفة متداولة، يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تكون قرآناً، كما يعرفها العرب قبل أن تنزل عليهم من السماء... معجزة متحدية! وهى فى حالها قبل أن تكون قرآناً، وبعد أن كانت... اللفظة هى اللفظة، والعبارة هى العبارة... ومع هذا فقد وجد المشركون لهذه الألفاظ، وتلك العبارات فى محيط القرآن، وقعاً جديداً على آذانهم، وسلطاناً قاهراً على قلوبهم، وامتناعاً ممكناً من مشاعرهم، حتى ليستمع أحدهم إلى كلمات الله تعالى وهو متجه إليها بقلب يغلى غيظاً، ونفس تفيض عداوة وحقداً، ثم إذا هو لا يجد ذلك القلب الذى كان معه، ولا تلك النفس التى صحبتته، وإذا هو خزيان يرجف هلعاً، ويضطرب فزعاً، كأنما تمتد إليه يد القدر لتلقى به فى مهاوى الهلاك.

جاء الوليد بن عتبة وكان سيداً من سادات قريش — إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يعرض عليه أن يدع ما هو فيه، وأن يطلب من قريش ما يشاء من مال، أو سلطان، فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم الآيات الأولى من سورة (٦ — معجزة القرآن)

« فصلت » والوليد مأخوذ بها ، لا تختلج فيه حاجة ، فلما بلغ النبيّ إلى قوله تعالى :
« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » (١) .
— أخذ الرجل على فم النبيّ أن يمضى أكثر من هذا ، ودعاه في ذلة
وانكسار ، أن يمسك ! ولم يكن ذلك إلا لأن الرجل عرف وجه الصديق في هذا
الكلام ، بعد أن استيقن أن هذا الكلام لا يصدر من نفس إنسان ، وإنما هو — كما
يقول النبيّ — كلام الله رب العالمين ، وأن ما ينذر به من صواعق ، حق واقع
لا شك فيه .

ومن هذا ما يروى عن إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأنه ذهب
إلى أخته وزوجها بعد أن كانت حدثته نفسه — قبل أن يدخل في الإسلام —
أن يذهب إلى النبيّ وأن يلقى إليه من الأذى ما يليق برجل مثل عمر أن يأخذ
بنصيبه منه من أذى النبيّ ، الذى توزعته قریش فيما بينها ، وتقاسمه ساداتها ،
وتنافس فيه أشرافها !

نقول : كان عمر في طريقه إلى النبيّ يحمل إليه الأذى والضرر ، فلقى في بعض
الطريق من سألته : إلى أن يريد ؟ فلما أخبره بوجهته . . عجب مما هو بسبيله ، إذ
كان محمد قد دخل على أخته وزوجها بدينه . . فكيف لا يدفع عمر عن بيته هذا
الأذى ، ثم تحدثه نفسه أن يذهب إلى « محمد » ويتجداه ؟

وصعق عمر لهذا الخبر الذى لم يكن يعلم من أمره شيئاً . . وكاد يختنق غيظاً
وحقناً . . ثم عدل عن طريقه الذى كان يؤدى به إلى محمد ، وركب الطريق
إلى بيت أخته وزوجها سعيد ، وقد غرق في عرق الحمى التى ركبته !

وطرق الباب . . وعلمت فاطمة بنت الخطاب أنه عمر . . وكانت هى وزوجها
يقرآن آيات من القرآن ، يقرؤهم إياها « خَبَابُ ابْنِ الْأَرْتِ » .

وحار القوم في أمرهم . . ولم يكن بد من أن يدخل عمر . . فاخترت خباب
في ناحية من الدار ، ودخل عمر !!

فبادر سعيداً بلطمة ، فشججه بها ! ، ووقفت أخته بين الرجلين فدفعها عمر ،
وصكها صكة أسالت دمها . . ثم قال عمر لأخته ولسعيد : أَصَبَوْنَا ؟ . فقالت
أخته : لا ، بل لقد أسلمنا ، فافعل ما بدا لك !! وكانت في يد « سعيد » صحيفة
فتناولها عمر وقرأ ما وجد فيها ، فإذا هي آيات من سورة طه . وما كاد ينتهي
منها حتى سكن ثأره ، وهدأت نفسه ، واطمأن قلبه ، وأنس لهذا الكلام الذي
تمثل له ملائكة أولى أجنحة ، تحمله إلى عالم النور ، منشدة هذا النشيد العلوي :

« طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ،
تَنزِيلًا مِّنْ مَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ،
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجَهَّرَ
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » (١) .

ويفرغ عمر من قراءة الآيات ، وتستقر أقدامه على الأرض ، بعد هذه
اللحظات الحاطفة التي عاش فيها محلقاً في السماء . ويلتفت إلى سعيد وإلى أخته
في ضراعة ولهفة : وأين محمد الآن ؟ ويستشف القوم ما وراء كلمات عمر من إيمان
بمحمد ، وبلهفة إلى لقائه . . ويخرج خباب من مخباء ، فيقول : الله الله يا عمر . .
فالملك ذلك الذي استجاب الله لرسوله فيه ، فلقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
البارحة يقول : « اللهم أعز الإسلام بأحد العُمَرَيْنِ » (٢) وكان أن ذهب عمر من فوره
إلى النبي ودخل في جماعة المسلمين !

(١) سورة طه : ١ - ٨

(٢) جاء عمر بن الخطاب . وعمر بن هشام ، وهو أبو هب ، ولقد سبقت الحسنى
لابن الخطاب وثني عمر وعمر بن هشام هكذا « عمرين » على التثنية لعمر .

ويحدث التاريخ أيضاً أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : اقرأ عليّ ، فقرأ عليه :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (١) .

« فقال أعدّ عليّ ، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « والله إن له للحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغديق ، وما يقول ذلك بشر ! » .

لقد أخذ كثير من الذين استمعوا إلى القرآن قبل أن يسموا - أخذوا بروعته ، وفاضت نفوسهم خشية ورهبة ، لما كان يطلع عليهم منه من لسان روحية كأنها مس السكر براء . . ولهذا عجب القرآن من أناس قست قلوبهم ، وتبلدت أحاسيسهم ، فلم تأخذهم للقرآن روعة ، ولم تحضرهم منه حال تذوب لها قلوبهم ، وتنفطر منها أفئدتهم . .

« فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ؟ » (٢) .

إنهم لأقل إحساساً وأشد موأناً من الحجر الصلد . . !

« وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٣) .

فماذا في هذا الكلام الذي إذا سمعه الذين عرفوا وجهه من قبل في مختلف

(٢) سورة الانشقاق ٢٠ ، ٢١

(١) سورة النحل : ٩٠

(٣) سورة البقرة : ٧٤

أحاديثهم ، أخذوا به وركبتهم منه حال ؟ إنه غير جديد عليهم ولكنه مع هذا يطلع عليهم وكأنهم يسمعون كتابته لأول مرة . وكأن تلك الكلمات لم تكن تقع في آذانهم قبل يومهم هذا !!

فما هذا الكلام ؟ وما هذا القرآن ؟

ذلك ما نريد أن نجيب عليه في المباحث التالية في هذا الكتاب ، مستلهمين من الله سبحانه العون والسداد .
إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

الباب الثاني

المعجزة .. في زمانها ومكانها

ما المعجزة :

المعجزة في اللغة اسم فاعل من الإعجاز ، والإعجاز مصدر للفعل « أعجز » ..
يقال : أعجز فلان عن الأمر ، وأعجزه الأمر إذا حاوله فلم يستطعه ، ولم تنسج له
مقدرته وجهده .

« والمعجزة في لسان الشرع ، أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم عن
المعارضة (١) » .

يقول ابن خلدون : « إن المعجزات هي أفعال يعجز البشر عن مثلها ،
فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد ، وإنما تقع في هير محل
قدرتهم (٢) » !!

والمعجزة : إما حسية ، تجابه الحواس ، وتتحدى القدر .. وأغلب المعجزات
التي سبقت معجزة نبي الإسلام كانت من هذا النوع ، أي أنها كانت تقع
في مجال الحس ، وخاصة حاسة النظر ، حيث أنها في هذا المجال تنكشف للناس
على صورة تكاد تكون واحدة ، لا اختلاف عليها بينهم ، لأن الناس لا يختلفون
كثيراً في مدلول المرئيات ، على حين يختلفون اختلافاً بعيداً في مدلول ما يقع
للحواس الأخرى من مسموعات ، ومذوقات ، ومشموحات ، ولمسوسات .
وإما أن تكون المعجزة عقلية تواجه العقل ، وتلقاه بكل ما فيه من قوى

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي - جزء ٢ ص ١١٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٠ .

الإدراك والاستبصار . . وهذا النوع من المعجزات لا يقع من الناس موقعاً متقارباً ، وإنما يلقاه كل إنسان بما لديه من إدراك ، وفهم ، وقدرة على التمييز بين المدركات ، والتفرقة بين الخير والشر .

يقول السيوطي : « وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية . . لبلاذتهم ، وقلة بصيرتهم . . ! وأكثر معجزات هذه الأمة — الإسلامية — عقلية . . لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم . . ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خُصَّتْ بالمعجزة العقلية الباقية . . ليراها ذوو البصائر » (١) .

هكذا يقول السيوطي . . ونحن نقول إن معجزة الرسول هي القرآن وليست له معجزة غيرها . . وإن كانت كل آية من آيات الكتاب الكريم معجزة ، بل معجزات . . قال تعالى :

« أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » (٢) .

لماذا تنعقد المعجزات وتختلف ؟ :

والمعروف في تاريخ الأديان ، وفي نصوص الكتب المقدسة أن كل نبي كان يحمل بين يديه إلى قومه آية صدقه ، في معجزة ، يلقاها بها ، متحدياً ، على صورة لم يسبقه إليها أحد من قبل ، ولم ينكشف للناس شيء من وجهها قبل أن تطلع عليهم ، قاهرة ، متحدية .

بل إن بعض الأنبياء كان يحمل إلى قومه أكثر من معجزة ، ويحجى إليهم بأكثر من دليل يدل على أنه مرسل من عند الله ، وهذه المعجزات التي بين يديه هي شهود عدول على صدق ما يقول ، وما يدعى ! فإن لم يصدقوا بأن ما بين يديه هو آية من آيات الله ، لاتألفها يد بشر ، فليأتوا بمثلها . . وهيئات هيئات !

(١) الإتيان للسيوطي - جزء ٢ - ١١٦ . (٢) سورة العنكبوت آية ٥٠ .

فموسى - عليه السلام - قد حمل إلى بنى إسرائيل عصا كانت تنفجر منها المعجزات . . . يلقى بها من يده فتتقلب حية تسعى ، ويضرب بها البحر فينفلق عن طريق يبس بين جبال عالية من الماء . . . ويضرب بها وجه الحجر فيتفجر منه الماء ، وتسيل العيون . . . ثم كان معه إلى جانب تلك العصا ومعجزاتها ، معجزة أخرى هي يده ، يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء . . . ثم من معجزاته كذلك سَوَّى آيات النعمة والبلاء على فرعون وقومه :

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ . . آيَات مُفَصَّلَاتٍ » (١)

وعيسى - عليه السلام - كانت معجزته في يده ، وفي فمه !! يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله . . . وبكلمة من فمه وإشارة من يده ؛ يحيى الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، كما يقول سبحانه على لسان عيسى : « جئكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم . . . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (٢) ،

واختلاف المعجزات في أجيال الناس هو مما اقتضته دواعى الحكمة التى جاءت المعجزات من أجلها . . . ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزماتهم وأمكنهم ، وإذا كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول ، وقيام الدلائل على صحة دعواه ، فكان لا بد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم ، أخذة بعقولهم وقلوبهم . . . فيما يدور فى هذه العقول ، وما يحتاج

(١) سورة الاعراف آية : ١٣٣

(٢) سورة آل عمران ٤٩

فى تلك القلوب ، وبهذا تستولى المعجزة على كيان الناس ، وتُخرس ألسنتهم ، وتقوم عليهم الحجة كاملة ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن ينتظروا الهلاك الماحق ، الذى لا يبقى ولا يذر . . ومن هنا كانت تلك المهلكات التى وقعت بهؤلاء الأقوام الذين كذبوا رسل الله الذين جاءوهم بتلك المعجزات المادية الواقعة فى مرأى العين ، والتى لا يختلف عليها اثنان ، فى حين أنه لم يعجل الله تعالى بهلاك من ووجهوا بالمعجزة العقلية — وهى القرآن الكريم — لأن هذه المعجزة تحتاج إلى تدبر وتأمل ، وطول نظر ، ولهذا كانت فى صحبة دائمة للناس ، ينظرون فيها بعقولهم ، ويرددون النظر فيها حالا بعد حال ، حتى تنكشف لهم وجوه الإعجاز منها . . ثم إن هذه المعجزة القرآنية لا تقع من الناس موقعا واحدا ، لاختلاف مداركهم ، وتباين مستوى تفكيرهم ، وأنه إذا كان فى الناس من ينكشف له الحق منها لأول نظرة فى وجهها ، ومع أى آية تسمعها أذنه ، فإن كثيرا من الناس لا يهتدى إلى مواقع الحق من تلك الكلمات إلا بعد زمن قد يقصر وقد يطول ، ولهذا كان من حكمة الحكيم العليم أن يفسح الوقت للناظرين فى المعجزة القرآنية ، وألا يأخذهم بالعذاب فى هذه الدنيا ، حتى تتاح لهم الفرصة لمواجهة تلك المعجزة إلى آخر يوم من أيام حياتهم فى هذه الدنيا .

وهذا ، وإن يكن من الممكن أن يتحقق فى المعجزة المادية الواحدة ، تتكرر جيلا بعد جيل ، فتظل أبدا متجددة قاهرة — إلا أن ذلك يذهب بكثير من تأثير المعجزة وينزل بقدر كبير من قدرها فى أعين الناس .

فلو أن عصا موسى مثلا كانت هى المعجزة التى يتناولها الرسل رسولا بعد رسول ، وكانت فى كل مرة ، وفى كل حال تطلع على الناس بتلك المعجزات التى كانت لها عند موسى ، أو بمعجزات أخرى غيرها — لو أن ذلك كان لما كان

لها على الناس ذلك السلطان الذى المعجزة التى تجيء متفردة بوجودها ، والتى تجيء إلى الناس على غير انتظار ، وعلى خلاف أية صورة يتصورونها - ذلك أن أقل ما يقع للناس من المعجزة الواحدة المتكررة أنها ربما كانت وائدة الصدفة ، توارثها أصحابها . . خلفاً عن سلف ، أو أنها بنت تجربة ناجحة لرجل حاذق ماهر ، آثر بها نفسه ، وجعل سرها مستغلقاً إلا على من يختار ويرضى من ورثته ، أو تلاميذه وحوارييه !!

ثم إن حصر أمارات السماء فى أمر واحد على صورة واحدة متكررة ، فيه اتهام لقدرة الله ، وفتح باب واسع للتشكك فى صدق الرسول . . إذ أن القدرة الإلهية لا حدود لها ، فكيف لا يراها الناس إلا فى صورة واحدة ، تتكرر على الأجيال ؟

لهذا كان من تدبير الحكيم العليم القادر أن يكون فى يد كل نبي دليل صدقه الذى لا يشاركه فيه غيره ، وأن تكون معجزته التى يلقى بها الناس حدثاً فريداً ، لم يقع لهم فى خاطر ، ولم يحل لهم فى تفكير !

هل المعجزة لازمة للرسول ؟ :

إن الرسول يحىء إلى الناس محملاً برسالة فريدة بين الرسائل التى يحملها الناس إلى الناس فيما بينهم . . إنه يحمل رسالة من الله إلى الناس ، يدعوهم فيها إلى أمور تتغير بها معالم حياتهم الروحية ، والعقلية ، بل والمادية . فهو يدعوهم أولاً ما يدعوهم إلى ترك ما يعبدون من معبودات باطلة فاسدة ، وأن يتخلعوا انخلاعاً كاملاً عما بينهم وبين هذه المعبودات من صلة ، وأن يوجهوا وجوههم خالصة لله وحده ، لا شريك له .

إنها دعوة إلى انقلاب شامل فى تفكير الناس ، وفى وجدانهم ومشاعرهم . .

إنها عملية جراحية بالغة ، يحريها الرسول في أعماق الإنسان . ويلبس بها روحه ،
ويعس وجدانه ، ليخرج هذه الضلالات المندسة في كيانه . . . وذلك أمر يتطلب
أن يكون بين يدي الرسول وسائل مادية وروحية ليست مما يتعامل به
الناس .

فهو يحییهم أولاً بالمعجزة التي تشهد له أنه رسول من عند الله . . فإذا
استقام له ذلك ، وعملت المعجزة عملها في الناس ، فأمنوا له ، وصدقوا به —
دخل إلى نفوسهم ، وإلى عقولهم وقلوبهم بالشریعة التي شرعها الله لهم ، فدعاهم
إليها ، وأخذهم بها ، وأقام وجودهم عليها . . فهو لا يدعوهم إلى متابعتها إلا بعد
أن يثقوا فيه ، وبهذا يتقبلون منه كل ما يدعوهم إليه ، عن ثقة واطمئنان .

وهذا الأمر العظيم الذي يحیی به الرسول إلى الناس مخبراً إياهم أنه إنما يبلغهم
رسالة من الله تلقاها عنه ، وأمره بتبليغها إليهم — هذا الأمر لا يمكن أن يقبله
الناس على علاته ، وأن يستجيبوا له بلا نظر ، وبلا مراجعة ، وإنما يلقونه بالمعجب
والدهش ، ويقفون منه موقف الريبة والحذر ، أو التهمة والإنكار .

إنه لنباً عظيم أن يحیی في الناس من يقول إنه رسول الله . . إنها دعوى
عجيبة تحتاج إلى برهان ، بل وإلى أكثر من برهان . . يقوم إلى جوارها . .
يؤيدها ، ويفتح للناس الطريق إلى قبولها ، والتصديق بها .

من أجل هذا كان الرسول دائماً مطالباً من قومه بأن يقدم لهم الدليل
القاطع الذي يشهد له بأنه متصل بالسماء ، وأنه القائم بالسفارة بين الله والناس !
وهذا الدليل ينبغي ألا يكون في طوق البشر أن يحصلوا على مثله ، وإنما
هو من صنع القدرة الإلهية التي يدعی الرسول الاتصال بها ، قد اختصته به ،
وجعلته بين يدي دعواه . ومن هنا كان الدليل « معجزة » يعجز الناس عن

الإتيان بمثلها . وكان « آية » ، أى أماره وعلامه على صدق الرسول ، وصدق ما جاء به !

إن « السفير » الذى يقوم بالسفارة بين دولة ودولة ، لا تقبل سفارته ، ولا يعول على ما يسفر به إلا إذا حمل بين يديه أوراقاً مخطومة بخاتم دولته ، موثقة بالأدلة التى تثبت شخصيته ومهمته ! .

والسفارة بين الله والناس أعظم سفارة يقوم بها إنسان فى هذا العالم .. ولهذا اقتضت حكمة الله أن يؤيد رسله بالمعجزات والأمارات التى تشهد لهم أنهم رسله وحملة رسالاته إلى عباده .

الناس والمعجزات :

ومع أن الرسل قد جاءوا إلى أقوامهم بالأمارات القاطعة ، والمعجزات القاهرة التى تشهد أنهم رسل الله - مع هذا فقد وقف كثير من الناس إزاء هذه المعجزات وقفة عناد وإعنت ، فاستقبلوا الرسول استقبالا مكذبا مرتابا ، أو منابذا محارب !

إن الذى دخل على المكذبين بالرسول والمعادين لهم لم يكن من جهة قصور فى المعجزة ، أو نقص فى كفاية الأدلة المقنعة ، والبراهين المبينة ، وإنما كان ذلك لما يقع فى تفكير الناس من استكثار هذا الأمر على بشر من بينهم . إذ كيف يطول إنسان السماء ، وتقوم بينه وبين الله هذه الصلة الوثيقة ، وهو واحد منهم ، لا يبين عنهم بشيء ، ولا يفضلهم فى شيء ؟ !

وتختلط عند الناس فى هذا الأمر كثير من الأفكار المضطربة ، والمواقف المتضاربة . . من الغيرة ، والحمد ، إلى عظمة الأمر واستكثاره على إنسان أن يستقل به وينفرد به دون سائر الناس !

لقد كذب اليهود بكل المعجزات التي جاءهم بها أنبياءهم ، وهي معجزات
قاهرة مبصرة . . فموسى عليه السلام . . قد فلق بهم البحر ونجاهم من فرعون . .
وفجر لهم من الحجر عيوناً ، يستقون منها ، ويحيون عليها ، وأنزل عليهم المن
والسلوى . . ومع هذا فلم يروا في ذلك كله دلائل صدقه . . فقالوا له :

« لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ! » (١) .

وجاءهم عيسى بالمعجزات التي أنطق الجراد ، وأحيت الأموات . . فلم يكن
فيها لليهود مقنع ! حتى أن الحواريين ، وهم أول من استجاب لعيسى وصدقوه ،
وشهد المعجزات القاهرة التي بين يديه - هؤلاء الحواريون لم تطمئن قلوبهم
الاطمئنان الكامل إلى ما يشهدون من تلك المعجزات ، فقالوا ما ذكره القرآن
الكريم على لسانهم : « يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا
مائدة من السماء ؟ » ويحييهم عيسى عليه السلام قائلاً : « اتقوا الله إن كنتم
مؤمنين » (٢) . . ومع هذا فإنهم لا يسكنون عن المطلب الذي طلبوه ، فيقولون :
« نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونسكون عليها من
الشاهدين » (٣) .

هكذا يكون موقف الناس بين يدي المعجزات المادية ، حيث لا يكون
للعقل سبيل إلى النظر فيها . . إنها فوق مستوى العقول ، ولهذا يظل العقل في
حاجة إلى وارد يرد عليه من وراء هذه المعجزات المادية ، حتى يجد الطمأنينة
والسكن إليها . . ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء إلى قريش بالمعجزة الخالدة ،
فأسمعهم آيات الله التي أخذت بمجامع قلوبهم ، واستمرت على عقولهم ، فما أذعنوا
للحق ، ولا استجابوا له ، وإن يكونوا قد عرفوه واستيقنوه .

(١) سورة البقرة : ٥٥ .

(٢) سورة المائدة : ١١٣ .

« وَقَالُوا إِنَّا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لَكَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي أَهْلٌ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » (١).

وفي هذا ما يشير إلى أن العقل وإن رأى الحق في المعجزة العقلية أو عرف أنها فوق مستواه — هذا العقل لا يقنع غالباً بما رأى، بل يريد شاهداً من عالم الحسوس، مما يقع لبصره، فيلتقي بهذا وارد الحواس مع واردات العقل . . وهذا إنما يكون من العقول التي غلب عليها الهوى، وزاحم مدركاتها الضلال الذي عشت فيها . . أما العقول السليمة، فإنها ترضى بمدركات العقل حكماً، وتجعل له سلطانه الذي لا ينازع عندها، ولهذا جاء قوله تعالى منكرأ على أهل الضلال أن يلمسوا غير مدركات عقولهم دليلاً يدلهم على مواقع الحق والخير، فيقول سبحانه: « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ؟ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٢).

ولا شك أن هذا الموقف الذي يفقه الناس من معجزات الرسل، هو موقف لم يحتكم فيه الناس إلى عقولهم، بقدر ما كانوا يحتكمون إلى أهوائهم الغالبة، وعاداتهم المتحكمة . .

وإذا كان كثير من الناس لم يصدقوا بمعجزات الرسل، ولم ينتفعوا بما حملوا من خير وهدى، فإن أعداداً غير قليلة من الناس أيضاً قد صدقوا الرسل، وآمنوا

(١) سورة الإسراء ٩٠ - ٩١

(٢) سورة العنكبوت: ٥١

بما معهم وانتفعوا به واستقاموا عليه ، وقليل في الناس أولئك الذين يؤمنون بالرسول وبالرسالة التي حملها دون أن يطالبوا بمعجزة تشهد لها وله ، لأن الخير الذي تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم خير شاهد على أنها حق ، وأنها من عند الله . . . ولكن لا يرى هذا الخير إلا ذوو القلوب السليمة ، والبصائر المنيرة النافذة ، الناظرة بنور الله .

وهكذا كل خير يسوقه الله إلى عباده . . . يقع من الناس كما يقع الغيث من الأرض . . . ينفع أقواما ، ويضر آخرين ، وتحيا به أرض ، على حين لا تمسك منه أخرى قطرة واحدة ! وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم في قوله :

« مثل ما بعثني به الله عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أخاذات^(١) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

المعجزة الخالصة :

وإذا كان لكل نبي آياته ومعجزاته التي يؤيد بها دعوى نبوته ورسالته ، فما هي المعجزة أو المعجزات التي جاء بها « محمد » بين يدي رسالته . . . لتقطع على الناس طريق الشك فيه ، وفيما يدعيه ؟ لا شك عندنا في أن معجزة « محمد »

(١) الأخاذات : جمع أخاذة ، وهي المصنع أو الغدير الذي يجتمع فيه الماء . . . وقد وردت كلمة «أخاذات» مصحفة في كتب الأحاديث المطبوعة فجاءت «أجاذب» . . . والصحيح ما أثبتناه ، نقلاً عن عوارف المعارف للسهرودي على هامش لمحياء العلوم للغزالي جزء ١

صلوات الله وسلامه عليه هي القرآن الكريم . كما صرح بذلك القرآن نفسه في قوله تعالى :

«وَقَالُوا لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ . . . قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١) .

فهذه الآية صريحة في قطع الكافرين عن البحث في آيات أخرى غير القرآن . . . « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

فهو الرحمة والذكرى معاً . . . هو المعجزة ، وهو الشريعة . . . ففي الشريعة يجدون الرحمة ، وفي الآيات التي نزلت بهذه الشريعة يرون الذكرى والمعجزة . . . لقوم يؤمنون . . . وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن وموقف قريش منه :

« أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » (٢) .

تلك هي معجزة الرسول ، كما ينطق بها القرآن الكريم .

ومع هذا فقد حاول كثير من العلماء أن يضيفوا إلى تلك المعجزة معجزات أخرى للرسول الكريم ؛ مصورة في أحداث نقلها بعض الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعلوها من معجزاته . كانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وكتكثير الطعام القليل حتى يطعم منه الأعداد الكثيرة من الناس ، ومثل

(١) سورة المنكحوت : ٥٠ - ٥١ (٢) سورة الشعراء : ١٩٧ - ٢٠١

(٧ - معجاز القرآن)

كلام الضب والجل بين يديه .. وغير ذلك مما تتحدث به كتب السيرة ،
وتقيض فيه .

وهذه أمور - إن ثبتت للرسول الكريم - لا تكون شيئاً إلى منزلته
التي رفعه الله إليها ، ولا إلى تلك الرسالة الشاملة التي ندبه لها .. كما أنها لا تقاس
إلى هذا الكتاب الكريم الذي وضعه الله تعالى بين يديه وأجراه على لسانه ،
ذلك الكتاب الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من
حكيم حميد » .. فكل آية من آياته معجزة قاهرة ، خالدة أبد الدهر .. فأين
تقع تلك المعجزات التي تتحدث عنها كتب السيرة من آيات الكتاب الكريم ..
كثرة وعداً ؟ .

وإذا اختلف الناس أو شكوا في تلك المعجزات التي تضاف إلى النبي
الكريم ، وتُحسب له ، فإن المعجزة التي لا يختلف أحد عليها ، ولا يشك أحد فيها ،
هي القرآن الكريم ، الذي قامت شواهد الحياة كلها على صدقه ، وتداوله ،
على الصورة التي نزل بها ، إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، لم تنقص منه كلمة ،
ولم يتبدل منه حرف ..

فما لنا نخلط هذا بتلك ؟ ونجمع بين ما ضمن الله حفظه ، وسلامته في
قوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نُزَيِّنُ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (١) .

وبين ما هو موضع زيادة ونقص ، ومجال تحريف وتبديل ؟ إن تلك
المعجزات ، التي رآها الناس تجرى على يد النبي في عصر النبوة ، هي من
خصوصيات النبي ، ومن مزيد فضل الله تعالى عليه ، وإحسانه إليه ، ثم هي من جهة
أخرى معجزات قائمة بذاتها إلى جانب المعجزة الكبرى ، وهي القرآن الكريم ،

تقوم منها حجة مادية إلى جانب تلك المعجزة العقلية ، تفتح طرقاً إلى القلوب المغلقة ، للإيمان بالله ، والتصديق برسوله - صلوات الله وسلامه عليه - فهي حجة على من شهدوها ، ولم يؤمنوا بالله ، ولم يصدقوا رسول الله ، كما كان - صلوات الله وسلامه عليه - في خلقه معجزة ، شاهدة بصدقه ، حتى لقد آمن كثير برسول الله عن نظرهم إليه ، وقرسهم في وجهه ، وحتى لقد كان يلقاه أحدهم فيقول له : « آله أرسلك ؟ . فإذا قال الرسول : نعم الله أرسلني ، فلا يملك سائله إلا أن يقول : لقد صدقتك ، فأمنت بما جئت به ، فإن هذا وجه لا يكذب أبداً ! »

لندع إذن تلك المعجزات التي تضاف إلى الرسول ، ولنجعلها بمعزل عن المعجزة القرآنية ، التي جاءت للتحدي ، ولإقامة الحجة على الناس ، فهي وحدها معجزة الرسالة دون سواها ، ولتكن تلك المعجزات الأخرى - قليلة كانت أو كثيرة - لذات الرسول ، وخاصة نفسه ، نعمة من نعم الله عليه وتكريمه له .

يقول الباقلاني : إن نبوة نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم بُنيت على هذه المعجزة والقرآن الكريم ، وإن كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة ، وأحوال خاصة ، وعلى أشخاص خاصة ، ونُقل بعضها نقلاً متواتراً يقع العلم به وجوداً ، وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً ، إلا أنه حُكي بمشهد من الجمع العظيم الذين شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حكي لأنكروه أو لأنكروه بعضهم ، فحل محل المعنى الأول . وإن لم يتواتر أصل النقل فيه .. وبعضها مما نقل من جهة الأحاد ، وكان وقوعه بين يدي الأحاد !

« فآما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة ، عمت الثقلين ، وبقيت بقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها وإلى يوم القيامة على حد واحد^(١) ،

(١) لمعجاز القرآن ثلثاً فلاني (هامش الاتفاق في علوم القرآن للسيوطي) ص ٨

ويقول ابن خلدون :

« واعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها دلالة - القرآن الكريم »
المنزل على نبينا « محمد ، صلى الله عليه وسلم .

« فإن الخوارق في الغالب ، تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبىؐ ، ويأتى بالمعجزة شاهدة على صدقه . . » - يريد ابن خلدون أن يقول إن الرسول من الرسل كان يحمل إلى الناس أمرين : شريعة يوحى إليه بها ، يدعوهم إليها ، ومعجزة تشهد له بأنه رسول من عند الله ، وأنه صادق فيما يدعو إليه . . بمعنى أن هذه المعجزات المادية التى يواجه بها الرسول قومه ، هى شاهد صدق يشهد لما يدعوهم إليه من أنه من عند الله ، وأنه رسول الله ، إذ كانت دعوة الرسول فى ذاتها لا تحمل معها من الشواهد والقرائن معجزة تشهد لتلك الدعوة أنها من عند الله .

ثم يقول ابن خلدون :

« والقرآن هو نفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له - كسائر المعجزات - مع الوحى .
فهو واضح الدلالة . . لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . »

ومعنى هذا الذى يقوله ابن خلدون . . أن النبى صلى الله عليه وسلم حمل إلى الناس أمراً واحداً فقط ، هو الشريعة ، وفى الشريعة نفسها المعجزة التى تشهد له بأنه رسول الله ، الصادق فيما يقول عن الله . . فمن قرأ آيات من القرآن الكريم ، أو استمع إلى آيات منه ، طالع فى وجهها معجزة متجددة ، تشهد أنها كلمات الله وأنه ليس لبشر أن ينطق بمثلها . .

ثم يقول ابن خلدون !

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

« ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . .
وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلى ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً
يوم القيامة » .

ثم يفسر ابن خلدون معنى هذا الحديث الشريف بقوله :

« يشير - أى النبي - إلى أن المعجز متى كان بهذه المثابة فى الوضوح ،
وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحي - كان المصدق لها أكثر ، لوضوحها . .
فكثير المصدق والمؤمن ، وهو التابع والأمة » (١) .

ونقول : إن الرسول الكريم يكشف فى هذا الحديث عن المعجزة القرآنية
بأنها معجزة عقلية . . هى وحى يوحى ، أى شئ يدرك بعين البصيرة ، فيمتد
إليه العقل من خلال الإشارات الخفية ، والمحات البعيدة ، التى تتجمع من خيوطها
شواهد الحق على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر .

فليس المقصود فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما كان الذى أوتيته وحياً
يوحى » - ليس المقصود بالوحى هنا الوحي الذى نزل عليه بالقرآن ، وإنما هو
الوحى الذى ينزل على قلوب الناس من القرآن حين يستمعون إليه أو يقرءونه .
فالوحى . . معناه هنا الإشارة الدالة ، واللمحة الموحية . .

قال الشاعر (٢) :

هل من معاشرٍ غيركم أدعوهو فلقد سئمتُ دعاء : يا لآكلاب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢

(٢) هو القتال الكلابى ، واسمه عبید الله بن مجيب المضرحى ، من بكر بن كلاب ،
يوغلب عليه هذا اللقب لتمرده وفتكه .

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا ووحيتُ وحيًا ليس بالمرتاب
وليس في القرآن الكريم آية من آياته تخلو من إشارة دالة ، أو لمحة موحية ،
تتولد منها حقيقة كاملة ، تنطق بأن هذا القرآن هو كتاب الله ، وأن هذا الكلام
هو كلام الله .

ومن هنا يكثر أتباع هذه الرسالة ، إذ هي رسالة إلى كل إنسان ، ووحى
إلى كل عقل ! . . لا يحصرها زمان ، ولا يحدّها مكان !

يقول « جرونييادم » صاحب كتاب « حضارة الإسلام » في الحديث عن
معجزة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه :

« ويُصبح الكفار مطالبين بمعجزة . . ويدّعون أنهم يشكون أن الله
يختار رسولاً له ، رجلاً وسطاً في المركز الاجتماعي . .

« ولم يجد « محمد » بداً من أن يحاول أن يقنع المتشككة بأن القرآن نفسه
هو المعجزة التي تشهد بصدقه . .

« فالقرآن ظاهرة لم يسبق لها مثيل في اللسان العربي ، وليست آياته مما اخترع
النبي . . بل هي — إن جاز هذا القول — الصورة العربية لكلمة الله نفسه . .
كما تلاها « محمد » أو أوحيت إليه عن أصل القرآن السماوى الذى فى أم الكتاب . .
ولا يستطيع « محمد » أن يضيف إليه كلمة واحدة ، أو أن يلغى منه كلمة واحدة :
« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ يُمْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَئِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ » (١)

« على أن «محمدًا» نفسه — حامل هذه الرسالة السامية ، وآخر مبلغ للوحي ، يرسله الله للناس — ليس إلا رجلًا فانيًا » (١) .

ونعم إن «محمدًا» رجل فان ، ولكنه يحمل بين يديه ، وفي قلبه ، وعلى لسانه آية خالدة . . هي هذا القرآن الذي تلقاه عن ربه . . روحا يبعث الحياة حيث أصاب !

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَكَيِّنَ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (٢) .

رسمه المعجزة ومظهرها :

كان من تدبير الحكيم العليم وتقديره أن تقع معجزات الرسل موقعها المناسب لها ، كي تُطْلِعَ الثمر المرجو منها . فيصيب الناس من ذلك الثمر على قدر ما في نفوسهم من استعداد للالتقاء بهذا الخير ، والإفادة منه .

وأحسن مواقع الخير للناس أن يلقاهم من حيث تمتدأ بصارهم ، وتتجه عزامتهم ، وتجتمع آمالهم . . إنهم حينئذ يلقونه وكأنهم على موعد معه ، فيكون منهم التفات إليه ، واهتمام به ، واجتماع عليه . . يقبلونه بين أيديهم ، ويحتكمون فيه إلى عقولهم ، فيحيا به من يحيا ، ويهلك به من يهلك . . « ومن الخير ما قتل ! » . . وليس كذلك الخير حين يطلع في الناس من اتجاه غير اتجاههم . . فيكون هو في واد ، والناس في واد ، لا يلتفتون إليه ، ولا يققون عنده . . إنه ليس على الطريق التي يسلكون !!

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٤ (٢) سورة الشورى : الآيتان الاخيرتان منها .

لهذا كانت معجزات الرسل - وهى خير مرسل من السماء للناس -
تطلع فى القوم وكأنها أمل كان يضطرب فى صدورهم ، فحقته الأيام ، أو حلم
كانوا يظنون أنه أضغاث أحلام ، فجاءهم الرسول بتأويله . . وضيقاً مشرقاً ، كفلق
الصبح ، أو ألق الضحى . !

والمعجزات التى نراها على تلك الصفة ، هى تلك المعجزات التى تكون بين
يدى الرسول شاهداً مبيناً على صدق رسالته ، وبرهاناً قاطعاً على أنه مرسل من
عند الله . فى هذه المعجزات ترى الناس أنهم كانوا يحاولون أسراراً أعياهم اضطلاعه
فوقع على يد إنسان منهم ، ولن يكون لهم أن يققوا أثره ، أو يلحقوا به أبداً . .
وهنا يرون أن هذا الأمر ليس من صنع إنسان ، ولا فى طوق بشر ، وأنه
- كما يقول لهم نبيهم - آية من السماء ، ليس له هو فيها إلا أنه الذى دعى من
السماء لحماها إليهم . . أما تلك المعجزات التى تقع بالدمار والهلاك على المكذبين
بالرسل ، فليس من شأنها أن تجيء على وفاق مع مجريات الحياة التى يحياها الناس ،
ولا على ما لهم من امتلاك للحياة فى علم أو فن فيها . . ذلك أن هذا النوع من
المعجزات إنما يجيء للقوم بفتنة من وراء ظهورهم ، لا ليقم الحجة عليهم ، ولا
ليقدم شواهد الإعجاز لهم ، وإنما ليهدم عليهم ، ويدفع بهم فى لجة خاطفة إلى مهاوى
الهلاك ، والقضاء ! . . بعد أن عافوا الدواء الذى قدمته لهم السماء ، وبعد أن أبوا أن
يمدوا أيديهم إلى اليد الممدودة لإنقاذهم . . فصاروا إلى مصيرهم المحتوم !!

وإذا كان بعض العلماء لم ير فى معجزات موسى توافقاً مع ما كان عليه الحال
فى مصر يومذاك ، وأن السحر الذى جاء به سحرة فرعون لم يكن من جنس
المعجزة التى جاء بها موسى ، والتى أقامت من العصا حية تسعى ، إذ كان ما جاءها
به ليس إلا ضرباً من الشعوذة ، أو فناً من الحيل ، لا يقوم على علم ، ولا يستند

إلى حق ، ولهذا فإن السحرة كانوا أول من استخذى أمام المعجزة ، لأنهم أعرف الناس بما في أيديهم من باطل لا وجه له .. في مواجهة هذا الحق المبين .

— إذا كان بعض العلماء يرى هذا ، ويحسب أن ما جاء به سحرة فرعون ليس إلا مجرد تلفيقات أوحى بها إليهم المعجزة التي قدمها موسى بين يدي فرعون ، قبل أن يلقاه فرعون بهذا التحدي ، الذي جمع له السحرة من كل مكان في مصر — فإن التاريخ يشهد بغير هذا . إذ أن الكهنة في عهد الفراعنة ، كان لهم قدرات عجيبة في كثير من الأمور ، وأنهم كانوا مستودع أسرار لكثير من العلوم والفنون ..!

والقرآن الكريم يسجل هذه الظاهرة التي كانت شائعة في مصر ، والتي كان يستند إليها فرعون مصر ، ويعتز بها .. فما أن جاء موسى إلى فرعون بمعجزته حتى تحداه فرعون بما يملك من قوى مدخرة عنده .. يقول سبحانه على لسان فرعون مخاطباً قومه :

« قَالَ لِمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَا تَوَكُّ بِكُلِّ صِخْرٍ عَلِيمٍ » (١) .

ويقول سبحانه على لسان فرعون أيضاً مخاطباً موسى :

« قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ، فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ، قَالَ مَوْعِدُكَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » (٢) .

(٢) سورة طه : ٥٧-٦٠

(١) سورة الشعراء : ٣٤-٣٧

فالذى يسجله القرآن الكريم هنا، هو أنه كان هناك أعداد كثيرة من السحرة الذين لهم مهارة وحذق، يملكون بهما السيطرة على بعض قوى الطبيعة، فتنقاد لهم، وتستجيب لدعوتهم .. وآثار الفراعنة تنطق بهذا، وتقوم شاخصة شاهدة به .

فما جاء به موسى عليه السلام كان في اتجاه الحياة التي تطمح إليها أنظار القوم، وتحرك نحوها آمالهم، وإن كانت معجزة النبي قد وقعت موقعاً بعيداً تنحصر عنه الأبصار، وتنقطع دونه الآمال !

وكذلك كان الشأن في معجزات عيسى ..

فلقد كثر في عصر عيسى الأنبياء والمتمنبئون، وامتلات أرض إسرائيل بهؤلاء وهؤلاء، فكان يطالع على الناس من كل مكان من يلقاهم بأن عنده من القوى الروحية، ومن الامتلاء من روح القدس ما يملك به القدرة على شفاء الأمراض، وإزاحة العلل .

لم يكن الطب بمعناه العلمى متقدماً في بني إسرائيل على نحو من الأنحاء المقابلة لمعجزات عيسى عليه السلام - كما يرى ذلك بعض من يلتمسون وجه المناسبة بين معجزة عيسى وعصره - ولكن الذي كان متقدماً حقاً هو « الإيحاء النفسى » الذى كان يبلغ عند بعض الناس حداً كبيراً من القوة والافتدار على التأثير في الغير، وظهور آثار هذا التأثير في شفاء كثير من الأمراض والعلل .

ولهذا كانت معجزة عيسى قوة روحية تنطلق من كيانه فتفعل فعلها، وتظهر آثارها العظيمة التي يقف منها « الإيحاء النفسى » وموحياته، وآثاره، متخاذلاً، مستخدماً .. مبهور الأنفاس !

يقول « عبد الجبار » في كتابه « المغنى » : « وعلى هذا الوجه رتب تعالى المعجزات ، فجعل المعجز الذى أظهره على يد موسى ، مما الأغلب وضوحه لأهل زمانه ، وانكشافه لهم . . فقد كانوا يتعاطون السحر ، فلما ورد عليهم ما ورد من انقلاب العصا حية آمنوا بظهور الأمر ، وكان اعترافهم وإيمانهم مقويًا لدواعى غيرهم إلى البصيرة ، وشدة التأمل ، لأن من حق التابع أن يكون مقتديا بالمتبوع تقليدًا ، أو سالكًا سبيله بالتأمل .

« وكذاك فعل تعالى فيما أظهره على عيسى ، مما بهر عقول الأطباء فى زمانه . . ووجه الحكمة فى ذلك ظاهر ، لأنه لو أظهر على كل واحد منهم فى زمانه ما لا يخرج عن طريقهم قويت البصائر ، وانكشف وجه التعذر ، فيكثر التصديق ، وتقل الشبه » (١) .

أما أن الذين رأوا تلك المعجزات . واستيقنوا صدقها ، ثم لم يؤمنوا بها - أما هؤلاء ، فإن الذى حجزهم عن الإيمان ، هو العناد الآثم ، الذى يحمل صاحبه على أن يركب مركب الهلاك ، ولا يمد يده إلى من يأخذ بيده ، وينتشله من بين الأمواج الصاخبة حوله . . هكذا العناد ، وتلك هى سبيل المعاندين . . يقول الله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظاوموا بها » (٢) ويقول سبحانه : « يعرفون نعمة الله ثم ينسكرونها » (٣) .

* * *

وعلى هذا التدبير جاءت معجزة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . . فكانت على أفق الحياة التى تمتد إليها أنظار الأمة العربية ، وتفتتح لها قلوبهم ، وتنتعش بها نفوسهم . . !

(١) المغنى لعبد الجبار جزء ١٦ ص ٢٠٥

(٢) سورة النحل : ٨٣

(٣) سورة الإسراء : ٥٩

والذى كان يرصد مجرى الحياة العربية قبيل البعثة النبوية كان يرى أن أوضح ظاهرة فى حياة هذه الأمة ، وأقوى قوة عاملة فيها ، هى « الكلمة » . . !
« الكلمة » فى حياة الأمة العربية هى تاريخ أمة بأمرها . . هى عقلها المفكر ، وهى قلبها النابض ، وهى مشاعرها المتدفقة ، وهى خيالها المنطلق . .
هى كل شىء عندها . . تمسك بوجودها كله ، وتستولى على كل خالجة منها . .
فما عرفت الحياة أمة من الأمم كانت « الكلمة » ، مالكة زمامها ، ومصرفة أمرها ، ومنطلق حياتها ، ومسبح آمالها وآلامها - كالأمة العربية ، منذ جاهليتها إلى أن طلع عليها الإسلام ، ونزل عليها القرآن !

وماذا كان يكون شأن الأمة العربية فى الحياة لو لم تكن « الكلمة » معها ، وعلى لسانها فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة عبر تلك الحياة الغليظة الخافية الجافة ؟
إنه لولا « الكلمة » لما احتمل العرب الحياة فى الجزيرة العربية ، ولما قام لهم وجود فيها على تلك الصورة التى جعلت منهم قبائل وعشائر . . ثم جمعهم أخيراً فى أمة واحدة ! !

ولماذا العرب وهمهم ؟ :

وقد يبدو هذا الكلام غريباً عند بعض الناس . . حيث يرون أن « الكلمة » - ونعنى بها اللغة - ليست مقصورة على العرب وحدهم ، بل إن الناس جميعاً شركاء لهم فى هذه الظاهرة الطبيعية . . فلكل أمة لغتها التى تعيش بها ، وتنتقل بها الآراء والأفكار بين أفرادها .

فكيف ينفرد العرب بوضع خاص فى هذه الظاهرة ؟ وكيف يكون للكلمة عندهم شأن غير شأنها حيث تكون على لسان الأمم والشعوب ؟
وهذا اعتراض له وجهه ووجهته !

ولكن لنا أن نقول : إن ظروف الحياة التي فرضتها الطبيعة على العرب في هذه الصحراء القاحلة المقفرة قد جعلت للكلمة في أفواههم طعماً لم يكن لها على أى فم ، في أى مكان غير هذا المسكان !

فالحياة في هذا الموطن الجديب القفر، حياة لا تحتملها النفس البشرية ، إلا إذا دخل عليها عنصر جديد ، من شأنه أن يمد الناس هناك بقوى تشد عزائمهم ، وتربط على قلوبهم ، وتوثق عرى الإلف بينهم وبين وجوه هذه الأرض المنكرة ، فتتحول دمايتها - في ظل هذا الإحساس - حسناً مقبولا .. يعاش معه ، ويسكن إليه ، وقد يُحب ويؤلف !!

ولم يكن بين يدي العرب في موطنهم هذا شيء يصلهم بالحياة ، ويجعل بينها وبين قلوبهم ، وعقولهم ، ومشاعرهم ، وخيالاتهم - طريقاً إليها غير «الكلمة» .. والكلمة وحدها ، دون أية وسيلة أخرى من تلك الوسائل الكثيرة ، التي تصل ما بين الناس وبين الحياة !

في الأمم الأخرى - غير أمة العرب - وجد الناس إلى جانب الكلمة فنونا كثيرة يصورون بها أفكارهم وآراءهم ، ويحسدون فيها خواطرهم ومشاعرهم .. فعرفت الأمم - فيما عرفت من هذه الفنون - الخط ، فسجلت به آراءها وأفكارها ، وعرضت هذه الأفكار في مجال التعامل بين أفرادها .. فأخذوا بها وأعطوها ، كما يأخذون ويعطون في الأسواق التجارية .. كذلك عرفت هذه الأمم - فيما عرفت - النحت ، والتصوير ، والموسيقى .. فأقامت من كل أولئك مشاهد تنبض فيها خلجات مشاعرها ، وتطل منها عليهم وجوه آمالهم وآلامهم .. فيرون في كل هذه المجالات مسارح فسيحة تتحرك فيها عقولهم ، ويسبح فيها خيالهم ، وتحظر عليها مشاعرهم وأحاسيسهم .. هذا إلى جانب ما عند تلك الأمم من اللغة

التي ينظمون من ألفاظها وعباراتها ما تستطيع الكلمة ، حمله من معطيات عقولهم ، وقولهم . . .

وهذا كله إلى ما عند الأمم الأخرى - غير العرب - من وجوه كثيرة للسعى في الحياة ، والتنافس في وجوه العمل ، والتقلب في ألوان الحياة وزخارفها . أما الأمة العربية - في هذا البلد الجديب الفقر - فلا شيء عندهم يستجيب لهم في يسر ، ويصحبهم في المكره والمنشط ، وفي الارتحال والحل - إلا الكلمة .. دون غيرها مما تهياً لغبرهم من الأمم والشعوب أن يصطنعوه ، ويستخدموه من ألوان الفنون . . وشئون الحياة .

إن حياة البادية قد فرضت على العرب أن يعيشوا في فراغ ثقيل موحش ، إذ لا مجال للنشاط الإنساني هناك غير تربية الحيوان ، أو بمعنى أصدق اقتناؤه ، من غير أن يتكلف له صاحبه إلا حمايته من الحيوانات المفترسة ، أو من المغيرين من صعاليك العرب وقتا كها . . ثم إرساله بعد ذلك هملاً يرعى حيث يوجد العشب والكلأ . . وكان أمر ذلك - ما عدا الدفاع عن الحمى - موكلاً إلى الصبيان والنساء ، والعبيد !

ثم إن حياة البادية ، وجفاف جوها ، وتقلب هذا الجو بين السوم المحرق ، والتسيم العليل فيما بين الضحوات والأصائل - هذه الحياة من شأنها أن تبعث في الإنسان حيوية في الجسم ، ويقظة في الشاعر ، ورفاهة في الحس ، وحدة في الذكاء .

كل حيوان البادية على تلك الصفة . . خفيف منطلق كالعاصفة الهوجاء ، أو الريح المرملة . . إذ لا شيء يحمدهم وقدة الحياة المشتعلة في الكائن الحي هناك ، مما هو مبعث خمول ، وفتور ، وتبلد في المواطن التي ثقل جوها ، وورخم هواؤها .

أو كثر خيرها فألقت على الكائن الحى أكواما من الشحم واللحم ، أطفأت جانباً كبيراً من تلك الشعلة الحيوية المشتعلة فيه ، كما ذهبت بالكثير من خفته ورشاقتها !

نقول : إن العربى فى فراغه هذا الثقيل الممل ، وفى تلك الحيوية العارمة المتدفقة فى كيانه — لا بد له من متنفس تنفس فيه طاقاته النائرة الفائرة ، وبغير هذا المتنفّس يحترق هذا الإنسان احتراقاً داخلية ، ثم لا يلبث أن يتحول إلى رماد !

فسكانت الحروب ، والثرات مما فرضته الحياة الصحراوية على الناس هناك ، ليأتمسوا فى شرها متنفساً لهم ، ومنطلقاً للقوى الحيوية الصارخة فى كيانهم . . .

على أن هذا المنطلق لم يكن ليتسع للنشاط الإنسانى كله فى هذا الموطن . . فهو بغىض كربه إلى النفوس ، وقد تسكن دواعيه وأسبابه . . فكان لا بد أن يزهد فيه الناس فى فترات من حياتهم . قد تطول وقد تقصر . . فيفيثون إلى السلم ، وبهذا يعودون إلى هذا الفراغ البليد من جديد . . ثم إن الحرب فى ذاتها حياة من لون آخر . . لها مشاعرها ، وأحاسيسها ، ولها أئقها وأعباؤها . . فهناك قتلى هم بعض نفس الإنسان . . من ولد ، أو أب ، أو أخ ، أو ابن عم . . يفدو بهم الإنسان فرسان جرب ثم يروح آخر النهار ، وقد تركهم طعاماً للوحش وسباع الطير !

فلا تشب نار الحرب حتى يستقبل الناس منها ريحاً ثقيلة تختنق بها النفوس ، وتضيق بها الصدور . . فى كل صدر مائتم وعويل ، وفى كل نفس حسرة تفرى الأكباد ، وتقطع نياط القلوب !

فإذا كانت الحرب متنفساً للناس في الحياة البدوية ، فإنها إذ تذهب بداء
تجىء بأدواء .

إذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما أهلك ما شفاكا
وهنا يأتي دور « الكلمة » فتؤدي رسالتها العظيمة في هذا المجال .. إذ
لا يملك العربي إذ ذاك شيئاً غيرها .. فلا رسم ، ولا نحت ، ولا تصوير ،
ولا تمثيل .. مما تسمح به الحياة المستقرة المطمئنة ، الأمر الذي لم يكن ليتاح لأهل
البادية ، وسكان الصحراء .. !

هكذا كان :

ليس غير « الكلمة » إذن — شيء في يد العربي ، يمكن أن يصور منه
ما يحول في تفكيره ، من خواطر ونوازع ، وما يختلج في مشاعره من
آلام وآمال .

والحاجة — كما يقولون — تفتق الحيلة !

فهل استطاعت هذه الحاجة الملحة أن تفتق عند العرب وجهاً للحيلة مع
« الكلمة » ، أو الكلام الذي معهم ؟

ونستطيع أن نؤكد أن العرب وحدهم من بين سائر الأمم ، هم الذين استطاعوا
أن يصوغوا الحياة كلها ، في تلك الكلمات التي أصبحت لغة مكتملة البناء ، راسخة
الأركان ، بما أبدعوا ، وولدوا ، من أمهاتها وأصولها ..

ونستطيع أن نؤكد أيضاً أن العرب قد استطاعوا أن يحملوا لغتهم كل ما تحمل
الفنون الجميلة كلها من ملهات وأسرار !

فالموسيقى بألوانها ، وأنغامها ، ومقاماتها ، قد حوّاها الشعر العربي ، في تقاعيله
وبحوره ، وقوافيه ..

والتصوير ، قد تكفل به البيان العربي في براعة ودقة ، تجعل من الصورة الكلامية صورة أوضح ، وأجل من أية صورة أبدعتها يد فنان صناع ، وضع ألوانها وظلالها بيد عبقرى حكيم !

والنحت .. قد ضمنت البلاغة العربية ، فأقامت من الكلمات شخصاً ماثلاً بكل مشخصاتها ، وأصباغها ، وألوانها .

والتمثيل .. له في الكلمة مكانه ، ومقامه .. فلقد كانت البلاغة العربية ، والبيان العربي ، مسرحاً حياً قامت فيه الكلمات والعبارات مقام الشخص .. . تحاور وتجادل ، وتعدو وتروح . فإذا أنت منها بمشهد من مشاهد التمثيل لأعظم الروايات ، وعلى أعظم المسارح !

وماذا بعد هذا ؟

لا بعد ، ولا قبل .. .

فإن كل مافي الحياة من معطيات الفنون والآداب ، قد ضمتها اللغة العربية إليها ، وجعلته بعضاً منها .. .

واسننا نقول ذلك متأثرين بعاطفتنا للغة القرآن ، وإن كانت هذه العاطفة تملأ صدورنا وقلوبنا .. . وإنما نقوله لأنه الحق قبل أن يكون عاطفة ، ولأنه الواقع الذي تقوم له الأدلة القاطعة ، والشواهد الناطقة .

فالشعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام أو أدركه الإسلام ، هو الصورة الكاملة للبيان العربي ، وهو الشهادة القاطعة لما بلغت الكلمة في اللسان العربي ، من امتلاكها كل ما يمكن من قدرة على الإبانة عن أدق المشاعر الإنسانية ، وأعق الأحاسيس ، بما لا تقدر عليه وسائل الإبانة من لغة ، ورسم ، ونحت ، وتصوير ، وتمثيل .. . متفرقة أو مجتمعة .. .

يقول الجاحظ في كتابه الحيوان : « قال الهيثم ، وابن الكلبي ، وأبو عبيدة :
« كل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ،
وشكل من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد
في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها .. وذهبت
العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان ، فبنوا مثل « كرديداء » وبنى أزدشير بيضا
اصطخر ، وبيضا المدائن ، والحضر ، والمدن ، والحصون ، والقناطر ، والجسور ،
والنواويس .. ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء ، وتنفرد بالشعر ،
فبنوا عُمدان ، وكعبة نجران ، وقصر مأرب ، والأبلق الفرد .. وغير ذلك من
البلدان .. » (١) .

والجاحظ إنما يكشف عن جانب واحد من المجال الذي تعمل فيه الكلمة ،
وهو حفظ الآثار والمناقب وتقييدها ، لأنه يتحدث عن الكتابة وفضلها على غيرها
من صور الحفظ والتخليد للأخبار والآثار .. ولم يعرض الجاحظ للمجالات
الأخرى للكلمة ، وهي تصوير المشاعر ، ونقلها من محيط الوجدان والعاطفة إلى
مسرح الحياة الواقعة المحسوسة ..

وعلى أي فإن ما يحكيه الجاحظ نقلا عن الهيثم ، وابن الكلبي وأبي عبيدة -
فيه دلالة واضحة على أن العرب قد اعتمدوا اعتماداً كلياً على الكلمة في تصوير
حياتهم ، وأنهم قد صاغوا من الكلمة ؛ الشعر الموزون المقفى ، ليكون أوقع في النفس ،
وأعلق بالقلب ، وأيسر في الحفظ .

وهذا - كما قلنا - هو الذي جعل للشعر في الحياة الجاهلية هذا الدور الخطير
الذي قام به في التنفيس عنهم ، والترويح عليهم في هذه الحياة الثقيلة الجافية ، التي
كانوا يحيمونها ، وفي هذا الفراغ الممل السكتيب الذي كانوا يعيشون فيه .

ولا نجادل في قضية الشعر الجاهلي وما ثار حوله من شكوك في نسبته إلى قائله ، وما قيل من أنه كَلَّه ، أو معظمه من عمل الوضاع ، وتلفيق الرواة . .
لا نجادل في هذه القضية ، لأننا لسنا بصدد الدفاع عن قضية الشعر الجاهلي من هذه الجهة ، وإنما الذى يعيننا هنا هو تلك المادة التى بين أيدينا ، وهذا الشعر الذى نحتاج به ، ونقيم منه الأدلة على البيان العربى ، والبلاغة العربية .

ويكفينا فى هذا المجال أنه شعر عربى خالص العروبة ، وأن الذين قالوه أو الذين وضعوه هم عرب خلص ، إن لم يكونوا جاهليين فقد عاشوا جاهليين فى مشاعرهم ، وفى منازع تفكيرهم - على أقل تقدير - أثناء هذا الدور الذين مثلوه ، وأخرجوا فيه هذا الشعر مخرج الشعر الجاهلي ، وإلا لما أحسنوا أداء دورهم فيه ، على هذا الوجه الذى دخلوا به الحياة الجاهلية ، من غير أن يتنبه إليهم أحد !!

وقفه مع الشعر الجاهلي :

الفترة التى سجلها التاريخ من حياة الشعر الجاهلي فترة قصيرة ، لا تسكد تعد شيئاً إلى الحياة الطويلة التى عاشها قبل هذه الفترة المعروفة من حياته . . فهذا الشعر الجاهلي الكثير الذى أمكن تسجيله من أفواه الرواة وصدور الحفاظ فى عصر التدوين أيام الدولة العباسية - هو بعض ما حُفِظ من شعر ، لقليل من شعراء تلك الفترة ، التى كانت قبيل ظهور النبىؐ بمدة لا يتجاوز مداها مئة عام أو مئة وخمسين عاماً على أكثر تقدير .

ومن الواضح أن الشعر الذى حُفِظ عن تلك الفترة ، اعتُبر الصورة السكاملة للشعر الجاهلي ، وعن هذا الشعر صدرت آراء النقاد والدارسين للحياة العقلية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، للأمة العربية فى جاهليتها . . إذ كان الشعر هو الأثر الأول والأخير ، الذى انطبعت عليه السمات الظاهرة والخفية

للحياة الجاهلية .. فما عرف الجاهليون فنا غير الشعر يسجلون فيه أحداث الحياة وما تثير في نفوسهم من انفعالات وتصورات .. فهم لم يعالجوا النحت ولا التصوير ، ولم يعنوا بالموسيقى ، ولا النقش والزخرفة .. فكان الشعر هو النافذة الوحيدة التي أشرفوا منها على دنيا الفن ، فسكبوا فيه نبضات قلوبهم ، وخلجات صدورهم ، ونفصوا عليه كل مافي كيانه من مهارة وحذق وذكاء ! .

ومن عجب ألا يتجه العرب الجاهليون إلى النحت ، وألا يكون لهم في هذا الفن مكان مرموق بين الأمم التي عالت هذا الفن وبرعت فيه .. كالفراعة واليونان ! وفي بلاد العرب جبال وصخور تملأ السهل والوعر .. هي مادة هذا الفن والمغربة به .. وفي حياة الجاهليين آلهة متعددة في صور من الأصنام والأبداد يتخذونها من الصخور والأحجار ، ويسوونها على الوجه الذي يريدون - من عجب أن تكون مادة النحت ودوافعه على هذا الوجه في الجزيرة العربية ، ثم لا يكون للجاهليين اتجاه إليه ، ولا رغبة فيه ، مع توفر الوقت الذي يكاد يكون كله فراغاً مملأ ، يقتل النفوس سامة وضجراً ؟ !

وليس شيء كالنحت استنفاداً للوقت ، واستجلاباً للمتعة والحياة ! ! ثم الموسيقى ! . ما بالهم لم يبرعوا في الألحان ؟ ولم يفتنوا في اختراع الآلات ؟ . والحياة من حولهم في سكون شامل مخيف ، ووحشية مطلقة قاتلة .. وليس شيء أفعل من الموسيقى لبعث الحياة في هذا الموت ، ولا ألزم منها لتبديد هذه الوحشة ، ولبعث الطمأنينة والأنس في النفوس !

ونبحث عن العلة أو العلل التي صرفت العرب عن النحت والموسيقى وغيرهما من الفنون الجميلة ، فلا نجد لها سبباً يمكن أن يتصل بالأسباب التي تصرف الأمم عن هذه الفنون .. فماداتها عندهم موفورة ، ودوافعها حاضرة ، واستعدادهم

انفطرى لها على أتم ما يكون وأكمله .. شعور مرهف ، ووجدان سليم ،
وذكاء حاد ، ونظر عميق ، وفراسة صادقة .. ومع هذا ، فذلك هو الذى حدث ؟
لم يكن للجاهليين تعلق بأى فن جميل غير الشعر !

إن كان لابد من علة نذكرها ، أو سبب نرجع إليه ، فإننا لا نجد إلا الشعر
نفسه .. فقد فتن العرب به أيما افتتان . إذ استطاع أن يملأ كل جانب من
جوانب حياتهم ، فاستغنوا بفن الكلمة عن غيرها من الفنون ، إذ كانت أخف
محملاً ، وأكثر طواعية .. يجدونها فى الظعن والإقامة ، وفى البدو والحاضرة ،
وفى المنشط والمكسل . يستقل بها الفرد وحده دون أن يحتاج إلى غيره ،
أو يجلس إلى من يشاركه !

ذلك أظهر ما نراه علة لهذه الظاهرة ، يسانده ما عرف من تمكن الشعر
من نفوس العرب وقوة سلطانه فيهم .. فالبيت من الشعر يرفع القبيلة أو يسقطها ،
والبيت من الشعر يضع الرفيع ، ويرفع الوضيع .. ولقد ترك الشعراء صوراً
خالدة رائعة من هذا اللون من الشعر الذى كان له أثر كبير فى تغيير مجرى الحياة
لكثير من القبائل والأفراد .. والذى ظل متحكماً فى موازين الناس وأقدارهم
أجيالاً طويلة متعاقبة . لا ينقضها الزمن ، ولا تغير منها الأحداث !

من أجل هذا كانت نظرة العرب إلى الشعر وإلى الشعراء نظرة حب
وإعجاب ، تبلغ مبلغ التقديس ، فكان إذا ظهر فى القبيلة شاعر كان ظهوره
إيذاناً بمولد العزة والسيادة فيها ، وإذا قال الشاعر قصيدة ، وعنه العقول ، وحفظتها
الصدور ، ورددها الألسنة ، وتناقلتها الركبان ، وسمربها السمار ، وعمرت بها
المجالس ، وأصبحت رواية خالدة ، تمثل على مسرح الحياة فى الجزيرة العربية كلها .
وقد شك بعض مؤرخي الأدب فى تعليل الملاحظات - وهى أشهر قصائد قبيلت

في الجاهلية - بأستار الكعبة ، وتسميتها بهذا الاسم المشتق من هذا العمل . .
ولكن الذى يتصور الحياة الجاهلية وما كان للشعر من أثر فيها - يقع فى يقينه
أن ذلك العمل الذى صنعه الجاهليون بالقصائد المشهورة عندهم ، عمل يتفق مع
المسكاة التى كانت لهذا الشعر فى نفوسهم . . بل ويقع فى يقينه أيضاً ما يروى
من أن هذه المعلقة كتبت بماء الذهب فى قباطى ، وأنها كانت تسمى المذهببات ،
كما كانت تسمى المعلقة ! وليس فى هذا غرابة عند قوم لم يكن لهم متعة فى الحياة ،
غير هذا الفن الجميل . . فن الكلمة ، ونظمها فى قوالب الشعر !

كانت قبيلة « تغلب » من أعظم قبائل العرب وأشدّها بأساً ، حتى أنها اعزتها
وأنتفها أخذتها العزّة بالإثم ، فاستحبت العمى على الهدى ، ولم تدخل فى الإسلام
حين دخل فيه الناس أفواجا . . وآثرت أن تهاجر من أوطانها ، فتلتحق بقيصر
الروم ، حين فرض عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تدخل فى الإسلام ،
أو تُفرض عليها الجزية كما تفرض على أهل الذمة . . فلما لم تقبل أحد الأمرين
وتهيأت للهجرة ، رأى عمر أن يمسك بهذه القبيلة ، ويحتفظ بها فى المجتمع العربى ،
وأن يضاعف عليها الزكاة !

هذه القبيلة - وهذا شأنها من القوة والعزّة - كان دستور حياتها ، ومبعث
فخرها وعزها ، تلك القصيدة التى أنشأها أحد شعرائها وسادتها « عمرو بن كلثوم »
التغلبى ، وهى إحدى المعلقة السبع . . فلقد لعبت هذه المعلقة دوراً كبيراً فى حياة
هذه القبيلة ، وتركت آثاراً واضحة فى عواطفها وتفكيرها ، حتى أقامتها على هذا
العناد الآثم ، والكبر القاتل ، فأغلقت قلبها عن كل خير ، ولت ظهرها لكل
فضل . . فلم تستمع لدعوة النبوة ، ولم تلتفت لأنوار السماء . . وحسبها أن تنزود
فى الحياة بهذه المعلقة ، وأن تتخذ منها كتابها المقدّس ، ودينها القويم !

موقف قبيلة تغلب هذا الموقف الشاذ من الإسلام دون قبائل العرب جميعاً ،
إنما ترجع أكثر أسبابه إلى هذه المعلقة ، وإلى تعلق القوم بها تعلقاً شغليهم عن
كل شيء ، إلا عن ترتيلها والهاثف بها في كل غدوة وروحة . . لقد تسربت
إلى قلوبهم وعقولهم ، فأغرتهم بالكبر ، ونفخت فيهم من ريح العصبية ماصوّر لهم
هذا العناد الذي باعد بينهم وبين الإسلام . ولسنا نقول هذا استنتاجاً مما عرف
عن هذه القبيلة من الموقف الشاذ الذي وقفته من الإسلام ، وإنما ذلك قول سجله
من شهدوا هذا الحدث وعاصروه ، ورأوا بأعينهم الآثار القوية الواضحة التي
تركها المعلقة في هذه القبيلة ، وفي هذا يقول أحد الشعراء المعاصرين لقبيلة تغلب ،
والمشاهدين لجرى الحياة فيها ، يقول هذا الشاعر :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قلها عمر بن كنوم
يفخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال اشعر غير مسنوم

فهذا مثل من أمثلة كثيرة لما كان للشعر الجاهلي من سلطان قاهر على العقول
في الجاهلية ، ثم امتد هذا السلطان إلى الحياة الإسلامية ، فصحب المجتمع الإسلامي
على أنه الصورة الكاملة للشعر العربي . .

ولولا أصالة الفن في الشعر الجاهلي ، لما صبر الجاهلون طويلاً على هذا
الشعر ، ولالتمسوا لهم فناً آخر أو أكثر ، يسانده في التعبير عن مشاعرهم ،
والتفيس عن عواطفهم . ولكن أصالة هذا الفن قد سدت حاجتهم الفنية ،
وأرضت مطالب العقل والقلب معاً ، فأغناهم ذلك عن أن يلتمسوا فناً غيره .

ولما جاء الإسلام بالقرآن الكريم وببلاغته المعجزة استطاع أن يخف
صوت الشعر ، فسكنت حُمَيَّاه في الصدور بعد أن امتلأت القلوب بمشاعر العقيدة
الدينية ، وكان في آيات الكتاب الحكيم وترتيلها على النحو الذي ترتل به

إرضاء كامل لحاجة القلب وخلجات الضمير ، بما فى آيات الكتاب من ألوان
العواطف الإنسانية : من أمل وإشفاق . . ورجاء وخوف . . وتبشير وإنذار ،
ووعد ووعد ، وحب وبغض ، وسلام وحرب . . إلى غير ذلك مما ضمَّ عليه
الكتاب الكريم وحوته آياته وسوره .

ومع هذا فإنه ما كادت تتم الدعوة الإسلامية ، ويبسط الإسلام سلطانه على
الجزيرة العربية وما حولها ، وما كاد المسلمون ينتهون من معارك الفرس والروم ،
ويفرغون لكتاب الله حفظاً وفهماً ، يأخذ كل حظّه منه - حتى دب فى
النفوس ديب الشعر ، وحاكت فى الصدور سؤرته ، ففاضت به الخواطر ،
وتحرّكت به الألسنة . . وأخذ يسترد دولته شيئاً فشيئاً حتى عادت إليه ، فى
سلطان مبسوط ، وقوة ظاهرة ..

ومع الآثار القوية الواضحة التى تركها الدين وكتابه الكريم فى عقلية العرب
وفى مسارب تفكيرهم ، وفى تصوراتهم وأخيلتهم ، ومع ما أفاضت الحياة الجديدة
عليهم من ألوان ومظاهر لم يكن لهم إلف بها ، ومع العقليات الجديدة التى اختلطت
بهم وحُسبت منهم ، ومع الثقافات التى دخل بها الداخلون فى الإسلام من فارس
والروم والهند ومصر وغيرها - مع هذا كله فقد ظل سلطان الشعر الجاهلى قوياً
على النفوس ، فلم تجد بداً من السير فى طريقه ، إذ لم يكن فى مقدورها مع هذه
الروافد الجديدة التى أمدّها به الدين الجديد والحياة الجديدة - أن تجىء بنجير منه ،
إذ كان فى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه الفن العبقري من فنون القول ،
على لسان بشر !!

البسوس والشعر الجاهلي :

وهنا أمر يجب أن ننبه عليه ، إذ كان مدخلا لكثير من الخطأ وسوء الفهم عند كثير من الناس .. وهو أن الدعوة الإسلامية - وإن قطعت العرب عن كثير من حياتهم الجاهلية ، وأجلت من صدورهم كثيراً من الخواطر والنوازع - لم تذهب بالشعر الجاهلي جملة ، ولم تقطع الصلة بينه وبين العرب جميعاً ..

فإنه إذا كان كثير من المسلمين ، وخاصة صحابة الرسول الكريم ، قد لبسوا الإسلام ، أو لبسهم الإسلام ، ظاهراً وباطناً ، فعاشوا في الإسلام ، وللإسلام ، فلم يشغلهم شيء من الدنيا عن مدارس القرآن الكريم ، والقيام بحقه وبما يدعو إليه ، وما ينهى عنه - إذا كان كثير من العرب قد صحب الدعوة الإسلامية ، وعاش في الإسلام على هذا الوجه - فإن كثيراً من العرب أيضاً قد صحب الإسلام ، وصحب معه كثيراً من مخلفات الحياة الجاهلية ، ومن بينها الشعر الجاهلي .. إذ ليس كل العرب كان في شغل بالإسلام على تلك الصفة التي عرفتها الحياة للمجتمع الإسلامي في المدينة ومكة ، وما حولها ..

إن الأعراب من سكان البادية في نجد ، وتهامة والسير ، وغيرها من الأطراف النائية في الجزيرة العربية أو الغارقة في قلب الصحراء - لم يكن حظهم موفوراً من الإسلام إلى درجة تحملهم على الانقطاع له ، وقطع الصلة مع كل ما لم يتصل به ، بل كان معظمهم على جاهليته ، لم يغير الإسلام منه إلا وجهاً ظاهراً يعيش به في المسلمين . على حين ظلت آراؤه ، وأفكاره ، وعواطفه على جاهليتها ، أو على كثير من هذه الجاهلية ..

والقرآن الكريم يسجل هذه الظاهرة عن أولئك الأعراب ، وعن استغراقهم في حياة الجاهلية ، وفي تشبههم بها ، فكانوا من أجل هذا كما وصفهم القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ » (١) .

وذلك لأن هناك قوى ضاغطة عازلة ، تقف بينهم وبين هدى الإسلام ، وما ينبعث من هذا الهدى من نور تضيء به البصائر ، ومن خير تحيا به القلوب . . فظلوا هكذا مسلمين ، لم يخلطوا أنفسهم بالإسلام ، ولم يضيفوا وجودهم إليه . . وفي هذا يقول الله سبحانه :

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَكَانَ قَوْلُكُمْ أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » (٢) .

أفيمكن مما يعقل — بعد هذا — أن يذهب مافى صدور هؤلاء الأعراب من شعر شرأهم الذى عشت فى هذه الصدور ، وباض وأفرخ فيها ؟ . . كلا . . لقد ظل هذا الشعر حيث هو ، وبمكانه من قلوب الأعراب وعقولهم ، إن لم يكن ذلك واقعاً عليهم جميعاً ، فهو واقع فى الكثرة الغالبة فيهم !

وأكثر من هذا . . عرب الحجاز ، ومن بينهم عرب المدينة ، ومكة ، والطائف ، . . أترأهم جميعاً قد أحلوا نفوسهم مما كان قد تلبس بها من شعر الجاهلية ، فلم يعد فى تلك النفوس أثارة من هذا الشعر ؟

وكلا . . أيضاً . .

فإن كثيراً من هذا الشعر قد بقى فى مستقره من قلوب كثير من الصحابة وعقولهم . إذ كان فيه الحكمة البالغة ، وفيه رأى الصائب ، وفيه الخلق الكريم ، والقطرة السليمة ، وكثير مما جاء به الإسلام ودعا إليه . . فكان هذا داعية

(١) سورة التوبة : آية ٩٧

(٢) سورة الحجرات : آية ١٧

من دواعي الحرص على هذا الشعر ، لا سبباً من أسباب التفريط فيه ،
والنسيان له . .

ولقد سجل التاريخ الاسلامي للصحابة رضوان الله عليهم ، أو لكثير منهم
مواقف من الشعر الجاهلي تدل على اهتمامهم له وحرصهم عليه . .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحفظ كثيراً من الشعر الجاهلي ،
ينشده حيناً ، ويستمتع إليه أحياناً ، ويسأل وفود القبائل الوافدة إليه عن شعرهم ،
وعن أحسن ما عندهم من شعرهم . .

بل وأكثر من هذا . . فلقد كان عمر رضى الله عنه إذا حضره موقف من
المواقف ، وهو على منبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، واستدعى هذا الموقف
شاهداً لمعنى من معانى القرآن في بيت من الشعر ، استمع إليه ووعاه ، وأخذ به . .

روى أنه رضى الله عنه قرأ - وهو على المنبر - قول الله تعالى :

« أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » . (١)

فسئل عن معنى التَخَوُّف ، فقام رجل من هذيل ، فقال : التَخَوُّف عندنا
التنقص ، ثم أنشد :

تَخَوُّف الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوُّفُ عُوْدَ النَّبَةِ السِّقْنُ (٢)

فقال عمر : « أيها الناس . . تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه
تفسير كتابكم » (٣)

(١) سورة النحل: آية ٤٧

(٢) هذا الشعر في وصف ناقة، طالت بها الأسفار، فنعج جسمها . . والتامك هو السنام،
والقرد الذي تعمد شعره . أى أن سنام هذه الناقة قد براه الرحل من كثرة السفر وأن شعره قد
تليد للامزجة الرحل له . . والنبع : شجر القسي ، والسقن كل ما ينبت به غيره .

(٣) من كتاب المواقفات للشاطبي / جزء ٢ ص ٨٨

وأمرُ ابن عباس رضى الله عنه فى موقفه من الشعر الجاهلى ، وحفظه له ، وإنشاده إياه فى مسجد الرسول - أظهر من أن ينبه عليه . . فلقد كان صدره - رضى الله عنه - خزانة هذا الشعر ، كما كان قلبه مستودع القرآن الكريم ، حفظاً وعلماً . .

وكذلك كان الصحابة رضى الله عنهم جميعاً ، يحفظون من هذا الشعر ما استدعونه فى المناسبات الداعية له ، بين مقل منهم ومكثر . . ونشك كثيراً فى أن أحداً منهم لم يلتفت إلى هذا الشعر ، فى موقف أو أكثر من موقف ، فيتمثل به فى الحال المناسب له . .

وكيف يعقل أن يكون الأمر فى شأن الشعر على غير هذا ! . . وقد كان الصحابة - رضى الله عنهم - يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الشعر ويُلفت إليه ، وإن لم يكن شاعراً ، وما ينبغى له أن يكون . . قال سبحانه وتعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » (١)

لأن فى الشعر خيالاً ، وفيه شطحات بعيدة مغربة عن الواقع . ولكن فى الشعر أيضاً عيون متخيرة من الحكمة . . ومن أجل هذا كان الرسول يلتفت إلى الشعر ، ويُلفت إليه ، وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » .

فكان صلى الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر ، وكان يستحضر مواقع الاستشهاد منه فى أحوال كثيرة .

يُروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول :

(١) سورة يس : آية ٦٩

« أبياتك ^(١) » :

تقول السيدة عائشة، فأقول :

ارْفَعْ ضَعْفَكَ لَا يَحْزُرُ بَنَّاكَ ضَعْفُهُ
يَوْمًا فَتَذَرُ كُهُ الْعَوَاقِبُ قَدْ نَمَى
يَحْزُرُكَ أَوْ يُنْذِنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ
أَنْتَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى

ففي هذه الأبيات التي كان يستمع إليها الرسول الكريم دعوة كريمة من دعوات البر والإحسان إلى الناس، وإقالة عثراتهم .. وهذا من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، فلا غرابة في أن يستمع الرسول إلى مثل هذا الكلام الذي يحمل هذه الدعوات الطيبة .

ويُروى أن « سودة » بنت زمعة، زوج النبي أنشدت مرة في محضر من عائشة، وحفصة - شعراً فيه هذا المقطع : « عَدِيٌّ وَتَيْمٌ تَبْتَغِي مِنْ تَحَالِفٍ » فظنت عائشة وحفصة أنها عرّضت بهما، فجری بينهما كلام في هذا المعنى ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليهن وقال : « ياويلكن .. ليس في عَدِيٍّ كُنَّ ولا تَيْمَكن قِيلَ هذا، وإنما قيل هذا في عَدِيٍّ تَيْمٌ ، تَيْمٌ تَيْمٌ .. »

وهذا المقطع في شعر هو :

فَحَالِفٌ ، وَلَا وَاللَّهِ تَهْبِطُ ثَلَاثَةٌ
مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا أَنْتَ لِلذَّلِّ عَارِفٌ
أَلَا مَنْ رَأَى الْعَبْدِينَ أَوْ ذُكْرَالَهُ
عَدِيٌّ وَتَيْمٌ تَبْتَغِي مِنْ تَحَالِفٍ !
وروى الزبير بن بكار قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه برجل يقول في بعض أزقة مكة :

(١) أي أسمعني أبياتك .

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْخَوَلُ رَحَلَهُ هَلَّا نَزَلَتْ بِآلِ عَبْدِ الدَّارِ ؟
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا أَبَا بَكْرٍ .. هَكَذَا قَالَ الشَّاعِرُ ؟ قَالَ : لَا ..
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْخَوَلُ رَحَلَهُ هَلَّا نَزَلَتْ بِآلِ عَبْدِ مَنْفٍ^(١)
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَكَذَا كُنَّا نَسْمَعُهَا !^(٢) .

وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا ، فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ لِلشَّعْرِ وَيُجِيزُ
عَلَى الْجِيدِ مِنْهُ ، كَمَا اسْتَمَعَ إِلَى قَصِيدَةِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ بُرْدَتَهُ ، بَعْدَ أَنْ
انْتَهَى مِنْ إِنْشَادِهَا .

وَكَانَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَعْرَاءُ عَلَى رَأْسِهِمْ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ ، يَرُدُّ بِشَعْرِهِمْ
عَلَى شَعْرَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُلْقَاهُمْ بِهِ فِي مِيدَانِ الْقَوْلِ كَمَا كَانَ يُلْقَاهُمْ فِي مِيدَانِ
الْحَرْبِ ! .

وَلَيْسَ هُنَاكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَ لِلشَّعْرِ مَوْضِعٌ يُحْمَدُ فِيهَا ، وَيَرْجَى
نَفْعُهُ وَغَنَائُوهُ ، إِلَّا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِيزُ لَهُ ، أَوْ مُشَارِكًا فِيهِ بِصُورَةٍ
مَا مِنْ صُورٍ لِلْمُشَارَكَةِ ..

فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ الَّذِي أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ قَبِيلَ غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ الْمَعْرُوفَةِ
- شَارَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْعَمَلِ كَوَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَدْ كَانَ الْعَامِلُونَ فِي حَفْرِ هَذَا الْخَنْدَقِ يَرْتَجِزُونَ ، لِيَتَقَوَّوْا عَلَى الْعَمَلِ ..
وَمِمَّا كَانُوا يَرْتَجِزُونَ بِهِ حِينَئِذٍ هَذَا « الْبَيْت » :

سَمَاءٌ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا وَكَانَ لِلْبَسَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

(١) وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

تَكَلَّنْتَ أَمَّكَ لَوْ نَزَلَتْ بِحَبِيبِهِمْ مَنَعُوكَ مِنْ عَدَمٍ وَمِنْ لَأَقْرَافٍ

(٢) انْظُرْ فِي هَذَا دَلَالَةَ الْأَعْيَازِ لِلْجُرْجَانِ ص ١٤ وَمَا بَعْدَهَا .

وهو في جُعيل بن سراقَة الضمرى . .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول معهم المقطع الأخير من شطري البيت :
« عمرا » و « ظهرا » ولا يقول بقية الشعر . وكان جُعيل بن سراقَة يعمل معهم ،
ويقول مثل قولهم ، ويضحك إليهم ، فعلموا أنه لا يسوؤه ارتجازهم .

وجعيل هذا كان رجلا صالحا من قدماء المهاجرين ، ومن البدرين ، ومن
الذين شهدوا المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد غير النبي صلى الله
عليه وسلم اسمه فسماه عمرا بدل جعيل . . (١)

فالقول بأن الشعر الجاهلى قد ذهب جملة من صدور العرب بعد أن دخلوا
في الإسلام - قول فيه اجترار كثير على الحق ، واقتراء على الواقع .. ولو أن الدعوة
الإسلامية كانت دعوة متجهة إلى القضاء على الشعر الجاهلى كما قضت على الشرك ،
لكان للإسلام تدبير فى هذا ، ولكان لرسول الإسلام موقف من الشعر غير
هذا الموقف .. بل لفرض الإسلام على إنشاده أو الاستماع إليه عقوبة ، ولأقام
الحد على قائله أو المستمعين إليه ، كما فعل مع شاربى الخمر مثلا . . ١

ولكن أمر الشعر مع الإسلام كان على غير هذا .. كان الشعر كغيره
من شئون الحياة التى يعيش فيها الناس ، وقد يتعرفون بها إلى غير الطريق
السوى .. فتتغير صفتها ، ويتغير بذلك نظر الإسلام إليها ، وحكمه عليها ..
فأكثر ما يتحول الخير إلى شر . . ١

والشعر بطبيعته ينجح إلى الهوى ، ويستخف صاحبه إلى طرق كثيرة غير
جادة .. ومن هنا أكثر فيه الانحراف عن طريق الحق .. ومن هنا أيضا كانت

(١) المجازات النبوية للبريد الرضى ص ٦٦

نظرة الإسلام إليه نظرة قائمة على الحذر ، لا التحذير ، وعلى مداناته ، دون معاطاته .

فالشعر الجاهلى هو ديوان العرب فى الجاهلية وفى الإسلام . . . واهل كلمة « ديوان » التى عبّر بها عمر هنا لأول مرة فى اللسان العربى - لعلها تشهد للزمن الذى قيلت فيه . . . وأنها كانت بعد أن دوّن عمر الدواوين ، وكان أول ديوان أقامه هو ديوان الخراج . . . ثم لعل هذه السكامة بالنظر إليها فى مدلولها الذى كانت تدل عليه يومذاك - تحدد المعنى الذى قصد إليه من ديوان الشعر الجاهلى ، وهو السجل الذى يضم الشعر الجاهلى كله . . . وكانت صدور القوم هى الدواوين الحافظة له !

ماذا فى الشعر الجاهلى ؟ :

وأرانا قد خضنا فى قضية الشعر الجاهلى على غير ما كنا نريد ، فإن هذا المقام لا يتسع لنظر هذه القضية ، وتقليب وجوه الرأى فيها ، وجلب الشواهد والأدلة لكل وجه منها . . . ولكن إذ عرضنا لهذه القضية ، لم نجد بداً من كلمة فيها ، تشير إلى الحكم الذى يقضى الحقُّ به فى هذا الموقف . . . وذلك أقل ما فيه أنه يريح خاطرنا ويرضى ضميرنا ، الأمر الذى كان يفوتنا لو أننا تركنا هذه القضية معلقة بين الشك واليقين !

وندع قضية الشعر الجاهلى إلى الشعر نفسه ، لننظر أكان على تلك الصفة التى وصفناه بها من قبل وقلنا عنه إنه حمل على كلماته ، وفى طواياها كل معطيات الفنون وأسرارها . . . وأن العرب كانوا معه فى غنى عن أن يطلبوا فناً غيره ، أو معه . . . إذ كان لهم فيه غنية عن كل فن . . . هذا مع خفة محمله ، وقلة مؤونته ، واستجابته لدعوة الداعى إذا دعاه ، فى لحظة بارقة !

فأهى إلّا أن تنجم في صدر العربي خاطرة ، أو تلوح في ذهنه فكرة ،
حتى يجدها على فمه ، كلمات منغومة ، يكاد يرى فيها خاطرتة ، ويلبس فكرته !
وهو في مكانه لا يريم ، ولا يستجلب شيئاً من قريب أو بعيد . . . خواطره
في كيانه ، وكلمته على فمه ! !

ولننظر في هذا الشعر أ كان حقاً على تلك الصفة ، وفي هذه المنزلة العالية
التي انفرد بها عن الكلام الذي عرفه الناس جميعاً ؟

والحكم في هذا الأمر يقتضى مراجعة الشعر الجاهلي كله ، أو على أقل تقدير
مراجعة قدر كبير منه ، واستجلاء محاسنه وروائعه ، وتذوق ألوان الجمال
والبيان فيه ، ومطالعة وجوه البراعة والبلاغة منه . . . حيث يعرف هناك وزن
الكلام ، وتدرك قيمة الكلمة ، ويميز بين الكلام والكلام كما يميز بين
الجواهر والحصى .

وموقفنا هنا لا يسمح لنا بأن نقوم بهذا العمل إزاء الشعر الجاهلي ، ولا بقليل
أو كثير منه . . . فربما لو اجتزأنا ببعض الشواهد من هذا الشعر لوقعت عند بعض
الناس أنها العيون المتخيرة فيه ، وأن ليس بعدها شيء ! وذلك فيه ظلم عظيم لهذا
الشعر من حيث نريد أن ننصفه ، وندفع عنه يد الظالمين . . . والجاهلين !

ومع كل هذا ، فإننا نرى أن نغض الطرف عن هذه الاعتبارات ، وأن
نستحضر شاهداً من الشعر الجاهلي يشهد لهذا القول الذي قلناه فيه ، وقيم وجهاً
لذلك الحكم الذي ارتضيناه له . . . فمن كان مع قولنا هذا ، وعلى حكمنا ، ففي
هذا الشاهد مقنع ورضى له ، ومن كان على خلاف قولنا وحكمنا ، فعليه هو أن
يأتى بشاهد من عنده ، يرد شاهدنا ، وينقض شهادته !

معلقة امرئ القيس مثلاً !

وقد تخيرناها لأنها تسكاد تكون أبعد المعلقات عن الشك فيها ، وفي صاحبها ..
إذ كان لصاحبها دور آخر في الحياة ، غير دوره الذى عرف به كشاعر من أصحاب
المعلقات ..

فالرجل كان ابن ملك من ملوك كندة على قبيلة بنى أسد ، وقد تآمر عليه
القوم وقتلوه .. وكان على امرئ القيس أن يطالب بثأر أبيه ، كما تقضى بذلك
التقاليد العربية فى الجاهلية .. فشمّر للحرب ، وأقنّى فيها أكثر أنصاره .. ثم انجى
إلى قيصر الروم يطلب منه مدداً ونجدة .. وهذه الأحداث كلها قد سجلها التاريخ
العربى ، كما سجلها تاريخ الدولة الرومانية !

فامرؤ القيس شخصية تاريخية لا شك فيها ، وشعره سجل لهذه الشخصية ..
مرحلة مرحلة ، بل وربما يوماً يوماً .

وفى معلقة امرئ القيس هذه شاهدنا على دعوانا ، أو على حكمنا فى الشعر
الجاهلى .

وقد حشد امرؤ القيس فى هذه المعلقة الحياة العربية كلها .. ما تراه العين ،
وما ينبض به القلب ، وما تقله الأرض ، وما تسوقه السماء ، وما يلهو به الناس
وما يجدون ..

فأنت فى هذه المعلقة بين مشاهد متعددة ، متغيرة .. كأنك فى مركب
من مراكب الفضاء يطوف بك فى الدنيا ، وينتقل بك بين مشارق الأرض
ومغاربها فى لحظات ..

إنها نفس حية يقظى .. تستقبل الحياة ، وتتفاعل معها .. وتسجل فى هذا
الشعر ما يقع لها من تلك الحياة ، من قريب أو بعيد !

فمن وصف الدمن والأهلل ، إلى وصف الصيد والقنص ، وإلى وصف جواده
الذى ينطلق به لصيده .. إلى التشبيب والغزل ، إلى المغامرات فى سبيل المرأة

ومطارحتها الهوى . . إلى وصف الليل ، والمطر ، والطير ، والوحش . . كل ذلك وكثير غيره في صور حية لا تستطيع أن تمسك بها أدق وسائل الفنون وأبرعها ، ولا أن يخرجها في هذا الصدق العبقري أعظم مخرجى الروايات . . !

وأفئ بك عند مشهد صغير من تلك المشاهد التي تحفل بها هذه المعلقة ، والتي يُعدُّ البيت الواحد منها مشهداً قائماً بذاته ، أو عدة مشاهد يكل بعضها بعضاً .

في هذا المشهد ، يحدث امرؤ القيس عن نفسه ؛ حين وقف على أطلال الديار التي كانت يوماً ما تضم محبوبته . . فهاج ذلك ذكريات كثيرة عنده ، كان أشدها قدوة عليه يوم أن ارتحلت محبوبته مع قومها ، وهو يرقبها من بعيد . . في أسى ، وحسرة ، ووجوم ، لا يملك معه من الأمر شيئاً ، إلا هذه الوقفة . . كما يتدف المرء على ميت عزيز عليه ، قد ذهب به الموت وورى في التراب .
يقول امرؤ القيس مصوراً حاله تلك :

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلٍ
وقد لا تجد لهذا الكلام طعماً في فكك ، ولا إلغاً إلى أذنك إذا كنت لم تتعرف إلى الشعر الجاهلي من قبل ، ولم تردد النظر طويلاً فيه . . فهو نتاج عصر بعد الزمن بيننا وبينه ، وهو ثمرة بيئة بعيدة عن مألوفنا فيما نتقلب فيه من شؤون الحياة وظروفها .
ولكن عد إلى هذا البيت مرة . . ومرة ، وسمرات . . ولا بأس من أن أفتح لك طريقاً إليه بشرح الغريب من كلماته . .

« فالبين » هو الفراق الذي يقع بين المتحابين ، « يوم تحمّلوا » أي يوم ارتحلوا وفارقوا من يحبهم ويألفهم . . و « السمرات » : جمع سمرّة وهو شجر من العضاة ، ضخيم ، له شوك . . « وناقف الحنظل » هو الذي يشق الحنظل ليخرج ثمره ، والحنظل ثمر مرّ . .

وعد إلى البيت بعد هذا . .

فماذا تجد ؟ ؟

إنك لا تجد هذا الكلام الثقيل على لسانك ، الغريب على سمعك ، وإنما تجد من كل كلمة مطلعاً من مطالع الروعة ، ومدخلاً يدلف بك إلى مشهد من مشاهد الإنسان في صراعه مع عاطفة من أقوى العواطف الإنسانية ، وهي الحب .. فلا تملك من نفسك إزاء هذا المشهد إلا أن تعطفك منها عاطفة الرحمة والإشفاق بهذه النفوس التي ذهب بها الوجد ، وأحرقها الأسى .

فأنت تشهد من هذه الكلمات امرأ القيس ، وقد وقف غدوةً يرقب محبوبته من بعيد وهي تهباً مع قومها لسفر بعيد ، قد لا يكون بعده لقاء بينه وبينها .. ثم ترى كيف تخير امرؤ القيس هذا المسكن الذي يرى منه محبوبته وأهلها ، وهم لا يرونه .. فقد تخفى بين أشجار السمر .. والتصق بأحد جذوعها .

ولعلك تقول : وأى شيء في هذا المنظر ؟ إنسان واقف متخفٍ بين الأشجار .. يسرق النظر إلى محبوبته وهي تهباً للرحيل ؟

ولك حق في هذا ، فإن ظاهر الصورة لا يعطى أكثر من ذلك الذي أنت ناظر إليه !! ولكن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً حين تنظر مرة أخرى إلى هذه الكلمات ، وتستشف ما وراءها من ظلال .. وعندئذ ترى ما لا عين رأت !

انظر إلى امرئ القيس وهو يعرض عليك وجوده كله .. في هذه الحال :

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلُ

إنه في موقفه هذا كناقف الحنظل ! !

وناقف الحنظل يطلع عليه من ريح الحنظل ما يملأ فيه مرارة تنفذ إلى أعماقه ،

فيجف لها ريقه ، ويضيق لها صدره .. حتى ليكاد يموت اختناقاً !

ولعينيه نصيبهما من هذه الريح المرة النفاذة الخائقة .. فتظهر منهما الدموع

في صمت - وبلا بكاء ! أرايت إذن إلى هذا الكمد المسكوت الذي ينطوى عليه

كيان الشاعر ، فتنتطق منه مرارة يفتص بها الحلق ، ويحف بها الريق ، وتسيل منها الدموع . . في بكاء مكتوم مكظوم !

ثم أرأيت إلى هذه الرعدة التي تسرى في بدن الشاعر ، فيرجف لها كيانه كله كما يرجف القدر مع غليان الماء ! فهذا الدمع المرسل من عينيه في كت وكت ليس إلا الزبد الذي ترمى به نفس محترقة وصدر يغلي ويفور !

ذلك هو بعض مخبوء تلك الكلمات . . وكما فيها من مخبوء ومستور ! ثم بعد أن ينفض امرؤ القيس بعض الذكريات ليوم الفراق ، وهو واقف على أطلال الديار - بعد أن ينفضها في هذا البيت يدير بعمرًا زائغًا شاردًا يقلبه في أنحاء هذه الأطلال لعله يرى أثرًا من تلك المعالم التي شهدت حبه ، وصغت إلى غزله الساحر ، وهو ينفث به في أذن محبوبته .

وتقع عين الشاعر على شواهد الوحشة والخراب تتمشى في هذه الأطلال . . يرى آثار ألمها مرسومة على أرضها . . فتصدمه الحقيقة ، ويوقظه الواقع . . ويستبئس من أن تعمّر هذه الديار يوماً ، ويعود إليها أهلها المفارقون ! فيقول في حسرة يائسة :

تري بعَرَ الآرام في عرّصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فُلْفُلٍ
ويخيل إليك لأول بادرة من النظر تلقيها على هذا الكلام أنه مجرد كلام ،
وأنه لا يحمل في كيانه قوى مشعة متوهجة . . تنطلق منها - كلما حدثت النظر إليها -
معانٍ مجددة . . لا تنتهي !

وإن الأمر لعلّ خلاف ما خلت . . !
ودع بعَرَ الآرام هذا ، وانظر إليه من خلال حب الفلفل الذي شبه البعر به . . فإنك واجد آية من آيات الفن العبقري ، تحملها إليك كلمة واحدة « حب الفلفل » .

فما أدق المشابهة وأكملها بين بعر الآرام وحب الفلفل في واقع الحس ، ومرأى العين .. إنك حين تنظر إليهما معاً لا تسكاد تعرف هذا من ذلك ، إلا أن تفتهما ، وتكشف عن باطنهما ... فاللون ، والحجم ، والاستدارة ، والنتوء التي تظهر على السطح في كل منهما .. كل هذا على سواء فيهما ..

ولو وقف الأمر عند هذا التماثل ، والتطابق بين طرفي التشبيه لكان ذلك جديراً بأن يكسو الكلام ثوباً قشياً من البلاغة والبيان .. ولكن هناك ما هو أعظم من هذا .

فهناك ما يشبه الإعجاز فيما يشع من هذا التشبيه من معنى ، لا تستطيع أدق صور الأداء الفني أن تمسك به ، وأن تخرجه على هذا الوجه من البراعة ، واللفظ ! إن بعر الآرام هذا ، ليس هناك شيء أبغض منه إلى نفس الشاعر في تلك الحال . إذ هو الشاهد القائم على البلى والخراب الذي يتمشى في عرصات هذه الديار المهجورة ، التي كانت معنى الحبوبة ، ومطلع شمسها ! فأصبحت مسكناً للوحش ، وللظباء .. وهذا البعر هو أشباح البلى التي تتمشى فيها ..

إنه - وهذا شأنه - ليس بعر آرام ، ولكنه نعيق البوم ، ونعيب الغربان ! ويد البلى والفناء ..

وأين ما بين بعر الآرام وبين البوم والغربان ، والبلى والفناء من تشابه وتماثل في واقع الحس ومرأى العين ؟

إنه ليس بعر الآرام ، ولكنه حب الفلفل .. ذلك الحب اللاذع الحرييف ، الذي يكوى الفم ، ويحرق الجوف !

ولعله لا يغيب عنك ، أن الآرام جمع رثم ، والرثم : هو الظبي !

وهكذا تستطيع أن تمضي مع امرئ القيس في معلقته هذه ، وفي أشعاره كلها ثم في الشعر الجاهلي جميعه فتجد أنك أمام كلام .. ليس مجرد كلام .. وإنما هو كلامان .. ظاهر وباطن .. فالظاهر يبدو في هذا المدلول اللغوي الذي تحمله الألفاظ ،

وتؤديه أداء يصلح عليه المعنى المراد ويستقيم به . . . والباطن هو ما يشع من تعاقب الألفاظ ، وما ينقذ من احتسائك بعضها ببعض . . . وهو شيء كثير لا حدود له . . . يكتسى منه المعنى ألواناً زاهية مشرقة . . . كلما ملئت العين لوناً ، طامعاً فيها منه لون جديد . . . !

وذا هو سر البلاغة التي انفرد بها البيان العربي ، وهو الأثر الخالد الباقي الذي تركه العرب في الحياة ، حين أقدرتهم الحيلة على أن يطوّعوا السكامة لمقتضيات الحياة ، وأن يحملوها ما تحمل الفنون الإنسانية كلها من روائع وأسرار ، حين لم تسمح لهم الحياة منها بغير « السكامة » ! !

المفزة العربية ومطاميرها بين اللغات :

ولم يكن غير الغرب - كما قلنا - من استطاع أو يستطيع أن يبلغ بالسكامة هذه الغاية ، وأن يصير بها إلى تلك المنزلة ، وأن يجعل منها قوة قادرة على أن تتحرك مع الإنسان إلى أقصى مدى تصل إليه قدرته في التعبير والإعلام . . . ولعلك تذكر هنا بلاغة اليونان ، وحكمة فارس والهند . . . في القديم ، كما تذكر أساليب البيان الأوربي وما نبغ فيه من كتاب وشعراء في العصر الحديث . . . لعلك تذكر هذا فتعترض به على ما قلنا في البيان العربي ، وفي تفرد به بمنزلة لا يشاركه غيره فيها - لعلك تذكر هذا ، وربما تذكره نحن أيضاً معك ، فإننا لا نبخس الناس حقهم حين نتمسك بحقنا وندافع عنه . . . ولكننا مع هذا لا نرى أن بلاغة اليونان وحكمة فارس والهند ، وبلاغة الأدب الأوربي الحديث - لا نرى شيئاً من هذا يعاين البيان العربي ، أو يساويه . . . وإن وقفت منه بعض تلك الآداب موقفاً مدانياً مقارباً . . .

وشاهدنا على هذا قائم بين أيدينا على مرّ الأيام والسنين . . . وهو القرآن

الكریم !

وأنت تعلم أن القرآن هو معجزة كلامية . . قد أعجزت كل متكلم، وأخرست كل ناطق !

وأن القرآن الكريم حين تحدّى العرب « بالكلمة » وإعجازها ؛ إنما تخير زمانا ومكانا ، دعا فيه أهل هذا الزمان وذلك المكان إلى التحدى . . وكان أهل هذا الزمان وذلك المكان بحيث لا ترى الحياة بعدهم أو قبلهم من بلغ أو يبلغ شأوهم فى هذا الميدان . . وبهذا يكون إخماء هؤلاء القوم وإعجازهم حجة قائمة على الناس جميعا . . فحين تسقط الرؤوس لا قيام للأقدام ! وقد سقطت رؤوس العرب بين يدى القرآن ، وخرّت ساجدة تحت قدميه ! . وهذا شاهد قائم أبد الدهر على أن اللغة العربية هى وحدها من بين اللغات ، اللغة الصالحة للمعجزة الكلامية . وأن الكلمة لا تبلغ مبلغ الإعجاز إلا فى هذه اللغة وبها ! !

هل القرآن معجزة على غير العربى ؟

وقد يكون لسائل أن يسأل :

إذا سلمنا بأن القرآن الكريم حجة قائمة على العرب ، لأنه دعاهم إلى التحدى فأفهمهم وأعجزهم — فكيف يكون القرآن حجة على غير العرب ممن لا سبيل إلى تحدّثهم به ، وهم لا يعرفون لغته ؟
وجوابنا على هذا :

أن القرآن الكريم دعوة عامة ، ورسالة شاملة للناس جميعا . . من عرب ، وغير عرب . . على مدى الأزمان والأجيال . .

وقد دعا القرآن الناس جميعا إلى الإيمان به ، وبالرسول الذى نزل عليه . . واستجاب ، ويستجيب دائما كثير من غير العرب لهذه الدعوة ، فيدخلون فى الإسلام ، ويتصلون بكتاباه ، ويتعلمون لغته ، بل ويحذقونها ، ويذوقون طعومها . ثم يكون لهم بعد هذا نظر ثان : نظرة تجمع بين لغتهم التى عاشوا بها قبل أن يدخلوا

فى الإسلام ، وبين اللغة العربية التى عرفوها بعد أن دخلوا الإسلام . . ومن خلال هذه النظرة يبدو لهم وجه الحكمة فى أن الله سبحانه شرف اللغة العربية بحمل هذه الرسالة ، ويجعل معجزتها فى ذات الكلمات التى اشتملت عليها هذه اللغة ، والتى صيغت منها الرسالة . . فكانت قرآنا مبينا . . !

إن هذه النظرة ستطالعهم على مافى اللغة العربية من اقتدار على التحليق بالأسلوب البيانى إلى أبعد مدى يمكن أن ترتفع إليه السكامة من فم إنسان أوقله ! أما النظرة الأخرى ، فهى نظرة إلى اللغة العربية وإلى مكانها من القرآن الكريم ومن هذه النظرة يتجلى إعجاز القرآن ، وتبدو اللغة العربية فى أعلى منازلها وكأنها السكواكب تدور فى فلك الشمس ، وتأخذ من ضوئها !

وقد دخل فى الإسلام كثير من غير العرب ، من فرس ، وروم ، وهنود . . دخلوه ومعهم لغاتهم التى عاشوا فيها ، وعرفوا أسرارها . . ثم درسوا اللغة العربية ، لغة الدين الذى آمنوا به ، فعرفوا بلاغتها ، والأسرار المنطوية عليها . . ثم عرفوا « المعجزة » القرآنية التى أعجزت أرباب البيان وأئمة الكلام . .

وحسبك أن تذكر فى هذا المقام عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والجاحظ ، وكلهم أئمة البيان ، وأرباب الفصاحة فى النثر العربى ، ثم تذكر بشاراً ، وابن الرومى ، وأبا نواس . . وهم من تعرف فى الشعر . . وهؤلاء وأولئك جميعاً أعاجم أو من أصل الأعاجم !

هذا إلى كثير من العلماء والفلاسفة . . وهؤلاء جميعاً من غير العرب . . ولهم أو لكثير منهم باللغات غير العربية معرفة يميزون بها بين منازل الكلام ، ومراتب الفصاحة ! . .

ولو كان هؤلاء قد وجدوا اللغة العربية على ما عهدوا من لغات أقوامهم لما كان عندهم هذا النزوع الشديد إليها ، ولا هذا التعلق القوى بها ، ولا هذا

الإخلاص والحب المسكينين لها . . حتى كان لهم من ذلك عون ملهم على حذقها وبلوغ الغايات القصوى منها .

وهذا في ذاته شاهد عدل على ما للغة العربية من مكانة تعلو بها على غيرها من اللغات ، ومن أسرار تنفرد بها بين ما عرف الناس من أسرار البلاغة والبيان !

وهذا الشاهد قائم أبداً . . ففي كل عصر ، ومن كل أمة يدخل في الإسلام أعداد كثيرة من الناس . . من علماء ، وفلاسفة ، وكتّاب . وهؤلاء لهم ما لهم من حكمة ونظر في « فن القول » . . وهم أقدر الناس على وزن البلاغة العربية بغيرها من البلاغات الأخرى . . ثم وزن بلاغة القرآن إزاء البيان العربي .

وقد نظروا ، وقدرُوا ، ووزنوا . . فكانت كفة اللغة العربية هي الراجحة دائماً . . وكان القرآن الكريم هو معجزة هذه اللغة !

يقول « توماس كارليل » في كتابه « الأبطال » متحدثاً عن القرآن :
« هذا صدّى يتفجر من قلب السكون كله » . !

* * *

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن إعجاز القرآن إنما هو حجة على من يحسن العربية ، ويطلب للإيمان بالدعوة معجزةً شاهدة لها !

ولسكن ليس معنى هذا أن كل من لا يعرف الإعجاز القرآني ، ولا يملك وسائل معرفته غير مطالب بالدخول في هذا الدين الإسلامي . . كلا .

فالإسلام رسالة إنسانية ، تدعو إلى الحق ، وإلى الخير . . وليست دعوة الخير في ذاتها في حاجة إلى معجزة تشهد لها أنها من عند الله . . وإنما كانت المعجزة للمكابرين المعاندين ، الذين لا يستجيبون للحق ، ولا يدعون له . . كما وصفهم القرآن .

« وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » (١) .

فأمثل هؤلاء جاءت المعجزة ، لتقيم الحجة عليهم ، إلى جانب الحجج الأخرى القائمة من شواهد الحق والخير التي تحملها الدعوة بين يديها ، وتبشر في الناس بها . .

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

ونستطيع بعد هذا أن ننتهي إلى مقررات :
أولاً : أن القرآن الكريم معجزة في ذاته ، وأن معجزته محمولة في كلماته التي نزل بها . .

ثانياً : أن المعجزة القرآنية جاءت في زمانها ومكانها ، ونزلت في أهلها الذين هم أقرب الناس إليها ، وأعرفهم بها . . إذ كانت بلاغتهم قد بلغت الغاية ، وكانت السكامة في أفواههم قد أعطت كل ما يمكن أن تعطيه لإنسان . . فلما أخذ القرآن هذه الكلمات على صفحتها تلك ، نفخ فيها نفخة من روح الحق ، فجاءت بشعر جديد ، وبخير كثير ، لم يكن لها أن تعطيه أبداً في صنعة إنسان . . على أى لسان ! ولعل في قوله تعالى :

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » — ما يشير إلى هذا المعنى . . فإن كلمة « حيث » يعبر بها عن المكان . . والمكان يحويه زمان . ويعيش فيه أشخاص . . ١١

وبهذا يكون استعمال القرآن لهذه الكلمة « حيث » — معجزة، تنطلق منها إشارات مضيئة، تشير إلى الرسول، وإلى المرسل إليهم، وإلى زمن الرسالة ومكانها . .

فقد أصابت الرسالة مكانها في شخص الرسول ، وفي العرب المرسل إليهم ،
في زمان ومكان معلومين !

ثالثاً : أن الأدب الجاهلي — وخاصة الشعر — هو المنظور إليه في معرض
التحدى ، وهو الذي وقع الإعجاز عليه .. إذ كان هذا الأدب . وهذا الشعر ،
غايه ما يمكن أن يرقى إليه فن القول ، في مجال العمل الإنساني ، في استصحاب
الكلمة ، والتعامل بها .

ما هو الإعجاز في القرآن :

ومع أن الإجماع يكاد ينعقد على أن معجزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه
هو القرآن الكريم .. ليس له معجزة غيرها ، لأنه هو الذي حمل دعوة
التحدى به إلى الناس عامة ، وإلى العرب خاصة ، في أكثر من موضع منه ..
فقال تعالى :

« قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُوْرِ مِثْلِهِ مَفْتَراتٍ » ^(١) وقال سبحانه « قُلْ لَّيْنِ
اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » ^(٢) .

— مع هذا الإجماع على أن القرآن هو معجزة الرسول ، ومع هذا الإجماع أيضاً
على وقوع الإعجاز به ، وتسليم قريش والعرب جميعاً بالعجز .. في حينه — فإن
الوقوف على الجهة التي كان منها الإعجاز القرآني ، أمر لم تلتق عند الآراء ، ولم
يكن محل اتفاق بين الباحثين والناظرين في وجوه الإعجاز ، في كل زمان ومكان .
فهناك أكثر من رأي ، وأكثر من مذهب في الجهة أو الجهات التي كان

(١) سورة هود : آية ٣ . (٢) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

بها القرآن معجزاً مفتحماً ! على ما سنرى ذلك حين نعرض وجوهاً من تلك الآراء .
وصوراً من هذه المذاهب .

وليس كذلك الشأن في معجزات الأنبياء .. إذ كل معجزة كانت تنادى
مملنة في وضوح عن صفتها التي أعجزت بها ، وتشير في صراحة إلى الجهة التي جاء منها
الإعجاز ، فيعلم الناس لوقتهم ماذا في المعجزة من دلائل الإعجاز ! وماذا فيها من
القوى القاهرة المعجزة التي لا يستطيعون القيام لها ، والجرى معها ؟

بل إن الأسر لأهون من هذا .. فما كان لأية معجزة من معجزات الأنبياء
إلا جهة واحدة ، وإلا صفة واحدة ، جاء منها الإعجاز ، ووقع بها ، وهي قطع
النظر والفكر معاً عن البحث عن وجه الإعجاز فيها ، وعن طلب الدلائل
الدالة عليه .

وماذا يبحث الناس في عصا موسى مثلاً ؟ إنها مجرد عصا .. لا تختلف
في مرأى العين عن أى عصا أخرى .. ليس فيها أجهزة ، ولا عدد ، ولا أى
خروج عن صفات العصى التي في أيدي الناس .. ولكنها في يد موسى تفعل
هذه الأعاجيب ، وتلد تلك المعجزات !

وليس في يد موسى غير ما في أيدي الناس .. لحم ، ودم ، وعظم ، وعصب ،
وعروق ! لا تختلف في شيء أبداً عن الأيدي التي تحيا في أجساد الناس وتعمل لهم !
إذن فهناك قدرة لا تُرى .. هي قوة الله .. التي تدم موسى بهذه المعجزات ،
وليست عصاه أو يده إلا أداة تحمل هذه المعجزة أو تلك !

كذلك معجزات « عيسى » .. يهتف بالبيت فيصحو ، ويشير إلى الأكمة
والأبرص فيبرأ .. وليس في صوته الذي يهتف به شيء يخالف مألوف الأصوات
المعروفة للناس .. إنه مجرد كلمة تنطلق من فم ، فإذا هي حياة ، وإذا هي روح

تسرى في موات فتبعته من موقده ! .. ومجرد إشارة تتجه إلى أعمى فإذا هو مبصر ، أو إلى أصمّ فإذا هو سميع مجيب !

وإذن فليس الشأن في هذا الصوت ، أو في تلك الإشارة ، وإنما هو قوة قادرة .. لا تُرى .. قد جعلت لهذه الكلمة ولعلك الإشارة هذا الأمر المعجز ! وليس للناس إزاء هذا الانقلاب الشامل لطبائع الأشياء ، وخروجها على مألوف الحياة عندهم — رأى أو نظر .. وإنما هو الدهش والعجب .. أو الحيرة ، والتبذّر ! ! إذ ماذا يرى الناس أو يقولون في كلمة يحيا بها الميت ؟ وماذا يرى الناس أو يقولون في إشارة يبرأ بها الأكف والأبرص ؟

* * *

أما القرآن الكريم فشأنه غير هذا الشأن وأمره على خلاف هذا الأمر ! فهو كلمات ، وألفاظ ، وعبارات .. لا تختلف عما ألف الناس ، مما جرى على ألسنتهم من كلام .. إنه كلمات مألوفة معروفة .. تعامل بها الناس ، فأخذوا بها وأعطوا .. وقلّبوها على جميع وجوها .. في مختلف الأساليب ، وشقّ التراكيب .

إن كل ما في القرآن الكريم من كلام هو مما كان يدور على ألسنة العرب ، ومما يصاغ منه نثرهم ، ونظمهم .. من خطب ، وحكم ، ومساجلات ، ومن قصيد ، ورجز .. وفي هذا يقول الله تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ » (١) .

وبقول سبحانه مخاطباً نبيه الكريم :

(١) سورة يوسف : آية ٢

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (١)

ثم إن هذه الكلمات التي عُرفت - بعد - باسم القرآن ، والتي تحدّى بها الرسول الكريم العرب جميعاً ، ثم الإنس والجن قاطبة - هذه الكلمات لها ما كان لكلمة عيسى حين كان ينطق بها فتتجسد معجزة قاهرة يشهدها الناس ، ويرونها رأى العين .

إن كلمات القرآن كلمات لا يلدن تلك المخلوقات العجيبة المجسّدة ، ليومهن ، ثم يمضين عقيبات إلى آخر الدهر . . لا يعرف لهن مكان في الوجود !
أين كلمات عيسى التي أحيا بهنّ الموتى ، وأبرأ بهنّ الأكمه والأبرص ، ونزل بهنّ مائدة من السماء ؟ . . لقد تخلّقن كائنات تسعى بين الناس بهذه الأمور المعجزة ، لساعة أو لأيام . . ثم مضين . . وطواهن العدم إلى الأبد . .
وأين عصا موسى ؟ بل أين يده ؟ . . لقد أدّتا دورهما في الحياة ، ثم ذهبتا مع الذاهبين !

وكلمات القرآن . . لم يخلّقن شيئاً من تلك الصور المعجزة . . شأنهن شأن الكلام المألوف ، الذي يجرى على ألسنة الناس . . ولقد جعلهن الله على أفواه الناس إلى يوم القيامة ، لا تتغير صفتهم ، ولا تتبدل صورهن . . بل يظللن هكذا كلاماً مما يعيش به الناس ، ويتعاملون به ، وينظمون منه أشعارهم ، ويؤلفون به خطبهم ، ويكتبون به علومهم وآدابهم ، كما كان شأن هذا الكلام قبل أن يُنظم منه القرآن . .

والكن هذا الكلام المألوف المعروف حين ضمه القرآن إليه ، ونظم منه آياته

وصور منه أحكامه ، وقصصه ، وجدله ، ومواعظه ، وزواجه — هذا الكلام قد أصبح منذ ذلك اليوم معجزة قاهرة ، تتحدى الناس جيلاً بعد جيل ، وأمة بعد أمة .. فليأتوا بحديث مثله .. إن كانوا صادقين !! .

* * *

إنه لو كان في كلمات القرآن الكريم مافى كلمات عيسى ، وما فى عصا موسى ويده — شىء من هذه القوة التى كانت تنطلق منها لوقف الناس من كلمت القرآن عند رأى ، حين يرون الثمرة التى أثمرتها ، وحين يشهدون المعجزة التى تخلقت منها .. ولكن — كما قلنا — لم يكن فى كلمات القرآن شىء إلا أنهم كلام قد تداوله الناس ، وعرفوه منشوراً ومنظوماً .. قبل أن يصبح قرآناً !

ومع هذا فقد جاءت هذه الكلمات تتحدى الناس — وتقول لهم : إنها من حديثكم الذى تتحدثون ، ومن كلامكم الذى تنطقون :

« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١) .

ولكن .. أين هى المعجزة فى هذا الكلام ؟ وماذا يبدو للناس منها ؟ وماذا يشهدون من إعجازها ؟ وكيف يضع الناس أيديهم على المعجزة ، ويرفعون أبصارهم إليها ؟

إنها معجزة لا ترى بالعين ، ولا تلمس باليد !

وإنه لن يخرج من هذا الكلام ما يراه الناس بأعينهم ، ويمسونه بأيديهم .. وإنما على الناس أنفسهم أن يسمعوا لهذا الكلام ، وأن يتدبروا آياته .. وعندئذ

برون ببصارهم — لا بأبصارهم — فى كل آية معجزة قاهرة .. تنو لها الجباه ؛
وتخضع لها الرقاب !

إن على الناس أنفسهم .. فرداً ، فرداً .. أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لهذه
الكلمات — فإنهم إن فعلوا تكشف لهم منها ما كان يتكشف من عصا موسى ،
ويده ، ومن كلمة عيسى وإشارته .. حين كانت تتفجر منها الآيات ، وتتخلق
المعجزات ! وهذا مفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : « وإنما كان الذى أوتيته وحياً
أوحى إلىَّ .. » على ما أشرنا إليه من قبل (١) .

استمع إلى قوله تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ، لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ
أُولُو الْأَلْبَابِ » (٢) .

فمن هذا التدبر ، وذلك التذكر ، يشهد كل متدبر ومتذكر معجزة الرسول ،
وإعجاز القرآن !

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (٣) .

فالعقل مدعو هنا إلى الكشف عن الحق الذى نزل به القرآن .. وعن
الإعجاز الذى ضمت عليه كلماته وآياته .. واستمع أيضاً إلى قول الحق
جلّ وعلا :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » (٤) .

إنها آيات .. معجزات .. وما يعقلها ، ويعرف وجه الإعجاز فيها إلا العالمون

(١) ص ٨١ من هذا الكتاب .

(٢) سورة ص : آية ٢٩ (٣) سورة يوسف : آية ٢

(٤) سورة العنكبوت : آية ٤٣

الذين يُلقونُ أَسْمَاعَهُمْ لها ، ويفتحون قلوبهم وعقولهم للحق الذي فيها ، وللنور الذي معها ..

واستمع إلى قوله سبحانه :

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » (١)

فهذه الآيات الكريمة وأمثالها التي نزل بها القرآن هي شاهد الحق والعدل على أن « محمدا » هو الرسول المرسل من رب العالمين .. وأنها لا تؤدي هذه الشهادة على وجهها إلا لمن ينظر إليها بعين بصيرته ، ويهتدى إليها بعقله ، وبقليه جميعاً !

وإذا أنت عرفت هذا من تلك الآيات الكريمة .. فاستمع إلى قول الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (٢)

فلقد سمي الله سبحانه القرآن ذكراً في هذه الآية « وأنزلنا إليك الذكر » . ثم جعل فاصلتها دعوة إلى التذكّر بهذا القرآن ، والتفكير فيه « ولعلهم يتفكرون » ثم — وهذا ما جعلنا الآية شاهداً له هنا — هذه اللفتة الرائعة العظيمة التي في قوله سبحانه : « لتبين للناس ما نزل إليهم » .. فالقرآن وإن نزل على النبي ، فهو منزل للناس ، ومن أجل الناس .. والقرآن ، وإن كان معجزة النبي ، فإن على الناس أن يعرفوا وجه المعجزة فيما نزل عليهم ! فهو كتاب النبي وكتابهم ، وهو معجزة النبي ومعجزة العرب الذي نزل بلسانهم .. فهم الذين يعرفون المعجزة القرآنية ، ويشهدون مطالعها في آياته .. ومن أجل هذا خاطبهم الحق بقوله :

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٢ (٢) سورة النحل : آية ٤٤

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ .. وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » (١).

فالعرب - وقد نزل القرآن بلسانهم - هم الذين يرون المعجزة التي حملها الرسول إليهم في كلمات هذا الكتاب الكريم ، وهم - من أجل هذا - مسئولون مع الرسول عن تبليغ هذه الرسالة السماوية ، والدعوة إليها .. إنهم أصحاب رسالة مع الرسول الذي جاءهم من أنفسهم .. وجاءهم من عند الله بكتاب ، ينطق بلسانهم ، ويتحدث بلغتهم .. محملة بهذا الإعجاز الذي ليس لغير العرب شهوده ، والتعرف عليه. وليس هناك من تكريم للعرب ، وتشريف ، لقدرهم ، أعظم ، وأفضل مما كرمهم الله وشرفهم به في قوله سبحانه : « وسوف تُسألون » .

فقد جعلهم والنبىؐ الكريم كيانا واحدا ، يبلغ رسالة الإسلام ، ويبشر في الناس بها .. وعلى قدر هذا التكريم ، وذلك التشريف تكون المسؤولية ، ويكون الحساب عن التقصير في حمل هذه الأمانة ، وأداء تلك الرسالة !

« وسوف تُسألون » .. « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » (٢)

ولقد كان من هذا أن دار الناس حول القرآن في كل اتجاه ، ورصدوه من كل مطلع ، وجاءوا إليه بكل ما يملكون من قوى ذهنية ، وملكات نفسية وروحية ، يدرسونه ويتدارسونه ؛ فما تركوا منه حرفا إلا نظروا فيه نظرا مرددا ، ولا كلمة إلا وقفوا إزاءها خاشعين متأملين ، ولا آية إلا عاشوا فيها متعبدين متوسمين ..

ولك أن تحسب جميع العلوم التي اشتغل بها المسلمون منذ صحبوا القرآن إلى اليوم - أنها إنما كانت من أجل القرآن ، ولحساب القرآن ..

فعلوم التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، والنحو ،

(١) سورة الزخرف: آية ٤٤

(٢) سورة الأعراف: آية ٦

واللغة والأدب ، والسير ، والتاريخ ، والفلك ، والخط .. وغيرها — كانت غايتها الكشف عن أسرار القرآن الكريم ، أو العمل على صيانة مادته وحفظها ..

ولا شك أن كل علم من هذه العلوم كان يرصد القرآن من مرقب خاص ، فيتجلى فيه بعض ما في القرآن من آيات الروعة والجلال ، والإعجاز !

غير أن هناك دراسات اتجهت اتجاهها مباشراً للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله في القرآن ، فلم يكن من همها شيء إلا أن تكشف النقاب عن هذا السر المحجب .. فكانت من أجل هذا تدور حول القرآن في كل مدار ، وتلتقي به في كل مجال ، وتنظر إليه من كل اتجاه .. وقد اجتمع من تلك الدراسات محصول وفير ، يكمل بعضه بعضاً .. إذ كان لكل ذي نظر نظرة — مهما اتسعت آفاقها — لا تأخذ من القرآن الكريم إلا ما يأخذ النمل من أركان جبل شامخ ..

ولا نحاول أن نعرض هنا جميع هذه الدراسات ، ولا أن نجمع كل هذه النظرات فيما يتصل بالقرآن الكريم من هذه الجهة ، فذلك أمر إن حاولناه لا نستطيعه ، ولا نقدر على الوفاء بحقه ، إذ لا يكاد يحصره العادون ، لكثرتهم ، وامتداد أزمنتهم ، واتساع أمكنتهم ! وضياح أكنثره !

وإنما الذي نحاوله هو أن نتخير من كل جماعة رأسها ، ومن كل عصر — إن أمكن — بعض رجاله ، لنعرف أثر الزمن في موقف المسلمين من القرآن الكريم ، ونظرتهم إليه ، وفهمهم له .. ونستطيع في حدود هذا المجال أن نجعل « الجاحظ » على رأس أولئك النظائر الذين نظروا في بلاغة القرآن وحاولوا أن يعرفوا السبيل إلى وجه الإعجاز فيه ..

فقد كان الجاحظ — فيما نرى — أول من نظار هذه النظرة في كتاب الله ، وحاول أن يجعلها موضوعاً من موضوعات رسائله وكتبه الكثيرة التي جال بها في كل مجال ، واصطاد بها كل عجيب وغريب !

وإذا كان الجاحظ قد سبق إلى شيء من هذا، فإن الذين سبقوه لم يحاولوا أن يقيموا من هذه النظرة رأياً، أو مذهباً في إعجاز القرآن . . كما نرى ذلك عند « النظام » أستاذ الجاحظ ، فقد قال في القرآن وفي إعجازه قولاً ، ولكن هذا القول لم يكن ليقوم وحده لولا تلك المقولات الكثيرة التي انفرد بها « النظام » . فصار شيخ مذهب بين المسلمين ، هو مذهب المعتزلة .

ثم جاء بعد « الجاحظ » كثيرون ، جروا على طريقته ، وأخذوا مأخذه ، وحاولوا أن يكون لهم نظر خاص إلى جانب رأى الجاحظ ، ولكنهم كانوا دائماً يدورون حوله ، ولا يجيئون - في الغالب - بجديد عليه . .

إن أنظار المسلمين كانت دائماً معلقة بكتاب الله ، يدرسونه ، ويتدارسونه ، ويلقونه بكل ما تسعفهم به الحياة من علوم ومعارف ، فيجدون كل شيء دون ما في كتاب الله من علوم ومعارف ، فيزداد لذلك تعلقهم بكتاب الله ، وتتوثق صلتهم به ، ويشتد إقبالهم عليه ، ومدارستهم له . .

وفي كل يوم من أيام المسلمين تظهر دراسات وبحوث في القرآن وعلوم القرآن ، حتى لقد اجتمع من ذلك ما لا يحصى عدداً .

ولقد كان نصيب « الإعجاز » في مباحث القرآن نصيباً موفوراً ، وقد أفرده بعضهم بدراسة خاصة ، كما فعل عبد القاهر الجرجاني وعبد الجبار والرماني ، والخطابي ، والباقلاني . . إلا أن أكثر مباحث الإعجاز هي التي كانت تسمى ضمن مباحث التفسير ، أو القراءات . . فمعظم الذين فسرنا القرآن الكريم حاولوا أن يجعلوا في صدر تفسيرهم إشارات تتضمن آراءهم في فضل القرآن ، وفي إعجازه . .

ولعل « الزمخشري » أشهر هؤلاء المفسرين وأولاهم بالذكر في هذا المقام ،

إذ كان تفسيره «الكشاف» يبحث عن مناسبات الإعجاز في كتاب الله . . في آياته ، آية ، آية ، وفي كلماته ، كلمة ، كلمة . . كما سترى ذلك عند نظرنا إلى رأيه في الإعجاز . .

* * *

وقد آن أن نلتقي بعد هذا مع بعض هؤلاء العلماء والمفسرين ، الذين يتسع المجال للقائهم ، والتحدث إليهم . وذلك بعد هذا المدخل القصير :

لماذا اختلف الناس في الاستدلال على وجه الإعجاز ؟

وإذا كان العرب قد أذعنوا للقرآن ، وأقروا بإعجازه ، وشهدوا على أنفسهم بالعجز عن مطاولته في أقصر سورة من سورهِ — إذا كان هذا هو واقع الأمر في شأن الإعجاز القرآني — فإن الأمر ليختلف اختلافا واضحا في مجال الكشف عن وجه الإعجاز ، والتعرف على الجهة أو الجهات التي كان منها هذا الإعجاز ! كلام معجز . . ما في ذلك شك . . حيث قامت الشواهد والأدلة القاطعة ، المتصلة أبد الدهر على وقوع الإعجاز بهذا الكلام . .

ولكن من أين كان لهذا الكلام هذا الإعجاز ؟

ومن أية جهة يُبحث عن دلائل الإعجاز فيه ؟

أمن جهة ألفاظه ؟

وكيف ؟ والألفاظ التي نُظم منها القرآن هي الألفاظ المتداولة المعروفة للعرب ،

والتي نظموا منها شعرهم ، ونثرهم ، وصاغوا منها حكمهم وأمثالهم ؟

أمن جهة تركيب عباراته وجمله ؟

وكيف ؟ والقرآن لم يخرج على قواعد اللغة ، ولم يبعد عن أساليب القول

التي تواضع العرب عليها وتعاملوا بها ؟

أم من جهة معانيه التي ضُمَّت عليها آياته ، واحتوتها سُورته ؟
وكيف هذا ؟ والمعاني التي دارت حولها آيات القرآن كانت معروفة عند
العرب في جملتها ، وخاصة الأخلاقيات منها ، وإن لم يستقيموا عليها ، أو على الكثير
من مفاهيمها ؟

وإنك أينما قلبت وجوه الرأى فى الكلام العربى وأساليبه لم تجد القرآن قد
خرج على وجه واحد منها خروجاً غير مألوف ، بحيث يُعدّ وجهاً جديداً جاء به
القرآن مفرداً . . يُرى منه وجه الإعجاز ، الذى لا يقدر الناس على مثله - رؤية
واحدة محددة .

ومع هذا فالقرآن معجز . . ولو ضاقت صدور ، ورغمت أنوف !!
ومع هذا أيضاً فقد كان الكشف عن وجه الإعجاز ، والتعرف على دلائله
مطلباً عزيزاً أثيراً . . انصرفت إليه هم الباحثين والدارسين من المسلمين ، وغير
المسلمين ، ليقعوا على السر الذى من أجله كان القرآن الكريم بهذه المكانة
العالية ، التى لا يناهها أحد . ولا يطمع فيها بشر . . مع أنه كلام من الكلام
المألوف المعروف !!

الباب الثالث

آراء ومباحث في الإعجاز

من نظرات السابقين في الإعجاز :

إننا نحاول هنا أن نعرض وجوهاً من الرأي في إعجاز القرآن ، تظهر فيها نظرات الناظرين في كتاب الله ، وما وقع في نفوسهم من جلاله وروعته ، وما تكشف لبصائرهم من أسراره وروائعه . ونود أن نشير إلى أن هذه الوجوه التي سنعرضها إنما هي لأصحابها الذين صوروها على هذا النحو ، وأرادوها على تلك الصفة . . وليس لنا فيها إلا مداخل ندخل بها إليها ، ومعارض نتخيرها لها ، ووقفات قصيرة نقفها منها . . انجلو غامضاً ، أو نكشف مستورا . . ثم نرسلها هكذا على ما أقامها عليه أصحابها .

قبل من كتب :

وطبيعي أننا لانستطيع أن نعرض هنا جميع الآراء التي قيلت في الإعجاز ، قديماً وحديثاً ، كما أننا لانستطيع إذا عرضنا رأياً من هذه الآراء أن نمسك به من جميع أطرافه . .

وإنما الذي سيكون منا في هذا المجال ، هو أن نتخير بعض الآراء التي نراها تتجه إلى البحث عن الإعجاز أتمها مباشراً ، لا تلك التي تدور حوله من بعيد . . فإن اخترنا رأياً من تلك الآراء التي يبدو أنها تنظر بعيداً عن مواقع الإعجاز ، فذلك لما انظرناها تلك ، من تصويب سديد إلى مواقع الإعجاز ، كما نرى ذلك في « دلائل

الإعجاز» و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني . . فإن نظرة «عبد القاهر» في هذين الكتابين إنما هي في صميم الإعجاز ، وإن كانت تبدو في ظاهرها أنها تطوف به ، وتلمّ بساحته المأما .

أما صنيعنا مع الرأي الذي نعرضه ، فإننا سنجهد الجهد كله في تلخيصه ، تلخيصاً يقارب بين مقبوضه ومبسوطه ، بحيث تظهر جميع الملامح التي أودعها فيه صاحبه . . فإن قدرنا على الوفاء بذلك ، فله الحمد أن أدينا الأمانة لأهلها ، وإن قصّر باعنا عن الوفاء وفاء كاملاً بهذا الأمر ، فعذرنا عند أنفسنا ، وعند أصحاب هذه الآراء - أن صحت نيتنا لذلك ، وانعقدت عليه . . « وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى » !

ومن صنيعنا أيضاً في عرض هذه الآراء ، أننا سنعرضها بحسب ترتيبها الزمني : السابق ، فاللاحق . .

وذلك ليبين في هذا أثر الزمن في اتجاهات النظر إلى « الإعجاز » وفي تأثير العلماء بعضهم ببعض ، وفي تأثير بعضهم في بعض . . الأمر الذي يبدو جلياً في موضوع « الإعجاز » حيث سلك العلماء فيه مسلكاً يكاد يضع فيه اللاحق منهم قدميه على قدمي سابقه . . كما سنرى ذلك عند النظر في هذه الآراء . .

وعلى هذا ، فسيكون « الجاحظ » هو أول من نبدأ لقاءنا به ، للتعرف على رأيه في الإعجاز . . إذ كان أول من تصدى لهذا الأمر ، وجعله موضوعاً خاصاً للنظر والدرس . . أما الذين سبقوا الجاحظ إلى شيء من هذا ، فلم يكن البحث في إعجاز القرآن قائماً عندهم على هذا الوجه المحدد المقصود .

ثم إننا سنلتقي بعد هذا بمن جاءوا بعد « الجاحظ » ممن كانت لهم مباحث خاصة في الإعجاز ، أو من كان لهم نظر فيه في معرض من معارض القول في

تفسير القرآن أو علم البيان ، أو غيرها . . . إذ كانوا جميعاً — فيما نرى —
شراحاً لنظرية « الجاحظ » سائرين في اتجاه نظريته .

هذا ، وربما قد يرى بعض الناظرين في هذا البحث أننا قد استكثرنا من
هذه الشواهد التي قدمناها هنا في وجوه الإعجاز . . . وأنه كان يمكن الاكتفاء
ببعضها ، والاجتزاء منها بشاهدين أو ثلاثة . . . خاصة وأنما جميعاً وجوه متماثلة ،
وآراء متقاربة ، يتبع بعضها آثار بعض . . . !

ونقول في مقابل هذا : إننا قد استكثرنا فعلاً من الشواهد ، واستعرض
الآراء المتقاربة المتماثلة ، ولكن ذلك كان عن تقدير وتقدير . . . ذلك أن أمر
الإعجاز — كما قلنا — ليس مما يمكن أن يحصر على صورة واحدة ، محددة
المعالم . والملاح ، بحيث تتلاقى عندها الآراء ، ولا تختلف عليها المفاهيم . .
وإنما لكل ناظر في « الإعجاز » ما يقع له منه ، وما ينكشف لبصيرته من
سماته . . .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذه النظرات الكثيرة التي دارت حول
الإعجاز — وإن تقاربت وتماثلت — ليست على مستوى واحد ، ولا على
طريق سواء . . . بل إن لكل ناظر في الإعجاز شيئاً غير قليل ، من خاصته ،
قد نفذه من دات نفسه على ما تنكشف من له وجوه الإعجاز ، وما وقع في نفسه
منها . . .

من أجل هذا كان حرصنا على أن نستكثر ما استطعنا من عرض هذه الآراء
وأن نضع بعضها إزاء بعض . . . ما تقارب منها ، وما تباعد . . . وفي هذا ما يعين
على التعرف على إعجاز القرآن ، ويلقى أضواء من جوانب وزوايا كثيرة على
مواقع إعجازه ، حتى أنه لو خفي على سالك هذا الطريق بعض ملامح الإعجاز

في جانب ، رأى بعضاً من تلك الملامح في جانب آخر ، وإن عُيِّت عليه السبيل مع رأى ، استقامت له السبل مع غيره .

ذلك أن الناظرين في إعجاز القرآن إنما ينظرون في آيات معجبة . . معجزة . . ويشهدون أمراً لا يمكن أن يقع في مجال الفكر ، ولا أن يضبط في قوالب المنطق وإنما هم — في مواجهة البيان القرآني — ينظرون في سماء تنزل منها عبقریات الفنون جميعها !

وفرق كبير بين، الحقائق العلمية ، والحقائق الفنية .

إننا لو كنّا إزاء حقيقة علمية لمّا أجهدنا أنفسنا هذا الجهد في التطلع وراء نظرات الناظرين وتشمم آثارهم ، وتحسس خطراتهم — ولا كتفينا بمقطع القول فيها برأى ذى الرأى من أربابها . . إذ ليس فيها إلا قول واحد ، لا اختلاف عليه ، ولا خلاف فيه .

أما الحقائق الفنية — وخاصة الجميلة العليا منها ، وبوجه أخص إذا كانت منزلة من السماء — فإنه ليس فيها « حزام »^(١) التي تقول قولاً لا معقب عليه بعدها . . إذ لكل إنسان هنا في هذا الأمر نظره ، وقوله . . بقدر ما يسمح به استعداداه ، وفهمه .

ومن هنا كان للباحث في إعجاز القرآن أن يتتبع نظرات الناظرين في إعجاز القرآن جميعها ، وأن يتفرس فيها نظراً بعد نظر ، حيث يلوح له في كل نظر ملامح جديدة في وجه الإعجاز أو وجوهه .

* * *

(١) حزام : امرأة عربية يضرب بها المثل في القول الفصل ، فيقال : « القول ما قالت

حزام » .

بهذا التقدير كانت نظرتنا إلى هذه الآراء الكثيرة لوجوه الإعجاز التي عرضناها هنا ، وهي في رأينا قليلة لا تبلغ بعض ما كنا نريد . . إذ أن أمر الإعجاز لا يمكن أن تحيط به أنظار الداهرين مهما كثرت ، ولا أن تحده مقولات القائلين وإن تجاوزت الحصر والعد ، فكل نظر وتدبر في آيات القرآن الكريم ، هو وجه جديد من وجوه إعجازه ، ولو كان هذا النظر بعدد أفراد الناس فرداً فرداً ، وبعدد اختلاف نظرات الفرد حالا حالا ، على امتداد الزمان واختلاف الأزمنة والأوطان . .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ، (١) » .

١ - الجاحظ^(١)

رأيه في الإعجاز :

لم يحفظ التاريخ للجاحظ رسالة من رسائله ، أو كتاباً من كتبه في إعجاز القرآن . . وهذا أمر يبدو غريباً . . فإن الجاحظ عرض لكثير من الموضوعات التي لا يلتفت إليها أكثر الكتاب ، ولا يُجرون أقلامهم فيها - فعالجها هو ، وبسط القول فيها . . وجعل منها رسائل ، وكتباً .

وبعيد جداً ألا يكون الجاحظ كتب رسالة في القرآن وعرض فيها لوجوه إعجازه ، ولكن ذهب فيما ذهب بيد الضياع من كتبه ورسائله التي ذهب أكثرها . . وقد يكون لذلك علة سنشير إليها بعد قليل .

ومع هذا فقد كان له في بعض كتبه ورسائله كلمات منشورة هنا وهناك عرض فيها لإعجاز القرآن ، ولوجوه إعجازه . . ومن هذه الآراء المتناثرة يمكن أن نعرف رأيه في الإعجاز وفي الوجوه التي وقع بها الإعجاز .

ففي رسالة للجاحظ بعنوان « حجب النبوة »^(٢) يتحدث الجاحظ عن معجزة الرسول ، وأنها قائمة في القرآن الكريم الذي هو معجزته الكبرى . . الخالدة . . وقيم الدليل على هذا بما عُرِف من تحدى القرآن للعرب ، وعدولهم عن لقاء هذا التحدى ، والنزول إلى ميدان القول . . فهربوا من هذا الميدان . . وأوقدوا نار الحرب بينهم وبين النبي . . فَقَتَلُوا ، وَقَتَلُوا . . ولو كان في استطاعتهم أن يصمدوا لهذا التحدى لما فروا هذا الفرار المشين ، ولما رضوا أن يعرضوا أنفسهم

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، « الجاحظ » لقب غلب عليه . وهو أشهر من أن يعرف ، ومكانته العلمية والأدبية يكاد يكون فيها منزهة بين العلماء والأدباء ، ومؤلفاته أكثر من أن تحصى ، توفي سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) ضمن مجموعة رسائل الجاحظ . . نشرها : السندوني .

الموت ، وخاصة بعد أن ظهر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الميدان أيضاً ، وقتل كثيراً من فرسانهم ومشيوخهم ..

يقول الجاحظ :

« إن محمداً صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة ، لها في العقل موقع كوقع فلق البحر من العين (١) .. وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة — مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبغاة . والدهاة ، والحماة ، وأصحاب الرأي والمكيدة ، والتجارب ، والنظر في العاقبة — : « إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، وصدقتم في تكذبي » ..

ثم يقول الجاحظ : « ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم ، واختلاف علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، وقد فاض ببيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم ، حتى قالوا في الحيات والعقارب ، والذئاب ، والكلاب ، والحنافس ، والجعلان ، والحير ، والحمام وكل مآذب ، ودرج ، ولاح لعين ، وخطر على قلب .. ولهم — بعد — أصناف النظم ، وضروب التأليف . . كالقصيد ، والرجز ، والمزدوج ، والمتجانس ، والأسجاع ، والمنثور .. وبعد .. فقد هجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ، ونازعوا خطباءهم ، وحاجّوه في المواقف ، وخاصموه في المواسم ، وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه .. وهم أثبت الناس حقداً ، وأبعدهم مطلباً ، وأذكرهم خيراً أو شراً ، وأبقاهم له ، وأهجاهم بالعجز ، وأمدحهم بالقوة — ثم لا يعارضه معارض ، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ..

ثم يقول :

« ومحال في التعارف ، ومستنكر في التصادق أن يكون الكلام أخضر

(١) الجار والمجرور متعلق به كوقع ، أى كوقعها من العين .

عندهم ، وأيسر مئونة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبه ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه — فيجتمعوا على ترك استعماله (١) ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مَهْجَمَ وأموالهم ، ويخرجون من ديارهم ، في إطفاء أسره ، وتوهين ما جاء به ، ولا يقولون ، بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم ، وتستهلكون أموالكم ، وتخرجون من دياركم ، والحيلة في أمره يسيرة ، والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطباءكم كلاماً في نظم كلامه ، كأصغر سورة يحتكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها ! ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكركم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينههم ، بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف ، فذل ذلك العاقل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم ، فأروا أن الإضراب عن ذكره ، والتغافل عنه في هذا الباب — وإن قرعهم — أمثل لهم في التدبير ، وأجدر ألا ينكشف أمرهم للجاهل والضعيف ، وأجدر أن يحدوا إلى الدعوى سبيلاً ، وإلى اختراع الأنباء (٢) سبباً ، فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عز ذكره :

« وَإِذْ تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » (٣)
 « وهل يذعن الأعراب ، وأصحاب الجاهلية ، للتقريع بالعجز ، والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم ، وهم أشد خلق الله أنفةً ، وأفرطه حمية ، وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه في كل منهل وموقف ، والناس (٤) موكلون بالخطابات ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غالباً فقد أتاه به من لم يزدّه .. »

(١) الضمير هنا عائذ إلى الكلام في قوله : « أن يكون الكلام أخضر عندهم » :

(٢) في الأصل الأنبياء وهو خطأ .

(٣) سورة الأنفال : آية ٣١ .

(٤) الناس : أي العرب .

« وإلا أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يُطِيقُوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحكماء مع اختلاف علمهم ، وبعدهمهم ، وشدة عداوتهم — بذل الكثير ، وصون السير !! وهذا من ظاهر التدبير ، ومن جليل الأمور التي لا تخفى على الجاهل.. فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف ؟ فكيف على الأعداء ؟ لأن تحيير الكلام أهون من القتال ، ومن إخراج المال .

« ولم يقل أحد : إن القوم قد تركوا مساءلته في القرآن والطعن فيه بعد أن كثرت خصومتهم في غيره .. وبذلك على ذلك قوله عز وجل :

« وَقَالَ الْفٰٓئِنَ كَفَرُوْا لَوَلٰٓئِزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جَمَلَةً وَّاحِدَةً » (١)

وقال عز ذكره :

« وَإِذَا تُتْلٰٓى عَلَيْهِمْ آٰٓيٰتُنَا بَيِّنٰتٍ قَالَ الَّذِيْنَ لَا يَرْجُوْنَ لِقَآءَنَا تُبٰرِكَ اَنۢ يَّغَيِّرَ هٰذَا اَوْ يَدُّلَّهُ » (٢)

وقوله تعالى ذكره :

« وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِنْ هٰذَا اِلَّا اِفْكٌ افْتَرٰهُ ، وَاَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ اٰخَرُونَ » (٣)

« وبذلك كثرة هذه المراجعة ، وطول هذه المناقلة ، على أن التفريع لهم بالعجز كان فاشياً ، وأن عجزم كان ظاهراً ..

« ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم تحداهم بالنظم والتأليف ، ولم يكن أيضاً أزاح علمهم حتى قال تعالى :

(٢) سورة يونس : آية ١٥

(١) سورة الفرقان : آية ٣٢

(٣) سورة الفرقان : آية ٤

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » (١) ...

ثم يقول :

« والذي منهم من ذلك هو الذى منع ابن أبى العوجاء ، وإسحق ابن طالوت ، والنعمان بن المنذر ، وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلاً ، وبالإيمان كفراً ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة فى الزندقة خاصة .. فقد كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويثبونها فى الأمصار ، ويطعنون فى القرآن ، ويسألون عن مثابته ، وعن خاصه وعامه ، ويضعون الكتب على أهله .. ثم يتحدث الجاحظ بعد هذا عن توافق المعجزات ، مع دواعى الأحوال التى يكون عليها الذين تظهر المعجزة فيهم .. فيقول :

« ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ، ولم يكن أصحابه قط فى زمان أشد استحكاماً منهم فى زمانه — بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه ، بكشف ضعفه وإظهاره ، ونقض أصله ، لردع الأغبياء من القوم ، ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام ، لأنه لو أنَّهُم بكل شئ ولم يأتهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة ، لكانت نفوسهم إلى ذلك متطامعة ، ولاعتلّ به أصحاب الأشغال ، واشغّلوا به بال الضعيف ، ولكن الله — تعالى جده — أراد حسم الداء وقطع المادة ، وألا يجد المبطلون متعلقاً ، ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً .. مع ما أعطى الله تعالى موسى عليه السلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .. كذلك زمن عيسى عليه السلام ، كان الأغلب على أهله ، وعلى خاصة علمائه ، الطب ، وكانت عوامهم تعظمهم على خواصهم ، فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى ، إذ كانت غابتهم (٢) علاج المرضى .. وإبراء الأكف ، إذ كانت غايتهم علاج

(١) سورة هود : آية ١٣

(٢) أى أنقى جهنم

الرمذ . . مع ما أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات . .
لأن الخاصة إذا بَخَعَت بالطاعة ، وقهرتها بالحجة ، وعرفت موضع العجز والقوة ،
وفصل ما بين الآية والحيلة - كان أنجع للعامة ، وأجدر ألا تبقى في أنفسهم بقية^(١) »

ثم يتحدث عن معجزة النبي « محمد » فيقول :

« وكذلك دهر « محمد » صلى الله عليه وسلم - كان أغلب الأمور عليهم
وأحسنها عندهم ، وأجلها في صدورهم حسنُ البيان ، ونظم ضروب الكلام . مع
علمهم له ، وانفرادهم به ، فحين استحسنت لغتهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر
شعراؤهم ، وفاق الناس خطباؤهم ، بعثه الله عز وجل فتحدثوا بما كانوا لا يشكّون
أنهم يقدرّون على أكثر منه ، فلم يزل يقرّعهم بعجزهم ، وينقصهم على نقصهم
حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك
من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب
البرهانات^(٢) . »

* * *

هذا ، وفي كتاب « الإتيان في علوم القرآن » للسيوطي نجد كلمة أخرى
للجاحظ تدور حول هذا المعنى . . وحرصاً على تحصيل كل ما يقع لنا من كلام
الجاحظ حول إعجاز القرآن - نقل ما جاء في كتاب الإتيان . وإن كان لا يختلف
كثيراً عما نقلنا له من قبل . . يقول الجاحظ :

« بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ،
وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عُدّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله ،

(١) انظر ما أشرنا إليه في المبحث السابق تحت عنوان : « زمان المعجزة ومكانها » .

(٢) من رسالة « حجج النبوة » للجاحظ ص ١٤٤ وما بعدها .

وتصديق رسالته . . فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار
الذى يمنعهم من الإقرار ، الهوى والحمية ، دون الجهل والخيرة ، حملهم على حفظهم
بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ، وقتل من عليتهم ، وأعدامهم ، وبني
أعدامهم ، وهو في ذلك يحتاج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن
يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم ،
وتقرباً لعجزهم ، عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان
خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ،
فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فها توها مقتريات ! فلم يرُهم ذلك خطيب ،
ولا طمع فيه شاعر ، ولا تكلفه . . ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من
يستجيده ، و . . امي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه عارض ، وقابل ، وناقض ،
فذل ذلك العاقل على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم ، واستطالة لغتهم ، وسهولة
ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاء منهم ، وعارض شعراء أصحابه ،
وخطباءهم ، لأن سورة واحدة ، وآيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله ، وأفسد
لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أصحابه — من بذل النفوس ،
والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال . . وهذا من جليل التدبير الذى
لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأى ، والعقل ، بطبقات ! ! ولهم
القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموحزة ،
ولهم الأسجاع والمزدوج ، واللفظ المنشور . ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز
أدنانهم — فبحال — أكرمك الله ، أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ،
والخطأ المكشوف البين ، مع التقرير بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد
الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا إليه ،
والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة . .

وكما أنه محال أن يُبقوا ثلاثاً وعشرين سنة ، على الغلط في الأمر الجليل المنفعة .
فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون
أكثر منه ^(١) .

ذلك هو رأى الجاحظ في إقامة الحجة على وقوع الإعجاز بالقرآن .. وهو
رأى — كما ترى — تقوم بين يديه حجج مشرقة ، وأدلة قاطعة .. وإن أكثر
الذين أقاموا الحجة على إعجاز القرآن من هذا الوجه ، إنما نظروا إلى رأى الجاحظ
هذا ، واعتمدوا عليه ، وداروا حوله .. ومنهم « الباقلائي » في كتابه « إعجاز
القرآن » والزرکشی في كتابه : « البرهان في علوم القرآن » ، وغيرهما ممن كان لهم
رأى في إعجاز القرآن !

الجاحظ ووجه الإعجاز :

أما عن رأيه في وجوه الإعجاز التي كان بها القرآن معجزاً ، فهو الرأى
الذى ذهب إليه « الباقلائي » من بعده ، « والجرجاني » كذلك .. وهو
« النظم » ، الذى انفرد به القرآن ، في صياغة أساليبه ؛ صياغة تنتظم بها المعانى
انتظام الروح في الجسد ..

والجاحظ كما نعرف ، إمام من أئمة البلاغة ، وعلم مفرد في أساليب البيان ،
وذو ذوق لم تعرف العربية مثيلاً له في التعرف على طعوم الكلام . واختلاف
مذاقاته ! وما تعرف اللغة العربية أديبا طاوعه قلبه فتتحرك في كل اتجاه ، وجال
في كل حلبة ، ونازل في كل ميدان ، مثل هذا القلم الذى اشتملت عليه يد الجاحظ !
فإذا كان لهذا القلم وقفة في ساحات القرآن يتملى في محاسنه ، ويستملى من روافده

(١) « الإتيان في علوم القرآن » للسيوطي ج ٢ ص ١١٧ .

بميانه وبلاغته ، فإن ما يخط هذا القلم بعد ذلك ، هو خير ما يمكن أن يحمله قلم يرتاد رياض القرآن ، وينهل من مناهله !

ولكن — ولا تعجب — قد استخذي الجاحظ ، وغرق قلمه في عرق الحجل ، حين وقف أمام هذا المقام الكريم ، وحين أجراه في هذا المرتقى البعيد ، الذي تقصر دونه الأوهام ، وتحسر عنه العيون !

ومن يستخذي في هذا المجال إذا لم يستخذ الجاحظ ؟ إنه أعرف الناس بقدره وقدر قلمه إزاء القرآن ! ولو كان ممن يخفى عليهم مواطن البلاغة القرآنية ، وعلوها هذا الطلو الشامخ البعيد عن الكلام ، لكان لقلمه صولة وجولة .. ولكن الرجل رأى مالا قبل الإنسان به ، فلم يجد أبلغ من الصمت ! وهذا شاهد من شواهد البلاغة الجاحظية ، قبل أن يكون شاهدا من شواهد الإعجاز القرآني . . فقد عرّف الجاحظ مقام أدبه ومقام قلمه ، فوقف بهما حيث يحسن الوقوف ! ولا شك أن هذه راعة وبلاغة مصاً ! . وهذا ما يمكن أن يعلل به خلوص مكتبة الجاحظ من كتاب ، أو رسالة خاصة ، في إعجاز القرآن .

وإذا كنا قد قلنا إن رأى الجاحظ ، في وجه الإعجاز في القرآن ، هو ذلك النظم الذي انفرد به القرآن في تصوير معانيه وإخراجها على تلك الصور المجدبة من النظم — فإن ذلك الرأى لم يكن رأيا صريحا للجاحظ ، وإنما كان عن طريق الاستدلال ، والاستنتاج ، لمقولاته التي حملناها هذه الحاميل ، وفهمناها على هذا الوجه من الفهم ، وإلا فإن الجاحظ لم يقل قولاً صريحاً مواجهاً ، في الجهة أو الجهات التي جاء منها الإعجاز في القرآن !

كان الجاحظ ممن يحفلون بالصياغة اللفظية ، ومن يجعلون لصفاء العبارة

ونضارتها شأنًا في البلاغة ، وتمكين المعنى من أن يعرض أروع عرض ، وأبرعه ،
وأكمله !

وكانت الظاهرة الغالبة في تلك الفترة المعاصرة للملاحظ ، هي الاحتفال بالمعنى ،
وكد الدهن له ، وإرهاق الخاطر في البحث عنه ، والجري وراءه . . إذ كانت
آثار العقل اليوناني في الفلسفة ، والعقل الهندي والفارسي في الحكمة ، وضرب
الأمثال - قد أخذت تنتقل إلى اللغة العربية ، وتؤثر في الناس هذا التأثير الذي
أقام المذاهب الكلامية والفلسفية عند كثير من الجماعات والأفراد - وكان من
ذلك أن جرى الناس وراء المعاني يلتقطونها في أى محمل من محامل اللفظ ، وعلى
آية صورة من صورته . . حتى لقد كاد ذلك يذهب بكثير منهم إلى الخروج على
الأساليب العربية والذوق العربي ، وكاد كثير من الكتاب والشعراء يهجم على
المعاني ويفرغ لها جهده ، وإن قلقنا ألفاظه ، والتوت أساليبه . . وكانت أقرب
صورة للناس يشهدون فيها هذا التحول الكبير في الأسلوب العربي ، هي الصورة
التي تجمع بين البحترى ، وأبى تمام ، حيث كان البحترى ممن ظل ملتزمًا عمود
الشعر العربي ، مخلصًا له ، محتفيا بموسيقى اللفظ ، ورنين القافية ، بينما كان أبو تمام
قد اندفع في التيار الجديد ، يتصيد المعاني الغريبة الدقيقة ، ويستهلك فيها جهده ،
فإذا هو عمد إلى صياغتها في قوالب الشعر لم يكن عنده من الجهد بقية ينفقها في
اختيار اللفظ ، وتنميق الأسلوب ، فكان في شعره هذا الاضطراب الكثير
الذي خرج به عن مألوف السمع ، بل والذوق ، عند العرب ، وكان ذلك مما
دعا إلى القول المأثور : « الحكيم أبو تمام ، والشاعر البحترى » وبذلك القول
خرج أبو تمام عن أن يكون في عداد الشعراء ! ! أما أن يكون في زمرة الحكماء
فهذه دعوى تحتاج إلى دليل يسندها ، وإلى حجة تقوم لها . . !

نقول : إن الجاحظ رأى في حياته هذه الظاهرة تنفشي ، فحشى أن تطغى على الأسلوب العربى ، وتتحول به إلى ترجحات ومصطلحات مستغلقة ، تنهى آخر الأمر إلى قطع الصلة بين ماضى العرب ومستقبلهم ، حين تصبح الأساليب الجديدة شيئاً ليس بينه وبين اللغة العربية — لغة القرآن — تلك الصلة التى تجعل من عصور اللغة كلها عصرأ واحداً ، يُتلى فيه كتاب واحد ، وإن تنوعت فصوله وأبوابه ! لهذا وقف الجاحظ فى وجه هذا التيار ، وتصددى له ، ودفع به إلى الوراء بعيداً . فأنحسر شيئاً شيئاً ، وجعل أولئك الذين كانوا قد ركبوا هذا المركب لاصطياد المعانى ، يعودون رويداً رويداً إلى الساحل ، حيث يأخذون من المعانى ما تنال أيديهم ، وما تبلغ أفكارهم . . !

وإنه لولا وقفة الجاحظ تلك لربما كان هذا الاتجاه قد انتهى إلى نتائج بعيدة الأثر فى الأسلوب العربى ، بل لربما جعل اللغة العربية تتجمد فى وضعها الذى شهد هذا التحول ، ثم تتولد منها أساليب ، لا تلبث أن تصبح لغات ليس بينها وبين اللغة « الأم » إلاحات من الشبه البعيد . . كما حدث ذلك للغة اللاتينية ، واللغات التى تفرعت عنها !

رأى الجاحظ :

والرأى الذى دعا إليه الجاحظ ، هو أن البلاغة نظم وصياغة . . فمن أخطأ حسن النظم ، وحبكة الصياغة ، فقد أخطأت كلامه عناصر الحياة ، وجمدت فيه عروق البلاغة والبيان . . وذلك أن المعنى الذى يخرج فى صورة من النظم المضطرب ، ومن الصياغة المشوشة المختلطة ، هو معنى شائه دميم ، وإن نزع عن أصل بارز الحسن ، رائع الجمال !

ويشهد عبد القاهر الجرجاني آثار هذه المعركة التى كانت دائرة بين اللفظ

والمعنى، ويراهنا في مخلفات الجاحظ الذى كان ينتصر للفظ .. من جهة، وفي مخلفات من كانوا يققون ضده .. فى الجهة الأخرى !

ويقف « عبد القاهر » إلى جانب رأى الجاحظ ، ويقفوا أثره .. ويتخذ من هذا الرأى حجته على وجه الإعجاز فى القرآن ! (١).

ولا تحسبن أن « الجاحظ » يهون من شأن المعنى ، أو يُغمض من قدره .. وكيف وهو رجل كله عقل .. وكل عقله علم وحكمة وأدب ؟ وكيف والجاحظ دائرة معارف وخزانة معرفة — يذهب به الرأى إلى الإزراء بالمعرفة والخط من قدرها ؟

إن الجاحظ — كما قلنا — كان فى وجه تيار عنيف يتجه بالناس إلى الاستخفاف بالأساليب العربية، والتخلص منها ، إذا لم يستطع المرء أن يجد المعنى الذى بين يديه اللفظ الذى ينسج له ؛ أو الأسلوب الذى يخرج فيه . وينتهى هذا الاتجاه آخر الأمر إلى أن يذهب كل إنسان مذهباً ، ويتخذ له طريقاً .. وأن من قل جهده ، أو قصر باعه عن أن يجد اللفظ العربى ، أو الأسلوب العربى الذى يلائم المعنى الذى يحضره ، عمد إلى أى لفظ ، وتناول أى أسلوب ، ولو كان فيه ما فيه من الجفاء والعجمة !

فالجاحظ لم ينتصر للفظ ، ولم يقف إلى جانب الأسلوب ، إلا لمواجهة هذا الخطر الداهم على اللغة ، وإلا فإنه — كما قلنا — حفى بالمعنى ، مؤثر له ، حريص عليه مادام لم يجز على الأسلوب ، ولم يفسد كيانه ، ولم يشوه خلقه .

يقول « عبد القاهر » وهو يدافع عن موقف الجاحظ ومن سلك مسلكه فى الانتصار للأسلوب :

(١) انظر رأى عبد القاهر فى الإعجاز . فى هذا الكتاب بعد ذلك .

« واعلم أنهم لم يقيموا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهوا أن المعنى إذا كان أدباً وحكمة ، وكان غريباً نادراً فهو أشرف مما ليس كذلك . . ! بل عابوه من حيث كان من حكمهم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس ، وترجع إلى حقيقة ، وألا ينظر فيها إلى جنس آخر ، وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلاً به اتصال ما لا ينفك منه . . » (١)

ويقصد عبد القاهر من هذا أن يقول : إن الذين هونوا من شأن المعنى على حين رفعوا من قدر اللفظ لم يكن ذلك منهم على إطلاقه ، فهم يعرفون قدر المعنى ، ويقدرّون منزلته ، ولكنهم إنما فعلوا ذلك في مقابل أوائل الذين يحكمون على الكلام بالفضل أو النقص ، غير ناظرين إلا إلى جانب واحد منه ، وغير معتبرين إلا وجهاً واحداً من وجهين . فإذا رأوا معنى تبدو فيه مخايل كريمة رفعوه إلى مقام الفضل ، وإن كان في لفظ سقيم ، وأسلوب معول . . وكان الحق يقتضيهم ألا يقيموا حكمومتهم تلك على ساق واحدة فتمشي عرجاء . ولو نظروا إلى اللفظ كما نظروا إلى المعنى لاستقامت حكمومتهم ، واعتدل حكمهم !

ثم يقول عبد القاهر :

« ومعلوم أن سبيل الكلام - اللفظ - سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه . . كالفضة والذهب ، يصابغ منهما خاتم أو سوار .

« فكما أن محالا - إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم ، وفي جودة العمل ورداءته - أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العمل ، وتلك الصنعة - كذلك محال إذا أردت أن تعرف الفضل والمزية في الكلام ، أن تنظر في مجرد معناه !

« وكما أننا لو فضلنا خاتماً على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود، أو فضة أنفس،
لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم - كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت
من أجل معناه ألا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام... وهذا قاطع... فاعرفه،^(١)
ثم يقول عن رأى الجاحظ الذى أشرنا إليه من قبل، وهو انتصاره لجانب اللفظ:
« وإذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبالغ فى ذلك كل مبلغ، ويتشدد غاية
التشدد.. وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركاً، وسوى فيه بين
الخاصة والعامة.. فقال - أى الجاحظ - :

« ورأيت ناساً يهرجون أشعار المولدين، ويستسقون من رواها^(٢)،
ولم أر ذلك قط إلا فى رواية غير بصير بما يروى... ولو كان له بصير لعرف موضع
الجيد ممن كان، وفى أى زمان كان... »

ثم يروى الجاحظ - على عادته حادثة طريقة.. يقول :

« وأنا سمعت أبا عمر الشيبانى - من أئمة اللغة - وقد بلغ من استجادته
لهذين البيتين ونحن فى المسجد الجامع يوم الجمعة أن كلف رجلاً.. حتى أحضره
قرطاساً ودواة، حتى كتبهما !! »

ثم يعلق الجاحظ على هذا بأسلوبه الساخر.. يقول :

« وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً.. ولولا أن أدخل
فى الحكومة بعض الغيب لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أيضاً ! »

أما البيتان اللذان يتحدث الجاحظ عنهما ويحكم على قائلهما وعلى ذريته
ألا يقولوا شعراً أبداً.. فهما :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذا على كل حال !

(١) دلائل الإعجاز .. ص ١٩٧ .

(٢) وذلك أن أشعار المولدين جنحت إلى جانب العناية بالأسلوب فجاء شعرها سمحاً رقيقاً عذياً..

وأنت إذ ترى تهالك النظام والخلال أوضاله . . فلعلك تعذر « الجاحظ »
في قسوة حكمه على هذا الشاعر ، وأخذ ذريته بجريرته من بعده إبان كلمة . « على
كل حال ! » التي سوى بها البيت الثاني ليس أبرد ولا أغث ، ولا أخزى منها .
في موضعها هذا الذي وضعت فيه !
ثم يقول الجاحظ بعد هذا :

« وذهب الشيخ - يريد أبا عمر الشيباني - إلى استحسان المعاني ، والمعاني
مطروحة في الطريق ، يعرفها المعجمي والعربي ، والقروي والبدوي . . وإنما الشأن
في إقامة الوزن ، وتخفيف اللفظ ، وسهولة الخرج ، وصحة الطبع ، وكثرة الماء ،
وجودة السبك .

« وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير » (١).

ويعلق عبد القاهر على هذا بقوله :

« فقد تراه - أي الجاحظ - أسقط أمر المعاني ، وأبى أن يحب لها فضل
فقال : « وهي مطروحة في الطريق . . ثم قال : وأنا أزعج أن صاحب هذين البيتين
لا يقول شعراً أبداً . . فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه ، لا بمعناه ، وأنه إذا عدم الحسن
في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة » .
ثم يقول الجاحظ :

« ولقد رأيت أبا عمر الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب
التحفظ والتذكر ، وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن
يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء . . »

« ولولا أن أكون عياباً ، ثم للعلماء خاصة - اصورت لك بعض ما سمعت
من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهك من أبي عبيدة ! »

ويفصل عبد القاهر في هذه القضية بقوله :

« واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوا إلا لأن الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدّي من حيث لا يشعر ! »
« وذلك أنه إذا كان العمل على ما يذهبون إليه من أنه لا يجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال - أى صاحب القول - حكمة أو أدباً ، واستخرج معنى غريباً ، أو تشبيهاً نادراً - فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة ، وفي شأن النظم والتأليف ، وبطل أن يجب بالنظم فضل ، وأن تدخله المزية ، وأن تتفاوت فيه المنازل ، وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز ، وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ، ومن قال بمثل مقالاتهم في هذا الباب ودخل في مثل هذه الجبهات ، ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار » (١)

وأنت ترى أن « الجاحظ » ليس له هنا حديث عن الإعجاز في القرآن ، وإنما هو يتحدث عن صفة الكلام البليغ ، وعن مآلى البلاغة فيه ، ومجال التفاضل بين الكلام والكلام .

وإنه بهذا الميزان الذى يوزن به الكلام ، وتُعرف به منازل له ، يمكن أن يعرف فضل القرآن على غيره من الكلام ، ويمكن أن يستدل على وجه الإعجاز فيه . . وهذا ما كان من « عبد القاهر » فى كتابيه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، حيث أقام مذهبه فى الإعجاز على هذا الميزان ، وهو « النظم » ، كما سنرى ذلك عند وقفنا معه فى كتابه : « دلائل الإعجاز » .

هذا ، و « الجاحظ » ، إذ يرى وجه الإعجاز فى « النظم » ، لا يرى النظم نظاماً

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٨ .

إلا إذا كان على شيء من السعة والامتداد ، بحيث يحمل معنى مؤلفاً من حقائق مترابطة ، يسند بعضها بعضاً ، فتتشكل منها صورة سوية الخلق .

أما النظم الذى يقوم على جملة أو كلمة ، أو كلمتين ، فلا يدخل فى هذا الباب ، ولا يعد نظماً ينكشف به معدن الكلام ، وَيَبِينُ فضله .

يقول الجاحظ فى هذا :

« ولأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة — لتبين له فى نظامها ومخرجها ، وفى لفظها وطبعها ، أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها » .

ثم يقول :

« وليس ذلك — أى العجز ، والإعجاز — فى الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ، . ألا ترى أن الناس قد يتيماً فى طباعهم ، ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : « الحمد لله » و « على الله توكلنا » و « ربنا الله » و « حسبنا الله ونعم الوكيل » وهذا كله فى القرآن ، غير أنه متفرق غير مجتمع ! » .

« ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه ، وتأليفه ، ومخرجه — لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع « قحطان » و « معد بن عدنان » ^(١) .

فالنظم على صورة مخصوصة ، وفى امتداد رحب ، هو المعرض الذى تتجلى فيه روعة القرآن ، وتتخيل ملامح إعجازه .

وعلى هذا ، فالجاحظ هو إمام هذا المذهب فى إعجاز القرآن ، وعمدة الرأى فيه . . ما أن كشف عنه فى حديثه عن الأدب ، وبيان معادنه حتى كان ذلك

(١) من رسالة حجج النبوة للجاحظ ، ضمن مجموعة « رسائل الجاحظ » للسندوبى ص ٢٠

مذهباً غالباً من مذاهب الرأى فى الإعجاز ، وحتى دفع إليه العلماء دفعا ، إذ جعلوا قوله هذا فى الفصاحة والبيان ، هو مجال النظر فى الإعجاز ، لا يكادون يتجاوزونه ، ولا ينظرون إلى شىء وراءه .

ولم يكن رأى الجاحظ هذا متسلطا على الناظرين فى إعجاز القرآن وحدهم ، بل أنه قد تسلط تسلطا قاهراً على الذوق الأدبى ، وعلى مقاييس الأدب عند الباحثين فى الأدب وفنونه . . من الذين جاءوا بعد الجاحظ ، وتصددوا للتأليف فى الأدب والبلاغة . . مثل « ابن بشر الآمدى »^(٢) فى كتابه : « الموازنة بين الطائيين . . أبى تمام والبحترى . . » و « كائى الحسن الجرجاني »^(١) فى كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » و « أبى هلال العسكري »^(٣) فى « الصناعتين » و « ابن رشيق القيرواني »^(٤) فى كتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . . فهؤلاء وأضرابهم نحوا هذا المنحى فى تقييم الأدب . وفى الموازنة بين الجيد والردى منه . وليس من ههنا ههنا مناقشة هذه الآراء ، ولا تعديلها أو تجرييحها ، وإنما هى إشارة خاطفة ناهج منها هذا الأثر البعيد الذى تركه مذهب الجاحظ ، ورأيه ، فى عناصر البلاغة ومقوماتها . .

ونسكتفى هنا بعرض رأيين من تلك الآراء فى مجال الانتصار لمذهب الجاحظ هذا ، وهما الآمدى ، ولابن رشيق . .

يقول الآمدى :

« ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ . . أن الخطب الرائقة ، والأشعار الرائعة ، ما عملت لإفهام المعانى فقط ، لأن الردى من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها فى الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعيته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب معانيه — على

(١) توفى سنة ٣٧١ هـ

(٢) توفى سنة ٣٦٦ هـ

(٣) توفى سنة ٣٩٥ هـ

(٤) توفى سنة ٤٦٣ هـ

فضل قائله ، وفهم منشييه . وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني . . ولهذا تألق الكتّاب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة . . يبالغون في تجويدها ، ويغلون في ترتيبها ، ليدلو على براعتهم وحذقهم بصناعتهم . . ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدأ كثيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً . . (١)

وهذا اعتراف صريح بما للفظ من مكانة مرموقة في وزن الكلام ، وفي تقييمه وتحديد منزلته في البلاغة والبيان . . وليس معنى هذا إهدار المعنى . فاللفظ إمّا جاء ليؤدي المعنى ، ويكشف عنه . ولولا المعنى لما كان هناك داعية إلى اللفظ . ولكن هذا الالتفات إلى اللفظ إمّا هو وقفة في وجه تلك الحركة التي كانت منطلقة بلا حساب نحو المعاني ، واصطياد غرائبها ، دون الاهتمام بالثوب اللفظي الذي تظهر به . . وهي تلك الحركة التي تصدى لها « الجاحظ » من قبل وأوقف تيارها .

ويقول ابن رشيق :

« اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ ، كان نقصاً للشعر ، وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام ، من العرج ، والشلل ، والعور ، وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ! .

« وكذلك إن ضعف المعنى ، واختل بعضه ، كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح .

ثم يقول :

« ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب ، وقياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح . . فإن اختل المعنى كله وفسد ، بقي

اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في مرأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشي لم يصح له معنى ، لأننا لا نجد روحاً في غير جسم ! .
وواضح أن ابن رشيق يحاول أن يعدل في كفتي الميزان بين اللفظ والمعنى ، وإن كان يقوى جانب المعنى ويجعله روحاً على حين يجعل اللفظ جسماً ..

كما أننا نلمح من ابن رشيق هنا أنه يحاول المزاوجة بين اللفظ والمعنى ، ثم يجعلهما كيانهما وحداً ، وهو ذلك النص الأدبي الذي يرى الناس في مضمونه ما يرون من جمال أو قبح ، كما يطالعون ذلك في وجه السكان الحى من الناس !

وهذا هو في رأينا - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - هو الوجه الذي ترضاه وننظر من أفقه إلى النص الأدبي ، وإن كنا لا ننظر حين ننظر إلى أن هناك جسداً وروحاً ، وإنما هو كلن حى يؤثر أثره في الحياة .

الجاحظ . - والقول بالصرفه :

ثم لا توجب إذا رأيت الجاحظ يقول بالصرفه في وجه الإعجاز في القرآن . .
فالجاحظ كما نعلم « معتزلى » وجه من وجوه المعتزلة ورأس من رؤوسهم . . ونعلم أيضاً أن النظام وهو شيخ من شيوخ المعتزلة قد كان أول من جاهر بهذا الرأى ، وفتح للناس باب الكلام فيه . .

ولا يذهبن بك الرأى إلى أن تحسب الجاحظ متابعاً أو مقلداً لإمام مذهبه « النظام » في هذا الرأى . . فالجاحظ وإن أخذ بقول « النظام » فليس ذلك عن تقليد ومتابعة ، وإنما عن نظر وموازنة ومراجعة . . ثم اقتناع . .

ولهذا ، فإننا نرى الجاحظ يطلب لهذا الرأى أسساً يقوم عليها ، وأوتاداً تمسك

ب ، وتجعل له « معقولة » ومنطقا ! . . ولهذا أيضاً كان رأى الجاحظ في القول بالصرفه هو الذى جعل لرأى « النظام » بعد هذا مكانابين الآراء التى دارت حول إعجاز القرآن ، ولولا هذا لما التفت الناس إلى رأى النظام هذا الالتفات ، ولما عاش هذا الرأى فى الناس ، ينقضونه حيناً ، ويقبلونه أحياناً . . وأمر آخر ، وهو أن الجاحظ إنما قال بالصرفه بعد أن أعياه الوقوع على الضوابط الدقيقة التى يضبط بها وجه الإعجاز فى القرآن ، ويكشف عن أسرار هذا الإعجاز . . فذلك أمر إن أعجز الجاحظ فقد أعجز الإنس والجن جميعاً ! فلو أن سر الإعجاز قد انكشف — وهيمات — لعرفه الناس ، ومن ثم لم يعد بعيداً عن متناول أيديهم . . وكان فى مستطاعهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » (١) .

إن سر الإعجاز مُضمَرٌ فى كلمات القرآن . . كلمة كلمة ، وآية آية ، انه أمر من أمر الله . . كالروح ترى آثارها ، وتشاهد أفعالها ، دون أن ينكشف للناس شئ منها .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (٢) .

والقرآن « روح » تتجلى آثاره فى هذه الكلمات المنظومة فى آياته . . ولعل فى قوله تعالى للنبي الكريم :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِ نَا » (٣) .

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥

(٣) سورة الشورى : آية ٥٢

وفوله جل شأنه :

« يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »^(١)

لعل في هذا ما يعين على الفهم الذى فهمناه من أن القرآن « روح » من روح الحق جلّ وعلا . . . ونقول : لاتعجب إذا عجز الجاحظ عن الكشف عن هذا السر المضمّر ، أو هذا الروح السارى فى القرآن فلم يعرف وجه الإعجاز فيه ! فأنجأه هذا العجز إلى القول بالصرقة . . ! فالجاحظ أستاذ الأساتيد فى نقد الكلام ، فلا عجب أن عرف قدر القرآن ، ولزم حدّه معه !

هذا وسنرى رأى الجاحظ فى القول بالصرقة عند عرضنا لهذا المذهب الذى كان « النظام » أول قائل به .

* * *

(١) سورة النحل : آية ٢

الخطابي

[٣١٩ - ٣٨٨]

يعتبر الخطابي^(١) أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن « الإعجاز » بحثاً علمياً منظماً . . ذلك أنه على الرغم من عكوف المسلمين على القرآن الكريم ، قراءة ومدارسة ، وعلى الرغم من قطع أكثرهم العمر كله من الطفولة إلى المات ، في الغدو والرواح عليه ، حتى أنهم أحصوا كلماته ، كلمة كلمة ، وعدثوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وأخذوا أنفسهم بكثير من العلوم والفنون يستعينون بها على فهمه ، ويكشفون بها وجوه محاسنه - على الرغم من ذلك فإنه قد مضى عصر النبوة ، وعصر الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية كلها ، وشطر كبير من دولة العباسيين - دون أن يحاول أحد التعرض لقضية « الإعجاز القرآنى » والكشف عن أسرار الإعجاز ودلائله . .

ولم يكن ذلك عن تقصير في حق القرآن . . وكيف ؟ والأمة الإسلامية كلها لم يكن لها وجود إلا به ، ولم يكن لها تفكير إلا فيه ، ولا حديث إلا عنه ، ولا شغل إلا به ، أوله ١١

وإنما هذا الذى يبدو أنه تقصير - إنما كان إعظاماً لأمر القرآن ، وتهيئاً لمقامه ، وصوناً لذاته أن يكون غرضاً للآراء والأهواء ، ومجالاً للجدل والخلاف ، حتى لقد تجنب كثير من الصحابة تفسير آية أو كلمة فيه . . إذ كان يرى أن ذلك قول بالرأى فى القرآن ، وتنازل على الله فى كشف المراد من كلامه ، ولا يعلم حقيقة ذلك الكلام غير الله سبحانه وتعالى . .

روى عن الربيع بن خثيم قال : لبيتى أحدكم التكذيب . . إياه أن يقول :

(١) هو أبو سليمان محمد بن الخطابي . . أديب اقوى . محدث : توفى سنة ٣٨٨ هـ

قال الله كذا وكذا، فيقول: «كذبت، لم أقل» .. ويقول: لم يقل الله كذا وكذا، فيقول: «كذبت: قد قلت!»^(١).

وروى عن الشعبي قال: «أدر كتبهم — أى الصحابة — وما شئ أبغض أن يسألوا عنه ولا هم له أهيب — من القرآن»^(٢).

وقد كان «الأصمعي» وهو إمام الأئمة فى اللغة لا يفسر شيئاً من غريب القرآن .. وقد حكى عنه أنه سئل عن قوله تعالى: «قد شَقَقَهَا حَبًّا»^(٣)...

فسكت، وقال: هذا فى القرآن .. ثم ذكر قولاً لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها: «أتبيعونها وهى لكم شَغَاف؟» .. ولم يزد على ذلك!

نقول — إن خلوّ القرنين الأولين للإسلام من تلك الدراسات القرآنية التى تتصل بإعجازه والكشف عن مواطن الإعجاز فيه — كان عن تهيب لقام القرآن، وعن حرص على البعد به عن الجدل وتنازع الآراء فى مفاهيم آياته ..

ولكن اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من غير العرب فى هذا الدين، جعل شرح الآيات القرآنية وتفسيرها أمراً ضرورياً لأولئك الذين ليس لهم حظ من اللغة العربية يصلهم بالقرآن الكريم صلة مباشرة .. فكان أن أخذ بعض العلماء يضعون للقرآن تفسيراً للغريب من مفرداته، أو تفسيراً كاملاً لمعنى آياته، واستخراج أحكام الشريعة منها ..

كذلك كان علم الكلام الذى ظهر فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث — كان داعية من دواعى الجدل والخلاف بين المسلمين فى أمور كثيرة، تتصل بالعقيدة، وقد كان القرآن الكريم محل نظر المتكلمين وخصومهم .. فيما يجادلون فيه، ويختلفون عليه ..

(١) مقدمة كتاب المبانى ص ١٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة يوسف: آية ٣٠.

ومن هنا فقد أصبح النظر في القرآن نظراً متممناً فاحصاً دارساً مقلباً وجوه
الرأى - أمراً لا مناص منه للعلماء ، وأصحاب الرأى بين مختلف المذاهب والطوائف ..
« وإعجاز القرآن » مسألة من تلك المسائل التى دار حولها الجدل والخلاف ..
وكان « النظام »^(١) وهو رأس المعتزلة ، وعمدة فى المتكلمين - أول من قال
فى إعجاز القرآن ، وجعل من هذا الإعجاز أمراً يتصل بالعقيدة .. فقال فى هذا :
« إن العرب لم يعجزوا عن معارضة الله ، وإنما صرفهم الله عن تلك المعارضة ! »
ومنذ ظهر هذا الرأى الذى نادى به « النظام » وأنظار العلماء متجهة إلى
البحث فى إعجاز القرآن ، وإقامة الأدلة لهذا الإعجاز .

وقد رأينا الجاحظ يعرض فى مؤلفاته لموضوع الإعجاز ، ويتحدث عن نظم
القرآن الذى وقع به الإعجاز ، كما يتحدث عن وجه آخر من وجوه الإعجاز ، وهو
« الصرفة » التى قال بها من قبل أستاذه « النظام » !

وكان كل هذا الذى قيل فى الإعجاز من « النظام » ، أو الجاحظ أو غيرها لا يعد
دراسة موضوعية - كما يقولون - للإعجاز ، وإنما هو أشبه بالخطرات العارضة ،
لا يقف عندها أصحابها وقوفاً طويلاً ، ولا يتوفرون عليها زمناً يتاح لهم فيه الإحاطة ،
بها من جميع جهاتها .. وإن كان التاريخ يذكر أن « الجاحظ » ألف كتاباً
فى الإعجاز باسم « نظم القرآن » إلا أن هذا الكتاب لم يقدر له الحياة مع الناس
فضاع فما ضاع من كتب الجاحظ وكثير غيره من علماء المسلمين ، فى موجات
الفتن والأحداث التى نزلت بالمجتمع الإسلامى . وعلى هذا فلا يكون حسابنا
مع الجاحظ إلا على ما بين أيدينا من آثاره .

(١) هو أبو اسحق إبراهيم بن سيار النظام .. شيخ الجاحظ وأحد رموس المعتزلة ..

الخطابي أول مع في المبراه :

وإذ صرفنا نظرنا عن هذا الذي ليس بين أيدينا شيء منه من رسائل الإعجاز فلنا أن نقول إن أول من نراه في هذا الميدان هو « الخطابي » الذي تصدى لهذا الأمر ، وواجه مسألة الإعجاز مواجهة مباشرة ، فألف فيها رسالة سماها : « بيان إعجاز القرآن » . وهي تقع في نحو أربعين صفحة من القطع الكبير (١) .
وها نحن أولاء نلتقي مع « الخطابي » في رسالته تلك ، وننظر فيما يمد إلينا يده به من ثمرات .

مع بيان إعجاز القرآن « الخطابي »

يبدأ الخطابي رسالته بالكشف عن السبب الذي من أجله لم يلتق الناس عند رأى في الوجه أو الوجوه التي بها كان القرآن معجزاً .

فيقول الخطابي في هذا :

« قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعد صدوروا عن رأي ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كلفيته » .

فالخطابي يرى أن سبب خلاف الناس في الرأي حول وجوه الإعجاز في القرآن . لأن ذلك أمر متعذر في حقيقته ، لأنه ليس مما يواجه النظر ، أو يقع في مجاله ، وإنما هو مما يستشعر بالقلب استشعاراً ، ويلمح بالبصيرة لمحا . .

هذا هو سبب الخلاف بين الناظرين في إعجاز القرآن .. اختلفوا في سلامة الأجهزة التي يتعاطون بها النظر إلى القرآن ، فاختلفت مُعطيات القرآن لهم ، وبهذا اختلفت مقولاتهم فيه .

(١) طبعت ضمن : ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق الأستاذ محمد خلف الله وزميله .

وهذا في رأينا - أصدق نظر يُنظر به إلى الإعجاز ، من حيث أنه أمر لا يخضع لمقاييس العلم ، وإنما هو مما يستجيب لئناجاة الروح . ولحات البصيرة !!

تعريف في الإعجاز :

أما الإعجاز في ذاته فلا خلاف فيه ، إذ كان أمره أوضح من أن يخفى منه شيء على ناظر ينظر إليه . . من أى اتجاه كان !

يقول الخطابي :

« فأما أن يكون قد نَقَبَتْ في النفوس نَقْبَةٌ بكونه معجزاً للخلق ، متممًا عليهم الإتيان بمثله ، على حال - فلا موضع لها . »

ثم يدل على ذلك فيقول :

« والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندُلَّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه . . »

« وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فمجزوا ، وانقطعوا دونه ، وقد بقي النبي صلى الله عليه وسلم مدة عشرين سنة^(١) مظهرًا لهم التكبر ، زارياً عليهم أديانهم ، مسقها آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت فيها النفوس ، وأريق المهبج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال . »

« ولو كان في وسعهم أو تحت أقدارهم ؛ لم يتكفوا هذه الأمور الخطيرة ، »

(١) الذي عليه الرأي أن تلك المدة هي ثلاث وعشرون سنة ، وهي مدة نزول القرآن ، من مبعث النبي إلى يوم وفاته . . والخطابي إذ يحصر فترة التحدى بعشرين سنة إنما يبدؤها بالوقت الذي نزلت فيه أول آية صريحة بالتحدى ، وطبعي أن ذلك كان بعد مبعث النبي . . . وبعد نزول قدر مناسب من القرآن . . .

ولم يركبوا تلك الفواقير المبيرة^(١)، ولم يكونوا تركوا السهل الدّمث^(٢) من القول، إلى الحزن الوء من الفعل . . هذا مالا يفعله عاقل، ولا يختاره ذولب . . وقد كان قوم قريش خاصة موصوفين برزانه الأحلام، ووفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء المفلّقون، وقد وصفهم الله تعالى بالجدل والدّد، فقال سبحانه :

« مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »^(٣)

وقال سبحانه :

« وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا »^(٤)

« فكيف كان يجوز على مثل^(٥) العرب - ومجرى العادة، مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يُغفلوه، ولا يهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا عنه صفحا، ولا يجوزوا الفلج والظفر فيه - لولا عدم القدرة عليه، والعجز المانع منه؟ .

« ومعلوم أن رجلا عاقلا لو عطش عطشا شديداً خاف منه الهلاك على نفسه، وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشا لحكنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه، وهذا بين واضح لا يشكّل على عاقل^(٦) .

وأنت ترى أن هذا الرأي الذى يقول به « الخطابي » فى الاحتجاج لوقوع الإعجاز قد سبقه الجاحظ إليه، وجاء به على أتم صورة وأكملها . .

(١) الفواقير : جمع فاقرة، هى الداهية الشديدة كأنها تكسر فقر الظهر. والمبيرة المهلكة التى لا تبق على شئ .

(٢) الدّمث : يفتج الميم، وبكسرهما وسكونها : اللين

(٣) سورة الزخرف : آية ٥٨ (٤) سورة مريم : آية ٩٧

(٥) فى الأصل « قول » وهو تحريف . (٦) الصفحة الأولى والثانية من الرسالة

بماذا وقع الإعجاز؟ :

ثم يأخذ الخطابي — بعد هذا — يعرض الآراء التي قيلت في الوجوه التي أعجز بها القرآن العرب ، وأسقط رأيهم في معركة التحدى !

إنظام الإعجاز بالصرقة :

وينكر الخطابي هذا الرأي الذى يقول : إن الإعجاز كان من قبيل الصرقة .. ثم يسقطه من حساب المعجزة ، والإعجاز . . يقول :

« وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه — القرآن — الصرقة ، أى صَرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورا عليها ، غير معجوز عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجارى العادات — صار كسائر المعجزات . فقلوا — أى القائلون بالصرقة — : « ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهرانى قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال :

« آيتي أن أحرك^(١) يدي ، أو أمدّ رجلي ، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلى . . والقوم أصحاء الأبدان ، لا آفة بشيء من جوارحهم . . فخرك يده ، أو مدّ رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدرُوا عليه — كان ذلك آية دالة على صدقه . . وليس يُنظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجارى العادات ، ناقضاً لها ، فهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها . . » ويردّ الخطابي على هذا الذى يقول به القائلون بالصرقة . . بقوله :

(١) فى الأصل أخرج ، وهو تعريف لا يستقيم معه أول العبارة مم آخرها .

وهذا أيضا قريب^(١) ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه ، وهى قوله تعالى :
 « قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
 لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، ولو كان بعضهم بَعْضُ ظَهْرٍ ،^(٢) .
 وفأشار فى ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب
 والاحتشاد . . والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدلّ على أن
 المراد غيرها . . والله أعلم . .

والخطابى يرى فى الصورة التى عرضها القائلون بالصرفة والتى صوروا بها
 المعجزة — أن هذه الصورة يمكن أن تقوم عليها المعجزة الحسية التى تتحدى
 قوى البشر ، فيجىء النبىؐ بمعجزة تمسك ألسنتهم عن الكلام يوما أو أياما . .
 أو ما شابه ذلك — أما معجزة القرآن فهى لا تتحدى قوى الناس فى الجانب المادى
 المحسوس ، ولكنها تتحدى الملكات العقلية والطاقات النفسية والروحية الكامنة
 فيهم ليقولوا كلاما كهذا الكلام . . وما عطل الله من العرب ملكاتهم العقلية ،
 ولا حبس طاقاتهم النفسية والروحية ، بل كانوا يتكلمون ويجادلون ، ويهجون ،
 وما أحسوا يوما أنهم فقدوا شيئا من البيان الذى كان يجرى على ألسنتهم^(٣)

هل طامه الإعجاز بما فى القرآن من أخبار غيبية ؟

ولا يرضى الخطابى هذا رأى أيضا .

يقول : « وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما تضمنه من الإخبار عن

(١) أى التصوير المعجزة ووقوعها على نحو هذا ، ممكن . . ولكن ذلك فى المعجزة
 المادية التى تظهر فى واقع الحس متحدية القدرة الإنسانية . . أما فى القرآن فجاءت المعجزة فيه
 على غير هذا كما أشرنا إلى ذلك فى مواقف كثيرة من هذا الكتاب .

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٨

(٣) انظر فى هذا مبحث : « الإعجاز بالصرفة والرد عليه » فى هذا الكتاب .

الكواثر في مستقبل الزمان» . . نحو قوله سبحانه : « أَلَمْ . . غَلَبَتْ الرُّومُ »
في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبتهم سيغلبون . . في بضع سنين (١) » وقوله
سبحانه « قُلْ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ (٢) »
ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها .

ويرد الخطابي على هذا بقوله :

« وَلَا يُشَكُّ فِي أَنَّ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ أَخْبَارِهِ — نَوْعٌ مِنْ إِعْجَازِهِ ، وَلَكِنَّهُ
لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْعَامِّ الْمَوْجُودِ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ .

« وقد جعل الله — سبحانه — في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ،
لا يقدر أحد من الخلق على أن يأتي بمثليها . . فقال :

« فَاتَّبَعُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٣) .

من غير تعيين ، فدلّ على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه . .

هل الإعجاز في النظم الذي انفرد به القرآن ؟

يرى « الخطابي » أن إعجاز القرآن إنما كان باللفظ والمعنى معاً . . أي بهذا
الأسلوب من النظم ، الذي جمع بين أفصح الألفاظ ، في أحسن نظم التأليف ،
مضمناً أصح المعاني .

فالصورة البيانية بجميع عناصرها كيان واحد ، هو « نظم القرآن » ، وهو
الذي أعجز العرب عن القيام له ، والوقوف إزاءه .

(١) سورة الروم : آية ١ - ٢

(٢) سورة الفتح : آية ١٦

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣

وفي هذا يقول « الخطابي » :

« ذهب الأكثرون من علماء النظر ، إلى أن وجه الإعجاز — في القرآن — من جهة البلاغة .. لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغروا^(١) فيه إلى حكم الذوق .
فالخطابي يرى هنا أن عجز العلماء عن الوقوف على إعجاز القرآن ، والكشف عن وجه هذا الإعجاز إنما كان لأنهم احتكوا في هذا إلى أذواقهم ووجداناتهم ، ولم يحتكوا إلى الرأي والمنطق .

وهذا الذي يعدّه الخطابي مأخذاً على العلماء قعد بهم عن الوصول إلى بيان الإعجاز — نراه نحن الطريق الذي لا طريق غيره للكشف عن بعض أسرار الإعجاز في القرآن ، إذ ليس هذا الإعجاز مما يؤخذ بالمقايسة والنظر بقدر ما يستشف بالشعور والوجدان ..

ثم يقول بعد هذا :

« والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة ..
فمنها الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائر المطلق المرسل ..
وهذه أقسام الكلام الفاضل الحمود .. فالأول أعلاها ، والثاني أوسطها ، والثالث أدناها وأقربها . »

ونحن لانوافق الخطابي على رأيه هذا في الترتيب الذي رتب فيه درجات الكلام ، فجعل الرصين الجزل أعلاها ، وجعل الفصيح القريب السهل في درجة دون هذه الدرجة ..

فهذا الإطلاق في تفصيل الرصين الجزل دائماً على الفصيح القريب السهل ..
لا يستقيم أبداً مع البلاغة ، ولا يحىء على شرطها ، وهو المطابقة لمقتضى الحال ..

(١) أي استعملوا إلى ما يميّز عليهم الذوق .

فليس الرصين الجزل محموداً في مقام يقتضى اللين والسهولة ، كما أن اللين السهل ليس محموداً في حال تقتضى الرصين الجزل ..

وفي القرآن الكريم البيان الكاشف الشافي لهذا ..

ففي مقام الوعيد والتهديد تأتي آيات القرآن هادرة مدوية كأنها الصواعق ، تنخلع لها قلوب الجاحدين المعاندين ..

استمع إلى قوله تعالى :

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ .. إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ، فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ ، أَمَّهُمْهُمْ رُويْدًا ، (١) .

وفي مشهد من مشاهد القيامة حيث يساق الجرمون مصفدين بالأغلال ، تجدد آيات الكتاب الكريم تدفعهم دفماً إلى هذا العذاب الأليم :

« خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ .. إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ .. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ .. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » (٢) .

فإذا كان المقام مقام رحمة ، ولطف ، ورضى .. فما نسيم الصَّبَا تسرى بعد وقدة الهاجرة بأرواح منها للنفس ، وأطيب على القلب .. وما نغمة من سلسيل بارد في يوم قانظ ، على ظمأ لاهث ، بأنقع منها للصدى ، وأبرد على الكبد ..

(١) سورة الطارق : آية ١١ - ١٧

(٢) سورة الحاقة : ٣٠ - ٣٧

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ ، تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ - يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ خَمِيقٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ ،
وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » (١) .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا ، وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى
اللَّهِ بِآذَنِهِ ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا
كَبِيرًا ، وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ،
وَكَفَى بِاللَّهِ وَرِيلًا » (٢) .

فهذا مقام ، وذاك مقام ، وهذا مقال ، وذاك مقال . . ولكل مقام مقال
كما يقولون ، أو لكل مقال مقام كما يمكن أن يقال ! ثم يقول الخطابي بعد هذا :
« فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من
كل نوع شُعْبَة ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي
الفخامة والعدوبة ، وهما على الانفراد في نوعيهما كالتضادّين ، لأنّ العدوبة نتائج
السهولة ، والجزالة والمثنة يعالجان نوعاً من الدّعورة ، فكان اجتماع الأمرين في
نظمه ، مع نبوّ كل منهما عن الآخر فضيلة خُصّ بها القرآن ، ليكون آية بينة
لنبيه صلى الله عليه وسلم » .

ثم يأخذ الخطابي بعد هذا في عرض الرأى الذى ارتضاه رأياً له فى إعجاز القرآن
ويكشف عن الوجه الذى قدّر أنّ عجز العرب عن تحدى القرآن قد جاء منه .
فيقول : « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر . . منها : أن علمهم لا يحيط
بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها ، وهى - أى الأسماء - ظروف المعانى ، ولا تدرك

أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المظوم التي بها يكون اختلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوها إلى أن يأتوا بكلام مثله .
« وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم .

« وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة » .

ثم يقول بعد هذا : « واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني . . من توحيد الله عزت قدرته ، وتنزيهه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته . . من تحليل ، وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ ، وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه . . مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثالات الله بمن عصي وعاند منهم ، منبهاً عن السكوات المستقبلية عليه ، في الأعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول ، ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . . »

ثم يقول بعد هذا أيضاً :

« ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم ، وتنسق - أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم . . فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته في شككه . . ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكروه ،

يقولون مرة : « إنه شعر » ، لما رأوا كلاماً منظوماً ، ومرة « سحر » إذ رأوه معجوزاً عنه ، غير مقدور عليه .

« وقد كانوا يجدون له وقماً في القلوب ، وقرعاً في النفوس يربهم ويحيرهم .. » (١)

ويلفتنا من قول الخطابي هنا ما يشير إليه من هذا الأثر القوي للقرآن على القلوب ، وهذا السلطان الأمر على النفوس . . يجدها من يستمع إلى القرآن أو ينظر فيه . .

فهذه الهيمنة التي يأخذ بها القرآن قارئه ، ويستولى بها على سامعه ، هي سرٌّ مضمّر في القرآن الكريم ، لا يعرف له مأتى ، ولا يُبصر له وجه ، وإنما هو روح يسرى في القرآن كما تسرى الكهرباء في أسلاكها . فإذا اتصل متصل بالقرآن دبّ إليه من تلك الروح ديب يسرى في كيانه . فيملك وجدانه ، ويأسر مشاعره . . ويكون فيمن وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

« إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » (٢) .

ثم يعرض « الخطابي » رأيه في روعة القرآن وسطوته ، ويبسط هذا الرأي بعض البسط فيقول :

« قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم :

« وذلك . . صَنِيعُهُ بِالْقُلُوبِ ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منشوراً — إذا قرع السمع خلصَ له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حالٍ ، ومن الروعة والمهابة في أخرى — ما يخلص من القرآن إليه !

(١) بيان إعجاز القرآن : للخطابي ص ٢٤ (٢) سورة صريم : آية ٥٨

« تستبشر به النفوس ، وتشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعها منه الجلود وتنزعج له القلوب . . يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . . فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وقتاً كها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه (١) » .

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز هو - فيما نرى - المعجزة القائمة في القرآن أبداً ، الحاضرة في كل حين ، وهي التي تسع الناس جميعاً ، عالمهم وجاهلهم ، عربهم وأعجميهم ، إنسهم وجنهم . . « استمع نفرٌ من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشد ، فآمنّا به ! ، ولن نشركَ ربّنا أحداً (٢) » .

أما الوجوه الأخرى التي عرضها « الخطابي » لإعجاز القرآن فهي وجوه لا تظهر لكل ناظر ، ولا تتجلى في كل حين .

ولكن الوجه الذي لا يخفى على أحد ، - عالم أو جاهل ، عربي أو غير عربي - والذي يصحب القرآن دائماً حيث كان ، ومع من كان - هو هذه الروعة التي تطلع منه القلوب ، وتلك السطوة التي تملك النفوس ، وهذه الروحانية التي تلبس السكّيان الإنساني كله ، وتستولى على كل خالجة منه .

* * *

(١) رسالة الخطابي في الإعجاز، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز - ص ٦٤

(٢) سورة الجن - الآيتان : ٢، ١

(١٣ - إعجاز القرآن -)

الباقلانى

ورأيه فى الإعجاز

« والباقلانى^(١) ، من العلماء الذين نظروا فى إعجاز القرآن نظراً مباشراً ، وهو - فيما نعلم - أول من ألف فى الإعجاز كتاباً مستقلاً به ، مقصوداً عليه ، إذ كان كل ما يعرف فى هذا الباب للعلماء ، كلمات منشورة فى تضايف كلامهم ، أو فى مقدمات تفسير القرآن .

القرآن معجزة الرسول :

يبدأ الباقلانى حديثه فى إعجاز القرآن بتقرير أن القرآن هو معجزة الرسول التى كانت بين يديه ، لإثبات نبوته ، لمن يطلب شاهداً يشهد للرسول بدعوى الرسالة التى يدعيها . . وهو إذ يقرر هذا لا ينكر أن للرسول معجزات أخرى ، ولكن هذه المعجزات لم تكن للتحدى ، ولا لإقامة الدليل على صدق مدّعه من أنه رسول رب العالمين . . بل هى تكريم للرسول ، وفضل من فضل الله عليه .

يقول « الباقلانى ، :

« الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن ، أن نبوة نبينا عليه السلام ، بنيت على هذه المعجزة ، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة وأحوال خاصة ، وعلى أشخاص خاصة ، ونُقل بعضها نقلاً متواتراً ، يقع به العلم وجوباً ، وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً ، إلا أنه حكى بمشهد الجمع العظيم أنهم شاهدوه . . فلو كان الأمر على خلاف ما حكى

(١) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى . توفى سنة ٤٠٣ هـ

لأنكروه أو لأنكروه بعضهم، فحل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر . . وبعضها
عما نقل من جهة الأحاد ، وكان وقوعه بين يدي الأحاد !

و فأمادلالة القرآن، فهي عن معجزة عامة ، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين،
ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد^(١) .

ما الدليل على أنه القرآن معجزة الرسول ؟ :

ويأخذ الباقلاني يقيم الدليل على أن القرآن هو معجزة الرسول من منطوق
آيات الكتاب نفسه . . يقول :

« فأمّا الذي يبين ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن،
وبنى أمر نبوته عليه^(٢) ، سور كثيرة، وآيات . . نذكر بعضها ، وننبه بالمدكور
على غيره ، فليس يخفى . . بعد التنبيه على طريقته .

فمن ذلك قوله تعالى :

« الْرَّ . . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »^(٣) . .

فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ،
ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة .

وهذا الذي يحتاج به الباقلاني على أن القرآن معجزة لا تقوم به الحجة للقرآن
وحده ، إذ كل ما أنزل الله سبحانه من كتب ؛ يقع بها الاهتداء مثل القرآن ،
كما يقرر ذلك القرآن نفسه في قوله تعالى :

(١) معجاز القرآن للباقلاني ص ٨

(٢) كان من حق « سور » أن تقرر بالعلم لأنها جواب أما

(٣) سورة إبراهيم : آية ١-٢

« أَلَمْ . . . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى
لِلنَّاسِ . . . وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، ^(١)

وآيات كثيرة غير هذه الآيات ، تصف التوراة والإنجيل بهذه الصفة :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، ^(٢)

فليس إعجاز القرآن من هذا الوجه ، وأنه يحمل الهدى والرحمة للناس . . . فكل
رسالات السماء قائمة على هذا المقصد ، ثم إنها مع ذلك ليست معجزة في ذاتها .
ثم يقدم الباقلاني دليلاً آخر يستدل به على أن القرآن هو معجزة الرسول . .
وهو قوله تعالى :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ^(٣)

ثم يقول عن هذه الآية : فلولاً أن سماعه إياه - أى القرآن - حجة عليه ، لم
يوقف أمره على سماعه ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة » .

وهذا يعنى أن القرآن يحمل في آياته دلائل صدق النبى بما فيه من شواهد
الإعجاز التى يحدها فيه من يستمع إلى آياته .

وهذا إنما يكون للعرب وحدهم الذين يعرفون قدر البلاغة ، ويعرفون
فضل ما بين كلام وكلام .

ثم يمضى الباقلاني فى الاستشهاد بكثير من آيات الكتاب على هذا النحو «
وكثير منها ليس فى مدلوله ما يُعين على تقرير المذهب الذى يذهب إليه . .

(١) سورة آل عمران : آية ١-٤

(٢) سورة المائدة : آية ٤٤

(٣) سورة التوبة : آية ٦

ثم يقول بعد هذا :

« ثم مما يدل على هذا — أى إعجاز القرآن — قوله عز وجل :

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ .. قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ »، (١).
فأخبر أن الكتاب آية من آياته ، وعلم من أعلامه ، وأن ذلك يكفي في الدلالة ، ويقوم مقام معجزات غيره ، وآيات سواه من الأنبياء ، صلوات الله عليهم .
ولا شك أن في هذه الآية دلالة واضحة على أن القرآن هو معجزة الرسول ..
وأنه الآية التي له .. لمن تدبر القرآن ، ووعى ما فيه ، أو بعض ما فيه من روعة ، وسطوة ، وجلال .

ما وجه الإعجاز في القرآن ؟

يرى الباقلانى أنه ينبغي قبل البحث في الوجه أو الوجوه التى بها كان القرآن معجزاً — ينبغي التثبت من حقيقة القرآن ، وأنه هو الوثيقة التى يقال عنها أنها القرآن الذى نزل على محمد .. فإذا ثبت ذلك كان البحث عن مظان الإعجاز فى القرآن واقعاً على حقيقة مقررة ، وكان الحكم الذى يصدر بعد هذا حكماً ، على ذى صفة واضحة ، وشخصية معروفة ..

وفي هذا يقول « الباقلانى » :

« الأصل فى هذا هو أن نعلم أن القرآن الذى هو متلو ، محفوظ مرسوم فى المصاحف — هو الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه هو الذى تلاه على من فى عصره ثلاثاً وعشرين سنة .

(١) سورة النكبات : آية ٥٠

« والطريق إلى معرفة ذلك ، هو النقل المتواتر الذى يقع عند العلم الضرورى به ، وذلك أنه - أى النبى - قام به فى المواقف ، وكتب به إلى البلاد ، وتحمله عنه إليها من تابعه ، وأورده على غيره من لم يتابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشبهه على أحد . . وحتى انتشر فى أرض العرب كلها ، وتعدى إلى الملوك المصابقة^(١) لهم ، كملك الروم والعجم والقيط ، والحبش ، وغيرهم من ملوك الأطراف .

« ولما ورد ذلك - القرآن - مضاداً لأديان ذلك العصر كلهم ، ومخالفاً لوجوه اعتقادهم المختلفة فى الكفر - وقف جميع أهل الخلاف على جملته ، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله ، وتظاهر بينهم ، حتى حفظ الرجال ، وتنقلت به الرجال ، وتعلمه الكبير والصغير ، إذ كان عمدة دينهم ، وعلماً عليه ، والمفروض تلاوته فى صلواتهم ، والواجب استعماله فى أحكامهم . ثم تناقله خلف عن سلف ، ثم مثلمهم . . فى كثرتهم ، وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى إلينا على ما وصفناه من حاله ، فلم يتشكك أحد ، ولا يجوز أن يتشكك - مع وجود هذه الأسباب - فى أنه أتى بهذا القرآن من عند الله . .

« فهذا أصل ، وإذا ثبت هذا الأصل وجوداً ، فإننا نقول إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعهم على ترك الإتيان به طول السنين التى وصفناها فلم يأتوا بذلك . .

القرآن يحمى العرب :

« والذى يدل على هذا الأصل - أى تحدى القرآن للعرب - أنا قد علمنا أن ذلك مذكور فى القرآن ، فى المواضع الكثيرة لقوله تعالى :

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ

(١) المصابقة : أى المجاورة ، وفى الأصل « المعاقبة » وهو تصعيف

تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١) ،
وكقولته :

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ . قُلْ فَأَنزِلُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ، فَاعْلَمُوا
أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، (٢) .

فجعل عجزم عن الإتيان بمثله دليلا على أنه منه - أى من عند الله - ودليلا
على وحدانيته . . .

ثم يقول : « فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم به ، ولم يأتوا بمثله . .
« وفي هذا أمران : أحدهما التحدى به ، والآخر أنه لم يأتوا إليه بمثل . .
« والذي يدل على ذلك : العلم المتواتر الذى يع به العلم الضرورى .
فلا يمكن حجود واحد من هذين الأمرين . .

ثم يقول :

« فإذا ثبت هذا ، وجب أن يُعلم بعده أن تركهم الإتيان بمثله كان لعجزهم
عنه ، والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم به
حقى طال التحدى ، وجعله دلالة على صدقه ، ونبوته ، وتضمن أحكامه استباحة
دمائهم ، وأموالهم ، وسبى ذريتهم . . فلو كانوا يقدرُونَ على تكذيبه لفعلوا ،
وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حُكمه ؛ بأمر قريب هو عادتهم
فى لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ، وإكثار
المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان ، وعن تسليم الأهل والذرية للسبى ،
فلما لم يحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها . .

(٢) سورة هود : آية ١٣ - ١٤

(١) سورة البقرة : آية ٢٣ - ٢٤

ويقول في موضع آخر :

« ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشيت أسبابه ، وكان من صدق به يرجع على أعقابهم ، ويعود في مذهب أصحابه . . فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المدة ، ووقوع الفسحة ، وكان أمره يتزايد حالا فخالا ، ويعلو شيئا فشيئا ، وهم على العجز عن القدح في آيته ، والطعن في دلالته — علمَ بيّن أنهم كانوا لا يقدرّون على معارضته ، ولا على توهين حجته . . وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قوم خصمون ، وقال : **وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا** ، (١) .

وعلم أيضا أن ما كانوا يقولون من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم :

« **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا .. إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ، (٢) .

وقولهم :

« **مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ، وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ** ، (٣) .

« **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ، (٤) .

وقالوا :

« **أَفْتَاتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** ، (٥) .

وقالوا :

« **أَنْبِئْنَا كِتَابِكُ مَا آهَلْتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** ، (٦) .

« **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ**

(٢) سورة الأنفال : آية ٣١

(١) سورة مريم : آية ٩٧

(٤) سورة الحجر : آية ٦

(٣) سورة القصص : آية ٣٦

(٦) سورة الصافات : آية ٣٦

(٥) سورة الأنبياء : آية ٣

آخرون .. فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطيرُ الأولين اكتبناها فهي تُعَلَى عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، (١) .

« وقال الظالمون إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ، (٢) .

إلى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في أمورهم ، متعجبين من عجزهم ، يفزعون إلى نحو هذه الأمور من تعليل ، وتعذير ، وموافقة بما وقع التحدى إليه ، وعُرف الحث عليه .

« وقد علم أنهم ناصبوه الحرب ، وجأهروه ، وناذبوه ، وقطعوا الأرحام ، وأخطروا بأنفسهم ، وطالبوه بالآيات ، والإتيان بغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ، ليظهروا عليه بوجه من الوجوه .. .

« فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم ، وذلك يدحض حجته ، ويفسد دلالاته ، ويبطل أمره ، فيعدلون عن ذلك إلى ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المناظرة والمعاداة ، ويُترك الأمر الخفيف ؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء ! » (٣)

ثم يذهب « الباقلاني » مذهبا آخر للاستدلال على عجز العرب عن الإتيان بما تحداهم القرآن إليه .. يقول :

« ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته ، والإتيان بمثل ما أتى به ، لم يحز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم ما هم عليه من الذرانة ، والسلافة ، والمعرفة بوجوه الفصاحة . وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ، وأنهم يضعفون عن مجاراته .. . ويقرعهم ، ويؤنبهم عليه ، ويدرك آماله فيهم ، وينجح مايسعى له بتركهم المعارضة .. .

(١) سورة الفرقان : آية ١ - ٥

(٢) سورة الفرقان : آية ٨

(٣) معجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧ وما بعدها

« وهو يذكرك فيما يتلوه تعظيم شأنه - أى شأن القرآن - وتفخيم أمره »
حتى يتلو عليهم قوله تعالى :

« قُلْ لِّسِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَآوَوْا كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » ^(١) .. وقوله : « يُنَزَّلُ
الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » ^(٢) وقوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » ^(٣)
وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ^(٤) . وقوله : « وَإِنَّهُ
لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » ^(٥) . وقوله : « هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » ^(٦)
وقوله : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ، مَتَابِي ، تَقْدِيرٌ مِنْهُ
جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » ^(٧) .

إلى غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم القرآن .. وذلك مما يدعوهم إلى
المباراة ، ويحضهم على المعارضة ، وإن لم يكن متحدًا إليه » ^(٨) .

بهذا ونحوه يقيم « الباقلانى » الحجة على أن القرآن قد أعجز العرب ، حين لم
يقم له أحد من شعرائهم أو خطبائهم أو حكمائهم يعارضه بمثل سورة من سورته ،
أو عشر سور ولو مفتريات ، كما كانوا يصفون ما فى القرآن من أخبار وقصص
بقولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » .

وهذا المنحى الذى نجاه الباقلانى يكفى دليلًا لمن أراد أن يقع على دليل الإعجاز

- | | |
|---------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة الإسراء : آية ٨٥ | (٢) سورة النحل : آية ٢ |
| (٣) سورة الحجر : آية ٨٧ | (٤) سورة الحجر : آية ٩ |
| (٥) سورة الزخرف : آية ٤٤ | (٦) سورة البقرة : آية ٢ |
| (٧) سورة الزمر : آية ٢٣ | (٨) لمعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٠ |

القرآن .. فما عليه حينئذ إلا أن يرجع إلى القرآن نفسه فيرى فيه مواقع التحدى التى أعلن العرب بها ، وتحداهم فيها .. ثم كرر ذلك فى أزمنة متفاوتة .. ولو وقع شئ من المعارضة التى تردّ هذا التحدى لما كان للقرآن وجه يلقاهم به متحدى مرة ، ومرة ، ومرات !^(١) .

إن القرآن - وقد ثبت تاريخياً - أنه أصدق ، وأدق وثيقة حفظت على التاريخ ، وتظاهرت جميع صور الحفظ على الإمساك بها وصيانتها .. من كتابة فى الصحف ، وحفظ فى الصدور . وتلاوة دائبة ليلاً ونهاراً فى الصلاة والتعبد به ، ومراجعة آياته فى معرفة أحكام الشريعة .. إلى نظر أهل الكتاب والكفار فيه للوقوف على سقطه ، والعثور على عثرة - إن القرآن - وهذا شأنه - يشهد شهادة قاطعة ، مثبتة فى آيات متعددة منه ، ومتمفرقة فيه - بالتحدى ، ثم بالعجز عن القيام لهذا التحدى ..

هذه حقيقة لا يجادل فيها أحد ، ولا ينكرها أحد من حصوم الإسلام ، بل ومن أشدهم عداوة له .. إذ كانت أكبر من أن تنكر ، وأظهر من أن تخفى أو يشوش عليها بجدل أو سفسطة !

فمن أراد أن يعرف معجزة الرسول فى القرآن الكريم .
ومن أراد أن يقيم الدليل عليها .. فهذا هو الدليل .. مثبتاً فى صدر القرآن ..
أما من أراد أن يعرف وجه الإعجاز أو وجوهه . فذلك شأن آخر يحتاج إلى علم بأساليب البيان ، وتمسك من فنّ القول .. وإلى وجدان سليم ، وحس مرهف ..
ثم يلتقى بهذا كله القرآن الكريم ، ويردد النظر فى آياته .. هنالك يجد الإعجاز الذى أعجز العرب قاطبة ، وتحدى الإنس والجن جميعاً !

(١) لعلك تذكر من هذه الآراء أن الملاحظ هو الذى فتق أحكامها ، وصور وجوهها :
(انظر رأى الملاحظ فيما مضى من هذا الكتاب) .

ماذا عند « الباقلانى » من وجوه الإعجاز ؟ :

والباقلانى ليس مؤسساً لهذه الآراء التى يقول بها هنا فى وجوه الإعجاز ،
وليس هو الذى كشف عن هذه الوجوه وأقام الشواهد لها ، ونصب الأدلة إليها .
بل هو مسبوق إلى هذه الآراء ، وهو يصرح بأنه إنما يحكى أقوال من سبقه من
العلماء فى هذا الميدان . . ولكن الرجل — مع هذا — نظر فيما نظر إليه غيره ،
ورأى فيما يتنقل من رأى . . ويحصر « الباقلانى » هنا وجوه الإعجاز فى أمور
ثلاثة اشتمل عليها القرآن ، وبها جميعها وقع الإعجاز ، وقامت المعجزة .
يقول الباقلانى :

« ذكر أصحابنا وغيرهم ^(١) فى ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز . .

أحدها : الإخبار عن الغيوب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل

لهم إليه .

فمن ذلك ما وعد الله تعالى به نبيه عليه السلام من أنه سيُظهر دينه على الأديان

بقوله عزّ وجلّ :

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ،

وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ^(٢) . . ففعل ذلك !

« وكان أبوبكر إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ، لينقوا

بالنصر ، ويستيقنوا بالنجاح . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفعل كذلك

فى أيامه . . .

(١) لعل بالمراد بأصحابه أهل السنة وبغيرهم أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى من

شيعة ، ومعتزلة .

(٢) سورة الصف : آية ٩

ثم يذكر الباقلاني ما فتح الله على المسلمين ، وما دخل في دولتهم من ممالك ودول .

ويذكر بعد هذا من أنباء الغيب التي جاءت في القرآن قوله تعالى :
«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُتُورٌ ، وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» (١) .
فصدق فيه . . وقال في أهل بدر :

«وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّكُمْ» (٢) .

«ووفى لهم بما وعد . . .» وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثر جداً ، وإنما ننبه بالبعض على كل .

الوجه الثاني :

« أنه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أمياً لا يكتب ، ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم ، وأنبيائهم ، وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع ، وما حدث من عظائم الأمور ، ومهمات السير ، من حين خلق آدم عليه السلام إلى حين مبعثه .

الوجه الثالث :

نظم القرآن

وفي هذا يقول الباقلاني :

« فهو بديع النظم عجيب التأليف متناوٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز

(١) سورة آل عمران : آية ١٢

(٢) سورة الأنفال : آية ٧

الخلق عنه . . والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها . . » .

ثم يأخذ الباقلاني بعد هذا في الكشف عما في « نظم القرآن » من آيات الإعجاز . . وهي كما تبدو له تتجلى فيما يلي :

١ - ما يرجع إلى الجملة - أى جملة القرآن كله :

وفي هذا يقول الباقلاني :

« من ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه خارج عن المجهود من جميع كلامهم ، ومباين المؤلف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد .

« وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير الملقى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة ، وإفهام المعاني المعترضة^(١) على وجه بديع وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا في وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل ، ولا يتصنع له .

« وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق . . ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعراً كثيراً . . فهذا إذا تأمله المتأمل تبين له خروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم وأنه خارج عن العادة ، وأنه معجز . . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميز حاصل في جميعه .

(١) أى المطلوب عرضها .

٢ - ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، والغرابة والتصريف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة . . على هذا الطول ، وعلى هذا القدر .
« وإنما تُنسب إلى حكميمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ، يقع فيها الاختلال والاختلاف ، والعمل ، والتكلف ، والتجوز ، والتعسف .

« وقد حصل (١) القرآن على كثرتة وطوله متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عز من قائل :

« اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ، كِتَابًا مُتَشَابِهًا ، مُتَانِيًا ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » (٢) .
« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » (٣) .

« فأخبر أن كلام آدمي إن امتدّ وقع فيه التفاوت ، وبأن عليه الاختلاف .
« والقرآن في عجيب نظامه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين . . على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص ، ومواعظ ، واحتجاج ، وحكم ، وأحكام ، وإعذار ، وإنذار ، ووعد ، ووعيد ، وتبشير ، وتحذير ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها .

« ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المقلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور . . فنن الشعراء من يهود في المدح دون الهجو ، ومنهم

(١) أى جاء .

(٢) سورة الزخرف : آية ٢٣

(٣) سورة : النساء : آية ٨٢

من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يُعرب في وصف الإبل والخيول ، أو سير الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغزل ، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ، ويتداوله الكلام . . . ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابعة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب . . .

« ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها . . . فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره .

« وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد ، في حسن النظم ، وبديع التأليف والوصف . . . لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا !

« وكذلك تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف !

« إن المعاني التي تتضمن أصل وضع الشريعة ، والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، إذ تجيء على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة — مما يتعذر على البشر .

« ويمنع ذلك أنه قد عُلِمَ أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة . فلو وجد أبرع اللفظ في المعنى البارع كان اللطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصور . . . ثم إن انضمام إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة . . . ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني ، والمعاني

وفقهما لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر ، والفصاحة أتم .

٤ — أن الكلام يتبين فضله ، ورجحان فصاحته بأن تذكر منه السكامة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر ، فتأخذه الأسماع . وتشوف إليه النفوس ، ويؤى وجه رونقه باديا ، غامراً سائر ما يُقرَن به .. كالدرّة التي ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد .

وأنت ترى السكامة من القرآن يُتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير .. فإذا هي غرة جبينه ، وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتمييزه وتخصّصه برونقه ، وجماله ، في جنسه ومائه « (١) » .

هذه بعض الاعتبارات والخصائص التي يراها « الباقلائي » في نظم القرآن ، وفي استوائه بها على مقام التحدى والإعجاز ، وهي آراء كما قلنا مسبوق بها ، نجدّها مثبتة في كتب الجاحظ .. والذي يجعل « للباقلاني » ولسكتابه : « إعجاز القرآن » مكاناً يستحق الحمد له في هذا المجال أنه أكثر من استدعاء الشواهد الأدبية من شعر ونثر ، وعرضها عرضاً جيداً ، له قيمته في خدمة البحث ، وإلقاء أضواء كثيرة كاشفة له .

والذي يؤخذ عليه في هذا الصنيع أنه استكثر من الشواهد الأدبية استكثاراً طغى على موضوع البحث ، وجار على الجهد الذي كان ينبغي أن يبذل في النظر لاستخراج معطيات جديدة لا تزال مضمرة في نظم القرآن .

البهرفاني ووقوفه للمقرآن :

ولا نظن أننا نظلم « الباقلائي » إذا قلنا إنه مع ما في قلبه من يقين راسخ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني - الجزء الأول ص ٥٢ وما بعدها

فى إعجاز القرآن ، وفى سقوط أفصح كلام وأبلغه إذا أريد له أن يصعد إلى قم القرآن العالفة ، وأن يرتفع من الأرض إلى السماء — لانظن أننا نظامه إذا قلنا إنه حين يرد موارد القرآن ويستقى من ينابيعه لاتسعه قدرته أن يحمل شيئاً يعتد به من روائع القرآن ، وعجائبه ، ولا أن يقع على دلائل الإعجاز اللامحة منه فى كل نظر يمتد إليه !

« فالباقلانى ، إذا عرض لآفة من آيات الكتاب سال بيانه متدققاً بالمديح والثناء على كل حرف ، وكل كلمة ، وكل عبارة فى الآفة .. فهى أفصح كلام ، وأروع بيان ، وأحلى قول ، وأجل صورة .. دون أن يشير إلى موطن الفصاحة ، ولا إلى مكان الرعة والجمال .. وهكذا يلتقى كل آفة بما لقي به غيرها .. من تلك العبارات المحفوظة المرددة .

يقول مثلاً :

« تأمل قوله تعالى : « فالىقُ الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ، ذاك تقدير العزيز العليم » (١) .

ثم يقول — بعد أن دعاك إلى أن تتأمل ، وتتلأ عيناك من جمال الحق وجلاله فى هذه الآفة — يقول : « انظر إلى هذه الكلمات الأربع — أى مقاطع الآفة : فالىق الإصباح — وجعل الليل سكناً — والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم — التى ألف بها ، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره .. أليس كل كلمة منها فى نفسها غرة ، وبمفردها ذرة ؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتمجلى فى بهجة القدرة ، ويتمجلى بخالصة القوة ، ويجمع السلاسة إلى الرصانة ، والسلامة إلى المتانة ، والرونق الصافى ، والبهاء الضافى .. ! « ولست أقول : شمل الإطباق المليح ، والإيجاز اللطيف ، والتعديل والتثيل ،

والتقريب والتشكيل ، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه . لأن العجيب ما ينبغي من
انفراد كل كلمة بنفسها ، حتى تصلح أن تكون عين رسالة ، أو خطبة ، أو وجه
قصيدة أو فقرة ، فإذا ألفت ازدادت حسناً ، وزادت إذا تأملت معرفة وإيماناً^(١) .
وهذه الأوصاف التي يصف بها الباقلاني الآية الكريمة ومقاطعها وإن كانت
بعض ما ينبغي أن ترصف به ، إلا أنه كان ينبغي أن يكشف أولاً عن مواطن
الحسن والروعة في الآية ، وأن يشار إلى مدلول كل الصفات التي اتصفت بها ..
فمثلاً .. كان ينبغي أن يكشف عن بعض أسرار هذا التخالف في التعبيرين المتعاطفين
في قوله تعالى :

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ »^(٢) .

فقد جاء التعبير بلفظ الفعل في إخراج الحي من الميت ، على حين جاء بلفظ
اسم الفاعل في إخراج الميت من الحي .. فما السر في هذا ؟
وتنظر في الآية الكريمة : « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .. يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » .

فترى أن قوله تعالى : « فالق الحب والنوى » يشير إلى حياة متولدة متجددة
تتفجر من هذا الجداد .. « الحب والنوى » .. فإذا أنت قرأت قوله تعالى :
« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى » وجدت تلك المواليد الحية منطلقة من عالم
الموات إلى عالم الحياة ، ووجدتها ماثلة أمامك ، شاخصة إليك من قوله تعالى :

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ »^(٣) .

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .. يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ »^(٤) .

هذه صورة تعرضها الآية عن بعض قدرة الله وحكمته .. موات تنطلق منه

الحياة ١

(١) أعجاز القرآن للباقلاني الجزء الثاني ص ٥٦ .

(٢) ، (٣) سورة الأنعام : آية ٩٥

ثم هناك صورة أخرى تقابل هذه الصورة ، وهي إخراج الميث من الحى ، فالحى سبحانه وتعالى : فالحى الحب والنوى . . ونخرج الميث من الحى . .

فقوله تعالى : « نخرج الميث من الحى » معطوف على قوله سبحانه « فالحى . . الحب والنوى » . . وتكون الجملة التى بينهما وهى قوله تعالى : « نخرج الحى من الميث » جملة كاشفة وشارحة لقوله سبحانه : « فالحى الحب والنوى » .

هذا وجه من وجوه النظر الذى كان ينبغى أن ينظر فيه إلى الآية . .

وكذلك فى قوله تعالى : « فالحى الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً . . ذلك تقدير العزيز العليم » .

فى هذا التخالف بين المتعاطفين : « فالحى الإصباح ، وجعل الليل سكناً » نظر لناظر .

فلماذا لم يحىء النظم على وجه واحد فكان يقال مثلاً « فالحى الإصباح وجعل الليل سكناً » أو : « فالحى الإصباح ، وجعل الليل سكناً » ؟

ولكن هكذا كان نظم الحكيم العليم !

وإنك لتلمح فى هذا النظم القرآنى الإعجاز فى كلمة من كلمات الكتاب الكريم بل فى حرف من كلمة . . بل فى حركة منها . .

ففى موازين هذا النظم الربانى تجد فرقاً شامعاً بين : فالحى وفلق . . وبين : جعل وجاعل .

« فالحى الإصباح »

فى هذا التعبير باسم الفاعل « فالحى » دلالة على التجدد والاستمرار . . وهذا من شأنه أن يمثل لأعيننا ، وفى خواطرنا ، صورة تنطلق منها صورة لا تنتهى . . تشاهد فيها قدرة الله سبحانه ، قائمة على كل شئ . . .

إنه ليس إصباح واحد هو الذى فلقته القدرة الإلهية ، ثم تركته يغدو ويروح فى الحياة .. ولكنه إصباح يولد كل يوم .. يحيا ، ويموت ، ويموت ، ويحيا ، وهكذا أبداً الدهر .. وقدرة الله هى القائمة عليه فى كل حال .. تحييه وتميته ، وتميته وتحييه ! وانظر كيف تذهب كل هذه المعانى ، لو أن النظم جاء هكذا : « فلق الإصباح ، إنك لا ترى إلا صُبْحاً واحداً يطل على الحياة .. يغيب ثم يظهر ، ويظهر ثم يختفى ، وهو هو لا يتغير وجهه ، ولا يتغير الزمن حوله .. والصبح - كما تعلم - مولد الحياة ، تتدفق منه الحياة عن كل حي كان ساكنها مداماً .. فإذا الأحياء وقد بُعثوا جميعاً ، ينتشرون فى الأرض ، ويتبعون من فضل الله .. ولهذا جاء التعبير عن شروق الصبح « بالَفَلَق » الذى يدل على حركة وانشقاق وتصدع ، كما تنشق الأرض وتتصدع لتخرج النبات .. كما يقول الله سبحانه :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ .. أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا ، (١) .. »

أما التعبير بالفعل « جعل » فى قوله تعالى :

« وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا » .

فإنه النظم المناسب لحال تلك الأكوان التى خلقها الله سبحانه وتعالى وأقامها فى الوجود مقاما واحداً لا يختلف فيه يومها عن أمسها أو غدها ..

إن التعبير بالفعل يدل على أن هذا الأمر المتولد عنه قد وجد على الوضع الذى أوجده الله سبحانه عليه ، فلا تجدد ولا تبدل .. فالليل ساكن خامد .. والشمس والقمر قد عرضا هنا فى معرض « وظيفى » حيث يعرف الناس من وجهيهما عدد السنين والحساب ..

فكان التعبير عنهما وعن الليل الساكن الخامد بالفعل « جعل » الذي يدل على مجرد الخلق - أنسب تعبير لهذا المقام .. فما الليل ، وما الشمس والقمر في هذا العرض إلا أ كوان قائمة على أداء وظائف محددة ثابتة لاندوها ..

« جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، .

وفي كل موضع ورد فيه الفعل « جعل » ، في القرآن كان على هذا المعنى لمجرد « الجعل » ، ود الخلق ، :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ » (١) .
« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ الْآثِيلَ وَالنَّهَارَ خِافَتِينَ أَنْ يُرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » (٢) .
« وَجَعَلْنَا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتَيْنِ ، فَمَحْوٍ بِنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْهِرَةً » (٣) .
وهكذا .. لا يبرأ من الفعل هنا إلا الدلالة على مجرد وجود الشيء على الصورة

التي وُجد عليها ، ولأداء « الوظيفة » التي خلق لها .

أرأيت ؟ وإنك لترى عجبا من آيات القدرة والحكمة !

ثم انظر بعد هذا :

فلقد جاء قول الله تعالى : « فالحق الإصباح » بعد قوله سبحانه : « فالحق الحب والنوى » وبعد أن كشفت لك هذه الآية السكرية عما وراء « فالحق ، الحب والنوى » من حيوات تنفجر ، وتفيض من هذه الأشياء المميّنة - « الحب والنوى » - حين تنفلق وتنشق بيد القدرة القادرة !

فإذا أنت استقبلت - بعد هذا - قوله تعالى : « فالحق الإصباح » وجدت تلك المعاني التي انكشفت لك من قوله تعالى : « فالحق الحب والنوى » حاضرة تشير لك إلى ما كنت فيه منذ قليل ، من مشاهد الحياة والموت ، والموت والحياة ..

(١) سورة الأنعام: آية ٩٧ (٢) سورة الفرقان: الآيات ٦١ و ٦٢

(٣) سورة الإسراء: آية ٢١

فقرى فى حضرة هذه المشاهد الحياة المتدفقة من « فائق » الإصباح ، والممود الساكن
الساجى من سكون الليل ! « فائق الحب والنوى . . يخرج الحى من الميت ،
ويخرج الميت من الحى . . . فائق الإصباح ، وجعل الليل سكناً . . »

وانظر مرة أخرى إلى : « فائق الحب والنوى » و « فائق الإصباح »
تر « الإصباح » فى مواجهة « الحب والنوى » ! إنه ليس صباحاً . . ولكنه
« إصباح » . . هو جنين مضمر فى أحشاء الليل ، أو هو ليل يستجن فى أحشائه
« إصباح » ، فإذا انفلق هذا « الإصباح » لاح الصبح وظهر ! !
فالذى يُفلق هنا هو « الإصباح » لا الليل ، كما أن الذى يُفلق هناك هو الحب
والنوى ، لا القشرة التى تغطى الحبة والنواة .

« الإصباح » هو الجنين الذى يضمه الليل فى أحشائه ، فإذا فلقته يد القدرة
تفجر منه الضوء ، وانتشر النور وطلع النهار !

والحب والنوى هو جنين الحياة التى تضمها الثمرة أو القشرة فى جوفها ، فإذا
فلقته يد القدرة انطلقت منه الحياة ، وطلع منه الزرع ، والزهر والثمر ! !
وبعد ، فهل انتهى النظر إلى غايته مما وراء هذه الآية السكرية من أسرار ؟
إننا - مع ما نشعر به من ضعف فى هذا الموقف ، الذى لسنا من أهله - نجد فى كل
نظرة ننظرها إلى الآية السكرية شيئاً جديداً لم يلح لنا من قبل . . فكيف لو كان فى
هذا المقام من هو أحدث منا نظراً وأجلى بصيرة ؟ !

لماذا لم تجيء هذه الآية على نسق الآية التى سبقتها . . فيقال : « فائق الإصباح
والليل » كما قيل من قبل : « فائق الحب والنوى » . . فيكون فى هذا تجانس
وتقابل وتوازن . . فكما يولد النهار من الليل ، يولد الحى من الميت ، وبهذا
تم المقابلة بين الآيتين : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى » يقابلها
« فائق الإصباح والليل » بمعنى : يخرج النهار من الليل ، ويخرج الليل من النهار !

هكذا يبدو ظاهر الأمر ، مسوًى على تلك الصورة التي يبدو فيها التطابق والتوافق .

إن ذلك منطق النفس البشرية حين تعيش على الأرض وتسعى بين معموورها ومعمورها .

أما حين يراد لها أن ترُود معالم الحق ، وأن تنزل منازل النور فإنه يتنزل عليها من آيات الله ما يرفع خسيسها ، ويحيى مواتها ، ويبعث أشواقها إلى الملاء الأعلى !
« فائق الإصباح ، وجعل الليل سكنا »

« فالفلق ، لا يكون إلا عن ولادة ، ولا ينجلى إلا عن حياة ! . . إصباح يلد صبحا ، وصبح يسفر عن نهار ، وحياة وحركة دائمين في الوجود ، ساريين في الكائنات .

« والجعل ، فعل جامد ، وصيرورة مغلقة . . لاشيء بعد الحدث الذي يحيى من إحداث الفعل . . « جعل » ، هكذا لامعقبات له . . ليل . . وسكون وهودا !
أفتريد مزيداً من معطيات هذا الحرف ؟

إن هناك أمراً كثيراً لاتزال مخبوءة . . تنتظر من ينظر ويعقل !
فعد إلى الآيات ، وجدّد لك نظراً فيها وستجد على النور هدى !

* * *

ثم يعود « الباقلاني » ، فيدعونا مرة أخرى إلى النظر والتأمل في آية أخرى !
يقول :

ثم تأمل قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَأخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ
مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » (١) .

ويعلق على هذا بقوله : « تجد كل لفظة ، وترى كل كلمة تستقل بالاشتغال على
تهاية البديع ، وتتضمن شرط القول البليغ . . فإذا كانت الآية تنظم القول
البديع ، وتتألف من البلاغات فكيف لا تقوت حدّ المعهود ، ولا تجوز شأوا المألوف ؟
وكيف لا تحوز قصب السبق . ولا تعالى على كلام الخلق (١) ؟ ! »

أهذا كل ما يمكن أن يقال في مواجهة هذه الروعة ، وفي لقاء هذا الجلال ؟ .
أين وجوه الحسن فيها ؟ وأين أمارات الإعجاز منها ؟ وأين أين المحجب من
أسرارها ، والمكنون من جواهرها ؟

ولست بمستطيع أن أملاً عيني من هذا النور المتدفق من كلماتها وحروفها . .
ولا أن أدير عقلي وراء كل هذه المعاني اللاتحة منها . . فإن هذا يقتضي أن أنصرف
عن هذا البحث الذي أعالجه ، وأن أنصرف الجهد كله ، والوقت كله مع هذه الآيات
الثلاث لقضاء بعض حقها ، والوفاء ببعض فضلها . .

وحسبي إذن أن أقف عند كلمة أو كلمتين منها . !
الآية التي نتحدث عنها . . الآية هنا هي « الليل » .
« وآية لهم الليل . . . »

فالحديث هنا عن الليل ، باعتباره نعمة من نعم الخالق على عباده . . فهو سكن
للكائنات ، وسكون للأحياء !

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » .
ونقف عند كلمة « نسلخ » .
« الليل نسلخ منه النهار » .

والنسلخ في اللغة بمعنى قشر الشيء عن الشيء وكشطه ، كما يُسلخ لحاء الشجرة ،
وكما يُسلخ الجلد من الحيوان ؟

(١) إعجاز القرآن للباقلاني - الجزء الثاني ص ٥٦

والليل والنهار هما صفتا وجه واحد .. جانب مضيء ، فهو نهار ، والجانب الآخر مظلم ، فهو ليل !

وانظر في حركة الليل والنهار على ضوء ما أصبح اليوم حقيقة ثابتة ، وهي دوران الأرض حول الشمس .

انظر في هذه الحركة وافعل ما يفعله تلاميذ المدارس ، واستحضر الجهاز الجغرافي الذي يحمل الشمس والأرض .. ثم أدر هذا الجهاز ، فتتحرك الأرض وتدور حول الشمس ، في حركة دائرية .. تقطعها في يوم كامل .. نهار وليل . ماذا ترى ؟

إنك تلاحظ أن الجانب المضيء من الأرض ينسلخ منه النور شيئاً فشيئاً ، وجزءاً جزءاً .. هكذا أبدأ مع دوران الأرض الدائب حول الشمس !

إن أى جزء يظلم من الأرض إنما أظلم بعد أن انسلخ منه النور الذي كان يغمره .. فلا ظلام ، ولا ليل إلا مع حركة الأرض ، وإلا مع انسلخ النور الذي كان يغطي وجه هذا الجزء .. !

هذه حقيقة كونية أصبحت اليوم بديهية من بديهيات العلم النظري والعمل معاً ، وحقيقة أخرى .. وهي أن النور يسبق الظلام ، والنهار متقدم على الليل ! وهذه الحقيقة قد قررتها الآية التي تلى هذه الآيات مباشرة ، وهي قوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار .. وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون » !

ثم انظر ما وراء هذا « السلخ » ، ا سلخ النهار من الليل .

ظلام .. هو الليل .. وهمود ، وسكون .. .

كذلك .. سلخ الجلد من الحيوان ..

همود وسكون .. هو همود الموت وسكونه !

إذا الجلد هو موضع الحساسية في السكان الحى . فإذا انسلخ الجلد فلاحياة .
كذلك لو سلخ لحاء النبات لمات .

وأكثر من هذا ..

الشيء المنسلخ .. فيه هذا التشابه .. هنا وهناك .
فالنهار .. كان مسرح حياة وحركة للأحياء !
والجلد .. كان موطن الحساسية والشعور في الحيوان .
ولعلك تسأل بعد هذا :

إن النهار إذا انسلخ من الليل خلف ظلاماً
والجلد إذا انسلخ من الحيوان أيخلف ظلاماً أيضاً ؟
ونعم .. ! أفلا ترى انطفاء جذوة الحياة في هذا الحيوان أو الشجر المسلوخ ؟
وهل بعد هذا الظلام ظلام ؟
وكلمة أخرى .. هي « العرجون القديم » !
والعرجون هو العذق الذى يحمل سبابة البلح في النخلة !
وهو لا يكون على استقامة أبداً ، إذ أن ثقل ما يحمل من ثمر يجعله دائماً
مقوساً معقوفاً ، وهو إذا قدم ويبس اكتسب لونا أدكن أشبه بلون الشفق عند
الغروب ! ..

فإذا أنت نظرت في القمر عندما يكون في الحاق ، في آخر ليلة من الشهر ،
أو أول ليلة من شهر جديد . . تجده هو وهذا العرجون سواء في مرأى العين !
ولابن « الرومى » بيت يضرب به المثل في دقة الوصف وبراعة التشبيه ، في
« وصف الهلال » :

يقول ابن الرومي :

وانظر إليه كزورق من فِضة قد أثقلته حمولة من عنبر
إنه هو هذا القمر الذي صار محاقاً .. والذي يقول فيه القرآن الكريم :
« حتى عاد كالعرجون القديم » !

وفي أساتذة الأدب المتحدثين ، أو المجدين من إذا وقع على تشبيه ابن الرومي
والتشبيه الذي جاء به القرآن - فكر وقدّر .. ثم نظر .. ثم عبس وبسر ..
ثم خرج على قومه فقال : انظروا .. الأدب الحضاري ، وما يحمل في كيانه من
ألوان المدنية ، وشواهد الحضارة ؟ وانظروا الخيال الصحراوي البدوي ؟ ماذا يعطى
غير ما في البادية من قحط وجذب ! ؟

هنا — مع ابن الرومي — تجدون بغداد فيما كانت فيه من ترف ، ونعمة ،
ومدنية .. زوارق من الفضة ، محملة بما خف حمله وغلا ثمنه .. بالعنبر .. الطيب
الريح ، الثمين القدر !
وهناك .. تجدون الصحراء في حرها وسمومها .. في جفافها وجذبها ..
« عرجون قديم » !

هكذا يبدو الأمر فيما بين التشبيهين على تلك الصورة ، عند أولئك الذين
لا تزال على ألسنتهم رطانة وعجمة ، فلا تستقيم عليها لغة العرب ، ولا يحلو فيها أدب
العرب ! وإن ذاقتهم فإنما تذوقه بعينها .. ولا ترشف رحيقة بفمها .. إنها تستخدم
حاسة النظر مكان حاسة الذوق ، فلا عجب أن يختلط الأمر ، ويفسد الحكم !
وندع هؤلاء .. يتعالمون بالجهل ، ويتعاوون بالنباح في وجه القمر .. !
وننظر في الآية الكريمة ، وفي العرجون القديم !

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » (١) .

القمر .. فى تمام طلعتة ، وجلال بهائه ..
إنه لا يكون قمرًا إلا وهو على تلك الصفة من التمام والكمال والبهاء !
ثم ينتقل فى منازلہ ليلة بعد ليلة .. فإذا يحدث ؟
إنه يتخلى كل يوم عن قدر من تمامه ، وكمالہ ، وبهائه ..
والعذق كذلك يتناثر عقده ، حبة حبة .. وتنفرط ثماره ثمرة ثمرة .. حتى
لا يبقى من العقد شيء ، ولا يصبح على العذق ثمرة .. حتى هذه الخيوط التى
كانت تمسك بالثمار .. قد تساقطت أيضًا .. كما انطفاأت فى الحاق هذه الشعاعات
التى كان يرسلها القمر ، فيطعم الناس من جناها الطيب أنسًا وروحًا من وحشة
الليل وغمرته !

لقد صار القمر عرجونا .. قديمًا ! أكل ثمرة ، وتقطعت حباله !
وأصبح العذق قرأ .. محاقًا ، انطفأ نوره .. وذهب شعاعه !
ولا أحسبك بعد هذا تأسى على زروق ابن الرومى إذا هو غاص فى الماء ،
واستقر على القاع !!

ونعود إلى « الباقلانى » فقد كدنا ننساه ، بعد أن بعد ما بيننا وبينه !
وعودتنا إلى « الباقلانى » الآن إنما هى لنستأذنه فى أن ندعه لنلتقى بغيره ..
إذ ليس عنده من جديد يحدثنا به عن إنجاز القرآن .. وكل ما يقوله بعد
هذا هو كلام مكرور معاد .. !!

عبد الجبار

رأيه في الإعجاز

من هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار ؟ :

هو القاضي أبو الحسن بن عبد الجبار الأسدي ، المعتزلي . .
كان يلقب شيخ القضاة في عصره ، كما أنه كان رأس المعتزلة في زمانه .
وقد سَلَّم له معاصروه بالتقدم والرياسة في العلم والفقه . . وأشهر مؤلفاته كتابه
« المغني » في أبواب التوحيد والعدل . . وهو موسوعة كبيرة . . يضم مباحث
كثيرة جليلة في التوحيد ، والفقه .

وقد ألّفه على مذهب المعتزلة ، ليقم به حجج المذهب ، وليدفع به اعتراضات
المعترضين على آراء المعتزلة . .

ويقصد المعتزلة « بالتوحيد » نفى جميع الصفات عن الله سبحانه وتعالى . . كما
يقصدون بالعدل ، القول بأن أفعال العباد مكسوبة لهم ، وأن ليس لله دخل فيها ،
ولهذا وجب حسابهم عليها ، كما وجب جزاؤهم بها إن خيراً ، فخير ، وإن شراً ، فشر . .
وهذا ما يقتضيه عدل الله . . كما يقولون . . !

هذا ، وقد توفي « عبد الجبار » في مدينة الرّى سنة ٤١٥ هـ .

رأيه في الإعجاز :

أفرد « عبد الجبار » في كتابه « المغني » جزءاً خاصاً للإعجاز^(١) .
وهو في هذا الجزء من الكتاب لا يلقى الإعجاز لقاء مباشراً ، بل يقدم لذلك

(١) : هو الجزء السادس عشر من طبعة وزارة الثقافة والإرشاد .

بمباحث كثيرة تستنفد القدر الأكبر من هذا البحث .. فهو يحاول أن يقرر أولاً صحة القرآن ، وتواتر نقله ، والدواعي الذي تقوم لهذا التواتر ، وتطاهر على الاحتفاظ به كاملاً بعيداً عن أى تحريف ، ثم يعقد فصلاً في البحث عن النسخ في القرآن ، والأحكام التي يصح فيها النسخ ، والتي لا يصح أن يقع فيها نسخ .

ثم يعرض لثبوت نبوة النبي ، وقيم الحجج لها ..

وهنا نجد لنفسه مدخلا إلى الإعجاز ..

وهو في هذا المدخل ينصب موازين البلاغة ، ليقمّ بها الكلام البليغ ، وليضع كل كلام بالمنزلة اللائقة به .

ما الكلام الفصيح ؟

والإجابة على هذا السؤال يتجه « عبد الجبار » إلى شيخه « أبي هاشم ^(١) » ، فيأخذ الجواب عنه .. يقول :

قال شيخنا « أبو هاشم » : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ..

« ولا بد من اعتبار الأمرين » .

« لأنه - أى الكلام - لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً .
فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين » .

هذا هو الميزان الذي يزن به « عبد الجبار » الكلام ، ويدخله به مدخل « الكلام الفصيح » .. وهو أن يكون جزل اللفظ ، حسن المعنى ..

(١) أبو هاشم هو عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي ، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة . توفي سنة ٣٢١ هـ قال صاحب الملل والنحل : والمتأخرون من المعتزلة انتهجوا طريقة أبي هاشم . حنل القاضي عبد الجبار (الملل والنحل جزء ١ ص ١١١) .

ومعنى هذا أن بلاغة الكلام ليست من جهة النظم وحده ، ولا من جهة المعنى وحده أيضاً ، وإنما هي في معنى كريم ، في لفظ كريم ! وسنرى لذلك شرحاً طويلاً عند عبد الجبار .

النظم المخصوص ، وأثره في البهارة :

ثم يعرض « عبد الجبار » للأسلوب الذي يحىء عليه نظم الكلام . . . وهل لهذا الأسلوب أثر في فصاحة الكلام وبلاغته ؟
ويؤخذُ لنا « عبد الجبار » بأنه سيحدد موقفه من الرأي القائل بأن إعجاز القرآن إنما هو في هذا النظم الفريد الذي جاء عليه . . فهو ليس مما تعهد العرب من أساليب القول المتداول بينها . . إنه ليس شعراً ، وليس نثراً منشوراً مرسلًا ، ولا سجعاً ملتزماً . وإنما هو قرآن بنى على آيات فصلت تفصيلاً . . كل آية تحتم بفاصلة ، ليست قافية شعر ، ولا م طع سجع .
يقول « عبد الجبار » :

« وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص . .
« لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر . . والنظم مختلف . إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة .

« وقد يكون النظم واحداً ، وتقع المزية في الفصاحة . . فالمعتبر ما ذكرناه ،
لأنه الذي يتبين في كل نظم ، وكل طريقة . . .

ثم يقول : « ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ ، وحسن المعنى » (١) .

فالفصاحة — في رأى عبد الجبار — التي انفرد بها القرآن تقوم على جزلة

(١) المغنى جزء ١٦ ص ١٩٩ .

اللفظ ، وحسن المعنى أولاً ، فإذا جاء ذلك في نظم فريد لم يسبق إليه ، كان ذلك ثوباً جديداً من أثواب الحسن ، يزداد بها الكلام الفصيح فصاحة وبلاغة .

أبى تكونه موافق الفصاحة في الكلام ؟

هذا الكلام الفصيح البليغ . . ما وجه فصاحته وبلاغته ؟ وأين مظان الفصاحة والبلاغة فيه ؟ أفى كلماته المفردة . . من حيث سلامتها في ذاتها وبعدها عن الغرابة والوحشية ؟ أم في نظم هذه الكلمات حين يضم بعضها إلى بعض ، فيقع بينها تجانس وتناسب والتحام ؟

يجيب « عبد الجبار » على هذا فيقول :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم ، على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة (١) . .

« وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة (٢) التي تتناول الضم . . وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه (٣) . . وقد تكون بالموقع . . وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع . . لأنه إما أن تعتبر فيه (٤) ، السكامة ، أو حركتها ، أو موقعها .

« ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة . . ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات ، إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة ، وكذلك السكافية إعرابها ، وحركتها ، وموقعها . . فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه ، إنما تظهر مزينة الفصاحة بهذه الوجوه ، دون ما عداها . »

وواضح من هذا أن « عبد الجبار » ينظر إلى الكلمة نظرتين باعتبارين :

(١) المراد بالصفة هنا المعنى الذي تحمله وتؤديه مفردة ، أو مركبة مع غيرها .

(٢) أى ما تواضع عليه أهل اللغة من مفهوم خاص للكلمة .

(٣) الضمير يعود إلى الضم (٤) أى في مدخل هذا الضم

مختلفين : نظرة في حال أفرادها ، ونظرة أخرى في حال نظمها مع غيرها من الكلام . . . وهي في كلا الحالين واقعة تحت أحوال ثلاث :

أولها : مفهومها في ذاتها ، من حيث الوضع الذي لها عند أهلها .
ثانيها : مفهومها حين تداول عليها الحركات الإعرابية ، فتكون فاعلا أو مفعولا ، أو حالا ، أو صفة ، أو تمييزاً . . . ونحو هذا .
ثالثها : مفهومها حين تأخذ مكاناً خاصاً في الكلام . . . فتتقدم ، أو تتأخر . .
وإذن فالنظم هو الذي عليه المعول في بلاغة الكلام ، وفصاحته ، وأن هذا النظم يدور في مجالات ثلاث : اختيار الكلمة في ذاتها ، ثم اختيار « الوظيفة » التي تؤديها في مجتمع الكلمات التي ترتبط بها . ثم اختيار المكان المناسب لها ، لتقوم فيه بأداء وظيفتها ، على أتم وجه وأحسنه .

ما أصاب المعنى في بهرغة الكلام ؟

أما المعنى فهو تبع للنظم الكلامي . .
يقول « عبد الجبار » : « إن المعاني وإن كان لابد منها — فلا تظهر فيها للزنية ، وإن كانت تظهر — المزية — لأجلها — أى لأجل المعاني .
ثم يقول : « ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر ، والمعنى متفق . . وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع ، والمعبر عنه في الفصاحة أدون .

« فهو — أى المعنى — لابد من اعتباره ، وإن كانت المزية تظهر بغيره . .
ثم يقول : « على أنا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد . . فإذاً يجب أن يكون الذي يُعتبر ، التزايد^(١) عند الألفاظ التي يعبر بها عنها — أى عن المعاني — . .

(١) أى أن الذي يعتبر في حساب النظم هو التزايد في الألفاظ .

« فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال^(١) الذى تختص به الكلمات ،
أو التقدم والتأخر الذى يختص بالموقع ، أو الحركات التى تختص بالإعراب ، فبذلك
تقع المباينة .

« ولا بد فى الكلامين اللذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون إنما زاد
عليه بكل ذلك أو ببعضه .. ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت
فى معنى تكون أفصح منها إذا استعملت فى غيره ، وكذلك - الشأن - فيها إذا
تغيرت حركاتها .. وكذلك القول فى جملة من الكلام ..

« فأما حسن النغم ، وعذوبة القول فما يزيد الكلام حسناً على السمع ، لا أنه
يوجد فضلاً فى الفصاحة .. ، »

وأنت ترى أن « عبد الجبار » يذهب مذهب « الجاحظ » فى الاحتفاء بالنظم ،
وفى جعل المعول عليه فى إقامة ميزان الكلام ، وفى بلاغته وفصاحته .. وهذا
كما قلنا لم يكن عن استخفاف بقدر المعنى ، أو تهوين لشأنه .. وكيف ؟ والألفاظ
إنما هى خدم المعانى ، والمركب الذى تُحمل عليه إلى، غايتها من العقول والقلوب ؟
وهل إذا خلت الألفاظ من المعانى تصبح شيئاً له حساب وتقدير ؟ وهل هى إذ
ذاك إلا أصوات جوفاء ؟ .. لا فرق بين أن تنطلق من شفقتين ، أو تتردد من
احتكاك بين حجرتين ! !

نقول : إن هذه الحفاوة بالنظم التى كانت من « الجاحظ » وغيره ممن تأمى به
فى هذا المذهب كعبد القاهر ، وعبد الجبار - لم تكن إلا طرفاً متطرفاً فى محاربة
دعوة كانت قائمة إذ ذاك على تحرير المعانى ، واصطیاد الأفكار الفلسفية ، والغوص
وراءها ، حتى إذا وقعت فى مجال الفكر لكتاب أو شاعر أخرجها فى أى ثوب
(١) يريد بالإبدال الذى تختص به الكلمات ، ما يكون من اختيار كلمة بدل كلمة لأداء

المعنى المناسب ، وذلك فى الكلمات المترادفة ، أو المتقاربة المعنى

من اللفظ، سواء جرى في ذلك على أوضاع اللغة، وسلك مسالك أربابها، أم تعثر بيانه، واضطرب نظمه . . إذ كان المعنى هو همّة ووكدّه وغايته . .

وهنا تجمّ خطر كاد يهدد الأسلوب العربي، ويذهب ببيانه، ورويقه وطلاوته وكاد — لو استمر به الزمن — أن يخرج جملةً عن الصياغة العربية، ويقطع الصلة بين ماضى اللغة وحاضرها . . وهذا معناه ضياع التراث العربى من جهة، ثم طمس معالم الطريق إلى القرآن من جهة أخرى . . !

لهذا حمل الجاحظ هذه الحملة القوية على هذا الاتجاه الجديد، فكان منه هذا التحامل على المعنى، والاستخفاف به، على حين احتفى بالنظم هذا الاحتفاء البالغ الصارخ . . ولولا هذا التدبير البارع لما وقف المتجهون إلى هذه الوجهة الجديدة عند حد . . ولذهبوا فيه إلى أبعد مدى . . ثم لأصبحت اللغة العربية أترأ بعد عَيْن، ولأخذها الزمن بما أخذ به كثيراً غيرها من اللغات التى درست، وذهبت آثارها ومعالمها .

اعتراضه ! :

ثم يورد « عبد الجبار » بعد هذا اعتراضاً ربّما كان يملك في صدره من نظر في رأيه السابق الذى قرر فيه : أن مزية البلاغة والفصاحة إنما هى من جهة النظم — يورد هذا الاعتراض . . فيقول :

« إذا كانت لغة العرب عندكم حاصلة بالمواضعة والاختيار، فهلا جاز منهم — أى العرب — أن يتواضعوا على ما يزيد على هذا القدر من الفصاحة في الرتبة ؟ » .

يريد عبد الجبار أن يقول على لسان هذا المعارض : إذا كانت اللغة وليدة مواضعة بين أربابها . . فهلا كان من هذه المواضعة، المواضعة على القدر الذى

يكون به الكلام بليغاً فصيحاً ، ثم المواضعة على ما يكون به أبلغ وأفصح ..
وهكذا .

ومعنى هذا .. أن المورد لهذا الاعتراض يطلب أن تقوم اللغة في مفرداتها
ونظمها على مواضع أشبه بمواضع العلوم الرياضية مثلاً ، بحيث يضبط بها
كل لون من ألوان البيان ، وكل منزلة من منازل البلاغة ..

ومعنى هذا أيضاً : أن يكون فن القول علماً يكتسب اكتساباً ، لا يدخل
عليه شيء من جانب الإنسان .. من وجدانه ، أو عاطفته ، أو مشاعره ..
ولا يكون بين إنسان وإنسان فضل إذا تساوى حظهما من هذا العلم .. كما
لا يكون بين إنسان وإنسان فضل في حل مسألة رياضية إذا عرفا القواعد التي
يُرجع إليها في حلها ..

ورد الاعتراض :

وهنا يتصدى «عبد الجبار» لتنفيذ هذا الاعتراض ودفعه في قوة ، وتمسك ..
ببصيرة نافذة ، وعقل مستنير فاقه ، أديب . فيقول :

«لأنهم — أى العرب — إذا لم يفعلوا ذلك^(١) .. ووقعت مواضعهم على
هذا الحد^(٢) .. فيجب ألا يمتنع فيه — أى الكلام — المزية ، حتى يظهر المعجز
في القرآن وغيره .. سواء قلنا : إنه قد كان يصح أن يتواضعوا على أزيد من
ذلك في الفصاحة ، أو كان لا يصح .. وسواء قلنا : إن اللغة توقيف
أو مواضعة ..»

(١) أى لم يتواضعوا على صور الكلام ، ووجوهه المختلفة .

(٢) أى وقفوا بالمواضعة على ذات الكلمة المفردة ، والصفات التي تلحقها في حالات
لغرابها ، وتأخيرها أو تقديمها في النظم ..

نم يقول : « على أن هذا السائل - أى المعارض - ظن أن المزية فى الفصاحة إنما تكون بأصل المواضعة ، وليس الأمر كذلك ، لأن ما يبلغ من الكلام فى الفصاحة النهاية لا يخرج عن أن يكون من جملة اللغة ، كما أن ما دونه لا يخرج عن أن يكون من جملتها . . . وإنما تتبين زيادة الفصاحة لا بتغير المواضعة ، لكن بالوجوه التى ذكرناها^(١) . . . وهذا كما نعلم من حال الثياب المنسوجة ، إنما تتفاضل بمواقع الغزل ، وكيفية تأليفه ، وإن كان غزل الجميع لا يتغير . . . »

نم يقول :

« وهذا القول يُسقط قول من يقول : إذا كانت اللغة ثابتة بالمواضعة ، فجوزوا أن تقع المواضعة من قوم على ما يزيد عليها فى الفصاحة حتى يُعرف المقدار ، أو يماثل . . . وإذا صح ذلك فمن أين أنه معجز ؟ لأننا قد بينا أنه لا معتبر بتغير المواضعات ، وإنما المعتبر بمواقع الكلام ، وكيفية إirاده . »

يريد « عبد الجبار » أن يقول : إنه لا إعجاز للقرآن ، ولا تفاضل بين الكلام ، إذا كان هناك إلى جانب الوضع اللغوى - مواضعة على الأداء والتعبير ، وطرق نظم الكلام - إذ المتكلمون حينئذ على طريق واحد ، قد رُسم لهم من قبل فساروا فيه ، وصار نطقهم بالكثير من الكلام أشبه بنطقهم بالكلمة الواحدة ، لا فضل لأحد على أحد فى مقام النطق بها . . . فكلمة : شجرة ، أو كتاب ،

(١) يشير إلى تلك الصفات التى تجرى على الكلمة المتواضعة عابها حين تقع مواقع مختلفة من النظم . . . باختيار أختها دونها ، أو باختيار الوظيفة التى تؤدىها فى النظم بأن تكون فاعلاً ، أو مفعولاً ، وحالاً ، أو تمييزاً ، أو مبتدأً أو خبراً لمبتدأ ونحو هذا . . . أو باختيار مكانها من النظم وحى قائمة على وظيفة المختارة لها . . .

أو جبل . . لا تتغير مفاهيمها بين فم وفم . . لأن الناس قد تواضعوا على قيمتها ، ودلالاتها ، فلا تخرج بحال عن هذا المفهوم الذى لها . . كذلك يكون الحال فى جملة الكلام إذا كانت المواضع قد شملته ، فأصبح لكل معنى القالب اللفظى الموضوع له ، بحيث لا يستطيع أحد الخروج عليه ، أو إدخال صنعة فيه ، بل ينقله من محفوظه اللغوى نقلاً ، كما يستدعى الحقائق العلمية التى أودعها ذاكرته ! ولو أن هذا الوضع جرى على الكلام فى أحوال نظمه ، وصور أدائه لما كان هناك مزية لإنسان على إنسان ، فى أداء صورة من صورته ، لأن كل إنسان إنما يستدعى صورة محددة متفقاً عليها بالمواضع من قبل . . !

الجانب الذاتى فى الانسان وأثره فى النظم

ويكشف « عبد الجبار » هنا عن الأثر الذاتى للإنسان فى نظم الكلام ، لأداء المعنى الذى يقع فى نفسه . .

فالإنسان إذ يقع لنفسه خاطر من الخواطر ، أو معنى من المعانى يستدعى له من الكلام ما يناسبه ، ويخرجه من عالم اللاحسوس إلى عالم الحس مصوراً فى كلمات . . وهنا تخرج المعانى مختلفة الصور والألوان باختلاف الناس فى إدراكهم للمعنى ، وتفاعلمهم به ، وقدرتهم على التقاطه وتصويره وعرضه فى معرض من الكلمات الملفوظة أو المكتوبة !

يقول « عبد الجبار » :

« قد علمنا أن مع حضور الكلام قد يختلف الاختيار فى المتخير ، بحسب التجربة والعادة .

« فلا بد مع العلم بالكلمات — وذلك فى حدود الوضع اللغوى — من أن تتقدم للمتكلم هذه الطريقة فى نفسه ، وفى غيره ، ليعرف مواقع حمل الكلام

إذا تألفت ، فيفصل بين ما يأتلف من كلمات مخصوصة ، وبين ما يأتلف من غيرها ، ويعرف الطرائق في هذا الباب .

ثم يقول :

« ولا بد مع ذلك من محاضرة ما يعلمه . . »

« لأنه قد يجوز أن يتساوى الرجلان في المعرفة وأحدهما أقوى محاضرة من الآخر ، وإن كان الذي يقصر عنه مثله في العلم ، أو أزيد ، لكنه يحتاج - فيما نعلم - إلى تثبيت وفكرة .

فلا بد - مع الوجه الذي ذكرناه - إلى قوة المحاضرة ، ولهذا الوجه يتفاضل العلماء بذلك ، فيصح من بعضهم من الخطب والشعر ما لا يصح من غيره ، وإن كان في العلم ربما ماثل أو زاد .

ثم يقول أيضاً :

« ولا بد مع كل ما ذكرناه من تأييد وإطاف يرد من قبل الله تعالى ، ولذا نحمد المتكلم بروم طريقة في الفصاحة ، فتقرب عليه مرة ، وتبعد أخرى ، وحاله في العلم لا تكاد تختلف !

« وإنما كان كذلك لأن لطائف هذه الأمور تحصل بغالب الظن ، وإن كان ظاهرها يحصل بالعلم . . »

« لأن الله تعالى لم يقرر في العقول العلوم الضرورية بهذه اللطائف ، وإنما قرر فيها العلوم بالجلل ابتداء ، أو عند الممارسة » .

ونقف من كلام « عبد الجبار » هنا عند قوله : « لأنه قد يجوز أن يتساوى الرجلان في المعرفة وأحدهما أقوى محاضرة من الآخر » .

فالحاضرة التي يعينها « عبد الجبار » هي حضور المعنى في النفس، وانفعالها به،
« وفحصها له فحماً يفصل بين الرغبة والصریح منه .

ولا شك أن الناس يختلفون اختلافاً كبيراً في هذا ، بحيث يكاد لا يلتقي
إنسان مع إنسان في درجة الإحساس بالمعنى ، والانفعال به .

ونقف أيضاً عند قوله : « لأن الله تعالى لم يقرر في العقول العلوم الضرورية
بهذا اللطائف . . » .

فهو في هذا القول يكشف عن حقيقة الفن القولي ، وحقيقة الفنون . .
الجميلة كلها .

فالفن القولي ، والفنون الجميلة كلها ليست مما يكتسب بالتحصيل
وحسب ، وإنما يقوم إلى جانب التحصيل والمعرفة الجهد الإنساني الذاتي ، الذي
يفيض عليها فيضاً من وجدانه وينفخ فيها نفخة من روحه .

فإذا كان العلم والمعرفة يقيمان الصور والأشكال في محاريب الفنون ، فإن
هذه الصور وتلك الأشكال ستظل صوراً خامدة جامدة ميتة إذا هي لم تحمل من
نفس خالقها ومصوّرها بعضاً من وجداناته وعواطفه ، وإن هي لم تتلق من روحه
نفخة من نفحات الحياة ، تحيا بها زمناً ، أو تخلد بها على الزمن !

المعجزة القرآنية امتداد لما انتهى إليه جهر العرب من البراعة :

وبعد أن انتهى « عبد الجبار » من تقرير هذه الحقيقة ، وهي أن نظم الكلام
يقع فيه التفاوت بحسب علم الناس بمواضع اللغة ، ثم بما في نفوسهم من
استعدادات ذاتية موهوبة غير مكتسبة - بعد أن انتهى من هذا وصل إلى نتيجة
كان يمهدها هذا التمهيد الطويل ، وهي أن النظم القرآني قد جاء على هذا الاتجاه

الذى يتفاضل فيه الكلام ، ويتقدم بعضه على بعض . . ثم حيث انتهت غايات البيان العربى ، وحيث لم يكن للبلغاء والفصحاء مذهب وراء هذا — أخذ القرآن الكريم راية البيان وسار بها أشواطاً بعيدة .. وأرباب البلاغة والبيان واقفون مشدوهين مأخوذين ، كأنما أمسكت الأرض بهم ، لا يتحركون قيد أنملة ، يدخلون بها على هذا الحمى ، الذى لا تقوم بينهم وبينه حواجز أو حوائل !

يقول « عبد الجبار » بعد أن ذكر معجزات موسى وعيسى ، وأنها جاءت على سمّت أفوامهم ، وفى اتجاه منازعهم التى كانوا يتجهون إليها — يقول — :

« وعلى هذا الوجه أجرى الله تعالى عادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أن خصّه بالقرآن ، الذى هو مشاكل لصناعتهم وطريقتهم ، غير خارج عن الأمر الذى يشتد به اهتمامهم ، ويقوى له افتخارهم ، وتظهر فضائلهم ومحاسنهم ، لى تقل الشبهة للعارف المقدّم ، فيعرف أضرار المباينة ، والألتباع ، فيعرفون بعجز الرؤساء منهم ، مع توافر الدواعى ، مثل ما يعرفه ذوو البصيرة منهم ، وتقوى دواعيهم إلى النظر حالاً بعد حال ، من حيث لا يغيب عن الأسماع على طول الدهر ، ولدخوله فى جملة الباب الذى يقع منهم فيه التنافس .. ولأن وجه الإعجاز فيه لا يتغير على الأيام ، كما أن شريعته لا تزول على الأوقات . »

هل يصح التخرى بالكلام وفصاحته ؟

ويعقد « عبد الجبار » فصلاً طويلاً يحاول أن يجيب فيه على هذا السؤال : هل يصلح الكلام أن يكون مادة للتحدى ؟ وإذا صلح فهل يتسع هذا التحدى لقيام معجزة ؟

وكأن « عبد الجبار » يريد بهذا أن يكشف شبهة ربما قامت فى بعض العقول .

وهي « الإيجاز بالكلمة » .. إذ ما عرف من المعجزات قبل القرآن كان يقوم على أشياء مادية محسوسة ، تتحدى قوى الناس جميعها ، فتبهرهم بأفاعيلها ، وتجرحهم بأنارها وأعاجيبها .. أما أن يكون الكلام مادة للتحدى فذلك ما لم يعهده الناس قبل القرآن ، ولم يتصوروا وقوعه في الحياة يوماً من الأيام .

يقول « عبد الجبار » : « إن الكلام الفصيح مراتب ونهايات ، وإن جملة الكلمات ، وإن كانت محصورة — فتأليفها يقع على طرائق مختلفة من الوجوه .. فتختلف لذلك مراتبه في الفصاحة ، فيجب ألا يمتنع أن يقع فيه التفاضل ، وتبين بعض مراتبه من بعض ، ويزيد عليه قدراً يسيراً أو كبيراً ..

» وما هذا حاله ، فالتحدى صحيح فيه .. لأن فيه مقادير معتادة تصح فيها زيادات في الرتب غير معتادة ، وصار ذلك في بابيه بمنزلة مقادير معتادة ، تصح فيها زيادات في مراتب غير معتادة ..

« فكما صح فيما حلّ هذا المحلّ التحدى به ، فكذلك القول فيما ذكرناه في الكلام .. » (١)

يريد « عبد الجبار » أن يقول : يقول : إن الكلام الفصيح مراتب ، يعلو بعضها بعضاً ، أشبه بالمقادير المحسوسة يزيد بعضها في جنسه على بعض ، وهي بهذا صالحة لأن يتحدى بها ، وذلك كأن يكون المعتاد أن يحمل الناس ماورنه قنطاراً أو قنطارين ثم يحىء لإنسان بمعجزة من عند الله يستطيع أن يحمل بها جبلاً مثلاً .. فهذه معجزة لا شك فيها .. وكذلك الكلام ومرتبه .. فإن الدجال الإنساني مدى يتحرك فيه بيانه ، وتجري فيه بلاغته .. وإذا كان الكلام في هذا المجال

درجات ومنازل ، فإنه من الممكن أن تكون هناك منزلة لا تنالها قدرة الناس بحال أبداً .

وفي هذا يقول عبد الجبار أيضاً :

« إن الفصاحة في الكلام معقولة ، وأنها تتفاضل ، ويكون لها رتب ، ولا تمتنع الزيادة فيها — أى في هذه الرتب — وأن يكون ذلك الزائد خارجاً عن طرق العادة ، كالأفعال العظيمة » (١)

ثم يقول :

« يبين من ذلك أن أحدنا قد يفعل بعض الأفعال بآلة ، ويصير وقوعه بلا آلة خارجاً عن العادة ، وقد رُ الفعل لا يختلف ، ولهذا صار فلق البحر معجزاً ، لأنه تفريق بلا آلة ، ومثله لا يقع منا إلا بآلة

فالمهم في المعجزة هي أن تفارق المعتاد من أفعال الناس ، وأن تتجاوزه ، وإن كان من جنس ما تعمل قدراتهم فيه »

هل يعتبر الأسلوب الذي جاء عليه نظم القرآن ومبها من وجوه إعجازه؟

وهنا يورد « عبد الجبار » رأياً من الآراء التي قيلت في الإعجاز ، ثم يفند هذا الرأي ، ولا يرتضيه وجهاً من وجوه الإعجاز .. يقول :

« فإن قال — قائل — : هلاً صح التحدى بالقرآن من حيث اختصّ بنظم لم تجر العادة بمثله ، لأن الذي كان يعتاده القوم ، الشعر ، وما يجري مجراه .. والخطب ، وما شاكلها من الكلام المنثور ، فجاءهم بطريقة في البيان خارجة عما اعتادوه ؟

قيل له : إنما الغرض أن نبين وجهاً يصح التحدى عليه بالقرآن ، والتقريع ، بالعجز عنه . .

« والذي قدمناه قد صحح^(١) ، فإن ثبت ما ذكرته لم يؤثر فيما ذكرناه ، بل يؤكد ، لأنه يزيد في الوجه الذي يصح عليه التحدى ، وكلما كانت وجوه صحته أكثر ، فهو أبين فيما أردناه .. لسكننا نعلم بأن الأمر بخلاف ما ذكرته ..

ولأن من سبق إلى الشعر أولاً ، لا يجب أن يكون الذى أتى به داخلاً في الإعجاز ، وإن كان قد اختصّ بنظم غير معتاد .. لما كان المتعالم^(٢) من حال الغير أنه يساويه في ذلك ، فلم يكن بالسبق اعتبار دون أن ينضاف إليه ما ذكرناه ، من تعذر مثله على غيره ، وخروجه عن المعتاد .

ولو كان سبق إلى الشعر من باب الإعجاز لكان كل وزن منه ، وكل بحر يقتضى الإعجاز ، ولصح ادعاء الإعجاز في كل زمان بابتداع وزن مخالف لما جرت به العادة . .

« فإذا بطل ذلك .. من حيث لا فرق بين المعتاد من الأمور وبين ما يتمكن الناس من فعله على حدّ العادة ، لأن كلا الوجهين سواء ، في أن التساوى والاشتراك فيه يمكن .

وإنما يدلّ على النبوة ما يخرج عن طريق العادة في الوقوع والتمكن . . فكيف يصح اعتبار سبق في هذا الباب ؟ ،^(٣)

ثم يقول :

(١) يشير إلى ما سبق أن قرره من أن إعجاز القرآن كان يتجاوز الحدود الإنسانية في البيان .

(٢) أى المعلوم والمعلوم المعبود .

(٣) المقي ص ٢١٧ .

« وليس لأحد أن يقول : إذا كان السبق إلى الشيء مما لم يتقدم وقوعه مثله ، فيجب أن يكون معجزاً ، لأن المعتبر هو بما يخرج عن العادة ، ولا يمكن لأهل تلك العادة فيه المساواة والمشاركة !

« ولو أن ذلك كذلك لوجب في ابتداء العادات أن يكون من باب الإعجاز ، حتى لا ينقص حاله من حال انتقاض العادة . . وقد بينا فساد ذلك من قبل » .
والذى يريد أن يقرره « عبد الجبار » هنا هو أن السبق إلى الشيء والحجى به على غير مثال يعرفه الناس لا يعدّ معجزة ، ولا يدخل في باب الإعجاز ، لأنه وإن كان جديداً على الناس ، خارجاً على مألفهم ، إلا أنه واقع تحت قدرتهم ، وأنه لا يلبث طويلاً حتى يكون للناس مشاركة فيه ، بل وفي إكمال ما فيه من نقص ، وإقامه ما فيه من عوج . . وذلك شأن جميع « المخترعات » التي تولد في أول أمرها على يد إنسان من الناس ثم لا يزال الناس يتعهدونها بالتحوير والتبديل ، والزيادة والنقص . حتى يقيموها على الوجه السليم لها . . وكذلك الشأن في جميع النظريات العلمية والمذهبية . .

تجىء من إنسان كأنها شيء لم يعرفه الناس من قبل . . ثم إذا هي بعد قليل في ملك الناس ، يتداولونها بينهم كما يتداولون السلع . . بيعاً وشراء .

هل يعتبر الأخبار بالغيوب ومهرها من دجوه الإعجاز ؟

ولا يرتضى « عبد الجبار » هذا الوجه أيضاً من وجوه الإعجاز ، ولا يعتدّ به في هذا الشأن . .

وحجته في هذا ، أن القرآن قد تحدى العرب أن يأتوا بأية سورة من مثله ، من غير تخصيص ، وليس الإخبار بالغيوب واقعاً في كل سورة ، ولأن القرآن تحدى بجماعته ، لا ببعضه ، فكيف يصرف التحدى إلى ما يتضمن ذلك ، دون ما يتضمن الحلال والحرام ؟

ثم يقول : « ولأنه صلى الله عليه وسلم تحدّى بذلك على الطرائق المقبولة عندهم ، وفي عاداتهم ، وإنما اعتادوا التحدى في الكلام على الوجه الذى ذكرناه ^(١) » وهذا الوجه الذى يردّه « عبد الجبار » ولا يراه من إعجاز القرآن ، هو في رأينا وجه بارز من وجوه الإعجاز ، وإن لم يكن منظوراً إليه في وقت التحدى ، لأن القرآن ليس معجزة موقوتة بالفترة التي نزل فيها ، ولا محصورة في القوم الذين دُعوا إلى هذا التحدى . . وإنما القرآن معجزة قائمة على الزمن كله ، وعلى الناس جميعاً في أجيالهم المتعاقبة .

وعلى هذا فليست روعة النظم وفصاحته ، ودقة المعنى وصحته ، هي كل ما في المعجزة القرآنية ، وإن كان هذا القدر منها كافياً في التحدى لأصحاب البلاغة والبيان ، معجزاً لهم عن أن يجروا معه في هذا الميدان . . ولكن ليس كل الناس أو كل من يعرف العربية يكون على قدر من الفصاحة والبلاغة يدرك بها ما في فصاحة القرآن وبلاغته من أسرار مذهلة معجزة . . فإذا فاتته التعرف على هذا الوجه من إعجاز القرآن وجد وجوهاً أخرى معجزة ، تشير إلى الجهة التي نزل منها هذا الكتاب الكريم ، ونحدث عن صدق الرسول ، وتشهد له أنه رسول رب العالمين . فليس الإعجاز وجهاً واحداً كما تصوّره كثير من طلبوا مظانّ الإعجاز في القرآن ، وإنما هو وجوه كثيرة ، تنكشف كلها أو بعضها للناظر في كتاب الله ، وكل وجه منها معجز قاهر ، لا ينال !

ما وجه الإعجاز في القرآن ؟

ونسأل بعد هذا . . ما الوجه الذى يراه « عبد الجبار » معجزاً في القرآن ؟ إن « عبد الجبار » كما قلنا من قبل — قد جعل إعجاز القرآن في جزالة لفظه

(١) المعنى ص ٢٢٠

وحسن معناه على وجه لم تبلغه بلاغة البغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ولم يعتمد من وجوه الإعجاز ما ذكره العلماء من الإخبار عن الغيوب ، أو الانفراد بهذا الأسلوب من النظم الذى جاء عليه ، أو ما كان عليه من الاستواء والسلامة من الاختلاف والتناقض . . فكل هذه — عند عبد الجبار — ليست مناط التحدى بالقرآن ، وإن كان لها شأن فى تثبيت دعائم الإعجاز وترسيخه فى النفوس !

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن « عبد الجبار » لم يحنىء فى نظراته إلى إعجاز القرآن بشيء يخالف به رأى الجماعة الإسلامية ، وقد كان المنظور إليه من « عبد الجبار » أن يقول فى هذا المقام قولاً تفيض منابه من رأيه فى الكلام القرآنى ، وأنه مخلوق . . كما يقول بذلك أصحابه من المعتزلة .

كما نتوقع أن يكون « لعبد الجبار » منزع جديد فى إعجاز القرآن باعتبار القرآن — فى رأيه — كلاماً محدثاً ، وليس بكلام الله القديم .

ولكن « عبد الجبار » قد عزل عن نفسه هنا هذا المذهب الكلامى فى القرآن : هل هو حادث أم قديم ؟ فنظر إلى القرآن باعتباره نظاماً من الكلام ، ونهجاً من مناهج القول دون أن يجعل فى حسابه أنه كلام الله ، أو كلام بشر ، ثم وزن هذا الكلام بموازين البلاغة والبيان العربى ، فوجده يرجح كل كلام عرفته العرب ، ويعلو على كل بيان أخرجه فى نظمها ونثرها . . فكان القرآن بهذا الحساب فى مقام تقصر عنه قوى البشر جميعاً ، وكان بذلك معجزة ، ومعجزاً .

عبد القاهر الجرجاني

رأيه في الإعجاز

ينفرد « عبد القاهر الجرجاني »^(١) بين علماء البيان بأنه ذو منهج يغلب عليه « الذوق » ، وتستأثر به فيه سلامة الفطرة ، ونقاء الطمع . . فلم تستبد به الصنعة ، ولم تستنفد جهده ، ولم تقتل ذوقه تلك الأساليب الفلسفية ، والمذاهب الكلامية ، التي عرفت في عصره ، وجرى عليها العلماء عند النظر في كل أمر ، وفي مواجهة كل موقف ، حتى ولو لم تكن داعية الحال تدعو إلى تلك الأساليب من قريب أو بعيد ! لقد أفسد الجدل المنطقي ، والمذهب الكلامي الفاسق ، المقاييس البلاغية للبيان العربي منذ عصر « عبد القاهر » والعصور التي جاءت بعده ، فلم يكن للذوق ، ولا للطبع مكان في وزن الكلام ، وفي المفاضلة بين الجيد والردى منه . .

ويسكاد عبد القاهر يكون واحداً من آحاد العلماء الذين سلم لهم طبعهم ، وبقيت معهم فطرتهم السليمة النقية إلى حد بعيد ، في تلك الفترة التي فسد أو كاد يفسد فيها ، الذوق الأدبي .

لهذا ، فقد كان لابد من أن نلتقي بعبد القاهر ، ونستمع إليه ، ونتلقى عنه ما عنده من رأى في البيان العربي ، وفي مقاييس فصاحته وبلاغته ! إذ كان لرأيه هنا قدره في مجال النظر في « الإعجاز القرآني » ، وفي تذوق بلاغته ، وإدراك منزلته .

إن « عبد القاهر » لم يلتق « بالإعجاز » التقيماً مباشراً ، وإن كان قد طوّف

(١) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، وقد توفي سنة ٤٧١ هـ . ولا يعلم مولده على التحديد .

به ، ودار حوله ، وكأنه بهذا كان يمهّد لوقفه خاصة مع « الإعجاز » يريد بعدها أن يلقاه لقاءً مواجهاً ، ويفرده بالكتابة والتأليف .

لقد كتب عبد القاهر كتابين هما :

« أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » .

ويُعَدُّ كتابه الأول — في تقديرنا — مقدمة وتمهيداً لكتابه الثانى .. ذلك أنه فى كتاب « أسرار البلاغة » كان يحاول أن يكشف وجوه الحسن فى الكلام ، ويدل على مواقع الحسن منها ، ويحدد المطالع التى جاءت من جهتها ..

أما فى كتابه « دلائل الإعجاز » فقد نما هذا النحو أيضاً ، ولكنه كان ينظر بعين إلى البيان العربى ، وبعين أخرى إلى الإعجاز القرآنى ، فى حين أنه كان فى كتابه « أسرار البلاغة » ينظر إلى البيان العربى بعينه جميعاً !!

وكان على « عبد القاهر » بعد هذا أن ينظر بعينه ممّا إلى « الإعجاز القرآنى » .

ونسكاد نجزم بأنه قد كان على هذا العزم وهو يكتب كتابيه السابقين .. فها هما إلا تمهيد ومدخل للإعجاز ، وما كتبهما — فيما نرى — إلا ليفتح لنفسه الطريق إلى القرآن الكريم وإعجازه .. نقول هذا وبين يدينا دليل يكشف عن نية « عبد القاهر » هذه .. فلقد بدأ « عبد القاهر » يضع قدمه على أول الطريق الذى مهّده هذا التمهيد الطويل بكتابه : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، فكتب رسالة سماها : « الشافية » — التى نظن أنها آخر ما كتب — وقد جعل هذه الرسالة لتقرير حقيقة « الإعجاز » وقيام الدلائل على وقوعه .. ولم يحاول أن يكشف فيها عن وجوه الإعجاز .. الأمر الذى يدعونا إلى أن نفترض بأنه كان يريد أن يفرغ أولاً من قضية الإعجاز فى ذاته ، وأن يقيم الحجة لها ، فإذا تقرر ذلك نظر فى وجوه الإعجاز وكشف عنها .. وكان ذلك — فيما نرى — هو أمل

« عبد القاهر » الذى رصد له جهده كله ، وأعد له هذه العُدَّة . من تلك الدراسات الطويلة المضمينة للمتعة ، وهذه النظرات العميقة المتأمله فى مطالع البيان ، وفى مغاىي البلاغة ومجانبيها . . . وذلك فى كتابيه المذكورين ! .

ولو تحقق لعبد القاهر هذا الأمل ، وأجرى قلمه فى هذا الميدان لكان لنا من ذلك زاد طيب ، يعيننا على النظر فى كتاب الله ، وفى استجلاء الكثير من عجائبه وأسراره .

ولسكن يبدو أن الأجل قد حال دون الأمل ، فلم يُقدَّر « لعبد القاهر » أن يصل إلى غايته تلك التى قطع عمره فى الإعداد لها ، والنشوف إليها . هذا ، وبين أيدينا الآن لعبد القاهر ثلاث مؤلفات تحسب جميعها من مباحث الإعجاز . . . وهى :

أسرار البلاغة . . دلائل الإعجاز . . الرسالة الشافية . . وهى كما عرفناها من قبل حلقات فى سلسلة . . يكمل بعضها بعضاً .

فأسرار البلاغة مقدمة لدلائل الإعجاز ، ودلائل الإعجاز مقدمة للرسالة الشافية . . والرسالة الشافية مقدمة لكتاب فى الإعجاز ، كان فى عزم المؤلف أن يفرغ له ، ويتوفر عليه . . ولكن حالت دون ذلك منيته ، أو شيخوخته ! وواضح من هذا — حسب هذا التصوّر — أن أقرب هذه الكتب الثلاثة إلى موضوعنا الذى نريد الوقوف مع عبد القاهر من أجله هو : « الرسالة الشافية » .

وعلى هذا يمكن أن يكون وقوفنا مع عبد القاهر مقصوراً على هذه الرسالة . . وبذلك لا ننظر إلى كتابيه الآخرين . .

ولسكن ذلك يفوّت علينا خيراً كثيراً مما نحرص عليه فى هذا المقام . . . ففى

كتابتى عبد القاهر - دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة - نظرات بكر فى وجود البيان ، وفى استجلاء مطالع الحسن فيها ، ومواقع الروعة منها .

لهذا ، فإننا لن ندع هذا الخير يغلت كله من بين أيدينا ، وإن لم يكن من المستطاع فى هذا المقام أن نلتقى بالكتابين معاً ، فلا أقل من أن نلتقى بأحدهما . . . ويمكن « دلائل الإعجاز » . . فهو واسطة بين أسرار البلاغة ، والرسالة الشافية . . . وإذن فسنتلقى مع عبد القاهر فى كتابيه : دلائل الإعجاز ، والرسالة الشافية . .

ولكن بأى الكتابين نبدأ ؟

أظن أنه من الأفضل أن نتبع حكم الزمن ، ونسير سيره . . فتكون صحبتنا لعبد القاهر . . صحبة لقطعة من حياته . . نستقبل فيها الأيام معه ، ولا نستدبرها . . ! وعلى هذا فإننا سنلتقى مع « عبد القاهر » أولاً فى كتابه « دلائل الإعجاز » ، ثم نلتقى به بعد ذلك فى « الرسالة الشافية » . . . ثانياً .

أولاً : دلائل الإعجاز

أول الطريق :

يدخل عبد القاهر الجرجاني إلى مبحث الإعجاز مدخلاً بليغاً بأن يتحدث : أولاً عن نظام الكلام وخضوع هذا النظم لقواعد مقررة ، اقتضاها وضع اللغة ، وجرى عليها المتعاملون بها ، على حسب ما تواضعوا عليه وتعارفوا . . مثل وجود المسند والمسند إليه ، كى تتم الجملة ويصبح الكلام مفيداً ، ومثل تقدم الفعل على الفاعل ، وسبق حرف الجر للمجرور . . وهكذا مما يعرفه ويتزمه أصحاب الامة والمتعاملون بها . .

وإذ يقرر الجرجاني هذه الحقيقة من أمر اللغة . . يعقب على ذلك متسائلاً :

« إذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت الأمور
وهذه الوجوه من التعلق ^(١) التي هي محمول النظم — موجودة على حقائقها ،
وعلى الصحة ، وكما ينبغي في منشور كلام العرب ومنظومه ، ورأيانهم قد استعملوها ،
وتصرفوا فيها ، وكلوا بمعرفتها ، وكانت حقائق لا تتبدل ، ولا يختلف بها
الحال . إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ ، أو صفة لموصوف ، أو حالاً
لذي حال ، أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل — في كلام ، حقيقة ، هي خلاف حقيقة
في كلام آخر .

« فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من
الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى قهر من البلاغ والفصحاء القوي والقدّر ،
وقيد الخواطر والفكر ، حتى خرس الشقاشق ، وعدم نطق الناطق ، وحتى لم
يجر ^(٢) لسان ، ولم يبين بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولم ينقذ لأحد منهم زند ،
ولم يمض له حد ، وحتى أسال عليهم الوادي عجزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم
أخذاً ؟ » .

هذه هي القضية كما يتصورها ويصورها الجرجاني . .

فاللغة — أي لغة — لها قواعد وأصول جرى عليها أصحابها ، وتواضعوا على
الأخذ بها ، حتى يمكن أن يقع التفاهم بينهم . . إذ أنه بغير هذه القواعد وبغير التزامها
لا يمكن أن يحدث التفاهم بين أهل اللسان . . ذلك أنهم إنما يتفاهمون بما سبق لهم

(١) أي تعلق الألفاظ بعضها ببعض ، واستدعاء بعضها لبعضاً لتتعلق على هذا الوجه
التواضع عليه بين أهل اللغة .

(٢) يجر : أي يتحرك . . من خارج إذا دار المرء حول نفسه متجيراً ، وهي في الأصل
« يجر » وقد صححناها على هذا الوضع .

الاتفاق عليه من ألفاظ وتراكيب، اكل لفظ مدلوله، ولكل تركيب وضعه الذى تقرر له بين أهل اللسان، وأصحاب اللغة .

« ولأن واحداً من أبناء هذا اللسان جاء بكلمات غريبة لم يتواضع عليها قوموه، أو جاء بتركيب جديد لم تقرر قواعده، لما كان لهذا الجديد — سواء فى الألفاظ المفردة أو فى التراكيب — مفهوم عندهم، ولما استمعوا له، ولا وضعوا كلامه فى مجال معاملاتهم . . . فإما أن يسقطوه جملة، دون أن يحسبوا له حساباً، وإما أن يعترضوا عليه، ناقدين ومخطئين » .^(١)

والشواهد على ذلك كثيرة؛ نجدتها حيث وجد الشعر العربى، وحيث استمع إليه الناس وعقلوه . .

وما يروى فى هذا أن « المتلمس » الشاعر الجاهلى أنشد قصيدة جاء فيها قوله:

وقد أتانى الهم عند احتضاره بناج عليه الصعيرية مُكْدَم^(٢)

وكان طرفه بن العبد — وهو أحد أصحاب المعلقات — يسمع إنشاد الشاعر، وكان حدثاً صلياً . . فقال: « استنوق الجمل ! » — أى صار ناقه، بهذا الوصف الذى وصفه به المتلمس، والذى هو من علامات النوق لا الجمال، وذلك فى قوله: « عليه الصعيرية » وهى علامة تكون فى عنق الناقة .

وقد ضحك الذين شهدوا هذا الموقف، وشهدوا لطفه بدقة الملاحظة، ووقدة البديهة، بل إن المتلمس نفسه شهد له بذلك حين رأى سلاطة لسانه وثبتت جناحه، مع صغر سنه فقال: ويل لرأسك من لسانك! . .

(١) دلائل الإعجاز . . « المدخل ص ٥ وما بعدها »

(٢) احتضاره: أى حضوره، والناجى السريع، لأنه ينجوبه صاحبه من مطاردة العدو والصعيرية: علامة تكون فى عنق الناقة ولا تكون فى البعير، والمكدم: الموسوم بالكى . وينسب هذا البيت أيضاً للمسيب بن علس .

فأى خروج على الأسلوب الذى جرى عليه اللسان العربى كان يخذش أذن العربى فينفّر منه ، ويأبى الإصغاء إليه حتى يستقيم على ما ألف واعتاد .

فاللغة أولاً وقبل كل شىء تعامل بين الناس ، ولا يتم التعامل إلا عن تفاهم ، واتفاق على الألفاظ التى يتعاملون بها ، وعلى الأسلوب الذى تجرى عليه المعاملة بهذه الألفاظ . . وذلك أشبه ما يكون بالنقد الذى يتعامل به الناس ويتبادلون به المنافع الدائرة بينهم . . فلكل أمة نقدها ، كما أن لكل أمة لسانها ولغتها . . ولكل أمة سمات خاصة للنقد الذى تتعامل به ، كما أن لها ألفاظها التى تجرى على لسانها . . وإن أى صورة من صور النقد تدخل على الأمة غير نقدها الذى بين يديها والذى تعارفت عليه ، يعتبر نقداً زائفاً لا يتعاملون به أبداً ، كذلك كل لفظة لم تتواضع عليها الأمة سلفاً ، ولم تتفق على تداولها على لسانها تكون لفظة زائفة ، لا يقبل الناس التعامل بها . . مفردة أو مركبة . .

فإذا كان هذا هو شأن اللغة . . فإن هذا يقضى بأن يكون الناس فى تعاملهم باللغة على درجة سواء ! أى أنه لا يكون هناك تفاضل فى الكلمات التى تجرى على ألسنتهم ؛ لأنها كلمات قد تحدت دلالاتها . بما قوّمت به عند وضعها . . فكلمة «رجل» فى اللغة العربية مثلاً تعنى أى إنسان ذكراً من الناس ، بلغ مرحلة الرجولة ، وتخطى دور الصبا . . وكذلك جميع الكلمات من أسماء وأفعال وحروف . قد حمل كل لفظ منها القيمة التى له ، والى يتعامل بها الناس على هذا الوضع المحدد الذى لا يختلف بين إنسان وإنسان . .

فكما أن قطع «النقد» تحمل كل قطعة منها قيمة محددة . . لا تختلف قيمتها بانتقالها من يد إلى يد . . كذلك كلمات اللغة التى تجرى على لسان أمة من الأمم . . كل كلمة منها ذات دلالة محددة . . لا تختلف دلالاتها بانتقالها من فم إلى

فهم ! سواء في حال أفرادها أو تركيبها .. تماماً كما لا تختلف قيمة القطعة من النقد إذا جرى بها التعامل وحدها أو مع غيرها من القطع المشابهة لها أو المختلفة عنها في قيمتها ، زيادة أو نقصاً !

وطبيعي أن يُسلمنا هذا التصوّر لمفهوم اللغة ، إلى القول بأن لا وجه لتفضيل كلام على كلام ، ولا قول على قول .. كما أنه يسلمنا كذلك إلى القول بأن القرآن وهو كلام سبق التواضع عليه في اللسان العربي — ليس له فضل على غيره من الكلام ، وأن إعجازه الذي عُرف له ليس له في ذاته ، وإنما لشأن خارج عنه ، بعيد عن ألفاظه ، ومدلولاته .. في أفرادها وتركيبها !

وهذا هو الذي وقف عنده عبد القاهر ، وتصدى لتفنيده والردّ على ما فيه من مغالطات .. والذي من أجله ألف كتابيه « دلائل الإعجاز » و « وأسرار البلاغة »

ونستأذن « عبد القاهر » في أن نسبّقه إلى الرد على هذا الرأي ، أو هذا التصوّر الذي لا نظن أن كثيراً من الناس يقع لتفكيرهم هذا المفهوم لغة على ذلك الوجه !

إنها كلمة نريد أن نقولها إذ وقعت في خاطرنا قبل أن تذوب خجلاً إذا طاعت عليها كلمات « عبد القاهر » .. وعندئذ نبحت عنها فلا نجد لها .

والذي نريد أن نقوله ، هو أن اللغة — وإن كانت وليدة إرادة المجتمع ، وبنت التعاقد الذي تم بين أفرادها على قبول الكلمات وتداولها — ليست مجرد أدوات تتداولها الألسنة كما تتداول الأيدي قطع النقود .. إذ اللغة قبل كل شيء تجسيد لأفكار الناس ، وتصوير لعواطفهم ، ووجداناتهم ، وأن الكلمة حين تتحرك على اللسان ، أو تقع على الأذن تنبعث منها تلك الأفكار ، وهذه المشاعر

والوجدانات ، التي تضمهرها في كيائها . . وهنا تتفاوت منازل الناس ، وتختلف أقدارهم في استخدام اللغة ، وفي استئثار ما يمكن فيها من دلالات عقلية أو عاطفية . . فليس كل إنسان قادراً على أن يحتلب كل ما تحمل الكلمة في كيائها من مدلولات ، وليس كل إنسان قادراً على أن يدير الكلمة على الوجه الذي تمكنه فيه من نفسها ، وتعطيه أحسن ما عندها . .

فليست اللغة إذن قطعاً من « النقود » . . لا تختلف قيمتها من يد إلى يد . . وإنما هي — كما قلنا — أفكار ومشاعر وعواطف ، لا تكون على حال واحدة أبداً . . بل تبدو في صور وأحوال شتى . . فتضيق وتوسع ، وتظهر أو تضرع حسب الوضع الذي يريد المرء أن تكون فيه ! بل وبحسب ما في كيانه من قوى روحية ونفسية وعقلية .

فالكلمة في فم إنسان غيرها في فم إنسان آخر . .

الكلمة تسمعها من رجل جاد فتقع من نفسك موقعاً ، وتسمع الكلمة نفسها من آخر هازل فتقع من نفسك موقعاً بعيداً عن موقعها الأول . . بُعد ما بين الرجلين وما بين الحالين . وتسمع الكلمة من إنسان له قدره ووزنه في الناس وفي الحياة فيكون لها في عقلك حفاوة واحتفاء ، وفي وجدانك إثارة وتأثير . . وتسمعها من آخر ممن لا حساب له في الناس فتذهب مع الريح ، لا تسكاد تبلغ غاية سمعك حتى ترتد خاسئة مستخذية !

« الكلمة » وإن كان لها مدلول تواضع عليه أهل اللغة التي تنسب إليها هذه الكلمة ، إلا أن هذا المدلول ليست مصبوبة به في قالب جامد لا تخرج عنه ، بل هو بحيث يتسع إلى أبعد الحدود ، فيكون دائماً رحباً فسيحاً ، ويضيق إلى أقصى غاية الضيق . . فيكون مجرد « كلمة » ! مصورة من حروف ، يضرب بعضها بعضاً . .

انظر :

كلمة « الحرب » تخرج من فم رئيس دولة من الدول العظمى التى تملك فى يدها قوى التدمير والإهلاك فتهتز لها الدنيا ، ويتغير من أجلها وجه الحياة !
والكلمة نفسها إذا نطق بها حاكم دولة صغيرة مستضعفة سقطت تحت قدميه فلا تسمعها أذن ، ولا يعلق بها خاطر !

إن الجهة التى تصدر عنها « الكلمة » هى التى تعطى هذه الكلمة مدلولها ، فى صورة قوية أو ضعيفة ، ظاهرة أو باهتة ، وإن كانت لا تخرج بها عن المجال الوضعى لها ..

سمع النابغة الذبياني أن « النعمان بن المنذر » يتوعده بقوله : « سوف أناله » !
فكرب النابغة لذلك أشدَّ الكرب ، وضاعت مسالك الدنيا عليه . .
فبعث إلى « النعمان » يعتذر له ، ويستعطفه ، ويكشف له عن سوء حاله الذى أصاره إليه هذا الوعيد . . فيقول :

أتأتى - أبئت الأعن - أنك لمتنى وتلك التى تصطاك منها المسمع
مقالة أن قد قلت : « سوف أناله » وذلك من تلقاء مثلك ضالع
فبت كائن ساورتنى ضئيلة من الرقط فى أنيابها السم ناقع
فإنك كالليل الذى هو مُدركى وإن خلت أن المنتأى عن واسع

« سوف أناله » !!

هذه كلمة كانت من النعمان بن المنذر . . تسندها قوة ملك ، وتحدها جيوش زاحفة ! لا يجد النابغة سبيلا أن يقلت منها !
وهذه القولة ذاتها يقولها الفرزدق الشاعر ، مهدداً بها من يدعى « مرَبَعاً » :

فيتملأها الشاعر « جرير » فرصة يسخر فيها من الفرزدق ، ويهدر مدلول هذا التهديد ، إذ يقتله قبل أن يجاوز فم صاحبه « الفرزدق » حين يرميه بهذا البيت الساخر الفاضح الذي صار مثلاً مضروباً للهزاء والسخرية .

زعم الفرزدق أن سيقتل مَرَبَعًا أبشر بطول سلامة يا مَرَبَع !
وأكثر من هذا ..

الأشياء التي يتعامل بها الناس ، ويتداولونها فيما بينهم .. هي أشياء جامدة لا تحمل شيئاً من ذات أصحابها .. لا من أفكارهم ، ولا من عواطفهم ، ولا من شخصياتهم .. إنها في يد الناس جميعاً سواء ..

ومع هذا فإنها أحياناً ينظر إليها من الجهة التي جاءت أو تخرج منها !
مثلاً .. « قلم » وقعت به معاهدة صلح بين المتحاربين في الحرب العالمية الأولى أو الثانية .. هذا « القلم » ترتفع قيمته إلى الحد الذي يجاوز به القيمة التي لمجموع الأقلام التي من نوعه ، وإن بلغت الملايين عدداً !
والأمثال لهذا كثيرة لا تحصر ..

روى الجاحظ في كتابه « البخل » نادرة لها دلالتها في موضوعنا هذا .. وملخص هذه النادرة أن رجلاً من بغداد كان يعرض فاكهة في السوق ، وكانت من بواكير ثمره ، وقد سامه الناس فيها أثماناً مختلفة ، وهو يطلب المزيد حتى بذل له أحدهم مئة درهم في الثمرة الواحدة ، وهو يأبأها عليه إلا بمئة وعشرين درهماً !
ومر بالسوق في هذا الوقت رجل من وجهاء بغداد وسراتها ، فتلقاه صاحب الفاكهة محيياً له ، محتفياً به .. ثم جعل يعرض عليه فاكهته ، ويتودد إليه في أن يقبلها ، وأن يسمح له بأن يحملها إلى بيته ! والرجل يعرض ، ويظهر له زهده فيها .. ثم بعد لأي يسأله التاجر : « كم تطالب فيها ؟ » فيقول : « لقد أعطيت يا سيدي

فى الثمرة الواحدة مئة درهم . وأطلب المزيد ! فيجيبه الرجل : لا ، بل أعطيك ثمانين درهما ! ويقبل التاجر هذا الثمن فرحاً به ، ويحمل الفاكهة إلى بيت هذا الوجيه !!

ويدهش بعض من شهد هذه الواقعة .. ويقبل على التاجر يسأله : أجنون أنت ؟ يبذل لك الناس فى فاكهتك مئة درهم فى الثمرة فتأبى ، ثم تسخو بها لهذا الرجل ثمانين درهما ؟

فيقول التاجر فى فرحة غامرة : إنك لاتعرف شيئاً ! .. إن هذا الرجل يملك مئة ألف دينار !! » .

فإذا كان ذلك واقعاً فى الأشياء المنفصلة عن مشاعر الناس ، البعيدة عن مجال تفكيرهم ، فكيف بأمر يعيش فى كيان الإنسان ، وينطلق من مرا كز تفكيره ، وينفجر من طاقات وجدانه وعواطفه ؟

واللغة هى هذا الأمر الذى نعينه هنا ، فهى تعيش حقاً فى كيان الإنسان ، وتنطلق من عقله بدفعات من إرادته ، وتنفجر من طاقات وجدانه ، وخلجات شعوره !

وبهذا نستطيع أن نقرر أن اللغة تأخذ الشيء الكثير من الجهة التى تصدر عنها ، وتنطلق منها ! وأن الكلمة لاتخرج من فم صاحبها إلا ومعها أمارات منه ، ودلالات عنه ، ومشابه غير قليلة من شخصيته !

يقول القاضى الجرجاني فى كتاب : « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وذلك فى حديثه عن الشعر واختلاف منازل باختلاف أصحابه — يقول :

« وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتنبأين أحوالهم ، فيرقّ شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب

اختلاف الطباع ، وتركيب الخلق ! .. فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ،
ودماعة الكلام بقدر دماعة الخِلْقة ..

« وأنت ترى ذلك ظاهراً في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني
الجلف منهم كثر الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت
الفاظظة في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته » (١) .

ونحن في أدبنا العربي مثلاً .. نقرأ القصيدة من الشعر فنعرف بيتها التي جاءت
منها .. ونقول : هذا شعر جاهلي ، أو إسلامي ، أو أموي ، أو عباسي .. وهكذا ..
ونقول هذا شعر شامي ، أو عراقي ، أو مصري !

بل ونقول أيضاً .. هذا شعر فلان .. أو هو أشبه بشعر فلان ، وذلك دون
أن يكون لنا سابق علم بنسب هذه القصيدة إلى صاحبها ، أو عصرها .. وإنما
العلم الذي نعلمه هو طابع العصر ، وروح الشاعر .. وكذلك الشأن في النثر ..
نقول هذا أدب مقفعيّ وأسلوب جاحظي لما نجد في هذا الكلام من روح الكاتبين :
ابن المقفع ، والجاحظ .. وهكذا ..

ونقول مرة أخرى إن الجهة التي تصدر عنها الكلمة تترك في الكلمة أثراً
منها ، أياً كان هذا الأثر .. قوياً أو ضعيفاً .. ظاهراً أو باهتاً .. إن « بصمة »
صاحبها سارية في كيانها .

فإذا كانت تلك الجهة من القوة والشموخ بحيث تبين على الناس بفضل
في عقل ، أو خلق ، أو بيان ، كانت الكلمات الصادرة عنها محملة بدلالات كثيرة
منها ، تجعل لها فوق الكلام منزلة أشبه بمنزلة صاحبها ، بما اندس فيها من عقله
وخلقه ، وبيانه وفصاحته !

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٣

وبهذا انفرد القرآن بتلك المنزلة الرفيعة العالية من بين سائر الكلام ..
إذ كانت كتاباته منزلة من السماء .. من رب العالمين !
ففي كل كلمة من كتاباته قبسة من نور الحق ، ونفحة من نفحات القوة
والعزة .. وآية من آيات المجادة والحكمة ..

ولقد وصف الله سبحانه القرآن بصفاته جلّ شأنه .. فقال تعالى :
« يَس . . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » .. وقال سبحانه : « قَ وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ »
وقال : « إِنَّهُ تَقْرَآنَ كَرِيمٍ » .. فالحكمة والمجادة ، والكرم من صفات الحق
جلّ وعلا .. وقد جعلها الله سبحانه وتعالى من صفات كلامه أيضا .
كذلك أضاف الحق جلّ وعلا كلمات القرآن إلى ذاته سبحانه وتعالى في قوله :
« فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الَّذِي يُّؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ ..
وَاتَّبِعُوْهُ اَتَكْفِرُوْنَ » (١)

وفي قوله سبحانه : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى
يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » (٢)

وحسب القرآن أن يكون كلام الله ، مضافاً إلى ذاته، متصفاً ببعض صفاته !
ولكن لعل سائلا يسأل بعد هذا : المشكلة هي أن نتحقق من أنه كلام الله ،
فلو ثبت هذا لما كان هناك مكان لمجادلة أو بحث في إعجاز القرآن .. ولكن
التسليم بإعجازه مقررًا من قبل أن يُنظر فيه أو يُستمع إليه !

ونقول : إننا لم نقل لهذا المعارض ومن على شاكلته : إنها قضية مسأمة تلك
الدعوى التي ندعيها للقرآن بأنه كلام الله .. ولكنها دعوى ودليل .. دعوى
يمكن أن يقدم عليها دليلها .. ونقول كما يقول رجال القضاء :

« من حيث إن الكلام يشتمل من الصفات على كذا وكذا ، مما لا يكون

إلا الحق سبحانه وتعالى.. فإذا هن كلمات الله.. إذ كانت تلك الصفات لا تكون
في كلام بشر، ولا تجتمع له. ولك أن تقول: هذا كلام الله، لأنه يشتمل من
الصفات على كذا وكذا، مما هو من بعض صفات الله سبحانه! فتقدم الدعوى على
الدليل، ثم تجيء بالدليل، إن كانت الشمس في حاجة إلى دليل، فليس القول
بأن هذا القرآن كلام الله بالذي يقطع عليك طريق الاستدلال على حقيقة هذا القول،
بل إنه داعية، لأن تطلب له الدليل.. ولكن ليس من خارج هذا الكلام،
بل من ذاته هو، حيث تقوم له الشواهد والأدلة من بين يديه ومن خلفه! فأما
كيف تطلب الدليل، فذلك يحتاج إلى عقل يعقل الكلام، وقلب يعيه، ووجدان
يذوقه، ويفرق بين طعومه.

وأما في أي ناحية نلتمسه؟.. ففي هذا الشموخ والسمو.. وفي هذا الجلال
والجلال.. وفي هذه الروعة والسطوة.. وفي هذه الحكمة والعزة.. وفي كل ما يملأ
قلبك من صفات الحق، سبحانه، جلّ وعلا!

فإن أنت طلبت الدليل ووجدته واسترحت إليه فذاك، وإلا فلنا لقاء آخر،
ربما يكون حظك منه أوفر، وسعيتك معه أنجح! وذلك بعد أن نقف بك وقفات
مع رؤاد سبقونا إلى هذا المطلب، عسى أن نصيب مما عندهم خيراً، وأن نتعلم مما
علّموا رُشدنا.

ولقاؤنا الآن — إن كنت تذكر — هو مع عبد القاهر الجرجاني، الذي
استأذناه من قبل، وقطعنا حديثنا معه، لنقول هذه الخاطرة التي سنحت لنا في
معرض حديثه!

ماذا عند عبد القاهر من دلائل الإعجاز؟

هل التعرف على الإعجاز ممكن؟

يبدأ عبد القاهر بحثه في الإعجاز بإثارة هذا التساؤل، وهو: هل يمكن التعرف
على وجوه الإعجاز في القرآن؟

وداعية هذا السؤال ، هو أن بعض المتفلسفة يريد أن يقطع النظر عن البحث في إعجاز القرآن ، وطلب وجوه هذا الإعجاز ، وذلك بقولهم : إنه لا حاجة إلى طلب الوجوه التي بها أعجز القرآن العرب وأخفهم ، وحسبنا دليلاً على هذا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله بعد أن تحدّاهم ، وبعد تكرار التحدي ، وطول التفرع لهم بالعجز عنه ، ولأن الأمر كذلك قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب ، واستوى الناس قاطبة ، فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجاً بالقرآن ! وهذا أمر مجتمع عليه لا خلاف فيه ، أما وجوه الإعجاز فقد وقع فيها كثير من الخلاف ، وخير للقرآن أن ننأى به عن هذا الخلاف .

ويرد الجرجاني على من يذهب هذا المذهب ، بقوله :

« أخبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا عليه السلام بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر — أتعرف له معنى غير أن لا يزال البرهان منه لأئمة معروضاً لكل من أراد العلم به ، وطلب الوصول إليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها ، والعلم به ممكناً لمن التمسه ؟ فإذا كنت لا تشك في أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزاً — قائم^(١) أبداً ، وأن الطريق إلى العلم به موجودٌ والوصول إليه ممكن — فانظر أي رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت فيه الجهل على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ؟ وكان التقليد فيها أحب إليك ، والتعويل على علم غيرك آثر لديك .

ونحّ الهوى عنك ، وراجع عقلك وصدق نفسك بين لك فحش الغاط فيما رأيت ، وقبح الخطأ فيما توهمت^(٢) ،

(١) قائم : خبر أن .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٨

إن عبد القاهر إذن يصارحك مقدماً بأنه متجه بك إلى الآفاق التي يطالعك منها على وجوه الإعجاز في القرآن، وأن التماس هذه الوجوه أمر مطلوب كما هو ممكن.. مطلوب : لأن قيام المعجزة وخلودها على الدهر لا معنى له إلا إذا وقعت موقع المعرفة من الناس ، وقامت دليلاً على صدق الدعوى الإسلامية ، وصدق الرسول الذي جاء بها ..

ويمكن .. لأنه لو لم يكن التعرف على المعجزة مما يقع في مقدور من يطلبها لما كان لوجودها معنى ، ولا ثمرة !

ونسأل : هل استطاع عبد القاهر أن يكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن ، وأن يكون الدليل الموفق إليها ؟
سنرى !!

على الطريق :

والطريق الذي يسلكه بنا « الجرجاني » طريق طويل متعدد المراحل ، والمنازل ، ولكنه مع هذا مأنوس دائماً بالطيب من القول ، وبالرائع المعجب من البيان ، يلقاك به الرجل على طول الطريق .. فلا تجد للطريق وحشة ، ولا تستشعر غربة ! بل إنك دائماً في مجئ داني القطوف ، طيب الثمر !

١٠ جردل في الوعر عجمار :

وأول ما يستفتح به الجرجاني حديثه معك هو أن يدعوك إلى أن تنفق معه على هذه الحقيقة التي ستصحبها عليها طول الطريق .. وهي أن إعجاز القرآن حقيقة مقرر ، شهد بها التاريخ ، وأشهد العالم عليها : بأن العرب قد أقروا بالعجز عن معارضة القرآن ، ولو في سورة منه .. وسجل عليهم ذلك في آياته التي تتلى عليهم ! يقول « عبد القاهر » : « لولا أنهم — أي العرب — حين سمعوا القرآن ، (١٧ — إعجاز القرآن) »

وحين تُخَدُّوا إلى معارضته ، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رَأَوْا
أنفسهم فأحسُّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه -
لـكان محالاً أن يدَّعوا معارضته- وقد تُخَدُّوا إليه ، وقُرِعُوا فيه ، وطولبوا به- (١)
وأن يتعرضوا لشبَّا الأُسنة ، ويقتحموا موارد الموت ! ، (٢)

فقيم الحديث بعد هذا .. إذا كان أمر الإعجاز قد تقررو ثبت على هذا الوجه ؟
لا .. إن الحديث طويل وطويل غاية الطول ، ولكنه كما قلنا غير مملول
ولا موحش .. إنه حديث عن وجوه الإعجاز .. غايته الكشف عن هذه الوجوه
ما أمكن ، والدلالة على سماتها وملاحظها ..

فإذا يقول عبد القاهر في حديثه هذا ؟
لنسمع !

ماذا أعجز العرب من القرآن ؟

يسأل عبد القاهر هذا السؤال .. لعل أن يكون عندك جوابه .. أو لعلك
تبحث عن جواب له قبل أن تستمع إلى الجواب الذى عنده .. لتفيد وتستفيد من
هذا الامتحان . وتلك الموازنة .

ماذا أعجز العرب من القرآن ؟ وعن ماذا عجزوا ؟

« أعن معانٍ من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول ؟

« أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ؟

ويدع عبد القاهر الجواب عن السؤال الأول المتجه إلى المعنى .. ويحيب عن
السؤال الثانى الذى يتصل باللفظ .. لأن له فى ذلك تدبيراً ستعرفه بعد ، وهو أنه
سيجعل اللفظ والمعنى كياناً واحداً للصورة الكلامية .. فليس عنده فى الكلام

(١) الواو هنا للعال .. أى محال أن يدعوا معارضة القرآن فى الحال التى يتعرضون فيها
لاقتحام موارد الموت . (٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢ .

لفظ ومعنى ، وإنما الذى عنده هو الصورة البيانية التى تؤلف بين اللفظ والمعنى ..
ولما كان اللفظ هو الجانب المحسوس من الصورة ، والذى لا اختلاف عليه
فى رأى العين ، وفى منطق الفهم ، ومسمع الأذن ، فقد بدأ الحديث به ، وجعل
فاتحة القول عنه .

وماذا أعجز العرب من اللفظ أم ماذا بهرهم منه ؟

يقول « عبد القاهر » :

« أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمهم ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظهم ،
وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجارى ألفاظهم ومواقعها ، وفى مضرب
كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام ، وترغيب وترهيب ،
ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وبيان .. »

« وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا
فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح
هناك ، أو أشبه ، أو أخرى وأخلاق .. بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور ،
ونظاماً والتشاماً ، وإتقاناً وإحكاماً ، لم يدع فى نفس بليغ منهم - ولو حك بياضه السماء -
موضع طمع .. حتى خرست الألسن أن تدعى وتقول ، وخمدت القروم ، فلم تملك
أن تقول .. » (٢) ولا تحسبن أن عبد القاهر يجعل ذلك القول هو جوابه عما سأل ،
وإنما هو تلخيص للجواب الذى سيبسطه لك فيما بعد ، وإنما هو إشارة إلى الجهة
التي سيتجه بك إليها لالتماس الجواب ، والوقوع عليه .

لهذا فهو يقول تعقيباً على هذا الكلام :

« وجهة ما أردت أن أبينه لك ، أنه لا بد لك من كلام تستحسنه ولفظ تستجيده

(١) العنبر : مائة مائة عشر آيات من القرآن الكريم .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢ .

من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلّة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة^(١) عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل . ،^(٢)

بين اللفظ والمعنى :

ومن تدبير عبد القاهر في حديثه إليك عن الإعجاز ، أنه لا يهجم عليك بكل ما عنده في هذا الأمر ، ويفرغه بين يديك مرة واحدة ، من غير أن يهيئ لذلك مكاناً في نفسك ، ويفتح له طريقاً إلى عقلك وقلبك ، حتى يضمن بذلك إصغاءك إليه ، وتلقيك عنه ، وإفادتك منه !

فهو يطوف بك هنا وهناك ، فيطلعك على أفانين من القول ، ومذاهب من الكلام ، حتى إذا أشرف بك على روضات القرآن وجناته ، لم تستبدبك الدهشة ، ولم تذهب بجنانك الروعة .

وطبيعي أننا لا نستطيع أن نرصد هنا جميع الاتجاهات التي اتجه إليها عبد القاهر في تطوافه حول الإعجاز . . فذلك لا يكون إلا إذا جعلنا كتابه كاه منسوخاً هنا . . وخير من هذا أن ترجع إلى الكتاب نفسه إن أردت طول صحبته . . وإما نسجل هنا بعض «لقاطات» نحسب أنها مراکز لدوائر تطوافه وتجوّله حول الإعجاز ، الذي يروم الكشف عن وجوهه !

ما البهرجة وما الفصاحة ؟

يعقد عبد القاهر فصلاً ممتعاً يكشف به عن المحتوى الذي ينطوى عليه الكلام البليغ الفصيح . . وعن الصفات التي تجتمع له ، ليسكون على شرط الفصاحة والبلاغة . .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٢

(١) يريد التعبير .

يقول عبد القاهر :

« فصل ، في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة ، والبيان والبراعة ، وكل
ما شاكل ذلك مما يمبرّ به عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا
وتسكلموا ، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يُعْلَمُوهم ما في
نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم .. »

« ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وما يجرى مجراها ، مما يُفرد فيه اللفظ
بالنعت والصفة ، ويُنسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى — غير وصف الكلام
بحسن الدلالة وتامها فيما له كانت دلالة .. ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين ،
وأحق وأعجب ، وأحق بأن نستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل
القلوب .. »

« ولا جهة لاستعمال هذه الخصال — أى حسن الدلالة وتامها — غير أن
يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويُختار له اللفظ الذي هو أخص به ،
وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى أن يكسبه نبلا ، ويُظهر فيه مزية .. »
وأنت ترى أن عبد القاهر لا يجعل للفظ وحده مزية البلاغة والفصاحة ..
فليس اللفظ وإن عذب جرسه ، وتساوق نظمه ، بالذي يعطى الصورة البيانية منزلة
من منازل الفصاحة والبلاغة ، إلا إذا جاء إلى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته
وأخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له .. »

وللكشف عن هذه الحقيقة يقول :

« وإذا كان ذلك كذلك فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف
وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخباراً ، وأمرأ ، ونهيأ ،
واستخباراً ، وتعجباً ، وتؤدى في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها

إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة - هل يُتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبته على ما هي موسومة به .. حتى يقال : إن « رجلا » أدل على معناه من « فرس » على ما سمي به ؟ ! .. وحتى يُتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه ، وكشفاً عن صورته من الآخر ؟ فيكون « الليث » مثلاً أدل على « السبع » المعلوم - من « الأسد » ؟ .. وحتى أننا لو أردنا الموازنة بين اثنتين كالربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة « رجل » أدل على « آدمي » المذكور من نظيره في الفارسية ؟ ،^(١)

والذي يقرره عبد القاهر هنا - كما ترى - هو أن مفردات اللغة لها دلالات موضوعية لها .. ومن هنا فلا يمكن أن يقوم وجه لتقييم هذه المفردات في ذاتها .. لأنها وضعت لتدل على ذات أو معنى ، دون نظر إلى أى اعتبار آخر في بنائها . فهي من هذه الجهة قد أخذت وضعاً ثابتاً لا يتغير . كأنها رقم من الأرقام العددية !

الكلمة في انفرادها وجمعها :

وإذا لم يكن للكلمة في ذاتها طاقة تتعدد بها دلالاتها ، أو تختلف ، وهي في حالة انفرادها ، فإنها حين تجتمع إلى كلام آخر ، وتنظم معه تنطلق منها طاقات ، وتكشف منها ، أو تختفي جوانب لم يكن من المستطاع أن تكشف أو تختفي وهي مفردة ، الأمر الذي لا يسمح لها إلا بأن تكون على حال واحدة أبداً ..

وفي هذا يقول عبد القاهر :

« وهل يقع في وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان - من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم - بأكثر من أن تكون

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥

هذه مألوقة مستعملة ، وتلك غريبة وحشيّة ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ، ومما يكذب اللسان أبعد ؟ ^(١)

« وهل تحدّ أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة - إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟

» وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة . وفي خلافه : قلقة ونائية ومستكرهة - إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ؟ وبالقلق ، والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِقْناً للتالية في مؤداها ؟

» وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى :

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي .. وَضَيضَ الْمَاءِ وَقَضِي الْأَمْرِ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، ^(٢)

« فتجلى لك الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع - أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت ^(٣) الأولى بالثانية ، والثالثة والرابعة .. وهكذا إلى أن تستقر إليها إلى آخرها ، وأن الفضل تنأجج ما بينها ، وحصل من مجموعها » .. !!

ألم أقل لك ، إن عبد القاهر لا يريد أن يهجم بك على آيات الكتاب من

(١) وهذا تفاضل لا يعتد به ، ولا يقام له وزن كبير في تقييم الكلام .

(٢) سورة هود آية ٤٤

(٣) لاقت : أى صلحت من اللياقة ، وهى الاستقرار .. يقال : لاق فلان بالمكان إذا استقر فيه .

أول الطريق ، بل هو يمهّد لك ، ويقيم بين يديك الشواهد من قبل أن يُشرف بك على هذا العالم المشرق بآيات الحق وأضوائه ..

وها أنت ذا تجد نفسك بين يدي آية من آيات الله .. آية واحدة .. بعد أن بسط لك ألواناً من القول ، ورفع لعينك منارات من البيان .. ثم ها هو ذا لا يدعك تلتقي الآية الكريمة وحده .. بل تراه إلى جوارك ، يؤنسك ، ويملاً يدريك من موفور خيرها ، وطيب ثمرها .. يقول لك :

« إن شككت - أى فيما لارتباط الكلمات فى الآية الكريمة من فضل فى هذه المزايا التى تجدها فيها - فتأمل :

« هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت ، لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟

« قل : .. « ابلعى » أو اعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها .. ! وكذلك فاعتبر سائر ما يليها .. !

« وكيف بالشك فى ذلك ؟

« ومعلوم أن مبدأ العظمة - فى الآية - أن نوديت الأرض ، ثم أمرت .. ثم فى أن كان النداء بـ « يا » دون أى .. نحو يا أيتها الأرض .. ثم إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال « ابلعى الماء » ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها - نداء السماء ، وأمرها كذلك بما يخصها .. ثم أن قيل : « وغيض الماء » فجاء الفعل على صيغة « فَعِل » الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر .. ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله : « وقُضِيَ الأمر » .. ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو : « واستوت على الجودى » ..

ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن ..
ثم مقابلة « قيل » في الخاتمة بـ « قيل » في الفاتحة .. !

ثم يقول :

« أفترى في شيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتخضرك
عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها - تعلقا باللفظ من حيث هو صوت
مسموع وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق
المعجب ؟ » (١)

أرأيت كيف طوّف بك عبد القاهر من هذه الآية حول جنات معجبة ،
وجاس بك خلالها ، وهلاً يدريك من ثمارها ؟

وكيف كشف لك عن مكنون جواهرها ، وكريم دررها ؟

إنك لو عدت إلى الآية الكريمة فقرأتها في صحبة هذه الإشارات التي أشار بها
عبد القاهر لوجدت خيراً كثيراً ينال عليك من كل مقطع من مقاطع الآية ..
فإن عبد القاهر لم يقل كل شيء .. بل إنه لم يقل شيئاً بالإضافة إلى ما في الآية من
معطيات لا تنفذ أبداً !

ثم يعود عبد القاهر فيصل معك الحديث الذي كان فيه ، عن الكلمات
ودلالاتها في أحوال في أفرادها وجمعها .. فيقول :

« فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاوت من حيث
هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كليم مفردة .. وأن الألفاظ تثبت لها
الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها .. أو ما أشبه ذلك ،
كما لا تتأق له بصريح اللفظ ..

ثم يضرب لذلك الأمثال بعرض كلمة من الكلمات ، تأخذ أوضاعاً مختلفة
في الكلام ، فيكون لها مع كل كلام طعم ، وفي كل نظم قيمة ووزن ..
يقول في بعض تلك الأمثال :

« ومن أعجب ذلك لفظة « شيء » .. فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع ،
وضعيفة مستكرهة في موضع .. وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر
ابن أبي ربيعة الخزومي :

وَمِنْ مَالِي عَيْنِيَّةٌ مِنْ « شَيْءٍ » غَيْرِهِ إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضُ كَالدُّمِيِّ (١)
وإلى قول أبي حية التميمي :

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمَ وَلِيْلَةٍ تَقَاضَاهُ « شَيْءٌ » لَا يَمِلُّ التَّقَاضِيَا
فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول .. ثم انظر إليها في بيت المتنبي :
لو الْفَلَكَ الدَّوَّارُ أَبْغَضَتْ سَعِيهِ لَمَوْقِهِ « شَيْءٌ » عَنِ الدَّوْرَانِ (٢)
فإنك تراها تقل وتضمحل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم (٣) .
ثم يعقب على هذا بقوله :

« وهذا باب واسع ، فإنك تجد — متى شئت — الرجلين قد استعملوا كلمة
بأعينها ، ثم ترى هذا قد فرع السماء ، وترى ذاك قد لصق بالحضيض !
« فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحققت
المزية والشرف استحققت ذلك في ذاتها وعلى أفرادها ، دون أن يكون السبب

(١) لأنه يتفزل — عفا الله عنه — ببعض الحسان في مواقف الحج ، وعند مرمر الجرات !
(٢) يمدح « كافورا » في أسلوب يضم هجاء ، وأن الحظ هو الذي يخدمه ، ويقيم له
ملكاً وليس عن ذكاء وعبقريّة كان له هذا الملك الذي صار إلى يده .
(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٩

فى ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم - لما اختلف بها الحال ، ولما كانت
إما أن تحسن أبداً ، أولا تحسن أبداً ! . . .

ثم يزيد هذا المعنى شرحاً فيقول :

« وذلك أن نظم الحروف ، هو تواليها فى النطق فقط . وليس نظمها بمقتضى
عن معنى . . . ولا الناظم لها بمقتضى رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها
ما تحراه . . . فلو أن واضع اللغة كان قد قال : « ربض ، مكان » ضرب ، لما كان
فى ذلك ما يؤدى إلى فساد . . . »

ذلك حكم مفردات اللغة عند عبد القاهر . . . لازمة المفردات فى ذاتها ، لأنها
ولدت هكذا بحكم وضع الناس لها ، من غير نظر إلى حسن أو قبح فيها ، وإنما هى
دلالات وأسماء لمسميات !

وليس كذلك شأن المفردات حين ينضم بعضها إلى بعض ، فينتظم منها كلام ،
وتجتمع من انتظامها معاني . . .

يقول عبد القاهر :

« وأما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفى فى نظمها آثار
المعاني ، وترتبها على حسب ترتيب المعاني فى النفس . . . »

« فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بمضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى
معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق !

« ولذلك كان - أى النظم - عندهم - أى عند أرباب البيان - نظيراً للنسيج ،
والتأليف ، والصياغة ، والبناء ، والوشى ، والتجوير ، وما أشبه ذلك مما يوجب
اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وضع - ع -
تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكانٍ غيره لم يصلح .

« ودليل آخر .. وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه ، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ ، لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم ، أو غير الحسن فيه ، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يحمله الآخر .
ثم يقول :

« وأوضح من هذا كله ، وهو أن النظم الذي يتواصفه البلغاء ، وتفاضل صراتب البلاغة من أجله - صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة ..

« وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ، ويستخرج بالروية ، فينبغي أن يُنظر في الفكر .. بماذا تلبس ؟ أ بالمعاني ؟ أم بالألفاظ ؟ فأى شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك ، وتقع فيه صياغتك ، ونظمتك ، وتصويرك .. فحال أن تتفكر في شيء وأنت لاتصنع فيه شيئاً وإنما تصنع في غيره ! ..

« فإن قيل : النظم موجود في الألفاظ على كل حال ، ولا سبيل إلى أن يعقل الترتيب الذي تزعمه في المعاني ما لم تنظم الألفاظ ، ولم ترتبها على الوجه الخاص - قيل : إن هذا هو الذي يعيد الشبهة جذوةً أبداً ! (١)

« والذي يحلها .. أن تنظر : أتتصور أن تكون معتبراً مفكراً في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجانبه أو قبله ، وأن تقول : هذه اللفظة إنما صلحت هنا لكونها على صفة كذا ؟ أم لا يعقل إلا أن تقول : صلحت هنا لأن معناها كذا ، ولأن معنى ما قبلها يقتضى معناها ؟

« فإن تصورت الأول فقل ما شئت ، واعلم أن كل ما ذكرناه باطل .. ، (٢)
والشبهة التي يريد «عبد القاهر» أن يحلوغوا شيها هنا ، هي هذا الترابط الوثيق

(١) أى يعيد القضية كما كانت أولى الأمر ، من غير حل .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٢

بين اللفظ والمعنى ، الأمر الذى يخيّل لبعض الناس أن الألفاظ هى التى تظهر فى الوجود أولاً ، ثم تُفهم منها المعانى ثانياً ..

وهذا من خداع الموقف المنحرف الذى يقفه المرء من الصورة ..
فنحن نسمع الكلام أولاً .. ثم نعقل المعنى ثانياً .
ونقرأ ثم نعقل ما نقرأ ..
فاللفظ هنا يسبق المعنى !

وهذا نظر مقلوب إلى الصورة البيانية !

فما نسمع أو نقرأ من كلام ، إنما هو صورة تامة ، قد تخلقت من لفظ ومعنى ..
أو من معنى ولفظ ..

والبحث هنا فى هذه الصورة .. كيف تخلّقت . وكيف صارت كلاماً على لسان صاحبها ، أو قلّه ؟

هذا هو موضوع القضية التى ينظر فيها « عبد القاهر » .. والتى هى مدار البحث فى تقييم الكلام ، ووزنه بميزان الفصاحة والبلاغة .

ويقرر « عبد القاهر » أن الإنسان يفكر أولاً ، ثم يطلب لأفكاره الألفاظ التى تناسبها .. فالمعنى إذن هو الذى استدعى اللفظ ليكون الحامل لصورته خارج الذهن ، وعلى هذا ، فاللفظ تابع للمعنى ، تالٍ له ، مدعوٌّ من أجله .
ويعود عبد القاهر فيؤكد هذا الرأى الذى يقرره .. فيقول :

« واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص — ليس هو الذى طلبته بالفكر ، ولكنه شئ يقع بسبب الأول — وهو المعنى — ضرورة ، من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعانى ، فإنها لا محالة تتبع المعانى فى مواقعها .. فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً فى النفس ، وجب لللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً فى النطق !

« أما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصله البلاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن نجى^(١) بالألفاظ على نسقها — فباطل، ووه يتخيل، إلى من لا يوفى النظر حقه،^(٢)

ونحن وإن كنا نسلم مع عبد القاهر بأنه لا يمكن أن تكون الألفاظ هي المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب . . . ولكننا نخافه في القول بأن المعاني تسبق الألفاظ، بمعنى أن يوجد المعنى في نفس الإنسان أو في مسرح عقله، ثم تجيء الألفاظ بعد هذا لتتجسد فيها المعاني، وتخرج إلى الحياة منطوقة مسموعة، أو مكتوبة مقروءة!

ونحن — أعني البشر — ليس في طبيعتنا القدرة على إدراك شيء ما؛ لم يكن مصوراً في صورة ما . . . حتى الذات الإلهية مع إيماننا بأنها منزهة عن التصور، بل وعن الإدراك، فإننا — لكي نتعامل مع الذات العليا — نصفها بصفات، ونجعل لهذه الصفات مجالا نراها منه ونتصورها فيه!!

والمعاني الذهنية — مهما دقت، ومهما بلغت من الشفافية — لا يمكن أن تقوم في تفكير الإنسان إلا إذا كانت محمولة في ألفاظ! فنحن نفكر بمعاني وألفاظ معاً .

ذلك أن المعاني التي تعيش في كياناتنا إنما هي وليدة التعلم والخبرة، والاحتكاك بالحياة، وأنها لم تدخل إلى عقولنا إلا محمولة في قوالب من الألفاظ . . . فما في عقولنا من أفكار ليس في الحقيقة إلا قوالب من الألفاظ مشحونة بشحنات من المعاني . . .

(١) فاعل « تجيء » ضمير مستتر تقديره أنت .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٣

وانظر . . !

إن اللغة المحدودة الألفاظ .. لا تجد في رموس المتكلمين إلا أفكاراً محدودة أيضاً .. تكاد تُعدّ عدداً مع هذه الألفاظ ، وتوزن وزناً بها .. فعلى قدر ما يملك القوم من الألفاظ يكون ما عندهم من آراء وأفكار .. وعلى عكس هذا ، اللغة الغنية في الألفاظ ، المتسعة في اشتقاقها .. تجد حصيلة هذه اللغة كلها في عقل أهلها وعلى ألسنتهم وأقلامهم .. نراء في المعاني على قدر الثراء في الألفاظ .. سواء بسواء .

والفرد الواحد من أفراد الناس .. تتسع مداركه بقدر ما عنده من محصول لغته التي يتعامل بها .. فإذا حصل قدراً كبيراً من الألفاظ لغته وتراكيبها ، كان معنى هذا أنه يملك من المعاني بمقدار هذا الذي حصله من الألفاظ والتراكيب .. والعكس صحيح كذلك ..

إن الذي يولد أصمّ ، يعيش في الناس بعقل ضامر ، مع أنه يرى كثيراً من الحقائق المنطلقة من حوله إلى كل صوب .. بل ويرى الوجود كله ، وأشياء جميعها كما يراها الناس . ولكن آفته تحوّل بينه وبين أن يدخل هذه الحقائق وتلك الأشياء إلى عقله في ألفاظ ، فتظل بينه وبين العالم عزلة فكرية ، وتظل أشياء هذا العالم خارج ذهنه ، لا يدخل منها إلا ما يمكن أن يعرف له لفظاً بأية وسيلة من وسائل المعرفة ؟

ولهذا رفع الله سبحانه وتعالى من قدر آدم ، وأعلى منزلته ، وحاجّ به للملائكة حين أطلعهم عليهم ، وقد علمه أن يجعل للأشياء أسماء تدل عليها ..

وفي هذا يقول الله سبحانه :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ ^(١) عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ :

(١) أى الأشياء « المسميات »

أُنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. قَالُوا سُبْحَانَكَ ، لَا عِلْمَ لَنَا
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ .. فَلَمَّا
أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أُعَلِّمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ، وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، (١) .

والقدرة التي أودعها الخالق سبحانه في بني آدم لنقل المسميات إلى وجودهم
الداخلي في صورة كلمات — هي التي شكلت هذا العقل الذي يعيش به أبناء آدم ،
والذي به صاروا خلقاً آخر فوق خلق الحيوان !

فليس إذن في عقل الإنسان ما يسمى بالمعاني ، وإنما الذي يدور في عقله من
أفكار وخيالات ، وتصورات .. هي ألفاظ محملة بالمعاني .

وعلى هذا فإذا فكر إنسان في أمر ما فإنما يستدعي لذلك معاني مُدرّجة في
ألفاظ ، أو قل إنه يستدعي كلمات .. بمعنى أن الكلمة كائن يظهر فيعرف في
وجهه المعنى الذي يحمل دلالاته !

وقد ذهب عبد القاهر مذهب من سبقه من علماء البيان واللغة الذين تأثروا
بالتقسيمات المنطقية والمذاهب الكلامية .. فجعلوا الكلام لفظاً ومعنى ، كما جعلوا
الإنسان روحاً وجسداً .

وسنجد مذاهب المتكلمين في إعجاز القرآن ، والباحثين في وجوه الإعجاز
تدور في هذه الحلقة المفرغة .. يذهب أحدهم إلى أن الإعجاز من جهة اللفظ وحسن
صوغه وجمال تنسيقه ، فيلقاه آخر بأن الإعجاز إنما هو من جهة المعنى وما فيه من سمو
وحكمة ، ودقة !

على أن الحق يقتضي أن نصف « عبد القاهر » .. فنقول : إن الرجل لم يذهب هذا المذهب في تقسيم هذا الكلام بين لفظ ومعنى إلا ليرد على تلك المذاهب الخاطئة التي تهتم بالصياغة ، وتحذل بالأسلوب ، دون إقامة وزن للمعنى .. وإلا فإن الرجل ينتهي آخر الأمر بالمزاوجة بين اللفظ والمعنى ، بل والمزج بينهما ، بحيث لا يكون هناك لفظ أو معنى .. ولكن صورة مخلقة من لفظ ومعنى كما سنرى فيما يحدثنا به « عبد القاهر » بعد قليل .

في منابا الطريق :

وطريق عبد القاهر الذي يسلكه بنا هو — كما قلنا — طريق طويل .. يعرج فيه هنا وهناك على مواقف مختلفة من مواقف القول في البلاغة والفصاحة ، ويعرض وجوهاً من الرأي في موازين البيان ، وتقييم صورة الكلام .. ونراه في بعض مواقفه تلك يلتقي بالجاحظ ، ويفند رأيه في البلاغة اللفظية ، ويحاسبه حساباً عسيراً على هذا الرأي ، الذي يهون فيه من شأن المعنى ، ويجعل الفضيلة كلها للصياغة اللفظية في تقييم البيان ، ووزن البلاغة . وسنعرض لهذا الموقف عند الحديث عن الجاحظ ورأيه في الإعجاز .

اللفظ والنظم :

وفي بعض وقفات عبد القاهر نراه يُدير الحديث في التفرقة بين اللفظ والنظم .. فهو لا ينكر على اللفظ قيمته وقدره في جمال الصورة البيانية ، وإشراق وجهها .. ولكنه مع ذلك يرى أن هذا الحسن ، وهذا الإشراق ليس هو الذي تقف عنده حدود البلاغة ، وتنتهي إليه منازل البيان .. !

كذلك النظم الذي تأخذه الصورة البيانية ، وبه تترب المعاني ، وتتعاقد الأفكار .. ليس هو غاية البيان واية الفصاحة إذا لم يكن لجمال اللفظ مكانه منه ! (١٨ — إعجاز القرآن)

فالكلام عند « عبد القاهر » ثلاثة منازل :

لفظ استقل بجماله ، واستغنى بحسنه . . دون أن يكون للنظم حساب فيه .
ونظم اعتمد على ترتيب المعاني ، وتأخى الأفكار . . دون أن يسانده التأنيق
في اللفظ .

وكلام حوى الحسن من طرفيه . . فجمع إلى جمال اللفظ وإشراف العبارة ،
تساوئ المعنى وتلاحم الفكرة . .

وهذا الأخير هو الذى يُبحث عنه ، ويُطاب التفاضل فيه بين البلغاء ، ومن
جهته يكون الإعجاز .

يقول عبد القاهر :

« واعلم أن هذا — أعنى الفرق بين أن تكون المزية فى اللفظ ، وبين أن
تكون فى النظم — باب يكثر فيه الخلط ، فلا تزال ترى مستحسناً قد أخطأ
بالاستحسان موضعه ، فينحل اللفظ ما ليس له . . ولا تزال الشبهة قد دخلت عليك
فى الكلام وقد حسن لفظه ونظمه ، فظننت أن ذلك كله للفظ منه دون النظم . .

مثال ذلك أن تنظر إلى قول ابن المعتز :

وإنى على إشفاق عيني من العدا لتجمع مئى نظرة ثم أطرقُ
فترى أن هذه الطلاوة ، وهذا الضرف إنما هو لأن جعل النظرَ يجمع ، وليس
هو لذلك ، بل لأن قال فى أول البيت « وإنى » حتى دخل اللام فى قوله « لتجمع »
ثم قوله « مئى » ، ثم لأن قال « نظرة » ولم يقل النظر مثلاً . . ثم لمكان « ثم »
فى قوله « ثم أطرق » . . وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف ، وهى اعتراضه
بين اسم إن وخبرها بقوله « على إشفاق عيني من العدا »^(١).

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٧

وأنت ترى أن « عبد القاهر » قد وزع الحسن الذى وقع فى نفسك من هذا البيت على كل كلمة فيه ، حيث أخذت مكانها من النظم ، وجاءت حيث يطلبها المعنى ! .. وليس الحسن لألفاظ البيت مجتمعة أو متفرقة ، وإنما الحسن فى تعاملها مع بعضها ، وتساندها فى تأدية المعنى ، وأخذ كل كلمة نصيبها فى البلوغ بالصورة البيانية إلى تلك المنزلة من الحسن والجمال ..

ثم يضرب « عبد القاهر » لذلك مثلاً آخر . . فيقول :

« وإن أردت أعجب من ذلك فيما ذكرت لك ، فانظر إلى قوله :

سألت عليه شعابُ الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالذنانير

« فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن ، وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ، ومؤازرته لها . .

وإن شككت فاعمد إلى الجارئين والظرف ، فأزل كلاً منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر ، فقل : سألت شعاب الحى بوجوه كالذنانير عليه حين دعا أنصاره . . ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والخلابة ، وكيف تعدم أريحيته التى كانت ، وكيف تذهب النشوة التى تجدها ؟ . .

وينتهى « عبد القاهر » من هذا إلى تقرير رأيه فى كل من اللفظ والنظم ، ووضع كل منهما بمكانه من الصورة البيانية ، وأثره فيها . . يقول :

« وجملته الأمر أن ها هنا كلاماً حسنه للفظ دون النظم . . وآخر حسنه للنظم دون اللفظ ، وثالثاً قرئ^(١) الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين . .

(١) أى نال وأخذ .

ثم يقول :

« والإشكال في هذا الثالث ، وهو الذى لا تزال ترى الغلط عارضك فيه ،
وتراك قد حقت^(١) فيه على النظم فتركته ، وطمحت ببصرك إلى اللفظ ، وقدّرت
في حُنْ — كان به وباللفظ — أنه للفظ خاصة .

« وهذا هو الذى أردت حين قلت لك : إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه
إلا من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته »^(٢).

وهنا يقدم عبد القاهر صورة من صور البيان ، ويكشف لك عن حظ كل من
اللفظ والنظم فيما اشتملت عليه من روائع البيان ، وآيات الإعجاز !

يقول :

« ومن دقيق ذلك وخفيّه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : « اشتعل
الرأسُ شيباً » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة . ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ،
ولم يروا العزية موجباً سواها . . . هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم . . . وليس
الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة
التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام — مجرد الاستعارة . ولكن لأن يسلك
بالكلام طريقاً ما ، يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه ، فيرفع به
ما يسند إليه ، ويؤتى بالذى الفعل له في المعنى — منصوباً بعده ، مبيّناً أن ذلك
الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان لأجل هذا الثانى ، ولما بينه وبينه
من الاتصال والملازمة . وذلك أننا نعلم أن « اشتعل » للشيب في المعنى ، وإن كان
هو للرأس في اللفظ » .

(١) حقت : أى جرت وتجاوزت الحد . . من الخيف وهو الظلم

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٨

ثم يقول :

« يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك ، وتوخى به هذا المذهب أن تدع^(١) هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ وتسند به إلى الشيب صريحاً فتقول « اشتعل شيب الرأس » - واشتعل « الشيب في الرأس » .. ثم تنظر : هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أن كان « اشتعل » إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولم بان بالملزية من هذا الوجه تلك اليبانة ؟ - قلت - : فإن السبب أن يفيد - مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو الأصل - الشمول^(٢) ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذ من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعمّ جهلته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به .. وهذا مالا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس .. ووزان ذلك أن تقول : اشتعل البيت نارا ، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها قد استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول اشتعلت النار في البيت ، فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضى أكثر من وقوعها فيه ، وإصابتها جانباً منه^(٣) .

هذه إحدى وقفات عبد القاهر في طريقه إلى الكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن ، ودلائل هذا الإعجاز .

وهو في هذه الوقفة - كما رأيت - لا يرى الكلام لفظاً ومعنى ، وإنما يراه « صورة » شاخصة ، وكأنها حياً تتساند جميع أعضائه وأجهزته على وجوده ، وعلى إعطائه هذا الوجود الذي يعيش في الناس به .. فإذا انفصلت هذه الأعضاء ،

(١) المصدر من أن والفعل وقع فاعلاً للفعل « يبين » في أول هذا الكلام

(٢) الشمول : مفعول به للفعل يفيد

(٣) دلائل الإعجاز ص ٧٩

وزايت أما كنّها ، أو تحولت عنها ، أو تبادلت مواضعها فيما بينها اختلّ وجود هذا الكائن ، ونسدت حياته !

ولعلك تذكر ما قلنا عن « عبد القاهر » قَبْلاً من أنه لاهتمامه بالنظم يبدو وكأنه يقفو آثار السابقين في تقسيم الكلام إلى لفظ ومعنى ، وقد دفعنا هذا الوهم ، وقلنا إنه فعل ذلك ليردّ على الذين يحتفلون باللفظ ، ويهوتون من شأن المعنى ، وعلى رأسهم « الجاحظ » .. وأن الرجل في صميمه لا يرى الكلام إلا صوراً بيانية أشبه بالكائنات الحية يقوم فيها جسد وروح .. وأن الكائن الحى لا يكون كائناً حياً إلا بالجسد والروح معاً .

خاتمة المطاف :

ونحن إذ نصل إلى خاتمة المرحلة ، ونبلغ نهاية الطريق التى سلكها « عبد القاهر » للكشف عن وجوه الإعجاز فى القرآن - فإننا نطوى كثيراً من المراحل والمواقف ، دون أن نجعل لها حديثاً هنا .. وذلك - كما قلنا - أنه لا يمكن أن نسجل مراحل الرحلة مرحلة مرحلة ، ولا أن نقف خطوات عبد القاهر فيها خطوة خطوة ، وإلا نقلنا إليك الكتاب كله .. وهذا ما لم نتجّه إليه ، ولم نر لك غنى فيه ، إلا أن ترجع إلى كتابه نفسه .. وتنفرد به !

ولعلك تسأل بعد هذا : وماذا أفدنا من هذه الصحبة التى صحبنا فيها « عبد القاهر » فى بعض مراحل الطريق ؟ وهل وضع فى أيدينا شيئاً نمسك به من وجوه الإعجاز ؟ وهذا سؤال كنت أريد أن أسألك إياه ، لتبحث أنت عن جوابه عندك ، فيما وقع لك من حديثه عن الإعجاز فى هذا الحديث الذى سقته إليك على لسانه .. ولكن يجدر بنا أن نستعيد معاً أصداء هذا الحديث ، ونستجمعها قبل أن تنفلت منا .. فماذا نجد منها ؟

الحق أننا لا نجد « عبد القاهر » قد حدثنا حديثاً مباشراً عن أى وجوه من وجوه الإعجاز فى القرآن .. فهو لم يقل: إن القرآن معجز فى ألفاظه أو فى معانيه، أو فى كذا وكذا من وجوه الإعجاز التى تحدث عنها من تحدثوا فى وجوه الإعجاز .. ولم يلق القرآن لقاءً مواجهاً يكشف عن وجه أو وجوه الإعجاز فيه ! ولكنه مع هذا وضع بين أيدينا ميزاناً نزن به الكلام ، ونعرف به الجيد والردىء منه ، ونفاضل بين الجيد والأجود ..

ولو لم يكن لعبد القاهر من فضل هنا إلا أنه دفع عن البلاغة هذا المفهوم الخاطئ الذى كان يذهب مذاهب الجدل اللفظى ، البعيد عن الذوق الجمالى ، الجائر على حفظ العاطفة والوجدان منها - لو لم يكن له إلا هذا لكان ذلك فضلاً كبيراً يُعرف له ويحمد من أجله !

فإن الذوق الوجدانى لجمال الكلام ، وروعة النظم ، هو الذى يكشف بعض الإعجاز القرآنى .. وأن الذى يبحث عن الإعجاز من غير أن يستصحب هذا الذوق لن يجد بينه وبين القرآن طريقاً يصل منه إلى ما فيه من آيات الإعجاز ودلائله .

ثم أحقاً أن عبد القاهر لم يقل قدلاً صريحاً فى إعجاز القرآن ؟
لقد قال الرجل قولاً بليغاً صريحاً فى هذا ..

ولماذا إذن كان الرجل يجهد نفسه ، ويكدر ذهنه فى الكشف عن أسرار البلاغة فى الكلام ؟

أليس ذلك لأنه يريد أن يفتح بهذا مفاتيح الطرق للنظر فى إعجاز القرآن ؟

إن ما انتهى إليه عبد القاهر من أن «النظم» - لا اللفظ ولا المعنى - هو مجال

التفاضل بين كلام وكلام - هذا رأى هو فى ذاته مقطع القول فى مبحث الإعجاز ..

فالصورة الكلامية ، أو البياينة ، هي التي ينبغي أن تكون في معرض النظر عند الموازنة والمفاضلة بين أساليب القول والبيان !

وبالقدر الذي يكون في الصورة من صحة المعنى ، ودقته ، وجمال اللفظ واتساقه ، يكون حظها من الفضل والإحسان بين الكلام !

والقرآن الكريم - على هذا - صور من صور البيان . . . !

ولكن أى صور هي ؟ وما مكانها ؟

إن ذلك يحتاج إلى أن تنظر في القرآن الكريم كله ، آية آية ، لتطلع على وجوه الحسن فيها ، وتفتش عن مواطن الجمال منها . . في كل كلمة ، بل في كل حرف . . لتتحقق من أن « الصورة » القرآنية كائن حي ، سوّته يد القدرة على أتم صورة وأكملها . . وقد نظر لك « عبد القاهر » في بعض آيات الكتاب الكريم ، وأراك ما وعى نظره منها ، وما اهتمت بصيرته إلى وجوه الحسن والروعة فيها . . ثم عليك أنت بعد هذا أن تنظر في كتاب الله ، وتستحضر له قلبك وعقلك . . ومسترى أنك في جناب خصيب . تنقل فيه ، من خير إلى خير ، ومن طيب إلى طيب . . لا ينفد أبداً !!

ولا نريد أن ندع « عبد القاهر » وكتابه : « دلائل الإعجاز » دون أن نلتقط شيئاً آخر من جنى ثمره الذي قدم لنا فيما سبق طرفاً منه . . فإنه وإن بدا لنا أن لا جديد عنده فيما وراء آرائه التي سلفت ، إلا أنه في كل مرة يعرض فيها رأياً من آرائه يفتح طاقات جديدة من النور ، تزداد بها معالم الطريق وضوحاً واستقامة إلى الغاية التي يريد بلوغها للوقوف على « دلائل الإعجاز » . . فإذا كان « عبد القاهر » قد جعل « النظم » أو الصورة التي يكون عليها الكلام هو الوجه الذي يبدو فيه حسنه ورونقه ، ويُعرف فيه مكانه ومنزله في منازل الفصاحة

«البيان .. فإنه قد ذهب لذلك مذاهب كثيرة ، يقيم بها الحجة لهذا القول ، ويثبت دعائمه .. وهنا نعرض مذهبا من مذاهبه ، وحجة من حججه .. يقول :

« واعلم أنه إذا كان بيننا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي عليه حتى لا يشكُل ، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه ، وأنه الصواب - إلى فكر^(١) وروية . فلا مزية ! ، وإنما تكون المزية ، ويجب الفضل ، إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه - وجهاً آخر .. ثم رأيت النفس لا تنبوعن ذلك الوجه الآخر ، ورأيت للذي جاء عليه حسناً وقبولاً يعُدُّهُمَا إذا أنت تركته إلى الثاني .. »^(٢)

فهذا وجه جديد من وجوه التفاضل في نظم الكلام ..

فالكلام إذا لم يكن له إلا مدلول واحد ، لا يحتمل الزيادة أو النقص ، ولا يقبل التحوير أو التبديل ، ولا يحمل على إعمال الروية والفكر الاستزادة مما فيه - أو بمعنى آخر ، إذا كان الكلام يعطيك كل ما فيه للنظرة الواحدة - فمثل هذا الكلام لا مزية فيه ، ولا مكان له في باب الفصاحة والبلاغة !

وهذا كلام له خطره في تقييم البلاغة ، ورسم حدودها !

فهو أولاً : يفصل بين الحقائق العلمية ، والحقائق الفنية .. أو بمعنى آخر أنه يفصل بين صورتين من صور الكلام .. الصورة التي تحمل حقائق علمية ، وهذه من شأنها أن تعطي الحقيقة كاملة ، من أول فهم لمدلول كلماتها .. ثم لا تسمح بعد هذا بشيء ، ولا تنضح قطرة واحدة .. ! وليس كذلك الصورة التي تحمل الحقائق الفنية .. إنها لا تعطيك كل ما فيها مرة واحدة ، بل تشدك دائماً إليها بما تحمل إليك في كيانها ، وتمنحك إياه حالاً بعد حال ..

(١) الجار والمجرور متعلق بقوله : لا يحتاج

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢١

وهو ثانيًا : يفصل بين صورتين من صور الحقائق الفنية .. فهناك من صور البيان ما لا يسمح لك بكل ما فيه مرة واحدة ، بل يصرح لك ببعض ، ويلمح ببعض ، ويعطيك شيئًا ، ويمنعك شيئًا .. حتى تعود إليه مرة ومرة ومرة ، وحتى تعاود النظر فيه ، وتردد الفكر عليه .. وهذا هو شأن الصور الفنية إذا خرجت من صنّاع عليم .. وهناك صور من صور البيان أيضًا .. ولكنها ضحلة هزيلة ، تأخذ كل ما فيها بنظرة واحدة ! ثم لا شيء بعد هذا ، وإن يكن شيء فهو تافه لا نفع فيه .

ويضرب عبد القاهر للحقائق الفنية الرفيعة مثلاً لآية من آيات الله المودعة في كتابه الكريم ، وهي قوله تعالى :

« وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ الْجَنِّ » .. ثم يقول :

« ليس بخافٍ أن لتقديم الشركاء حسنًا ، وروعة ، ومأخذًا في القلوب ... أنت لا تجد شيئًا منه إذا أخرت قلت : « وجعلوا الجن شركاء لله » .. وإنك لترى حالك حال من نُقل عن الصورة المبهجة ، والمنظر الرائق ، والحسن الباهر ، إلى الشيء الغفل ، الذي لا تحظى منه بكثير طائل ، ولا تصير النفس به إلى حاصل » .

ثم يقول :

« والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم — هنا — فائدة شريفة ، ومعنى جليلاً ، لا سبيل إليه مع التأخير .

« بيانه : أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله ، أنهم جعلوا الجن شركاء . وعهدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم -

فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون له شريك .. لا من الجن ، ولا من غير الجن ! .

« وإذا آخر فقيل : جعلوا الجن شركاء لله .. لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى .. فأما إنكار أن يعبدوا مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن ، فلا يكون في اللفظ - مع تأخير الشركاء - دليل عليه . » (١)

ثم يضرب « عبد القاهر » مثلاً آخر من آيات الله أيضاً .. وهو قوله تعالى : « وَاتَّجِدْنَهُمْ أُخِرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ » (٢) .. وذلك في شأن اليهود .. ويقول « عبد القاهر » عن هذه الآية :

« وإذا أنت راجعت نفسك ، وأذكيت حسك ، وجدت لهذا التفسير ، وأن قيل : « على حياة » ولم يقل : « على الحياة » - حسناً (٣) وروعة ، ولطف موقع ، لا يقادَرُ قدره ، وتجذك تعدد ذلك مع التعريف ، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما ..

« والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة ، لا الحياة من أصلها ، وذلك لا يحرص عليه إلا الحى ، أما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ، ولا على غيرها .

« وإذا كان كذلك صار كأنه قيل : ولتجدنهم أحرص الناس - ولو عاشوا ما عاشوا - على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضى الوقت وراهنه حياةً فى الذى يُستقبل .. فكما أنك لا تقول هاهنا ، أن يزدادوا إلى حياتهم الحياةً بالتعريف ..

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢١

(٢) سورة البقرة : آية ٩٦

(٣) مقبول به للفعل : وجدت

وإنما تقول حياة — إذ كان التعريف يصلح حيث تراد الحياة على الإطلاق ،
كقولنا : كل أحد يحب الحياة ، ويكره الموت — كذلك الحكم في الآية^(١) . .

ويختم عبد القاهر هذا الفصل معقباً عليه بقوله :

« واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه
قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن
لما يوماً إليه من الحسن واللفظ ، أصلاً^(٢) ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل
الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعزى منها أخرى ، وحتى إذا عجبته عجب ،
وإذا نهته لموضع المزية انتبه . . »

« فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبداً على سواء ، وكان لا يتفقد من
أمر النظم إلا الصحة المطلقة ، وإلا إعراباً ظاهراً ، فما أقل ما يجدى الكلام
معه » (٣) !

وأخيراً . .

وأخيراً نلتقي مع « عبد القاهر » وهو يواجه موضوع التحدى في القرآن ،
ويكشف عن الوجه الذي تحدى القرآن العرب به . . ألفاظه ؟ أم معانيه ؟ أم
مفرداته ؟ أم نظمه ؟

وفي الإجابة على هذه الأسئلة يلخص « عبد القاهر » القضية كلها ، وموقفه
منها ، ورأيه فيها . . فلنسمع ، ولنزك . .

يقول عبد القاهر :

« أيجوز أن يكون الله تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتحدى العرب

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٣

(٢) خبر أن

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٢٥

إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله ؟ .. ولا بد من « لا » .. لأنهم إن قالوا : يجوز - أبطأوا التحدى .. من حيث أن التحدى - كما لا يخفى - مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معالفاً للمطالب ، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً ، وذلك لأنه لا يتصور أنه يقال : إنه كان عجزاً حتى يثبت معجوز عنه معلوم . . . »

ثم يقول :

« ثم إن هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد فى القرآن ، وأمر لم يوجد فى غيره ، ولم يعرف قبل نزوله .
« وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون فى الكلام المفردة .. لأن تقدير كونه فيها يؤدى إلى الحال .. وهو أن تكون الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة قد حدثت فى حذقة حروفها وأصداها أوصاف^(١) لم تكن تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت فى نفسها بهيئات وصفات يسميها السامعون عليها^(٢) إذا كانت متلوة فى القرآن - لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ! - وهذا محال -

« ولا يجوز أن تكون فى معانى الكلام المفردة التى هى لها .. بوضع اللغة .. لأنه يؤدى إلى أن يكون قد تجدد فى معنى « الحمد » و « الرب » .. ومعنى « العالمين » و « المالك » و « يوم » و « الدين » وهكذا - وصف لم يكن من قبل نزول القرآن .. وهذا ما لو كان هاهنا شيء أبعد من الحال وأشنع ، لكان إياه !
« ولا يجوز أن يكون هذا الوصف - أى موضع التحدى - فى تركيب

(١) فاعل الفعل : حدث . (٢) أى على تلك الهيئات والصفات .

الحركات والسكنات ، حتى كأنهم تحدُّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن ، وحتى كان الذى بان به القرآن من الوصف فى سبيل بينونة محور الشعر بعضها عن بعض ، لأنه يخرج إلى ماتعاطاه «مسيلة» من الحماقة فى قوله : «إنا أعطيناك الجاهر ، فصل لربك وهاجر» . . .

«وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذى مُتحدُّوا إليه ، هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذى تراه فى القرآن ، لأنه ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل فى الآى كالوزن فى الشعر ، وقد علمنا اقتدارهم على القوافى ، كيف هو ؟

ثم يعقب على هذه الوجوه التى نقضها كلها بقوله :

«ومن هذا الذى يرضى من نفسه أن يزعم أن البرهان الذى بان لهم - أى للعرب - والأمر الذى بهرهم ، والهيئة التى ملأت صدورهم ، والروعة التى دخلت عليهم فأزعجتهم . حتى قالوا : «إن له خلابة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله كمغديق ، وإن أعلاه لمشر» - إنما كان لشيء راعهم من مواقع حركاته ، ومن ترتيب بينها وبين سكناته ، أو لفواصل فى أواخر آياته ؟ من أين تليق هذه الصفة وهذا التشبيه بذلك ؟ أم ترى أن «ابن مسعود» حين قال : فى صفة القرآن : «لَا يَتَفَهَّ وَلَا يَتَشَنَّ» (١) ، وقال : «إذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات دمدات أتانق فيهن» (٢) - قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ؟ ومن أجل الفواصل فى أخريات الآيات ؟

ثم يخلص من ذلك كله إلى القول :

(١) تفه : من التفاهة وهى صغر الشأن ، وإشان : أى يضر ويبيس

(٢) أى أتتبع محاسنهن

« فإذا بطل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن فى شيء مما عددناه لم يبق إلا أن تكون الاستعارة ، ولا يمكن أن نجعل الاستعارة الأصل فى الإعجاز ، وأن يُقصد إليها ، لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز فى آى معدودة . . فى مواضع من السور الطوال مخصوصة . .

« وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون فى النظم والتأليف ، لأنه ليس من بعد ما أبطلنا ، أن يكون فيه ^(١) إلا النظم !

« وإذا ثبت أنه فى النظم والتأليف ، وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخى معانى النحو ^(٢) وأحكامه فيما بين السكلم ، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للسكلم المفردة مسلكاً ينظمها ، وجامعاً يجمع شملها ، ويؤلفها ، ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخى معانى النحو وأحكامه فيها — طلبنا ما كل محال دونه ! ! ، ^(٣) .

ويعود الجرجانى فيزيد هذا المعنى وضوحاً . . فيقول :

« فإذا ثبت الآن أن لاشك ولا مرية فى أن ليس النظم شيئاً غير توخى معانى النحو وأحكامه ، فيما بين معانى السكلم — ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه فى معانى النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ، ولم يعلم أنها معدنه ومعانيه ^(٤) ، وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستنبط له سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها — غار ^(٥) نفسه بالكاذب من الطمع ، ومسلم لها إلى الخدع . وأنه إن أبى أن يكون — أى النحو — فيها ، كان قد أبى أن يكون

(١) أى فى القول بالإعجاز

(٢) يقصد بالنحو هنا النحو بمعناه الشامل أى ما للغة فى مفرداتها من معان فى اصل الوضع ، وما للنحو من قواعد فى نظم الكلام .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣١٧

(٤) أى منزله . (٥) أى خادع نفسه ، وهو خبر أن فى قوله : أن طالب

القرآن معجزاً بنظمه ، ولزمه أن يُثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به . . وأن يُلحقَ
بأصحاب الصرفة ، فيدفع الإعجاز من أصله ! ،^(١) .

وأنت ترى أن عبد القاهر يقرر هنا في صراحة ، أن إعجاز القرآن هو من
جهة نظمه ، وما في هذا النظم من إحكام يجمع بين المعنى في أروع وأصدق أحواله
الداعية إليه ، وبين اللفظ في أجمل وأليق أوضاعه لأداء المعنى المراد .

* * *

وندع موقفنا مع عبد القاهر في كتابه « دلائل الإعجاز » لنلتقي معه في كتابه
« الرسالة الشافية » .

* * *

« الرسالة الشافية للجرجاني »^(١)

في هذه الرسالة يُعنى «عبد القاهر» عناية خاصة بتقرير «الإعجاز» في ذاته ، وإقامة الأدلة القاطعة على وقوعه ، مستشهداً لذلك بالقرآن الكريم وما حمل من آيات سجلت تحديده للعرب ، مرة بعد مرة ، ودعوتهم إلى معارضته ، بعشر سور ، ثم بسورة واحدة .. وذلك بأسلوب قاهر مستعلٍ .. فلما لم يقوموا له ، سجل عليهم عجزهم هذا ، في آيات تُتلى أبد الدهر ..

ولا يقف عبد القاهر عند هذا ، بل يستجلب شواهد الحل التي كان عليها العرب وما تحمل نفوسهم من حمية تلقى كل تحدٍّ بمثله ، أو بما هو أشد منه .. بل إن هذه الحمية تدعوهم في كثير من الأحيان إلى استجلاب الأسباب الداعية إلى المصاومات والمصادمات ، لتكشف عن قوتهم ، واحتمالهم ..

ويبدأ عبد القاهر حديثه عن الإعجاز بتقرير حقيقة مقررة ، وهي وقوع التفاضل بين الكلام .. إذ ليس الكلام على درجة واحدة في أى مقام من مقاماته ، ولا في أى معنى من المعانى المصوّرة به ، وإلا لما كان الشعراء ، والكتاب ، والخطباء ، والعلماء - درجاتٍ ومنازل .. ولما كان الناس جميعاً « نسخة » واحدة من كتاب مطبوع أو شيء مصنوع !!

يقول «عبد القاهر» :

« اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو أخص به وأولى ، وضرباً

(١) « الرسالة الشافية » لعبد القاهر .. مطبوعة ضمن « ثلاث رسائل في الإعجاز » .. هي واحدة منهن .. تحقيق الأستاذين محمد خلف الله أحمد ، ومحمد سلام .
(١٩ - لمعجاز القرآن)

من العبارة ، هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى . . ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أدعى ، والنفس إليه أميل

يريد عبد القاهر أن يقرر هنا أن المعنى قد تتغير صورته ، وتفسد معالمة ، إذا لم يتوازن معه اللفظ الذى يليق به ، ويقدر على حمله بكل ما فيه من ألوان واضحة أو خفية . . وبهذا يتفاضل الكلام ، فتتقدم بعض صورته على بعض بحسب ملائمتها للمعنى ، وموازنتها له . .

ثم يقول عبد القاهر :

« معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل . . وأن التفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضاً ، وأن علم ذلك علم يخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه العرب ، ومن عداهم تبع لهم ، وقاصر فيه عنهم . . وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي صلى الله عليه وسلم — الذى نزل فيه الوحي ، وكان فيه التجدى — أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا فى علم البلاغة وتعاطفها لما لم يكملوا له . .

« وإذا ثبت أنهم الأصل والقدوة ، فإن علمهم العلم ، فعملينا أن ننظر فى دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلى القرآن عليهم ، وتحدثوا إليه ، وملئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ، ومن التقريع بالعجز عنه ، وهت^(١) الحكم بأنهم لا يستطيعونه ، ولا يقدررون عليه .

« وإذا نظرنا وجدناها تُفصح بأنهم لم يشكوا فى عجزهم عن معارضته ، والإتيان بمثله ، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى معارضته سبيلاً على وجه من الوجوه .

« أما الأحوال فدلت — من حيث كان المتعارف من عادات الناس التى

(١) بت : أى قطع .

لا تختلف ، وطبائهم التي لا تتبدل — ألا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا ينتحلوا العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم !

كيف ؟ وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يَبْأى ^(١) بنفسه ، ويدل بشعر يقوله ، أو خطبة يقوم بها ، أو رسالة يعملها — فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل ، وببذل ماله من المنة ^(٢) ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل ، وبنوع من التحمل . هذا ، وهو لم يَرَ ذلك الإنسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ، ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك النعرض .. وإن كان المدعى ذلك برأى منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى مباراته ، وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو أنه منه أفضل ، فإن إنضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى ممانته ^(٣) ، ويحركه لمقاولته ، فذلك الذي يُسَهِّلُ لِيَّاه ، ويسلبه الفرار ، حتى يستفرغ مجهوده ، في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته .. وقد عرفت قصة جرير والفرزدق ^(٤) ، وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما بهيج على المقالة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة — كيف جد كل واحد منهما في مغالبة الآخر ، وكيف جعل ذلك كل همه وكده ، وقصر عليه دهره ؟ هذا وليس به ^(٥) ، ولا يخشى إلا أن يقضى لصاحبه بأنه أشعر منه ، وأن خاطره أحد ، وقوافيه أشرد ، لا ينافعه مُسْكَا ، ولا يفتات عليه — بغالبته له — حقاً ، ولا يلزمه به أتاة ، ولا يضرب عليه ضريبة ! » .

(١) يَبْأى : أى يفخر

(٢) المنة : القوة

(٣) ممانته : أى مباراته ومجاراته

(٤) يشير إلى ما كان بينهما من مهاجاة ، ومناقضات استمرت سنين طويلة ، يقل أنها باثت أربعين سنة .. وجمع منها شعر كثير لها عرف « بالنقائض » .

(٥) أى لا يهجمه .

وبعد أن يكشف « عبد القاهر » عن هذه الغريزة المتمكنة من الناس ، في منافسة بعضهم بعضاً ، وتحدى بعضهم بعضاً ، يدير النظر إلى هذه الغريزة في الأمة العربية ، واستبداد هذه الغريزة بهم - بعد أن يكشف عبد القاهر هذه الحقيقة يتحدث عن الأمة العربية وموقفها من القرآن حين تحدّاه . فيقول :

بين العرب والقرآن :

« وإذا كان ذلك واجبا بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجرى على الألسن من ذكره بالفضل فقط .. فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب .. في مثل قريش ، ذوى الأنفس الأبية ، والهمم العالية ، والأنفة والحمية - من يدعى النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدّع به النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول - أى النبي - : وحجّتي أن الله تعالى قد أنزل على كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ، ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم ، واجتمع معكم الجن والإنس - ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ، ويبينوا سرفه في دعواه ، مع إمكان ذلك ، ومع أنهم لم يسمموا إلا ما عندهم مثله ، أو قريب منه ؟ هذا ، وقد بلغ بهم الغيظ من مقاتته - أى النبي - ومن الذى ادعاه ؛ حداً تركوا معه أحلامهم الراجحة ، وخرجوا عن طاعة عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، وآتموه بكل أذى ومكره ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكل من تبعه ، بضروب المكايدة ، وأرادوه بأنواع الشر .

« وهل سمع قط بذى عقل ومسكة ، استطاع أن يخرس خصماً قد اشتط في دعواه

بكلمة يحميمه بها ، فترك ذلك إلى أمور يُدفع فيها ، وينسب معها إلى ضيق الذرع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة ، وعزّ عليه المخلص ؟

« أم هل عرف في مجرى العادات ، وفي دواعي النفوس ، ومبنى الطباع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصمه فلا يذكرها ، ولا يفصح بها ، ولا يجلي عن وجهها ، ولا يريه الغلط فيما قال ، ولا الكذب فيما ادعى ، ولا يدعى أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ؟ بل يجهل أول جوابه له ، ومعارضته إياه التسرّع إليه ، والسفاهة عليه ، والإقدام على قطع رحمه ، وعلى الإفراط في أذاه ؟

« أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رئاسة ولهم دين ، ونحلة ، فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذراريهم وأولادهم ، وعمدته التي يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه ، ودعاء من يدعوه — دعوى له ^(١) ، إذا بطلت بطل أمره كله ، وانتقض عليه تدبيره — ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ، ولا يشتغل بإبطالها ، مع إمكان ذلك ، ومع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع ؟ .. » ^(٢)

ثم يعرض « عبد القاهر » بعد هذا الأمر ربما كان مظنة تهمة الإعجاز عند بعض الناس ، أو مدخلا للشك في وقوع المعجزات عند بعض آخر .. وهو ما يقع في الحياة بين الحين والحين من ظهور النوابع والعباقرة ، والمخترعين .. في العلوم والفنون .. فهؤلاء الأعلام يكونون عند ظهورهم قِمَمًا شامخة بين أبناء عصرهم ، بل ربما كانوا كذلك بين أبناء العصور السابقة أو اللاحقة .. فيأتون من الأعمال ، أو الأقوال ما يعجز عنه أبناء جيلهم أو أبناء أجيال كثيرة قباهم أو بعدهم .. ومع هذا فلم يكونوا من الأنبياء ، ولم يدعوا هم أو يدعى لهم أحد أنهم من الأنبياء أصحاب المعجزات .

(١) دعوى له : خير المبتدأ « وعمدته »

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٠٧ وما بعدها

فما تأويل هذا عند من يؤمنون بالأنبياء ، ويؤمنون بما حلوا من معجزات ؟
وما الفرق بين ظهور النبي في عصره ، واحتلاله بالمعجزة التي بين يديه قبة الحياة -
وبين العبقرى أو النابغة حين يظهر فيحتل بعلمه أو عمله قبة أشبه بهذه القبة ؟
هذا ما يعرض له « عبد القاهر » ، ويقول تفنيده ، والرد عليه .
يقول « عبد القاهر » :

« واعلم أن هاهنا باباً من التلبس ، أنت تجده يدور في أنفس قوم من الأشقياء ،
وتراهم يؤمنون إليه ، ويهمسون به ، ويستهمون الغيب بذكره . وهو قولهم :
قد جرت العادة أن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطعم
أحد في مدائنه ، وحتى ليقع الإجماع فيه أنه الفرد الذي لا ينازع . ثم يذكرون
« أمراً القيس » والشعراء الذين قدموا على من كان معهم في أعصارهم . وربما ذكروا
« الجاحظ » وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره . . ولهم في هذا الباب
خبط وتخليط لا إلى غاية . وهي نفثة نفثها الشيطان فيهم ، وإنما أتوا من سوء
تدبرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل . .

« وذلك أن الشرط في المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهز
ويقهر ، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الأسنة عن دعوى المدانة ،
وحتى لا تحدث نفس صاحبها بأن يتصدى ، ولا يجوز في خلد أن الإيمان بمثله يمكن ،
وحتى يكون بأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كاه . . » (١)
وهذا الذي يقرره « عبد القاهر » هو مقطع القول في هذا الأمر . . إذ ليس
الذي يأتي به العبقرى أو النابغة من قول أو عمل ، بالشئ الذي يقطع على الناس سبيل
النظر فيه ، أو المساماة له ، أو الغلبة عليه . . فلم تشهد الحياة أبداً لإنسان أنه انقطع
بعمله أو قوله عن منازعة الناس له ، والدخول معه فما قال أو عمل . . فيقتصرون

عنه في جانب ويملون عليه في جانب آخر فيما خيل إلى الناس أنه انفرد به !
وستجد لهذا الرأي حديثاً لنا ، في موقف آخر من هذا الكتاب !

ثم يقول « عبد القاهر » :

« وأما تقدّم واحد من أهل العصر سائرهم ففي معنى تقدم واحد من أهل مصر
من الأمصار غيره ممن يضمه وإياه ذلك للمصر . لا فضل في ذلك بين الأمصار
والأعصار إذا حقت النظر .. إذ ليس بأكثر من أن واحداً زاد على جماعة معدودين
في نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم ، أو أكثرهم ، أو أشعرهم ، أو أحذقهم في
صنعة ، وأبهرهم في عمل من الأعمال .

« وليس ذلك من الإعجاز في شيء .. »

« إنما المعجز ما عُرِف أنه فوق قوى البشر وقدرهم ، إن كان ما يقع التفاضل فيه

من جهة القدر ، أو فوق علومهم ، إن كان ما يتفاضل فيه الناس بالعلم والفهم !

ثم يضرب لهذا مثلاً بالجاحظ ، وما بلغه من مكانة في الأدب فيقول :

« وإذا كنا نعلم أن استمداد الجاحظ وأشبهه الجاحظ من كلام العرب ، والبلغاء

الذين تقدموا في الأزمنة ، ولولا أنهم فجّروا لهم ينابيع القول فاستقوا ، ومثلوا لهم
مثلاً في البلاغة فاحتذوا - إذن لم يبلغوا شأواً ما بلغوا ، ولم يدركهم من ضروع

القول .. مادرٌ ولو أن طباعاً لم تشرب من مأهم ، ولم تغذ بحناهم ، ولم يكن حالهم في
الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحهم ، وتشمم الذي فاح من روائحهم -

حال (١) النحل التي تغذي بأريج الأنوار وطيب الأزهار ، وتملأ أجوافها من تلك

اللطائف ، ثم تمجها أزياء ، وتغذيها مذياً (٢) ، إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ في عداد

عامة زمانهم الذين لم يرووا ، ولم يحفظوا ، ولم يتتبعوا كلام الأولين من لدن ظهر
الشعر ، وكانت الخطابة إلى وقتهم الذي هم فيه ، ولم يعرفوا إلا ما يتكلم به آبائهم ،

(١) حال : خبر بكن المذكورة قبل هذا . (٢) الأرى والمذى من أسماء عمل النحل .

وإخوانهم ومساكنهم في الدار والحلة ، أو كانوا لا يزيدون عليهم - إن زادوا -
إلا بمقدار معلوم .

« فمن أعظم الجهل ، وأشد الغباوة أن يحل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب
نقض العادة ، وأن يعدَّ معدَّ المعجزات » . (١)

وهكذا يفرق عبد القاهر بين النبيِّ ومعجزته ، وبين العبقري وما تجوده به
عبقريته ، من آثار ، يخرج بها على عصره ، ويعلو بها على نظرائه من أبناء جيله ،
فيبدو وكأنه على قمة الإنسانية ، تلك القمة التي آثرت بها السماء الأنبياء ، واحتفظت
لهم بها .. من دون غيرهم من الناس .

* * *

وأحسب أننا قد أطلنا وقوفنا مع « عبد القاهر » ، على حين أننا على موعد مع
كثيرين غيره .. ولولا ذلك لما زابلنا موقفنا هذا ، ولا نطلقنا معه ، نستمع إليه ،
ونقطف من ثمراته الطيبة الذاتية القطوف ..

فالواقع أننا لم نقض حق عبد القاهر في تصوير آرائه التي نشرها في مؤلفاته .. .
وإنما كل ما أمكننا أن نصنعه هو قطوف من هنا وهناك ، نجد فيها أنفاس عبد القاهر ،
ونعرف منها الطريق إليه .. ليسلكه من يريد أن يرى الرجل عيانا ، ويشافهه
مشافهة ، حين يجمع بين يديه .. أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، والرسالة الشافية ،
ويخلو بها ، ويعيش زمنا طويلا معها ..

فليأذن لنا عبد القاهر أن تركه الآن ، وليغفر لنا إن كنا قد أسأنا الفهم عنه ،
أو أخطأنا الأخذ منه ..

* * *

الزنجشري

ورأيه في الإعجاز

والزنجشري^(١) ينحونحو المعتزلة ، ويأخذ بالكثير من آرائهم ، ولكنه كان حرّاً الرأى ، بعيداً عن التعصب والهوى ، ولهذا لم ينجح به الجدل إلى المهاترة ، وإلى العناد ، طلباً للغلبة ، وانتصاراً للمذهب ، وإنما كان الرجل على بصيرة من أمره ، وعلى حرص على دينه ، وعلى احترام لعقله .. لا يقبل من الرأى إلا ما اطمأن إليه قلبه ، وسكنت إليه نفسه ، وتكبح به فؤاده .. ولهذا كان له احترامه ومكانته بين علماء السنة والمعتزلة جميعاً ..

ولو كان « الزنجشري » على غير تلك الصفات لمال به الهوى إلى متابعة أصحابه المعتزلة في كل ما لهم من آراء ، وخاصة فيما يتصل بصفات الله وقولهم بنفيها ، ثم ما يترتب على ذلك من نفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى .. ثم ما يتبع ذلك من القول بأن القرآن ليس كلام الله .. ثم القول بأن القرآن حادث .. مخلوق .. ثم أخيراً القول بأن إعجاز القرآن ، إنما كان من جهة الصرفة ، وأن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثله ، ولكن الله صرفهم عن أن يعارضوه .. وهذا ما قال به « النظام » شيخ الجاحظ ، وقال به « الجاحظ » أيضاً على نحو من الأنحاء ، وقال به غيرها كثير من المعتزلة :

« الزنجشري » وإن يكن قد أخذ بقول أصحابه المعتزلة في نفي الصفات عن ذات الله ، ومن بينها صفة الكلام ، إلا أنه لم يأخذ بقولهم في إعجاز القرآن بأنه

(١) هو محمود بن عمر الزنجشري . فقيه ، لغوى ، أديب ، يعد رأساً من رؤوس المعتزلة ومع هذا فقد كان موضع احترام أهل السنة ، لاعتدال آرائه ، واستقامة طريقته .. توفي سنة ٥٣٨ هـ .

كان « بالصرفة » . إذ هو يرى أن القرآن معجز في ذاته من حيث هو كلام منظوم . . قد علا ببلاغته على كل كلام يقوله بشر !

وقد رأينا - من قبل - أن هبد الجبار - وهو « معتزلى » يقول بخاق القرآن ، ولكنه لا يرى ما يراه كثير من المعتزلة من القول بالإعجاز بالصرفة ، بل يقرر أن إعجاز القرآن هو في هذا النظم البديع ، وفي هذه المعاني السكرية التي ضُمَّ عليها هذا النظم . .

* * *

ولم يؤلف « الزنخشرى » مؤلفاً خاصاً بالإعجاز ، وإنما قام بمحاولة في هذا الباب ، لم يسبقه إليها أحد ، ولا نظن أنه جاء من بعده من جرى معه في هذا الطريق ، ذلك أنه أراد أن يقيم أدلة الإعجاز وشواهد من آيات القرآن الكريم ، وأن يجعل القرآن كله مجالا للناظرين في الإعجاز ، والباحثين عن مواقعه في كتاب الله . . ولهذا فقد جعل تفسيره المعروف باسم : « الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل »^(١) لتحقيق هذه الغاية التي جعلها كل همه وغايته ، وهو ينظر في كتاب الله ، ولم يأخذ الطريق الذي سار فيه المفسرون من قبله ، وهو شرح مفردات القرآن أو إعرابه أو استخلاص الأحكام الشرعية منه ، أو بيان أسباب النزول ، أو التعريف بالناسخ والمنسوخ . . إلى غير ذلك من مذاهب المفسرين ومناهجهم ، في تفسير القرآن ، وفي غاياتهم التي يقيمون عليها وجهة نظرهم في التفسير .

كان منهج « الزنخشرى » في تفسيره هذا ، أنه استعرض القرآن الكريم كله

(١) وقد اشتهر هذا التفسير باسم « الكشف » ويقول « الزنخشرى » لأنه ألفه وهو مجاور لبیت الله الحرام بعد أن كبرت سنه ، كما يقول لأنه أتم تأليفه في زمن يقدره بماء خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، وهى سنتان وبضعة أشهر .

من أوله إلى آخره ، سورة سورة ، كما يفعل المفسرون ، ولكنه ما كان يقف عند كل آية ، وإنما كانت عينة دائماً — كما كان قلبه — متطلعة إلى ما عسى أن ينكشف له من إعجاز النظم القرآني وأسرارها في انفردات والتراكيب على السواء . كما سنرى ذلك عند النظر في نماذج من تفسيره .

لماذا اختار الزمخشري هذا المنهج ؟

ولعله من المناسب هنا أن نكشف عن السبب الذي من أجله اتجه « الزمخشري » هذا الاتجاه في التفسير ، فسلك فيه مسلكاً لم يطرقه أحد قبله !

وأول ما يلقانا من « الزمخشري » ونحن نتلمس سبباً أو أسباباً لهذا المنهج الذي اتخذه في التفسير — على مذهب المعتزلة . . والمعتزلة — كما نعلم — مفارقات كثيرة خرجوا فيها عن طريق الجماعة ، وساروا في اتجاهات منحرفة — مقارنة أو مبادعة — من الوجهة العامة التي سارت عليها الجماعة الإسلامية !

فهل لنا أن نحسب هذا الضرب من التفسير خطة معتزلية ، اختطها « الزمخشري » كما كان لأصحابه أقوال ، ومتجهات ، انفرد فيها كل واحد منهم بقول أو متجه ؟ وقد يكون هذا الاستنتاج مسلماً به لو أن « الزمخشري » أغرب في التأويل لآيات الله ، فذهب بها مذهباً لا يرضاه المسلمون كما فعل « الباطنية » في تفسيرهم لكتابات الله ، ولكن « الزمخشري » لم يخرج في تفسيره عن الدلالات اللغوية لكلمات القرآن ، ولم يتجاوز المضمون البياني لآياته ، كما يقع في مفهوم أهل اللغة وأصحاب البيان . . وكل ما كان من « الزمخشري » في تفسيره إنما كان في « المنهج » الذي اتبعه ، وفي الخطة التي سار عليها حيث لم يقف عند كل كلمة ، أو كل آية ، وإنما كان همه البحث عن مظان الإعجاز فيما ينكشف له من روائع البيان ، وعجيب النظم . . في تقديم كلمة على كلمة ، أو اختيار كلمة بدل كلمة ، أو حرف مكان حرف . .

إلى غير ذلك مما تثقل به موازين الكلام في مجال البلاغة والبيان . .
ولو كان «الزحشرى» معتزلياً وحسب ، لأخذنا بهذا الرأي ، ولقلنا إن مذهبه
هذا في التفسير ، هو أثر من آثار النظر ، وتقليب الرأي . . الأمر الذى يدين به
المعتزلة ، وينشئون عليه .

ولكن «الزحشرى» كان أديباً ضليعاً ، ذوقاً لطموماً الكلام . بصيراً
بمواقع الحسن ومواطن الجمال فيه . . لم تذهب مذاهب الكلام والجدل بشخصية
الأديب الذى فى كيانه ، بل ظل محتفظاً بطابعه الأدبى المركوز فى فطرته ، لم يفتقه
فى حال من أحواله أبداً .

فهو حين يؤلف فى اللغة ، يختط منهجاً خاصاً به ، يوائم ذوقه الأدبى ، ويجرى
مع فطرته فيه ، فلا يذهب مذهب أصحاب المعاجم والقواميس ، فى التعويل على شرح
المدلول اللغوى للكلمة ، وعرض الوجوه التى تستعمل فيها ، والمعانى التى تؤدبها ،
وإنما هو — إن فعل شيئاً من ذلك فعلة عرضاً لا عن قصد . . ثم قصد إلى الكلمة
فجاء بها منظومة ، فى مَثَلٍ سائر أو حكمة بالغة ، أو تشبيه مصيب ، أو استعارة
مشرقة ، أو كناية لطيفة . . وهكذا . . وذلك ما نجد عليه كتابه «أساس البلاغة»
فهو كتاب أدب ، وإن عدَّ فى حساب كتب اللغة !

وأكثر من هذا ، فإن «الزحشرى» قد ألف فى النحو كتابه «الفصل»
فجاء به فريداً بين كتب النحو ، إذ لم يخرج هذا المخرج الجاف المجدب الذى
أخرجه عليه أهله ، بل إنك لتتظر فيه ، وكأنك مع كتاب بلاغة وأدب . .
لم يستفرغ جهده فى هذا الجدل العقيم الذى تقوم عليه أغلب قضايا النحو ومسائله ،
بل وجه جهده إلى ما تنبض به الأساليب العربية من دلالات تُرى فى ضوءها
القواعد العامة التى تنظم البيان العربى ، وتحكم أساليبه .

وعلى هذا ، فإن تفسير « الزمخشري » للقرآن الكريم على هذا النحو الذي ذهب إليه في تفسيره هو مما أملت عليه طبيعته ، وهداه إليه ذوقه ، ومكّنه منه علمه بأساليب البيان ، وتمكّنه من اللغة ، وإحاطته بمفرداتها ، وتراكيبها ، وفنون منظومها ومنشورها .

وندع هذا لننظر فيما عند الزمخشري في إعجاز القرآن ، فذلك هو الذي دعانا إلى السعي للقائه هنا ، بعد أن طوّفنا بحماه مستأنسين ، وطرقنا بابه مستأذنين .

ماذا عن الزمخشري في إعجاز القرآن ؟

قلنا من قبل إن الزمخشري لم يتحدث حديثاً صريحاً محدداً في إعجاز القرآن ، كما فعل أكثر الذين كان لهم حديث في هذا الباب ، حيث يقولون مثلاً : وجه إعجاز القرآن في بلاغة نظمه ، وعلو معانيه « أو يقولون : « وجه إعجازه في الأخبار الغيبية التي جاءت فيه » ونحو هذا . لم يتحدث « الزمخشري » في إعجاز القرآن حديثاً على نحو هذه الأحاديث ، وإنما فسر القرآن كله تفسيراً عرض فيه روائع الظم القرآني ، وما ينكشف وراء هذه الروائع من أسرار ، تنبئ عن فضل هذا الكلام وعلوه على سائر الكلام . . ثم جعل لك أنت أن تصوّر وجوه الإعجاز على ما ترى من هذه الأسرار . .

إن وقوع الإعجاز أمر لا ينكره أحد ، ولكن وجوه الإعجاز كثيرة ، لا تكاد تضبط ، ولهذا وقع فيها الخلاف ، وتعددت حولها الآراء .

ولقد نأى « الزمخشري » بنفسه عن هذا المقام ، واتخذ لنفسه أفقا بعيداً ، أشرف منه على الباحثين عن وجوه الإعجاز ، فأطلع عليهم من « كشافه » نوراً مرسلًا من كل آية من آيات الله ، تشير إلى معجزة ، وتحدث عن إعجاز !

وقوع الإعجاز بعد النحرى :

ويتحدث الزخشرى فى مقدمة تفسيره ، عن وقوع الإعجاز ، فيقول عن القرآن الكريم ، المنزل من رب العالمين :

« الحمد لله الذى أنزل القرآن كتاباً مؤلفاً منظماً ، ونزله بحسب المصالح منجماً ، وجعله بالتحميد مفتتحة ، وبلاستعاذة مختتمة^(١) ، وأوحاه على قسمين : متشابهاً ومحكماً ، وفصله سوراً ، وسوره آيات ، وميز بينهما^(٢) بفصول وغايات ، وما هى إلا صفات مبتدأ مبتدع ، وسمات مُنشأ مخترع^(٣) . . فسبحان من استأثر بالأولية والقدم^(٤) ، ووسم كل شىء سواه بالحدوث عن العدم . .

(١) يفهم من قول الزخشرى : « وجعله بالتحميد مفتتحة ، وبلاستعاذة مختتمة » أن ترتيب السور فى القرآن على هذا النحو الذى رتب فى المصحف توفيقى ، أى أن ذلك الترتيب كان عن أمر النبى بما تلقى من وحى فى هذا . . لأن « التحميد » الذى افتتح به القرآن هو سورة « الحمد » وهى فاتحة الكتاب . ولأن « الاستعاذة » التى ختم بها القرآن هى ما فى الموعودتين : الفلق والناس .

والقول بأن ترتيب السور فى القرآن على هذا النحو الذى عليه فى المصحف - القول بأنه أمر توفيقى فيه خلاف . . والرأى الراجع أنه اجتهادى ، ونحن نرى أنه توفيقى . .

(٢) الضمير هنا للآيات . . والفصول والغايات : هى الفواصل التى تختم بها الآيات .

(٣) الضمير فى قوله : ما هى إلا صفات مبتدأ مبتدع يعود إلى الآيات ، ومبتدأ مخترع على زنة اسم المفعول ، ومراده به أن القرآن مخلوق أى أن الخالق سبحانه ابتدأه وابتدعه ، وأنشأه واخترعه . . وعلى هذا فإن الزخشرى يرى رأى أصحابه المعتزلة فى أن القرآن مخلوق محدث ، وليس قديماً . .

(٤) وقوله : سبحان من استأثر بالأولية والقدم ، تعريض بالفاثلين بأن القرآن قديم . . وأنه صفة من صفات الله سبحانه .

ثم يقول :

« أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه ، قاطعاً برهانه ، وحياً ناطقاً ببيانات وحجج ، قرآناً عربياً غير ذى عوج ، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية ، مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان ؛ فى كل مكان . . أحم به من طواب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم ، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناخض من بلغائهم . على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عدداً من رمال الدهناء ، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط فى المضادة والمضادة ، ولقائهم الشرأشر^(١) على المعازة والمعاراة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الفرط^(٢) ، وركوبهم فى كل ما يرومونه الشطط . . إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر ، وإن رماهم بمائرة رموه بمأثر . . وقد جرد لهم الحجة أولاً ، والسيف آخرها ، فلم يعارضوا إلا السياف وحده . على أن السياف القاضب مخراق لالعاب ؛ إذا لم تمض الحجة حدة . . فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلهم أن البحر قد زخر فطم على المراكب^(٣) ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور السكواكب . »

(١) الشرأشر: النفس ، يقال : ألقى عليه شرأشره إذا حرص عليه وأحببه وفقى فى حبه ، والممازة الأرض الصلبة ذات الحجارة ، والمعاراة الجذب والفقر ، والمعنى أنهم يستهلكون أنفسهم بالإلقاء بها فى مواقع الشدة والضيق فى غير مبالاة .

(٢) فى الأصل : « الخطط » ولا مفهوم له هنا . . والفرط — على وزن قر : التعجيل والمبادرة بالمكروه كقوله تعالى : « فلما تخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ، والفرط أيضاً السبق للموت .

(٣) فى الأصل السكواكب . . وهو تصعيف .

هذا ما يقوله « الزمخشري » في وقوع الإعجاز بالقرآن وقيام الحجة به على العرب ، إذ تحدّاهم أن يأتوا بأقصر سورة منه فما استجابوا لهذا التحدي ، لعلمهم بأن الأمر فوق قدرة البشر ، ولو كان ذلك أمراً واقعاً في إمكان الناس ، وفي مجال المحاولة لمحاولوا ذلك في لجاج وعناد .. فهم أصحاب الأنفة والحمية .. لو تحدّاهم الدهر لصاولوه وقاوموه .. ولكن ذلك الذي رأوه في القرآن قد قطع آمالهم دونه ، وملاً قلوبهم يأساً من أن يقوموا له .. فلم يقوموا ..

إشارات إلى ومجهر الإعجاز :

وإذا كان الزمخشري - كما قلنا - لم يتجه إلى البحث عن وجوه الإعجاز بحثاً علمياً ، يضع المقدمات ويستخلص النتائج - فإنه مع هذا - فوق منهجه في التفسير - قد أشار إشارات تكشف عن رأيه في الجهة التي جاء منها الإعجاز ، الذي أذهل العرب وأحزمهم ..

يقول في مقدمة « الكشف » :

« اعلم أن متن كل علم ، وعمود كل صناعة - طبقات ^(١) العلماء فيه متدانية ، وأقدام الصّناع فيه متقاربة أو متساوية ، إن سبق العالمُ العالمَ لم يسبقه إلا بخطى يسيرة ، أو تقدم الصانعُ الصانعَ لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة .. »

يريد الزمخشري أن يقول : إن مبادئ العلوم والصناعات قسمة مشتركة بين أربابها ، لا يكاد يفضل فيها أحدهم الآخر .. وإنما التفاضل فيما وراء هذه المبادئ من دقائق وخفايا ، ينقضها العالم أو الصانع من ذات نفسه ، على تلك المبادئ ، وهذه الأصول ، فإذا هي خالق آخر من خلقه هو ، ومن نفخة روحه هو .

(١) خبران .

يقول الزمخشري :

« وإنما الذي تباينت فيه الرتب ، وتهاكت فيه الركب ، ووقع فيه الاستباق والتناضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل ، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد ، وترقى إلى أن عد ألف بواحد - ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر ، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر ، ومن غوامض أسرار ، محتجبة وراء أستار ، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطتهم وفصمهم ، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداقهم ، عناة^(١) في يد التقليد ، لا يؤمن عليهم بجز نواصبيهم وإطلاقيهم .. »

والزمخشري يكشف هنا عن أصالة طبعه الفني ، وسلامة حسه الأدبي ، إذ يجعل للجانب الإنساني - الذاتي - مكانه وأثره في مجال الآداب والفنون . . فهذه الأسرار المودعة في روائع الآداب والفنون لا تعتمد على قواعد ثابتة مقررة ، من قواعد العلم والفن بقدر ما تعتمد على الروح الإنساني ، المنطلق في تلك المخلوقات ، التي يخلقها الأديب أو الفنان ، والتي يخلع عليها من ذات نفسه ، تلك الحياة التي تتجلى بها روائعها وعجائبها .

ثم يقول :

« ثم إن أملاً العلوم بما يعمر القرائح ، وأنهمها بما يبهز الأبواب القوارح^(٢) من غرائب نسكت يلطف مسالكها ، ومستودعات أسرار يدق مسبكها - علم^(٣) التفسير ، الذي لا يقوم لتعاطيه ، وإجالة النظر فيه ، كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن .. »

(١) جمع عان ، وهو الأسير . (٢) القوارح : جمع قارح ، وهو من ذوات

الحافر ما شق نابه وطلع . . والمراد به هذا ما استكملت قوتها . . (٣) خبران .

(٢٠ - إعجاز القرآن)

« فالقمية وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، وإن كان من « ابن القرية » ، أحفظ ، والواعظ ، وإن كان من « الحسن البصري » ، أوعظ ، والنحوي ، وإن كان أنحى من « سيويه » ، واللغوي ، وأن علك^(١) اللغات بقوة لحييه - لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يفاوض على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعاني ، وعلم البيان . . وتمهل في ارتيادها آونة ، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها همة ، في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله . . وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القرينة وقادها ، يقظان النفس ، درأ كالللمحبة وإن لطف شأنها ، منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها . . .

فعلم التفسير - كما يرى الزمخشري - وهو في منهجه علم غايته البحث عن أسرار القرآن ومواقع إعجازه - هذا العلم لا يستجيب إلا لمن أوتي حظاً كبيراً من علمي المعاني والبيان ، مع فطرة سليمة ، وبصيرة نافذة ، ونفس يقظ . . ولإذن فمظان الإعجاز في القرآن ، هي ما ضم عليه نظمه من دقيق المعاني ، ولطيفها ، وما تحمل ألفاظه في كيانه من أسرار محجبة لا ترى إلا لمن أوتي حظاً من ذوق الكلام ، وفهم مرامي البيان . .

أصله من تفسير الزمخشري :

ونقطع هذا الحديث ، ليصله « الزمخشري » نفسه بما في تفسيره من تطبيق على لهذا المصباح الذي رسمه لمن يدعو نفسه إلى تفسير القرآن . .

(١) علك : مضغ .

١ - في قوله تعالى :

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ، وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » (١) .

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية : « وابتلوا اليتامى » : واختبروا عقولهم ، وذكروا أحوالهم ، ومعرفة بهم بالتصرف قبل البلوغ ، حتى إذا تبينتم منهم رشدًا ، أى هداية ، دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حدّ البلوغ . .

« وبلوغ النكاح » : أن يحتلم ، لأنه يصلح للنكاح عنده (٢) ، وإطلب ما هو مقصود به ، وهو التوالد والتناسل . .

« والإيناس : الاستيضاح ، فاستعير لليتين . .

ثم يقول : فإن قلت : ما معنى تنكير الرشد ؟ قلت : معناه نوعاً من الرشد ، وهو الرشد في التصرف والتجارة ، أو طرفةً من الرشد ومخيلةً من مخيله ، حتى لا ينتظر به تمام الرشد . .

٢ - في قوله تعالى :

« وَمَا مِنْ آبَةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . تم إلى ربهم يُخْشَرُونَ ، » (٣) .

يقيم الزمخشري اعتراضاً بقوله : فإن قلت : كيف قيل : « إلا أمم » ، مع أفراد الدابة والطائر ؟ قلت : لما كان قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر ، دالاً على معنى الاستغراق ، ومعنيًا عن أن يقال : وما من دواب ولا طير ، مُحلّ قوله - تعالى - « إلا أمم » على المعنى !

(٢) الضمير راجع إلى الاحتلام ، أى عند الاحتلام

(١) سورة النساء : آية ٦

(٣) سورة الأنعام : آية ٣٨

ثم يقيم اعتراضاً ثانياً فيقول : فإن قلت : هلا قيل : « وما من دابة ولا طائر إلا أُم أمثالكم » ؟ وما معنى زيادة قوله : في الأرض ، ويطير بجناحيه ؟ قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه ، إلا أُم أمثالكم ، محفوفة أحوالها ، غير مهملة أمرها .

ثم يورد اعتراضاً ثالثاً . . فيقول : فإن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك ؟
قلت : للدلالة على عظم قدرته ، وإحاطة علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق
المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لها ، قائم عليها ، مهيم
على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكافئين ليسوا بـمخصوصين بذلك
دون من عداهم من سائر الحيوان .

۳ - فی قوله تعالى :

« وَإِنْ كُنتُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْفِئَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْشَةٍ
وَدَمٍ آبِنَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ » (١).

يقول الزمخشري : « من بين فرث » أى يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم ، يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله ، لا يبغي أحدهما عليه ، بلون ، ولا وطعم ، ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله . .

« قَيْن : إذا أكلت البهيمة العلف ، فاستقر في كَرِشِها . طبخته ، فكان أسفلها فرثًا ، وأوسطه لبنًا ، وأعلاه دما ، والسكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة ، تقسمها ، فتجري الدم في العرق ، واللبن في الضروع ، وتبقى الفرث في الكَرِش . فسيحان الله ! ! ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر ، وتأمل ! !

« وسئل « شقيق » عن « الإخلاص » فقال : تمييز العمل عن العيوب ،
كتمييز اللبن من بين فرث ودم !

« سائلاً » سهل المرور في الحلق ، ويقال : لم يغصَّ أحد باللبن قط . . وقرئ «
« سَيْغاً » بالتشديد ، و « سَيْغاً » بالتخفيف ، كهين ، ولين . .

ثم يورد الزمخشري — بعد تفسير الآية على هذا الوجه — اعتراضاً ، ويردّه .

يقول : فإن قلت : أى فرق بين « من » ، ^(١) الأولى والثانية ؟ قلت : « الأولى
للتبويض ، لأن اللبن بعض ما في بطونها ، كقولك أخذت من مال « زيد » ثوباً ،
والثانية لابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء ، الذى منه يبتدأ ،
فهو صلة للتسقيم ، كقولك سقيته من الحوض ، ويجوز أن يكون حالا من قوله
« لبناً » — مقدماً عليه ، فتعلق بمحذوف ، أى كأننا من بين فرث ودم ، ألا ترى
أنه لو تأخر ، فقول : لبناً من بين فرث ودم كان صفة له ؟ وإنما قدم لأنه موضع
« العبرة فهو قِمْنٌ بالتقديم .

وقد احتج بعض من يرى أن المنيّ طاهر على من جعله نجساً ، لجريانه في مسلك
البول — بهذه الآية ؛ وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر ،
كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً .

* * *

هذه أمثلة من منهج « الزمخشري » ، في تفسير القرآن . . وهو منهج — كما
ترى — قائم على النظر في مواقع الروعة والإعجاز ، فيما يكشف للنظر في كتاب الله ،
من دلالات روعته وإعجازه . .

(١) « من » الأولى هي : « من » في مما في بطونه ، و « من » الثانية هي : « من »
في « من بين فرث ودم » .

فإذا لم يكن « الزمخشري » قد بحث في إعجاز القرآن بحثاً علمياً موضوعياً ، كما فعل كثير غيره ممن حاولوا تلك المحاولة - فإنه - كما قلنا ، وكما رأيت - قد جعل القرآن كله ، آيات معجزة ، تطلع من كل حرف من حروفه ، ومن كل كلمة من كلمه ، وفي كل آية من آياته . .

وبهذا يرى الناظر في كتاب الله وجوهاً لا تنتهى حصراً وعدداً من وجوه الإعجاز ، تختلف في صورها ، وفي ملاححها ، وتتفق في قهرها وإعجازها . .

وهذا هو أعدل منهج وأقومه ، لمن يريد أن يشهد مشاهد الإعجاز في القرآن .
حيث يظل القرآن هكذا جنة سماوية ، فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . .
فحيث كان الناس من القرآن الكريم ، فهم في جنة عالية ، قطوفها دانية ، « كلمة رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل » .

* * *

القاضي عياض

٤٧٦ - ٥٤٤ هـ

١٠٨٣ - ١١٤٩ م

كلمة عنه :

هو القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي السبتي .. عالم المغرب ، وإمام أهل الحديث في وقته .. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، ولي قضاء « سبتة » ، ومولده فيها .. ثم قضاء غرناطة . وتوفي بمراكش .. ومن تصانيفه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » و « طبقات المالكية » ، و « شرح صحيح مسلم » و « مشارق الأنوار » في غريب الحديث ، وكتاب في التاريخ (١) .

رأيه في الإعجاز :

وقد عرض القاضي عياض في كتابه : الشفا في التعريف بحقوق المصطفى - لإعجاز القرآن ، من حيث كان هو المعجزة الخالدة للرسول الكريم . ويحصر القاضي عياض وجوه إعجاز القرآن في أربعة أوجه :

الوجه الأول :

« حسن تأليفه ، والتشام كليمه وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب .

« وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وفرسان هذا الكلام ، قد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان

(١) الأعلام لخبر الدين الزركلي جزء ٢/ ص ٧٤٩

« نقلا عن وفيات الأعيان »

مالم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الأبواب . . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقاً ، وفيهم غريزة وقوة . . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُبدلون به إلى كل سبب . . فيخطبون بديهاً في المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سبط الآل . . فيخدعون الأبواب ، ويدللون الصعاب ، ويُذهبون الإحن ، ويهيجون الدمن ، ويحرثون الجبان ، ويسطون يد البعد البنان ، ويصيرون الناقص كاملاً ، ويتركون النبیه خاملاً . . منهم البدوى ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجهورى ، والمنزع القوى . . ومنهم الحضرى ، ذو البلاغة البارة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والمتصرف فى القول ، القليل الكلفة ، الكثير الروق ، الرقيق الحاشية .

« ولهم الحجة البالغة ، والقوة الدامغة ، القدح الناجح ، والمهيج الناهج . . لا يشكّون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قد حَوَّأ فنونها واستنبطوا عيونها ، ودخلوا من كل باب من أبوابها ، وعلَّوْا صرحه لبوغي أسبابها ، فقالوا فى الخطير والمهين ، وتغننوا فى الغث والسمين ، وتناولوا فى القل والكُثر ، وتساجلوا فى النظم والنثر^(١) .

« فما راعهم إلا رسول كريم ، بكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . . أحكمت آياته ، وفصّلت كلماته ، وسهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتظافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه . وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوّت كل البيان جوامعه

(١) لعلك تلحظ فى هذا القول أثر الجاحظ ، الذى سبق بمثل هذا الرأى .

وبدائعه ، واعتدل على إيجازه ، حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده ، مختار لفظه ،
 - وهم - أى العرب - أفصح ما كانوا فى هذا الباب مجالا ، وأمنهر فى الخطابة
 حالا ، وأكثر فى السجع والشعر أرنجالا ، وأوسع فى الغريب واللغة مقالا . .
 بلغتهم التى بها يتجاوزون ، ومنازعهم التى عنها يتناضلون ، صار خاسمهم فى كل
 حين ، ومقرعاهم بضعة وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين :

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ،
 وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ،
 وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » (١)
 « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
 بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (٢)

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ » (٣)

ذلك أن المفتري سهل ، ووضع الباطل والمخترق على الاختيار أقرب . .
 واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح ، كان أصعب .

« فلم يزل يقرعهم صلى الله عليه وسلم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ،
 ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، وبشتت نظامهم ، وبذم آلهتهم وإياهم ، ويستبيح
 أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته ، يخادعون
 أنفسهم بالتشغيب بالكذب ، والإغراء بالافتراء ، وقولهم :

« إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَرٌ » و « سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ » و « إِنْكَ افْتَرَاهُ »
 و « أساطير الأولين » . .

(١) سورة البقرة آية ٢٤ (٢) سورة الإسراء آية ٨٨ (٣) سورة هود آية ١٣

والمباهة والرضا بالدينثة ، كقولهم :

« قُلُوبُنَا غُلْفٌ » ، و « فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » ، و « فِي آذَانِنَا وَقْرٌ » ،
و « مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حَبَابٌ » ، و « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْا فِيهِ أَعْلَكُمْ
تَعْلِيمُونَ » (١)

هذا وجه من وجوه الإعجاز كما يراه القاضى عياض . . وهو - كما ترى -
ليس من وجوه الإعجاز ، وإنما هو شاهد من شواهد الإعجاز ، ودليل من أدلته .
وقد بقيت هناك وجوه أخرى سيحدثنا عنها القاضى عياض . . فإذا يقول
فيها . . سنرى . .

الوجه الثانى :

وعن هذا الوجه يقول القاضى عياض :

« صورة نظمه العجيب ، والأسلوب القريب ، المخالف لأساليب العرب ،
ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفت مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته
إليه ، ولم يوجد قبله ، ولا بعده ، نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شئ منه ، بل
حارت فيه عقولهم ، وتدهلت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم
من نثر أو نظم ، أو سجع ، أو رجز أو شعر . . »

وهذا الوجه الذى يقول به القاضى عياض من وجوه الإعجاز هو ما عليه
أكثر الذين نظروا فى إعجاز القرآن ، وحاولوا الكشف عن بعض وجوهه . .
وهو هذا الأسلوب الذى انفرد به القرآن ، وجاء فيه على صورة من النظم لم تقع
للرب ، وإن جمعت الطيب الحسن من كل أسلوب . .

الوجه الثالث :

أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز - كما يرى القاضى عياض - فهو ما انطوى عليه - القرآن - من الإخبار بالمغيبات ، وما لم يكن ، وما لم يقع ، فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر .

كقوله تعالى :

«لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ»^(١) وقوله تعالى : «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ»^(٢) . وقوله : «لَيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» . وقوله : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا»^(٣) . وقوله : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» .

فكان جميع هذا كما قال .. فغلبت الروم فارس فى بضع سنين ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فما مات النبي صلى الله عليه وسلم وفى بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام ، واستخلف الله المؤمنين فى الأرض ، ومكن فيها دينهم ، وملسهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «زُوت لى الأرض ، فأريت مشارقها ومغارها ، وسيلع ملك أمتى ما زوى لى فيها . . .

والإخبار بالمغيبات التى يقول بها القاضى عياض - كما قال بها غيره - ليس وجهاً من وجوه الإعجاز يمكن أن يقطع الخصم عن المعارضة ، ويمسك به عن العناد واللجاج ، إذ كثير من الكهان كانوا يرجعون بالغيب ، فيصيبون ويخطئون ، ولو كان القرآن حين تحدى العرب - قد أشار إلى هذا الوجه من التحدى.

(١) سورة الفتح : آية ٢٧ (٢) سورة الروم : آية ٢ (٣) سورة النور : آية ٥٥

لَمَّا أَفْرُوا بِالْمَجْزِ عَنْهُ ، وَلَمَّا شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ الْحَيَاةُ بِهِ ، بَلْ لَسَكَانَ لَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ سَبِيلٌ إِلَى الْمَجَادَلَةِ وَالْحُجَاةِ وَالْمَعَارِضَةِ ، وَلَا اسْتَدْعُوا إِلَيْهِمْ كَهَيْئَتِهِمْ وَأَصْحَابَ الرَّؤْيِ عِنْدَهُمْ . . . وَلَسَكَانَ لَهُمْ قَوْلٌ إِلَى جَانِبِ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ . . . وَلَمَّا بَعُدَ مَا بَيَّنَّ الْقَوَائِنَ فِي مَقَامِ الصَّدَقِ وَالْيَقِينِ ! وَلَكِنْ الْخَصْمُ الْعَنِيدُ الْمُتَجَبِّرُ لَا يَسْتَسْلِمُ حَتَّى يَرْمِيَ بِأَخْرَ شَيْءٍ فِي يَدِهِ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ عَوْدًا مِنْ الْحُطْبِ يَقَاوِمُ بِهِ السُّيُوفَ وَالرَّمَا ح !

الوجه الرابع :

والوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن - كما يقول للقاضي عياض - هو :
« ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ، مما كان لا يَعْلَمُ مِنْهُ الْقِصَّةُ الْوَاحِدَةُ لِأَلْفِ مَنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، الَّذِي قَطَعَ عَمْرَهُ فِي تَعْلَمِ ذَلِكَ . . . فَيُورِدُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَجْهِهِ ، وَيَأْتِي بِهِ عَلَى نَصَبِهِ . . . فَيُعْتَرِفُ الْعَالَمُ بِذَلِكَ بِصِحَّتِهِ وَصِدْقِهِ ، وَأَنْ مِثْلَهُ لَمْ يَنْلَهُ بِتَعْلِيمٍ ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ ، وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَا اشْتَغَلَ بِمَدَارِسَةٍ وَلَا مِثَافَنَةٍ^(١) ، وَلَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ ، وَلَا جَهْلُ حَالِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ . . . »^(٢)

وهذا الوجه هو في رأينا كسابقه . . . لا يمكن أن يكون معجزة قائمة للتحدى التي طع المفحّم . . . ولأن كان هو وسابقه مما يضاف على إعجاز القرآن جلالاته وروعته ، ومما يزيد له إشراقاً وألقاً .

هذا ، وقد أخرج القاضي عياض وجهاً من وجوه الإعجاز عن هذه الوجوه الأربعة التي حصر فيها الإعجاز القرآني ، وكأنه يرى أن هذا الوجه نافلة ، وليس أصلاً في باب الإعجاز .

(١) المِثَافَةُ . المجالسة ، والمراد بها هنا مجالسة العلماء للتلقى عنهم .

(٢) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، للقاضي عياض - الجزء الأول ص ٢١٧ وما بعدها .

يقول القاضي عياض وهو يعدد وجوهاً أخرى من وجوه الإعجاز التي لم يرها أصلاً في هذا الباب .. : « ومنها - أى من وجوه الإعجاز - الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته ، لقوة حاله ، وإنافة^(١) خطره ، وهي على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستثقلون سماعه ، « ويزيدهم نفورا » كما قال تعالى ،^(٢) .. ويودّون انقطاعه لكرهتهم له .

« روى عن نصراني مرّ بقارىء يقرأ ، فوقف يبكي ، ف قيل له : لم بكيت ؟ قال : للشجاء ، والنظم !

« وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام . وبعده ، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة ، وآمن به ، ومنهم من كفر ..

« فحكى في الصحيح عن جُبَيْر بن مُطْعِم قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور - أى سورة الطور - فلما بلغ هذه الآية :

« أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمَصْطَفُونَ » - كاد قلبي يطير للإسلام . ا

« وفي حديث إسلام أبي ذرٍّ ، وقد وصف أخاه « أنيساً » فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخى « أنيس » .. لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية .. أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاء إلى أبي ذر بنحو النبي صلى الله عليه وسلم .. يقول أبو ذر : قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر .. كاهن .. ساحر .. ولقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر

(١) إنافة خطره : أى علو قدره .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « ولذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن ، أنسجد لما تأمرنا .. وزادهم نفورا » - الفرقان : آية ٦٥ .

«فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعرا وإنه لصادق ، وإنهم
لكاذبون !» (١) .

وهذا الوجه هو في رأينا عمدة وجوه الإعجاز في القرآن ، إن لم يكن هو
وحده وجه إعجاز القرآن ..

فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه ، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته
هي مناط إعجازه ، وهي المعجزة القائمة فيه أبد الدهر ! كما أشرنا إلى ذلك من قبل ،
وكما يكون ذلك من حديثنا في إعجاز القرآن بعد هذا . إن شاء الله .

وقد رأيت أن القاضى عياض قد جعل هذا الوجه حاشية في وجوه الإعجاز ،
«وهو الوجه الذى من حقه - في رأينا - أن يكون وجه الإعجاز وحده !

* * *

ابن عطية

لم يؤلف ابن عطية^(١) في إعجاز القرآن كتابا مستقلا ، وإنما حين ألف تفسيره المعروف للقرآن الكريم ، جعل بين يدي هذا التفسير مقدمة ، تحدث فيها عن القرآن وفضائله ، وعن الآراء التي قيلت في جواز تفسيره أو عدم جوازه . . ثم عرض لإعجازه وللوجوه التي قيلت في هذا الباب .

ويغلب على الظن أن ابن عطية كان ناقلا لتلك الآراء التي ذكرها في إعجاز القرآن . . وخاصة أن علماء الأندلس - وابن عطية منهم - كانوا - بصفة عامة - يرقبون علماء المسلمين في الشرق ، ويرصدون أقوالهم وآراءهم . . ومن جهة أخرى فإن هذه الآراء - كما سترى - ليس فيها جديد في مجلتها ، وإنما هي آراء قد سبقه إليها غيره كالجاحظ ، والخطابي ، والباقلاني وغيرهم .

ولكن آثرنا أن ننقل ما سجله في مقدمة تفسيره هذا ، إذ لا يخلو الأمر من لمحات وإشارات فيها شيء من الجدّة ، قد ألقى بها الرجل بين ثنايا هذه الآراء التي سبق إليها .

ما الطعير من القرآن :

يرى ابن عطية أن إعجاز القرآن هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالت فصاحة ألفاظه . وهو بهذا الرأي يجمع وجوهاً من آراء من سبقه من العلماء . . فليس النظم

(١) هو عبد الحق بن أبي بكر بن عبد الملك القرطبي بن عطية ، هكذا ورد اسمه في المقدمة التي نشرها المستشرق الدكتور « آرثر جفري » ولكن الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم حقق ، كتاب البرهان ينقل عن « الديباج المذهب » أن اسمه هو : عبد الحق بن غالب ابن عبد الوهّاب . (انظر البرهان في علوم القرآن جزء ١ هامش ص ٨) توفي سنة ٥٤٦ هـ . وهو أندلسي ، تفرد بالعلم والأدب ، وله تفسير جليل : سماه : « الجامع المحرر الصحيح الوجيز في تفسير القرآن العزيز » . .

وحده هو وجه الإعجاز عنده كما يرى ذلك الجاحظ ، وليست صحة المعاني وتوالي فصاحة ألفاظه وحدها هي وجه إعجازه كما يرى ذلك عبد القاهر ، وغيره . . وإما هو يجمع هذه الأمور ويجعلها وجهاً واحداً للإعجاز .

وهو بهذا الذي يقول به ، يلتقي مع جميع الذين سبقوه ممن نظروا في الإعجاز - إلا القائلين بالصرفه - إذ الجاحظ - ومن تبعه ممن قالوا بإعجاز القرآن من جهة النظم - لا ينكر ما لصحة المعاني في القرآن من أثر في صحة النظم نفسه . . لذا ليس النظم شيئاً ، والمعنى شيئاً آخر ، ولما هما كيان واحد . . وكذلك الرأي عند عبد القاهر !

يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره المعروف : « بالجامع الحرر » :

« اختلف الناس في إعجاز القرآن . . بم هو ؟ فقال قوم : إن التحدى وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات . . وأن العرب كُلفت في ذلك ما لا يطاق . . وفيه وقع إعجازها . »

« وقال قوم : لأن التحدى وقع بما في كتاب الله من الأنباء الصادقة، والغيوب المسدودة . »

ويُبطل ابن عطية هذين الرأيين ، ويصرح بفسادهما ، فيقول :

« وهذان القولان لما يَرَى الإعجاز فيهما من تقررت الشريعة ونبوّة محمد في نفسه . »

وأما من هو في ظلمة كفره ، فإنما يُتَحَدَّى فيما يتبين له بينه وبين نفسه عجزم عنه ، وأن البشر لا يأتي بمثله ، ويتحقق مجيئه من جهة التحدى ! « .

ونحن نرى أن هذا الرد غير مقنع ، ولا متكافئ مع الدعوى المدّعاة .

فالذي يرى أن الإعجاز وقع بالكلام القديم ، الذي هو صفة من صفات الله

سبحانه ، وأن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق ، — الذى يرى هذا رأى ، يدعى دعوى ، لا يسندها الظاهر الذى يقوم عليه نظم القرآن ، وألغازه .

فما جاء القرآن بكلام لم تعرفه العرب ، ولم تألفه من قبل ، ولأنما هو مما دار على ألسنتها ، ونظمت منه أشعارها ، وخطبها ، ومساجلاتها ، ومحاوراتها .

وليس في كلمات القرآن كلمة لم ترد على لسان العرب من قبل أن تدخل في نظم القرآن . . فكيف يقال إن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق ؟

وقد ضربنا لكلمات القرآن مثلاً بعضاً موسى .. وقلنا إن عصا موسى ليست إلا واحدة من العصى التى يتخذها الناس من فروع الأشجار . وما أنكر فرعون وقومه من أمر هذه العصا شيئاً .. حتى إذا ألقى بها موسى من يده فعلت هذه الأفاعيل العجيبة المعجزة .

وكذلك كلمات القرآن .. هى كلمات الناس التى تداولوها فيما بينهم .. ثم أفاض الله سبحانه عليها هذا الفيض ، ونفخ فيها من روحه كما نفخ في عصا موسى ! .. ولكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التى يعرفها الناس منها ، كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك .. وهذا هو سر الإعجاز وعظمته .. كلمات هن من كلام الناس ، ثم يفعلن هذا الأمر العجيب في النفوس ، ويُقمن هذا السلطان القاهر على القلوب .. وعصا موسى هى من عصى ، الناس ثم تفعل ما تفعل من آيات ومعجزات ! !

وما لنا نذهب بعيداً .. ؟ النبي ذاته — صلى الله عليه وسلم — من هو ؟ وما طبيعته ؟ أليس إنساناً من الناس ؟ وُلد لأبوين كما يولد الناس ؟ يأكل ، ويشرب ، ويصح ، ويمرض ، ويحوج ، ويشبع ، وينام ويصحو .. وهكذا تلبسه أحوال الناس حالا حالاً ، لا يختلف عنهم في شيء ، ولا يخرج على طبيعتهم

في قليل أو كثير .. ثم هو مع ذلك ما هو من عظمة وسمو ، حتى إنه يطول
السماء ، ويتعامل معها ! !

وأما القول بأن التحدّي وقع بما في كتاب الله من الأنباء الصادقة والغيوب
المسدودة .. وبهذا فقد كُلف العرب بما لا طاقة لبشر به - فهو قول مردود أيضاً ،
لأن العرب لم يطالبوا في القرآن بأن يأتوا بأنباء من الغيب ، بل صرح القرآن نفسه
بأن يجيئوا ولو بأحاديث مفتراة مختلفة .. « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات !
ثم يقول ابن عطية بعد هذا :

« فكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن وصف القرآن ، أو نظمه
وفصاحته متلقى من قبل محمد عليه السلام ، فإذا تحدّيت بمثل ذلك وعجزت عنه ،
لم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي ، يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به ،
إلا أن يخص الله من يشاء من عباده » .

ثم يقول : « وهذا القول هو الذي عليه الجمهور ، والحذاق ، وهو الصحيح
في نفسه ، وأن التحدّي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالت فصاحة ألفاظه » .
هذا هو وجه التحدّي كما يراه ابن عطية ، متابعاً في هذا غيره من جمهور النظار
في هذا الأمر .. ثم يشرح ابن عطية هذا الوجه .. فيقول :

« وجه إعجازه أن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله
علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته - سبحانه - أي لفظة تصلح ..
ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ..

« البشّر : منهم الجهل ، والنسيان ، والذهول .. ومعلوم ضرورة أن بشراً
لم يكن قط محيطاً .

« فهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة » ..

وهذا الذى يقرره ابن عطية ليكشف به عن سرّ الإعجاز فى نظم القرآن ، هو
« رأى دقيق حكيم ، نرى أن ابن عطية قد سبق إليه ، وأن « الرافعى » قد انتفع به
انتفاعاً عظيماً فى استطلاعاته حول الإعجاز فى كتابه : « إعجاز القرآن » .

فإحاطة الله - سبحانه - بكل شىء علماً ، وإحاطته بجميع الألفاظ التى
تجرى على ألسنة أرباب اللغة ، هى التى أعطت القرآن الكريم هذا النظم الرائع
المعجب المعجز . . فوضعت اللفظ المناسب للمعنى المناسب ، فى دقة وإحكام ،
بحيث لا يمكن أن يدخل عليها تقويم أو تعديل بعدها . .

أما البشر : فإن جهدهم محدود ، وطاقتهم تقهّر عن أن تنفذ إلى أعماق
الأمور كلها ، وتتناولها جميعها من أطرافها ، وبحال نفوسهم أضيق من أن يتسع
لأكثر من حال واحدة تقلبس به فى زمنٍ ما ، ولهذا فإن ما يخرج من أيديهم
فخرج وفيه هذا النقص ، ومعه هذا القصور الذى يحكم الطبيعة البشرية ويتحكم فيها .
ثم يردّ ابن عطية على رأى القائلين بالإعجاز بالصرفة . . فيقول :

« وبهذا المنطق يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى
بمثل هذا القرآن ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرّفوا^(١) عن ذلك وعجزوا عنه .
ثم يقول :

« والصحيح أن الإتيان بمثل هذا القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من
المخلوقين . . ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة
يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً ، ثم تعطى لأحد نظيره ، فيأخذها
بقريحة خاصة ، وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل . وكتاب الله
لو نُزعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب فى أن يوجد أحسن منها لم يوجد^(٢) . »

(١) فى الأصل « حرفوا » وهو تصحيف .

(٢) مقدمة ابن عطية ص ٢٧٨ « ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز » .

وهذا الذى يقرره ابن عطية - كما قرره الجاحظ ، وكما قرره عبد القاهر من قبله - من أن إعجاز القرآن هو فى هذا النظم المحكم الذى وقعت فيه كل لفظة موقعها الذى لا يرى لها موقع أحسن منه ، ولا أكثر ملائمة ، وأن نظم القرآن قد سلم من أن يعاد فيه النظر ، وأن يستأنف معه الرأى ، أو يراجع القول فى التعديل والتبديل فى كلماته أبد الدهر ، إذ ليس فى الإمكان أبدع مما كان - هذا الرأى من أمر الإعجاز فى القرآن هو فى الواقع أوضح أمانة من أمارات الإعجاز ، وأظهر شاهد من شواهده .

فإنه ما عمل إنسان عملاً ثم استأنف النظر فيه بعد حين - يطول أو يقصر - إلا انكشف له كثير من جوانب النقص فيه ، فأجرى عليه من التعديل والتبديل ما يحسب أنه قد بلغه الغاية من الجودة والإتقان . . ثم إذا استأنف النظر فيه بعد هذا بدّأ له من النقص ما كان خافياً . . وهذا فى كل مرة يرجع المرء فيها إلى أى عمل عمله أو قول قاله ، يجد أن هناك شيئاً أو أشياء قد وقعت فى غير موقعها ، وأن غيرها كان أولى بهذا المقام .

والقرآن الكريم ، قد نزل آية آية ، وسورة سورة ، فى مدى بضع وعشرين سنة . . وعيون العرب متطلعة إليه ، وآذانهم معلقة به ، وكيانهم كله متوجه إلى كشف عيوبه ، والوقوع على سقطات أو سقطات فيه . . فلم يقع لهم من ذلك شيء . . ولم تمكنهم منه فرصة . . ثم ظل هكذا على الصورة التى نزل عليها إلى يوم الناس هذا . . لم تبدل منه كلمة ، ولم يغير منه حرف . . ثم هو مع هذا على الكمال والتمام . . لا مكان فيه لكلمة تبدل ، أو حرف يغير ، فهو الكمال كله ، والتمام جميعه ، ولو أن يداً أثيمة ، أو لساناً سفياً أراد أن يغير حرفاً مكان حرف ، أو يبدل كلمة مكان كلمة من كتاب الله ، لافتضح أمره ، وضبط ملتبساً بهذا العمل

اللفضوح ، إذ أن القرآن ينفي الخبث عن كيانه ، ولا يقبل ما ليس منه ، كالجسم
السليم المعاق يطرد الجراثيم الحبيثة ، أو يقتلها . . وبهذا حفظ الله سبحانه كتابه ،
وتولى حراسته .

« إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الْقُرْآنَ كَرًّا ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (١) .

وكان هذا الحفظ موكولا إلى تلك القوى الروحية التي أودعها الله سبحانه
كتابته الكريم ، ليدفع بها عن نفسه كل سوء يراد به ، ويرد كل كيد يساق
إليه ، وهذا مما تشير إليه الآية الكريمة :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ،
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٢) .

الرافعى

والإعجاز (١)

رحم الله « مصطفى صادق الرافعى » لقد كان من أول من دخل هذه الحلبة من أبناء هذا العصر، وأفسح له مكاناً مع رجالها من علماء السلف في هذه الأمة . . . فلقد كادت هذه السلسلة تنقطع ، وكاد العصر ينقضى دون أن يقوم فيه رجل يحمل الراية في هذا الميدان ، ويؤدى للقرآن حقه الذى له على كل جيل من أجيال المسلمين . . .

إن الذين كتبوا فى إعجاز القرآن كتابة متخصصة قلة معدودة . . . وأغلب هؤلاء النفر القليل كان يدخل هذا الميدان خائفاً . . . يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، تهيئاً للموقف المهيّب ، وتحوّفاً من التقصير عن الوفاء بحق هذا المقام الكريم . . . وكان آخر من دخل هذه الحلبة هو « جلال الدين السيوطى » رحمه الله ، وكان ناقلاً أكثر منه باحثاً ومؤسساً . . . وهو على أى محمود ، مقدور !

وجاء الرافعى . . . فكان مقداماً جريئاً ، يحمل قلب مؤمن ، وعقل عالم ، وقلم أديب ! وبهذه النوى استطاع أن يثبت أقدامه ، وأن يحفظ توازنه ، وأن يمدّ يداً قوية ثابتة إلى مجانى القرآن ، فيقطع من ثمراته شيئاً موفوراً ، يقدمه للدارسين لكتاب الله ، وللمتوسمين فى آياته !

وليس من شك فى أن « الرافعى » قد أفاد كثيراً من أولئك الرواد الذين

(١) هو الأديب مصطفى صادق الرافعى ، صاحب القلم البليغ ، والأسلوب الجزل ، خلف وراءه تراثاً عظيماً طيباً من مباحث الأدب والبلاغة . . . عاش من (١٨٨٠ — ١٩٣٧ م)

سبقوه إلى هذا المطلب الكريم ، كالجاحظ والجرجاني ، والباقلاني ، والزرکشی ، والبقاعي ، والسيوطي ، وغيرهم ممن كتبوا في تفسير القرآن ، وفي علوم القراءات .
والذي نراه على « الرافعي » في إعجازه أنه أراد أن يرتفع بالأسلوب إلى مستوى يليق بالموضوع الذي يعالجه ، ويتسق معه . . فهو إذ يكتب في إعجاز القرآن ، ويقف بين يدي آيات الإعجاز فيه ، ويستقي من عيونه المتدفقة - حمله ذلك على أن يُدخل على نفسه شعوراً بأنه لن ينال من القرآن شيئاً ذا بال إلا إذا مدَّ إليه يداً ملففة في أردية من الفصاحة والبلاغة ، وقلماً مملولاً من فصاحة البادية ، وبلاغتها ، وكان لهذا التدبير أثره في الخروج على الطبع ، وفي استكراه كثير من الكلمات والأساليب على أن تأخذ مواضعاً غير مواضع . . ومن هنا كان ما يجد القارئ لكتاب الرافعي ، من استغلاق في كثير من عباراته ، ومن غموض في كثير من آرائه .

ولو أن الرافعي جرى على طبيعته ، وأخذ من خاطره ما ينضح به دون أن يعتصر ذهنه اعتصاراً ، لكان ذلك أجدي وأنفع ، وأبلغ ، في بلوغ الغاية التي يريد . ولكن « الرافعي » أبقى إلا أن يكون بليغاً حتى لكانه - من غير شعور - يعارض ببلاغته القرآن ، ويطاول بالذُّبالة التي تعبت بها الريح في يده ؛ الشمس في رابعة النهار !

ونستطيع أن نستعير هنا كلمة « للرافعي » قالها عن كتاب « إعجاز القرآن » للباقلاني فنقولها نحن له عن كتابه هو « إعجاز القرآن » للرافعي ، إذ يقول :
« على أن كتاب الباقلاني ، إن كان فيه الجيد الكثير ، كان الرجل قد هذبه وصفاه ، وتصنَّع له ، إلا أنه لم يترك فيه بادرة عابها هو من غيره . . ولم يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه » (١) !

وقد عاب « الرافعي » على الباقلاني وقوفه بالإعجاز القرآني عند حد الكلام - أي النظم - و « الرافعي » لم يخرج في مداره حول الإعجاز عن هذا الوجه الذي ذهب إليه « الباقلاني » ، وإن كان الرافعي قد جهل هذا الوجه ، وألقى عليه بعض الألوان والأصباغ ، في براعة ولطف ، وحسن صنعة ! فالرافعي لم يخرج في حديثه في إعجاز القرآن عن هذا الوجه الذي جرى عليه من سبقه من القائلين بأن النظم هو سر الإعجاز فيه . .

وقد حسب الرافعي أنه بهذه المزايا الكثيرة التي أظهر بها ذلك الوجه ، قد غيرت منه ، أو عددت في صورته وأشكاله فجعلت منه وجوها . . ولهذا تراه يقول :
« بيد أن القرآن كتاب كل عصر ، وله في كل دهر دليل من لدهر على الإعجاز ، ونحن قد قلنا في غير الجهات التي كتب فيها من قبلنا ، وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله به . . » (١) « إن ذلك على الله يسير » (٢) .

فهل قال الرافعي حقاً في إعجاز القرآن غير ما قال غيره ؟ وهل ذهب إلى وجه غير الوجوه التي ذهبوا إليها ؟

لقد عرفت الجواب على هذا مما قلنا من قبل ، وسترى بيانا شارحا لهذا الجواب فيما سنعرض من آراء « للرافعي » في الإعجاز !

مع الرافعي في إعجازه :

وها نحن أولاء نلتقي « بالرافعي » في إعجازه . فماذا نجد عنده ؟
ولكن قبل أن نبدأ صحبتنا له ينبغي أن نحدد اتجاهنا معه أولاً . . فلقد كان « للرافعي » اتجاهات كثيرة في هذا البحث الذي أداره حول الإعجاز . . إذ عرض لموضوعات كثيرة لا تتجه اتجاهها مباشراً إلى الإعجاز ، وإن كان لها مسلك إليه ومدخل فيه . . كتاريخ القرآن وجمعه وتدوينه ، واللغة التي نزل بها ، والحروف

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٧٣

«التي قرىء عليها ، وكتأثير القرآن في اللغة ، والجنسية العربية في القرآن ، وآداب القرآن . . ونحو هذا . . ونحن إذ نريد رأى « الرافعى » في الإعجاز . . فلنقتصد إلى موضع هذا الرأى في الكتاب . .

ما الإعجاز ؟

يرى الرافعى أن سر الإعجاز إلى شيئين : « ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاوتها ، على شدة الإنسان واتصال عنايته . ثم استمرار هذا الضعف على تراخى الزمن وتقدمه . . وكأن العالم كله في المعجز إنسان واحد ، ليس له غير مدته المحدودة ، بالغة ما بلغت . . فيصير - هذا الإنسان - من الأسر المعجز إلى ما يشبهه - فى الرأى - مقابلة أطول الناس عمراً بالدهر على مداه كله . . فإن المعمّر دهر صغير ، وإن لكليهما - المعمّر والدهر - مدة فى العمر هى من جنس الأخرى ، غير أن واحدة منهما استغرقت الثانية . . فإن شاركتها الصغرى إلى حد ، فما عسى أن تشركها فيما بقى ؟ » (١) .

هذا هو رأى الرافعى فى الإعجاز ؟ . . وهو حقيقة المعجزة . . فلا تكون المعجزة معجزة حتى تعجز قدرة الناس كلهم عنها جيلاً بعد جيل . . مع بقائها هكذا تتحدى قدرة الناس أبد الدهر !

الرافعى والآراء التى قبلت فى الإعجاز :

ثم يأخذ الرافعى فى عرض آراء العلماء السابقين فى الإعجاز ، ويستنفذ جهداً كبيراً فى عرض هذه الآراء ومناقشتها . . ثم ينتهى به المطاف إلى رفض هذه الآراء جميعها ، صحيحها وسقيمها ، فإذا انتهى من هؤلاء العلماء ، وقضى فيما خلفوا وراءهم من مباحث فى الإعجاز - هذا القضاء ؛ لم يدع الباب يغلق على فراغ ، بل حاول أن يسد هذا الفراغ . . وأن يقدم الرأى الذى يراه صحيحاً فى الإعجاز .

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٥٦ .

إعجاز القرآن عند الرافعى :

يقول الرافعى : « أما الذى عندنا فى وجه إعجاز القرآن ، وما تَقَفناه بعد البحث ، وما انتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء ، وإطالة الفكر ، وإنضاج الروية ، وما استخرجناه من القرآن نفسه فى نظمه ، ووجه تركيبه واطراد أسلوبه ، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة ، واكتناه الروح التاريخية فى أوضاع الإنسان وآثاره ، وما نتج لنا من تتبع كلام البلاء فى الأغراض التى يُقصد إليها ، والجهات التى يعمل عليها ، فى رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوى ، التى مرجعها الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حى من الألفاظ يطابق سنن الحياة ، فى دقة التأليف ، وإحكام الوضع ، وجمال التصوير ، وشدة الملاءمة حتى يكون أصغر شئ فيه كأبرز شئ فيه — نقول إن الذى ظهر لنا بعد ذلك واستقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن . . . ! ! »

« فهو — أى الإعجاز القرآنى — أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً ، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية ، يشاركها فى إعجاز الصنعة ، وهيئة الوضع ، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغاً من ذوب هذه المواد كلها . . وما نظنه إلا الصورة الروحية للإنسان — إذ كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله .

« فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز فى أثره الإنسانى ، ومعجز كذلك فى حقائقه . . وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية فى شئ . »
ففى باقية ما بقيت . . . (١) .

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٥

وأنت ترى أن الرافعى قد جعل وجوه إعجاز القرآن هي :

١ - تاريخه . ٢ - أثره الانساني . ٣ - حقائقه .

أما تاريخ القرآن ، ويريد به الرافعى نزول القرآن في تلك الفترة من حياة الأمة العربية ، والتي بلغ فيها شأن اللغة عندهم غايته ، ووصل أثر الكلمة في النفس الإنسانية مداه . . فكان مجيء القرآن في هذه الفترة بالذات ، وعلى هؤلاء القوم بأعينهم ، هو وجه بارز من وجوه الإعجاز !

يقول الرافعى :

« بلغ العرب في عَهْد^(١) القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يُعرف في تاريخهم من قبل . فإن كل ما وراءه - أى ما وراء هذا العهد - إنما كان أدواراً من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها مع سنن الاجتماع . . فكانوا قد أطالوا الشعرَ وافتنّوا فيه ، وتوافر عليه من شعرائهم أفراد معدودون ، كان كل واحد منهم كأنه عصر في تاريخه ، بما زاد من محاسنه ، وابتدع من أغراضه ومعانيه ، وما نفّض عليه من الصيغ والرواق . .

ثم كان من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشية ، يرويه مثلاً لـكمال الفطرة الممكن أن يكون وأخذهم في هذا السمت - ما جعل (الكلمة) نافذة في أكثرها - أى أكثر القبائل - لا يصدّها اختلاف من اللسان ، ولا يعترضها تناكر في اللغة ، فقامت فيهم لذلك دولة الكلام . . واسكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن ! »

ثم يقول :

« وكل من يبحث في تاريخ العرب وآدابهم ، وينفذ إلى ذلك من حيث تنفذ

(١) العهد جمعه عقود ، وهى من الأعداد أولها عشرة ، فعشرون ، فثلاثون إلى التسعين . والمراد به هنا الزمن ، أو اهل الكلمة محرفة عن عهد - إذ السكتاب مليء بالأخطاء المطبعية .

به الفطنة ، وتتأتى حكمة الأشياء ، فإنه يرى كل ما سبق على القرآن من أمر
الكلام العربى وتاريخه ، إنما كان توطيداً له ، وتهيئة لظهوره ، وتناهيها إليه ،
ودربه لإصلاحهم به .

« وليس فى الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة .. فما كان
فيهم كالبيان آتقَ منظرًا ، وأبدع مظهرًا ، وأمد سبيلًا إلى النفس ، وأردّ عليها
بالعافية ، ولا كان لهم مثل ذلك البيان أزكى فى أرضهم فرعا ، وأقوم فى سمأهم
شرعا ، وأوفر فى أنفسهم ريعًا ، وأكثر فى سوقهم شراء وبيعًا ! !

« وهذا موضع عجيب للتأمل ، ما ينفد عجبهُ ، على طرح النظر وإبعاده ،
وإطالة الفكر وترداده !

« رأى شىء فى تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهى بمعجزة لغوية . ؟
ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة ، مما تنطوى عليه هذه المعجزة ،
وتأتى به على أكمل وجوهه وأحسنها ، وتُخرج به الدهر خير أمة كان عملها فى
الأمم صورة أخرى من تلك المعجزة ؟ » (١) .

وهذا الوجه الذى يكشف عنه الرافعى من وجوه الإعجاز .. ليس جهة من
الجهات التى قامت عليها المعجزة .. بل هو أقرب شىء إلى أن يكون قرينة على
أن هذه الرسالة رسالة سماوية حيث جاءت على هذا التدبير الحكيم ، وحيث التقت
ذلك اللقاء الذى جمع هذا الجمع الفريد بين الزمان والمكان ، وأبناء الزمان والمكان ،
على تلك الصورة التى ألفت منها جميعاً وحدة واحدة كأنها جسد واحد ، ينبض
بالقوة ويفيض بالحياة .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : « الله أعلم حيث يجعل
رسالته » أى يضعها حيث تقتضى حكمته .. فى الإنسان ، والزمان ، والمكان .
ثم يتحدث الرافعى بعد ذلك عن أثر الرسالة وقوة فاعليتها فى الأمة العربية ،

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٧ .

وإخراجها الناس عن أنفسهم، وسنخهم عن طبائعهم، وإعادة خلقهم خلقاً جديداً . . يقول :

« هذا على أنه - أى القرآن - كما علمت - أنشأهم على الكبر (١) ، ولم يجر معهم على المألوف من مذاهب تربية الأمم ، ولا هو كان طباقاً لروح الأخلاقية التاريخية فيهم ، التي تُظهرها (٢) العادات على كل دين ، وشرعية ، وسياسة ، إذ كانت ميراث الدهر ، وكانت مستقرة في كل عرقٍ سارٍ ، وفي كل شبة نازع ، وكانت روح الجماعة لا تكون إلا منها ، ولا تُعرف إلا بها ، ولا تظهر إلا فيها - فما عدا القرآن أن سقه أحلامهم ، ونكس أصنامهم ، وأزرى عليهم وعلى آباؤهم الأولين ، وقام على رؤوسهم بالتقريع والتأنيب ، وهم أهل الحمية والحفاظ ، وأهل النفوس التي تُصَبُّ كالعاني في الألفاظ ، ثم ذهب بطريقة كانت لهم معروفة ، وعادات كانت لهم مألوفة ، وأرسلهم في طريق العمر إلى الفناء ، فكأنما طاع بهم من أولها ، وكانهم بعد ذلك على آدابه نشأوا وهم أغفل وأحداث ، بل كأنهم سلالة أجيال كان القرآن في أوليتهم المتقدمة ، فكانوا هم الوارثين لا الموروثين ، والناشئين لا المنشئين ، مصداقاً للحديث الشريف : « خير القرون قرني ثم الذي يليه » .

ثم يقول : « ولعمرك إن هذا للعجيب . . وليس أعجب منه إلا أن أول جيل أنسل من هؤلاء القوم كان هو الذي تناول مفتاح العالم فأداره في أقفال الأرض ، وقد خرج للغاية التي جاء بها القرآن ، وكأنه دار معها في الأصلاب دهرًا طويلاً حتى أحكمته الوراثة الزمنية ، وردت عليه من الطباع مالا يتهم إلا في سلالة بعد سلالة ، وجيل بعد جيل ، من قوم قد مرثوا منذ أولهم في أدوار الارتقاء على سنن واضح ، وطريق نهج ، لم ينتقض لهم في أثناء ذلك طبع من طباع الاجتماع ، ولا رذلت شيمته .

(١) أى جاءهم القرآن وقد قطعوا في الحياة عمرًا طويلاً .

(٢) أى تجعل لها الغلب والاستملاء .

ولا التوت طريقة ، ولا سقطت مروءة ، ولا ضلّ عقل ، ولا غوت نفس ،
ولا عرض لهم بنى ، ولا أفسدتهم عادة ! .

« وأين ذلك كله من قوم كانوا بالأمس عاكفين على الأوثان ، يأكل
بعضهم بعضاً ، ولهم العادات المردولة والعقائد السخيفة ، والطباع الممزوجة إلى غيرها ،
كما يحول عليه الإفراط فيما زعموه فضيلة ، كحمية الأنف ، واستقلال النفس ،
وما كان من عكس ذلك كالتسليم للعادة ، والانقياد لطبيعة التاريخ ، والمضى
على ما وجدوا ، ثم الموت على ما ولدوا (١) .

ثم يقول : « لاجرم أن ذلك سر من أسرار الفطرة ، فلو أن ركيز الأمر
بينهم كان للفصاحة وأساليبها بما استقام لهم من الفطرة اللغوية وما بلغوا منها . .
حتى صارت هذه الأساليب كأنها أعصاب نفسية في أذهانهم ، تنبعث فيها الإرادة
بأخلاق من معانى الكلام الذى يجرى فيها ، وتعتزّهم - أى تغلبهم - على
أخلاقهم ، وطباعهم ، فتصرفهم فى كل وجه ، كأنها إرادة جبار معتزم ، لا يلوى
ولا يستأنى ، ولا يتنذ . . » (٢) !

وأنت ترى أن الرافعى يريد أن يقيم وجهاً آخر من وجوه الإعجاز للقرآن ،
بما ترك القرآن فى العرب من آثار ، وبما غير وبدل من طبائعهم وموروثات
عاداتهم ، ومألوف حياتهم . .

ونحن لانسلم بما يقول « الرافعى » عن العرب ، وما كانوا عليه من سوء وفساد
وأنهم كانوا يسيرون فى اتجاه مضاد للحياة حتى أشرفوا على الفناء ، وأن الإسلام
دفع بهم إلى هاوية الفناء التى أشرفوا عليها ، ثم طلع بهم على الحياة من جديد . .
لانسلم بهذا القول على إطلاقه . . إذ كان العرب على الفساد الذى ركبهم أقرب

(١) أى الموت على ما ولدوا عليه .

(٢) إعجاز القرآن ص ١٧٩

الناس إلى الخير ، وإلى قبوله ، وإذا كان هذا الفساد لم يصبهم في سرواتهم ،
وفي نخوتهم وقوة نفوسهم .. إنهم مازالوا أرضاً طيبة .. نبت فيها الشوك ،
وشوّه وجهها الجذب .. أما صميم الأرض فهو طيب .. إذا أصابها غيث
انخضرت وأزهرت وأخرجت من كل زوج بهيج .. فلم يكن من إعجاز القرآن
هنا إلا أنه غرس مبادئ الإسلام وشريعته في منابت مهياة للغرس والنثر .

ولو سلمنا بهذا القول الذي يقوله الرافعي ، لَمَا كان هذا من وجوه إعجاز القرآن ..
إذ لا يصح أن يكون شاهد المعجزة متراخياً في الزمن عنها ، واقعاً في أعقابها ،
فذلك وضع لا يستقيم أبداً .. وشاهد لا تنتفع به المعجزة إلا بعد أن تثبت أولاً ..
فإذا طلع بعد هذا شاهد جديد كان ذلك توكيداً لها ، وشاهداً يراه من لا يرى
شواهد الإعجاز في وجه المعجزة !

نعم .. يمكن أن ترى الأجيال التي جاءت بعد عصر النبوة ، أو في أواخر
عصر النبوة هذه الآثار التي أقامها القرآن في الحياة ، وأخرج ثمراتها للناس ..
فحينئذ كد في قلوبها الإيمان ، وترسخ العقيدة ؛ ويكون في هذا ما يقيم للقرآن حجة
على من لا يرون الإعجاز في آياته وكلماته .. وإنما يرون المعجزات الحسية التي
تلمس باليد ، وترى بالعين !

ولكن الإعجاز الذي وقع به التجدي هو إعجاز في ذات القرآن .. في
آياته ، وكلماته ..

فلقد تحدى القرآن الإنس والجن على أن يأتوا بمثله .. ذلك ، وهو مجرد
آيات تُتلى ، وكلمات تُقرأ وتسمع .. لم تكن تلك الكلمات قد اختلطت بالحياة ،
ودارت دورتها في الناس وأقامت دولة ، وأنشأت نظاماً !

هذا الإعجاز ، هو الذي ينبغي أن نبحت عنه ، وأن ننظر إلى شواهد في آيات

القرآن وكلماته ، كما كان ينظر إليها أولئك الذى سمعوا كلمات الله لأول مرة . . .
قبل أن يدخلوا فى الإسلام ، فبهرم القرآن ، وملك وجودهم ، وأخرس ألسنتهم .
إن النظر إلى سير الدعوة الإسلامية ، وإلى هذا الانقلاب الذى أحدثته تلك
الدعوة فى الحياة ، ليس إلا أموراً عارضة لا تتصل بالصميم من المعجزة الخالدة . .
إذ قد يستقيم الناس على دعوة القرآن فيخرجون للحياة على أكل صورة ، وأعدل
حكومة . . كما كان ذلك فى الصدر الأول للدعوة ، وقد لانتستقيم خطاهم مع
دعوة القرآن فتلتوى بهم المسالك ، وتتقطع بهم السبل ! كما كان ذلك فى كثير
من أحوال المسلمين فى مختلف الأوطان والأزمان . .

فلو أن معجزة القرآن كانت قائمة على هذا الوجه الذى يقول به الرافعى وهو
تلك الفاعلية المذهلة التى تركها فى المجتمع الإسلامى الأول ، ولو أن هذا الوجه
قد استقام فى حال فلان يستقيم فى جميع الأحوال ، ويكون شاهد حياته هو شاهد
موته ، وكما يكون حجة للقرآن ، فقد يكون حجة عليه ، كما نسمع كثيراً من
السفهاء والمضللين يقولون : إن الإسلام ، وبالتالى القرآن ، هو سبب تأخر
المسلمين اليوم ، وإنه لا سبيل إلى الخلاص من هذا التخلف واللاحاق بركب
الحياة إلا إذا خلع المسلمون دينهم هذا ، وألقوا ذلك الكتاب الذى فى أيديهم !

ويقول « الرافعى » بعد هذا !

« ولولا أن القرآن الكريم قد ملك سرّ هذه الفصاحة ، وجاءهم منها بما
لا قبل لهم برده ، ولا حيلة لهم معه ، مما يشبه على التمام أساليب الاستهواء فى علم
النفس ، فاستبدّ بإرادتهم ، وغلب على طباعهم ، وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه
من خلافه ، حتى انعقدت قلوبهم عليه ، وهم يجهلون فى نقضها ، واستقاموا
لدعوته ، وهم يباغون فى رفضها ، فكانوا يفرون منه من كل وجه ، ثم لا ينتهون

إلا إليه ، إذ يروونه أخذَ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات النفس العربية . . .
والسكابةُ في الأمور النفسية لا تتجاوز أطراف الألسنة ، فإن اللسان وحده هو
الذى يستطيع أن يتبرأ من الشعور ويكابر فيه ، إذ هو أداة مغليّة تتعاورها
الألفاظ ، والألفاظ كما يُرْمَى بها في حق أو باطل ، لا تمتنع على من أرادها
لأحدها ، أو لها جميعاً . . .

ثم يقول :

« لولا أن ذلك على وجهه الذى عَرَفْتَ ، لما صار أمر القرآن إلى أكثر
مما ينتهى إليه أمر كل كتاب فى الأرض ، بل لما كان له فى العرب أمر ألبتة ،
لأنهم قوم أميون ، قد تأملت فيهم طباع هذه الأمة . . .

ويقول أيضا :

« فلو أن هذا القرآن غيرُ فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها
التي ألفت إليهم لما نال منهم على الدهر منالاً ، ولخلا منه موضعه الذى هو فيه ،
ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب ، والأقاصيص . . . وهو لم يخرج
عن كونه فى الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه قبل أن يوجد بألفاظه
وأساليبه . . . ثم لنقضوه كلمة كلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ،
أو تتراجع طباعهم . ولكن لهم وله شأن غير ما عرف ، ولكن الله بالغ أمره .
« وكان أمر الله قدراً مقدوراً (١) » .

هنا يكشف الرافعى عن رأيه صريحاً فى إعجاز القرآن . . . وهو أن فصاحة
القرآن هى آية إعجازه . . .

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٠

والفصاحة - كما يراها الرافعي - ألفاظ وأساليب ، وليست معاني وحقائق ،
إذ المعاني - كما يقول - ليست غريبة على العرب ، بل إن القرآن كان كأنه
موجود فيهم بأكثر معانيه . أما الجديد عليهم ، وأما الذي أخذ بقولهم
وقلوبهم ، وملك أسماعهم وأرواحهم ، فهو نظم هذه المعاني على هذه الصورة المعجزة
من الألفاظ والأساليب !

وأنت ترى أن هذا الرأي ليس جديداً ، وإنما هو الرأي الذي يكاد يكون
موضع اتفاق بين الذين نظروا في إعجاز القرآن ، والتسوا وجوه الإعجاز فيه . .
فهو رأي الجاحظ ، والجرجاني ، والباقلاني ، وغيرهم ممن كان لهم اتجاه في
هذه السبيل .

« والرافعي » يؤكد هذا المعنى الذي ذهب إليه في إعجاز القرآن ، فيقول
في موضع آخر بعد أن يذكر أثر القرآن في البيئة العربية ، والمجتمع العربي . .
يقول :

« وهذا الذي وصفناه أمر لو ذهبت تلتسمه في تاريخ الأرض كلها ، ما رأيت
أسبابه الفطرية في غير أولئك العرب ، ولا رأيت تحقيقه في العرب إلا من ناحية
القرآن وإعجازه ، بنظمه وأساليبه وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة التي أقل
ما توصف به أنها السحر ، بل السحر بعضها » (١) .

أسلوب القرآن :

وحين ننظر في الميزان الذي يزن به « الرافعي » أسلوب القرآن ونظمه الذي
به كان الإعجاز - نراه لا يخرج كثيراً عن مقولات من سبقوه ممن يقولون
بالإعجاز من هذه الجهة ، فهو يرى أن استقرار الحرف في الكلمة ، وتوازن

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٨٠ .

«الكلمة مع الكلمة في الجملة، وتجاوب الجملة مع الجملة في الآية.. كل هذا من شأنه أن يقيم أسلوباً فريداً في النظم.. تتوهمه العرب ولا تحققه، وتظنّاه ولا تقع على ظله.

يقول الراجعي :

« وهذا الأسلوب : فإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله ، ليس من ذلك - أي أسلوب القرآن - شيء إلا وهو معجز ، وليس من هذا - أي كلام العرب - شيء يمكن أن يكون معجزاً .

« وهو - أي أسلوب القرآن - الذي قطع العربَ دون المعارضة ، واعتقلهم عن الكلام فيها ، وضربهم بالحجة من أنفسهم ، وتركهم على ذلك يتلكئون.. ثم هو الذي مثل لهم اليأس قائماً لا يتصل به الطمع ، وصوّر لهم العجز غالباً لا تنال منه القدرة .. »

« وقد كانوا يتساجلون الكلام، ويتقارضون الشعر، ويتناقضون في أغراضه ومعانيه، حين لم يكن من الفرق عند فصحاءهم بين فن وفن من القول، إلا ما يكون من تفاوت المعاني، واختلاف الأغراض، وسعة التصرف، وكان أسلوب الكلام قبيلاً واحداً، وجنساً معروفاً، ليس إلا الحرّ من المنطق، والجزل من الخطاب، وإلا اطراد النسق، وتوثيق السرد، وفصاحة العبارة وحسن ائتلافها.

« فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألقوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا مُعاياة^(١)، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماته، وكلماته

(١) المعاياة : من المعى والمعجز من الإبانة عما في النفس.

في جملها ، ونسق هذه الجمل في جملته - ما^(١) أذهلهم عن أنفسهم . من هيئة رائعة ، وروعة كخوفة ، وخوف تقشعر منه الجلود ، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية ، وتخلّف الملكة المستحكة ، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ماهر فيه ، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم .. بل هو السرّ الذي يُفشى بينهم نفسه ، وإن كتموه ... »

ثم يقول: « ولما كان مرجع تقدير الكلام في بلاغته وفصاحته إلى الإحساس وحده ، وخاصة في أولئك العرب الذين من أين تأملتهم ورأيتهم كأنما خلّقوا خلقاً لغوياً ، وكان القرآن الكريم قد جمع في أسلوبه أرقى ما تحسّ به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ، ومذاهب النفس إليه - فقد أحسّوا بعجزهم عما امتنع مما قبله ، وكان كل امرئ منهم كأنما يحمل في قرارة نفسه برهان الإعجاز ، وإن حل كل إفك وزور على طرف لسانه ! »^(٢) .

ثم يعقد الرافي بعد ذلك مباحث في تركيب الكلمات القرآنية وبنيتها من الحروف ، ثم تركيب الجمل من الكلمات ، ثم بناء جملة القرآن من هذه الجمل ، ويرى في كل مرحلة من تلك المراحل ، أو في كل جزئية من هذه الجزئيات كلاً معجزاً في ذاته ، مستغنياً عن أية إضافة ، فإذا اجتمع الكلام إلى الكلام كان آية ، وكان قرآناً ..

وإذا كان الرافي لم يأت بجديد في هذه المقولات - كما رأيت - وكان مسبقاً فيها جميعها ، فإنه قد بسط القول ، وعمّق الفكرة ، ونظّم بناءها ، بحيث تكاد تكون نظرية من النظريات العلمية - ولكنه مع هذا لم يتخلّ من التعميم

(١) ما اسم موصول .. مفعول به للفعل (ورد)

(٢) إعجاز القرآن للرافي ص ٢١٧

وإرسال الكلمات المطلقة ، والعبارات الشعرية . . وهو لا يستطيع غير ذلك في هذا المقام ، كما لا يستطيع أحد يقف هذا الموقف أن يكون على غير تلك الحال . . فكل من ينجى إلى القرآن ، ينجى وهو عند نفسه قادر على أن يكشف هذا السر المضمّر الذي اشتمل عليه القرآن ، فأعجز الخلق أن يأتوا بمثله ، ولكن ما إن يقف المرء تجاه القرآن حتى تأخذه الروعة منه ، وتستبدّ بمشاعره هذه القوى الروحية السارية فيه . . فإذا هو شاعر ، يتملّى من هذا الجمال ، ويسبح بحمد هذا الجلال ، إن لم تستقم بحور الشعر وقوافيه على لسانه ، فإنها قد تخلّقت واستقامت في مشاعره ووجدانه !

فالرافعى معذور - كغيره - إذا هو لم يستطع أن يستملّى قلبه من غير هذا المداد الشعري ، الذي استملّى منه من سبقوه ، وسيستملّى منه كل من يجيئون بعده ، ممن كتبوا أو يكتبون في إعجاز القرآن ، ويحاولون الكشف عن وجه هذا الإعجاز .

* * *

فريد وجدى

ورأيه فى الإعجاز

لم يؤلف « محمد فريد وجدى » كتاباً خاصاً فى الإعجاز القرآنى ، وإن كانت حياته الأدبية والعلمية كلها تكاد تكون عملاً متصلاً ، وجهاداً خالصاً تحت راية القرآن ، فما قرأ أو كتب إلا وهو فى صحبة هذا الشعور ، وعلى هذا النية فى الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، وعن كتابها ، وعن رسولها ، وعن لغتها .

ولقد كانت حياة « فريد وجدى » حياة مباركة خصبة ، تركت فى الأمة الإسلامية ثروة عظيمة من علمه الغزير الذى أودعه بطون الكتب ، بعد أن جال به فى مجال النظر والمناظرة فى المجتمع الإسلامى أكثر من نصف قرن . . . فى مقالات ومداخرات ، ومعارضات ومحاضرات ، تطلع كل يوم على آفاق الإسلام ، فيلقاها هذا المجتمع حقيماً بها ، منشوقاً إليها ، مقدراً لها . . . إذ أخذ الرجل منذ يومه الأول فى ميدان العلم مكاناً رفيعاً ، يزداد على الأيام رفعة ، ورسوخاً ، وتقديراً حتى لقي ربه راضياً مرضياً .

ولسنا هنا فى مقام الكتابة عن سيرة هذا العالم المجاهد — وإن كنا نتمنى على الأيام أن تمنحنا العزم على كتابة هذه السيرة الطيبة — ولكن الذى نريد أن نقوله هنا هو أن « محمد فريد وجدى » فى كتاباته الإسلامية لم يبحث هذه البحث « التقليدى » فى إعجاز القرآن ، وإفراده بدراسة خاصة مستقلة به . . . ومع هذا فقد كان له رأيه فى « الإعجاز » . . . وهو رأى واضح صريح جرى . . . قد كاد يخرج على مألوف الآراء التى وقف عندها الباحثون فى أمر الإعجاز ، وعرض وجوهه .

فالرأى الغالب عند العلماء - في الإعجاز - كما رأينا - هو النظم القرآنى ، وما اشتمل عليه هذا النظم من خصائص وصفات انفرد بها عن مألوف النظم الذى عرفته العرب ، وكان تفرُّده هذا ، إلى الحد الذى يعجز عنه البشر ، لو حاولوا أن يجزوا معه فى تلك الحلبة .

هذا هو الرأى الغالب ، وهو الوجه الظاهر عند الناظرين فى الإعجاز ، وإن قامت إلى جانبه وجوه أخرى .

ولكن « فريد وجدى » جعل أمر « النظم » هذا فى موضع غير موضع الصدارة أو « البؤرة » فى مقام الإعجاز ، بل إنه كاد يُجْلِيه عن هذا المقام ، ويخرجه من هذه القضية كلها . !

يقول فى هذا :

« حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كلَّ عنايتهم فى بيان الإعجاز من جهة بلاغته ، فكتبوا فى ذلك فصولاً ضافية الذيول ، وبعضهم خصها بالتأليف . وإننا كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة ، إلا أننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولاهى أكثر جهات إعجازه سلطانا على النفس ، فإن للبلاغة على الشعور الانسانى تسلطاً محدوداً ، لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والاقبال عليه ، ثم يأخذ هذا الإعجاب والاقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه ، حتى تستأنس به النفس ، فلا يعود يُحدث فيها ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها .

« وليس هذا شأن القرآن ، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته يزيد تأثيراً ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر فى ذلك ، أن يبحث عن وجه

إعجازه في مجال آخر ، يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى ، الذي كان للقرآن قلوب الملحين » .

وأنت ترى أنه ينكر على الكلمة أن تحيا حياة خالدة متجددة في أى صورة من صور النظم ، وسناقش هذا الرأي بعد أن نستكمل عرضه ، على الوجه الذى صوّره به صاحبه . .

ثم يقول : « العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل . . وهى أن القرآن « رُوح » من أمر الله تعالى . .

قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » (٥٢ : الشورى) .

« فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير « الروح » في الأجساد ، فيحركها ، ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يعتمدى سلطانه حدّ إطبائها ، والحصول على إعجابها .

« فقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . يكفي وحده في إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة ، تتلأأ في نورها الإلهى ، وتتألق في جمالها القدسى . . ذلك لما كان القرآن روحا من أمر الله ، فلا جرم كانت له « روحانية » خاصة ، هى عندنا جهة إعجازه ، والسبب الأ كبر في انقطاع الانس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهى !

« نعم إن جهة إعجاز الكتاب الإلهى الأقدس هى تلك (الروحانية العالية)

«التي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد^(١) خلافة الله في أرضه، وأرغمت لهم معاطس الجبابة، والقساورة، ووطأت لهم عروش الأكاسرة والقيصرة، حتى صاروا ملوك الملوك، وإخوان الملائكة، في مدة لا يصعب عدُّ سُدَّيْها على الأصابع . . « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

فجبة إعجاز القرآن - كما يرى « وجدى » - هي روحانيته، التي تُشهد آثارها، ولا يُعلم كنهها . . إنها أمر من أمر الله، وروح من روحه . .

ونحن - وإن كنا نتفق مع « وجدى » في أن للقرآن سلطاناً أسرايملاك النفوس، ويستولى على العقول، وأن فيه روحاً علوياً، هو الذى يبسط له هذا السلطان، ويمكن له منه - إلا أننا نرى أن هذا الروح لا بد أن يلبس تلك الألفاظ التي نُظمت قرآناً، كما تلبس الأرواح الأجساد، فتبعث فيها الحياة، وتخلع عليها خلع الحسن والجمال . .

إن أجمل جمال وأكمله فيما تراه العين، هو هذا الجمال الحى، الذى تموج فيه تيارات الروح، وتنطلق منه مسارب الحياة، فتطل علينا منه لمحات ومخايل، نرى فيها خلجات المشاعر، ونبضات الوجدان، وحديث الخواطر، ومكنون السرائر.

ولو أن هذا الروح قد زایل السكّن الحى لبرد، وتحول إلى رماد المرأة الجميلة الرائعة . . والقراشة المتأقّة الحاملة . . والعصفور النشوان الغرد . . والزهرة المشرقة الناضرة - إنها تشد إليها الأنظار، وتجذب نحوها القلوب ما كان روح الحياة متلبساً بها، مشرقاً في كيائها . . فإن هي تعرت من هذا الروح أزورت عنها العين، وعاقمتها النفس، وتحوّلت إلى عالم الغثاء والركام ! والكلّام مادة من مواد الحياة . . كالخجر، والتراب، والذهب، والورق،

(١) يقصد العرب .

والشجر .. ومحوها .. إذا انتظم فيه روح أشرق ، وأزهر ، وأثمر ، فكان جمالاً
في العين ، وبهجة في النفس ، وروحاً للروح .. وإلا فهو أشياء ساكنة خالية ..
لا يقف عندها نظر ، ولا يُشغل بها قلب !

وكما يستطيع الإنسان أن يطلق من روحه شرارات تبعث في الجماد وجوداً ،
له على النفوس والقلوب تأثير وسلطان - حين يقيم من الحجر تمثالاً معجباً ،
أو صرحاً ممرداً ، أو حين يؤلف من الصوت نغماً متجانساً ، أو يشكل من الألوان
صوراً نابضة ناطقة - فإنه كذلك يستطيع أن يقيم من الكلام بياناً آخذاً
ساحراً .. إننا نوافق « وجدى » ونخالقه في آن ..

نوافقه في أن في القرآن روحاً ، هي التي تطعم منه على الناس فيعجبون ،
ويدهشون .. ويعجزون . ونخالقه في أن هذا الروح شيء منفصل عن كلمات
القرآن ، قائم من بين يديها أو من خلفها ، وإنما يسرى هذا الروح في كلمات
القرآن ، ويشعل فيها وقدة مشرقة ، يرى الناس منها آيات الإعجاز في ذلك النظم
الرائع المعجز الذي نظمته القدرة وأحكمت نظمه ، كما يروون سمات الجمال وآيات الحسن ،
فيما أبدعت قدرة الخالق وحكمته من ألوان الحسن والجمال المنبث في هذا الوجود ..
فليست هذه الروحانية التي يجدها الذين يتصلون بالقرآن - قارئين أو مستمعين -
شيئاً منفصلاً عن كلمات القرآن .. وإلا كانت معجزةً بذاتها ، وكان للناس
أن يطلبوا شهادة حسية تشهد لها ، وإلا كان القول بها دعوى ، أو ادعاء !
وندع هذا الآن - لنصل الحديث مع « فريد وجدى » فإنه ما زال لحديثه
بقية ، من الخير أن نستمع إليه ، وننظر فيه ..

يقول « وجدى » :

« لا مُشاهدة في أن القرآن فصيح ، قد أخرج بفصاحته فرسان البلاغة ،
وقادة الخطابة ، وسادات القوافي ، وملوك البيان .

« وهو حكيم . . بهر سماسرة الحكمة والفلسفة ، وأدهش أساطين القانون والشرعية ، وحير أراكين النظام والدستور . . وهو حق . . ألزم كل غال^(١) الحاجة ، ودل كل باحث على المحجة ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهو هدى ورحمة ، وشفاء لما في الصدور . .

« كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور ، والعواطف والميول ، فتتحكم فيها ، تحكم الملك في ملكه ، ولكنه فوق ذلك كله (روح من أمر الله) ، تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر .

« هذه الروحانية تنفذ إلى سر سريرة الإنسان ، وسويداء ضميره ، وتستولى منها على أصل حياته ، ومهبط عواطفه وإحساساته ، وتخلق خلقاً جديداً ، وتصوره بصورة لا يتخيلها ، ولو قيلت له لما أدركها .

« ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحولون عنها ، ولا بسأمون منها ، فنفتحهم بروح عالية ، فقاموا بواسطتها يحملون الملوك سلطتهم ، ويطوِّقون القياصرة سطوتهم ، ولم يتموا جواتهم هذه ، حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها إلى أقصاها . .

ثم يقول :

« أى برهان أكبر على تبدل أرواحهم من هذا ؟ كانوا بالأمس ممزقين مشنتين ، لا تجمعهم رابطة سياسية ، ولا قومية ، بل ولا دينية . . فى أخشن مواقع الأرض

(١) الغالى : واحد « الغالية » وهى فرقة من الفرق المنحرفة عن سواء السبيل .

وأجديها ، وأبعدها عن النظام والحكمة والآمال العظيمة ، والفتوحات — يقومون بعد سنوات قليلة من بعثة نبهم ، ينشرون الفضل والفضيلة ، والكمال ، في أرجاء هذا العالم المضطرب ، ووسط هذه الفتن المزعجة !

« أى حجة أكبر من هذه الحجة على أن القرآن روح إلهي ، وأمر سماوي ؟

« وأى وجه من وجوه إعجازه بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم — أوقع في

النفس وأنفي للشك . وأولى بالقبول من وجه روحانيته ؟ »

« إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان ، روحانية يدركها من

لاحظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة ، وإدراك البلاغة . .

« ألا ترى أن الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير

صوت حسن . . حتى أنهما ليكادان يُفرقان بين ما هو قرآن ، وما ليس بقرآن

لو أراد التالي أن يغشهما ؟

« هذه روحانية تظهر جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل

الاستشهاد والاعتباس في صفحة كبيرة . . فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من

بين السطور ، وخلال التراكيب ، كأنهما شمس في رابعة النهار ، مهما كانت

درجة تلك الصفحة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ .

« هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها . .

« أما ظهورها للعارف فبين لا يحتاج لبيان . .

« وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأنجمية فبتأثيرها ونتيجتها » .

وحق ما يقول به « وجدى » هنا من : « إن الطفل والعامي يعتريهما تهيب

عند تلاوة القرآن . . ولو بغير صوت حسن . . »

وذلك مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن روحانية القرآن ممسكة بألفاظه ، سارية في نظمه ، وأنه إذا كان الطفل والعامي يقع لهما من ذلك الروح القرآني شيء يبعث في نفسيهما تهيباً وخشية ، فإنهما كذلك يكون شأنهما إزاء كل رائعة من راعات الحسن والجمال . .

وإذن فليست شهادة الإعجاز القرآن تأثر الطفل والعامي بكلماته ، وتهيبهما عند تلاوته ، وإن كان ذلك مدخلا إلى الإعجاز ، حين يقف منه العالمون موقف النظر والتأمل !

ثم يقول :

« هذا رأينا في جهة إعجاز القرآن . .

» وهو فيما نعلم يحل مشاكل هذا البحث ، ويمكن الاستدلال عليه بالحس

والواقع .

« أما ما ولىع به الناس من أن القرآن معجز لبلاغته ، وتجاوزه حدود الإمكان ، حتى وقف ذلك الإعجاز ببلاغته دون وجوه إعجازه الأخرى — فلم نقف له على أثر في ذات القرآن ، مع أنه قد ورد ذكر القرآن في آيات عدة ، فلم نر في واحدة فيها ما يوافق ما يذهب إليه الآن الكثيرون . . فقد وصف الله كتابه فقال :

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » . . « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » . . « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » . . « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » . . « قَدْ جَاءَكُمْ بُصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ » . . « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ » . . هُدًى وَرَحْمَةً

« الْقَوْمُ يُؤْمِنُونَ » . . « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » . . (١) .
ويقول :

« وصف الله كتابه في هذه الآيات الكريمة بأوصاف كثيرة ، وليس من بينها واحد يشير إلى بلاغته اللفظية . . ذلك أن البلاغة من الصفات الثانوية التي لا يصح أن يتمدح بها الله في كتابه . . ولو كانت البلاغة في أساس تحديه للكفار بالإتيان بسورة من سورته ، أما كان يشير إلى تلك البلاغة ولو في آية واحدة ، وقد أتى بعشرات منها في التنويه بحقيقته وحكمته وروحانيته . . ؟

« أليس في هذا إشارة إلى أن وجه إعجازه غير البلاغة اللفظية » ! (٢) .

هذا ما يقرره « وجدى » في إعجاز القرآن ، وفي الوجه الذي كان منه إعجازه . .

ونقول : لماذا لا يكون نظم القرآن وبلاغته هو وجه إعجازه ؟ ولماذا لا تكون روحانية القرآن منتظمة في هذا النظم ، متلبسة به ؟

ألا تستطيع الكلمة أن تحمل الروح ، كما تستطيع الأجساد والأشياء حملها ، وإبداء المكنون من أسرارها ؟

إن « وجدى » — فيما يخيل إلينا — يعدل عن هذا الطريق الذي لا تقوم به حجة الإعجاز إلا على العرب وحدهم ، ومن يحسنون اللسان العربى ، ويدركون أسرار البيان العربى — إلى طريق آخر تقوم به الحجة على العرب وغير العرب ،

(١) وردت أخطاء كثيرة في الآيات القرآنية ، وقد نقلناها على الوجه الصحيح لها .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين . لمحمد فريد وجدى . . مادة قرأ . . المصنف الأول

من المجلد ٧ ص ٦٧٧ وما بعدها ومقدمة تفسير القرآن لوجدى . .

مَنْ يحسنون اللغة العربية ومن لا يحسنونها ، ومن يدركون أسرارها ومن لا يدركون . . إذ الروحانية — التي يقول بها — لاتحتمل على لغة ، ولا تؤدّي بيان وبلاغة ، وإنما هي سر يتبع القرآن في كل حال ، ويغشى كل قلب ، كما يغشى ضوء الشمس كل عين !

ولا شك أن هذا حكم فيه تحكّم وغلو . . إذ لو كان من شأن القرآن أن يحمل روحانيته معجزة يقيمها حجة على العرب وغير العرب لما جاءت تلك المعجزة باللسان العربي ، ولجاءت في صورة مشتركة الفهم عند الناس جميعاً . . ولما كانت الكلمة هي محل هذه المعجزة ، ولما اختصّ العرب بهذه المعجزة دون سائر الناس ، ولكان من الطبيعي أن تكون معجزة الرسالة العامة أمراً عاماً يشهده الناس جميعاً .

والذي نراه ، هو أن الإعجاز القرآني إنما هو تحدّ للعرب ، وحجة عليهم وحدهم . . حجة قهر وإلزام . . ولهذا لم يقبل الإسلام من العرب إلا الدخول في الإسلام ، أو القتل ، على حين قبل من غير العرب الجزية دون القتل إذا أبوا الدخول في الإسلام . . أما غير العرب فالحجة عليهم حجة ضمنية ، إذ أن عجز أرباب البيان عن لقاء هذا البيان السماوي يشهد للمعجزة شهادة قاطعة عند من لا يحسن العربية ، وذلك حين يرى مصارع الأبطال في حومة الوغى ، ويأخذ الحكمة من رأس الذئب الطائر ! !

وأما القول بأن القرآن لم يذكر شيئاً عن وجه الإعجاز الذي به كانت معجزة على تعدد الأوصاف التي وُصف بها في آيات كثيرة — فإننا نظن أن فيه قصوراً ، حيث لم يتناول الآيات التي وُصف فيها القرآن الكريم بالبلاغة والبيان ، والإحكام . . فمن ذلك قوله تعالى :

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (١) .

فالبيان هنا ، هو صفة هذا القرآن ، و « المبين » مبالغة في البيان . . والبيان إنما يحىء من إحكام النظم وبلاغته ، ولهذا ذكر بعده : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى نزل بلسانكم ، وجرى على أساليب بيانكم ، لعلكم تعقلون أمراره ، وإعجازه . . ومثل هذا قوله تعالى :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى :

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ . . وَأَوَّلُ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْ جَدَّوْا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » (٣) .

وقد تحدث العلماء عن وجوه هذا الاختلاف التى كانت تقع فى القرآن . لو أنه كان من قول بشر . . ومن هذه الوجوه اضطراب النظم ، وتفاوت الأسلوب . فلا يكون على وجه واحد ، ولا على درجة واحدة ، فى إحكام النظم ، وعلو الأسلوب . . أما وقد جاء القرآن على حالٍ سواء فى إحكام نظمته ، وروعة بيانه ، وعلو أسلوبه ، مع هذا الامتداد الطويل فيه ، وفى أزمان نزوله وأحواله — فإن ذلك دليل على أنه ليس لبشر إليه سبيل ، وأنه تنزيل من رب العالمين . .

(١) سورة يوسف آية ٢

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ — ١٩٥

(٣) سورة النساء آية ٨٢

ومن ذلك أيضاً قول الرسول الكريم : « أنا أفصح العرب . . بيد أنى من قريش » ، وقوله : « إن من البيان لسجرا » . . فإن فى هذا ما يدل على أن « الكلمة » يمكن أن تحمل المعجزة ، وأن يتعلق بها مناط الإعجاز ، إذا بلغت فى البلاغة حداً تقصر عنه بلاغة البلغاء ، ويستخرى أمامه بيان الأبيناء . . وذلك لا يكون إلا بنظم كلامى ، تنظمه يد القدرة ، وتحكمه حكمة الحكيم العليم . . « ذلكم الله رب العالمين » .

* * *

آراء متفرقة .. في وجوه الإعجاز

ولا بأس من أن نثبت هنا بعض الآراء التي قيلت في إعجاز القرآن لعلماء لم يكن لهم اتجاه مباشر إلى هذا البحث ، وإن تكن قد جرت على ألسنتهم أو بأقلامهم كلمات عن إعجاز القرآن في معرض بحوث أخرى .. في التفسير أو الأدب ، أو اللغة .. ونحو هذا .

وها نحن أولاء نثبت بعض هذه الآراء ، ونعلق على ما استدعى الحال التعليق عليه منها ..

أبو حيان التوحيدي (١) :

يقول أبو حيان : مثل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن ، فقال : هذه مسألة فيها حيفٌ على المعنى .. وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان ، فليس في الإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ، ودللت على ذاته .

« كذلك القرآن ، لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك الشيء آيةً في نفسه ، ومعجزةً لمحاولة ، وهدى لقائه .

« وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه ، وأمراره في كتابه .. فلذلك حارت العقول . وتاهت البصائر عنده » (٢) .

(١) هو علي بن محمد بن العباس المعروف بأبي حيان التوحيدي ، توفي سنة ٣٨٠ هـ يقول عنه « ياقوت الحموي » كان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وكان « جاحظياً » يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في مسلكه . فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة . (معجم الأدباء جزء ١٥ ص ٥)

(٢) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي جزء ٢ ص ١٢٠

وأبو حيان وإن يكن يَروى هذا الرأي رواية ، وينسبه إلى غيره . فهو في الواقع رأيهُ هو . . أو أنه أخرج هذا الرأي على الوجه الذي يرضاه ، وبأسلوبه الفلسفي الذي عُرف به .

وعلى أيِّ فإنَّ أبا حيان إن لم يكن قائل هذا الرأي فهو راض عنه ، معتقده . والرأي الذي يذهب إليه « أبو حيان » ، أو بندار الفارسي — في إعجاز القرآن — هو أن القرآن معجزة في ذاته ، فلا يمكن أن يقال : أين المعجزة فيه ، أو منه ؟ فكأن القائل بهذا يقول : أين المعجزة في المعجزة ؟ أو أين الإنسان في الإنسان ؟ ولا شك أن هذه مغالطة من أبي حيان . . فإن كون القرآن هو معجزة بذاته لا يمنع أن يعرف الناس وجه الإعجاز في المعجزة ، وذلك فيما يبدو للناس منها ، حسب وقعها عليهم . إذ أنهم لا محالة حين يواجهون المعجزة القرآنية — يعرفون أين مكان « الضغط » منها على قلوبهم وعقولهم ؟ وطبيعي ألا يكون ذلك مكاناً واحداً ولا جهة واحدة ، بل هو أمكنة لا تعد ، وجهات لا تحصى . . ولهذا اختلفت الآراء فيها وتعددت ! ومع هذا الاختلاف وهذا التعدد فإن الإعجاز مطلب لا يفتر الناس أبداً عن البحث عنه ، والتمهّد إلى ، إذ يجدون دائماً آثاره مشتملة عليهم ، كلما قرءوا شيئاً من كتاب الله ، أو استمعوا له .

الراغب الأصفهاني :

يقول الراغب الأصفهاني (١) في تفسيره :

« الإعجاز المتعلق بنفسه . . إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته ، أو بمعناه . .
« أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى .

(١) هو أبو القاسم محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، صاحب كتاب مفردات غريب القرآن وله كتاب في تفسير القرآن ، توفي سنة ٣٩٦ هـ

« فإن ألفاظه ألقاظهم .. قال الله تعالى : « قرآنًا عربيًا » .. بلسانٍ عربيٍّ مبين » .. ولا بمعانيه ، فإن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة .
قال تعالى : « وَإِنَّهُ آفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » .

« ولا بما هو في القرآن من المعارف الإلهية ، وبيان المبدأ والمعاد ، والإخبار بالغيب . فإعجازه من هذا الوجه ، ليس براجع إلى القرآن ، بل لكونها حاصلة بغير تعليم وتعلم ، ويكون الإخبار إخباراً بالغيب ، سواء أكان بهذا النظم أو بغيره ، مؤدًى باللغة العربية ، أو بلغة أخرى ، بعبارة أو إشارة » .

يريد الأصفهاني أن يقرر هنا أن الإخبار بالغيب معجزة في ذاته ، وليس في ذات القرآن ، لأن من يخبر بالغيب بأية وسيلة من وسائل الإخبار يكون معجزاً .. وإذن فليس للقرآن هنا فضل على غيره من حيث هو كلام ، وإنما الفضل للأخبار الغيبية التي فيه .

ثم يقول الأصفهاني :

« فإذن ، النظم المخصوص صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره .

« وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه .. لا بعنصره .

« كالخاتم والقرط والسوار ، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسمائها ..

لا بعنصرها ، الذي هو الذهب أو الفضة أو الحديد » .

وواضح من هذا أن الأصفهاني يجعل إعجاز القرآن في نظمها على تلك الصور التي جاء بها ، والتي تبدو أكثر ما تكون في بنائه على آيات ، مختمة بقواصل ذات نظم خاص ، تختتم بها الآيات ، وتترابط ، وتتوازن .

ثم يقول :

« وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا

النظم مخالف لنظم ما عداه .. فنقول :

٥ مراتب تأليف الكلام خمس :

١ - ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض ، لتحصل الكلمات الثلاث :
الاسم ، والفعل ، والحرف .

٢ - تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض ، لتحصل الجملة المفيدة ، وهو النوع الذى يتداوله الناس جميعاً في مخاطبتهم وقضاء حوائجهم . . . ويقال له المنثور من الكلام .

٣ - ضم بعض هذه الكلمات إلى بعض ضمّاً له مبادئ ومقاطع ، ومداخل ، ومخارج ، ويقال له المنظوم .

٤ - أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجييع ، ويقال له السجع .

٥ - أن يجعل له مع ذلك وزن ، ويقال له الشعر . .

٦ والقرآن جامع محاسن الجميع ، على نظم غير نظم منها . . . (١) .

فالأصبهاني إذ يكشف عن وجه الإعجاز في القرآن ، يراه في هذا النظم الذى تفرد به ، على نظام لم تألفه العرب في كلامها من شعر ، ونثر ، ونظم ، وسجع . . . بل حواها جميعها ، وجاء بها على أعدل الوجوه وأتمها .

ولاشك أن مجرد مخالفة العرب في أساليب كلامها لا يجعل الكلام معجزاً . ولا يخلص إليه من تلك المخالفة - مجرد المخالفة - مزايا تعلق به على سائر الكلام . فقد تكون هذه المخالفة - كما قلنا من قبل - إلى ما هو أحسن ، أو إلى ما هو أسوأ .

ولكن المخالفة التى بان بها القرآن على سائر الكلام مخالفة في الأسلوب ؛

(١) نقلاً عن الإقنان في علوم القرآن للسيوطي جزء ٢ : ص ١١٩ .

تقترن بها أمور كثيرة ، تجعل لهذه المخالفة تلك المنزلة العالية التي انفرد بها القرآن الكريم . . مثل روعة الأداء ، وسموّ المعنى ، وروحانيته ، إلى غير ذلك من المقامات التي تتدرج فيها مراتب الكلام ، وتتفاوت منازلها .

السطحي :

يقول السكاكي^(١) في « المفتاح » :

« اعلم أن الإعجاز يدرك ، ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن .. تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحاة .. وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله غير ذى الفطرة السليمة^(٢) .

وما يقوله السكاكي عن إعجاز القرآن هنا هو مقطع القول كله في هذا الأمر .. إذ ليس الإعجاز الذي رآه الناس من أمر القرآن إلا روعة تملّكهم ، وإلا جلالاً يحيط بهم .. وما كان الكلام أن يصوّر حقيقة الروعة ، أو يسكّ مواقع الجلال .. إنها معانٍ تُدرك ، وتستشعر ، ولا توصف !

ولهذا فإن الناس من القرآن الكريم على منازل ودرجات وحظوظ .. كل ينال منه بقدر ما عنده من استعداد للتجاوب العقلي ، والروحي ، والنفسي معه .. !
إنه كما يقول الرسول الكريم : « مَأْدُبَةُ اللَّهِ » .. ينال كل منها بقدر ما اتصل إليه يده ، وتمتد إليه عيناه ، وتشتهي نفسه !

الفخر الرازي :

يقول « الفخر الرازي »^(٣) :

-
- (١) هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي صاحب كتاب مفتاح العلوم في البلاغة — توفي سنة ٥٦٧ هـ
(٢) نقلاً عن كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جزء ٢ / ص ١٣٠
(٣) هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي صاحب التفسير المسمى « مفاتيح الغيب » توفي سنة ٦٠٦ هـ

« إن وجه الإعجاز في القرآن : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب » .

وهذا تعميم ، وإطلاق للحكم ، بحيث يدخل مع القرآن غيره من كل كلام بليغ ، فما هي حدود الفصاحة التي إذا تجاوزها الكلام وعلا عليها كان معجزاً ؟ وما هي مواطن الحسن في غرابة الأسلوب حتى تنتهي به إلى الإعجاز ؟ فهل كل أسلوب غريب يكون بليغاً ؟ ثم معجزاً ؟ ولقد تكون غرابة الأسلوب داعية إلى سقوطه ، كما تكون وجهاً جديداً من وجوه البيان ، ولوناً متفرداً من ألوان البلاغة !

ثم ما هي العيوب التي إذا سلم منها الكلام كان بليغاً ؟ وهل تكفي السلامة من العيوب ليكون الكلام على درجة من البلاغة تُوفي به إلى مطالع الإعجاز ؟

كنا نود أن يكون « للرازي » صولة وجولة في هذا المجال ، فهو خير من يقوم لهذا المقام ، ويحسن القول فيه .. ولكن يبدو أنه لم يشأ أن يُشغل هذا عن القرآن نفسه ، وأن يفتح باباً للجدل حول معاني القرآن وألفاظه فيعيد بذلك الحرب جَذَعَة في القول : بأن القرآن مخلوق ، أو غير مخلوق .

هـ : هـ :

ويقول « حازم » ^(١) في « منهاج البلاغ » :

« وجه إعجاز القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أحوالها في جميعه ، استمراراً لا يوجد له فترة ^(٢) ، ولا يقدر عليه أحد من البشر .
« وكلام العرب ، ومن تكلم بلفظهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع

(١) هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجي الأنصاري القرطبي ، توفي سنة ٦٨٤ هـ

(٢) أي فتور وتخاذل .

أنحائها في العالى منه إلا في الشيء اليسير المحدود . . ثم تعرض الفترات الإنسانية ؛
فينقطع طيب الكلام وروقه ، ولا تستمر الفصاحة لذلك في جميعه ، بل توجد في
تفاريق وأجزاء منه » .

وهذا كلام قد سبق به « الجاحظ » ثم تابعه فيه من جاء بعده ممن تكلموا
في الإعجاز . .

ثم إن هذا الوجه من وجوه الإعجاز لا ينكشف إلا بعد النظر في القرآن
الكریم كله ، وهو لا يكون إلا بعد أن يتم نزوله جميعه على الرسول الكريم . .
ولقد تحدّث القرآن الكريم العرب وأعجزهم ولم يكن قد نزل منه إلا قدر يسير .
فالمعجزة والإعجاز قائمین في القرآن الكريم في أقصر سورة منه .

المراكشي :

يقول المراكشي ^(١) في « شرح المصباح » :

« الجهة المعجزة في القرآن تُعرف بالتفكير في علم البيان ، وهو ما يحترز به
عن الخطأ في تأدية المعنى ، وعن تعقيد ، ويعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد
رعاية تطبيقه لمقتضى الحال . .

لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظ . . وإلا لكانت قبل نزوله معجزة
ولا مجرد تأليفها ، وإلا لكان كل تأليف معجزاً .

ولا إعرابها . . وإلا لكان كل كلام معرب معجزاً .

ولا مجرد أسلوبه ^(٢) ، وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً . . ولكان

هذه يان مسيئة معجزاً .

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء توفي سنة ٥٧٢١ هـ

(٢) يقصد بالأسلوب هنا ما جاء عليه النظم الفرأ في من تفرد به هذا الأسلوب في النظم
وتقسيم الكلام إلى آيات ، وختم كل آية بفاصلة .

« ولأن الإعجاز يوجد دون الأسلوب في نحوه : » فلما استبأسوا منه خلصوا
نجياً » « فاصدع بما تؤمر » (١) . .

« وليس إعجازه بالصرف عن معارضتهم ، لأن تعجبهم كان من فصاحته ،
ولأن مسيلمة وابن المقفع والمعري وغيرهم قد تعاطوا لها ، فلم يأتوا إلا بما تمجده الأسماع ،
وتنفر منه الطباع ويضحك منه .

« وإنما إعجازه في أحوال تركيبه ، وبذلك الأحوال أعجز البلغاء ، وآخرس
الفصحاء ، فعلى إعجازه دليل إجمالى ، وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها ،
فغيرها أخرى . .

ودليل تفصيلي : مقدمته . . التفكير في خواص تركيبه ، ونتيجته . . العلم
بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علماً (٢) .

و « المراكشى » في هذا الرأي يعدُّ من القائلين بأن الإعجاز هو في نظم
القرآن ، وأن هذا النظم جاء على صورة فريدة معجزة مفهومة .

ولا يقصد « المراكشى » بالنظم مجرد الصورة اللفظية ، وما تقوم عليه من براعة
الصياغة ، وجودة السبك ، وتجانس اللفظ ، وتوازن النغم — وإنما يقصد هذا ،
ويقصد أمراً آخر وراءه ، وهو محاميل هذا النظم ، وما ينطلق منه من إشارات
مضنية تشير إلى ألوان من المعانى . . تعلن بعضه ، وتكتم بعضه . . وهذا ما يشير
إليه المراكشى بقوله : « المعجزة في القرآن تعرف بالتفكير في علم البيان ، وهو
ما يحرز به عن الخطأ في المعنى ، وعن تعقيد ، ويعرف به وجوه تحسين الكلام
بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال » .

فوجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال هو المجال الذى تتحرك
فيه بلاغة البلغاء . . فما طابق مقتضى الحال من الكلام فهو بليغ ، وما أضاف

(١) حيث أنه ليس في هذا النظم فاصلة قرآنية كما هو الشأن في معظم آيات القرآن .

(٢) الإتيان في علوم القرآن جزء ٢ ص ١١٩

إلى ذلك حُسنا بعد هذا فهو أبلغ .. ثم ما أضاف حُسناً فهو أبلغ .. وهكذا إلى أن ينتهى الجهد البشرى عند حد لا يتعداه .. ثم تاتى بعد ذلك درجة فترتفع فوق هذه البلاغة ارتفاعاً يبدو أنه دان قريب .. ولكنه بعيد .. بعيد .. لاتناله قدرة البشر جميعاً ، وإن كان بينهم وبينه شعرة أو ما هو أدق من الشعرة .. أو خط وهمى .. فإن هذا القرب القريب جداً هو بعد بعيد جداً .. بعد ما بين الحق والباطل ، ذلك البعد الذى يكون أحياناً خطأ هندسياً ، أو خطأً وهيئاً ! ..

الزملكانى (١) :

أما الزملكانى فإن وجه الإعجاز القرآنى عنده راجع إلى التأليف الخاص ، لا مطلق التأليف .. بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعكّت مركباته معنى ، بأن يوقع كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى ، وهذا تعميم أيضاً .. إذ ما هو التأليف الخاص ، وما حدوده ؟ وهل كل كلام اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة يحوز البلاغة كلها ، ويستولى على زمام البيان .. ثم الإعجاز ؟

وواضح من هذا الرأى أن اللفظ والمعنى معاً قد كانا مناط الإعجاز فى القرآن ، حيث ارتفع بهما النظم القرآنى إلى المرتبة العليا التى لا ينالها أحد .

الزركشى (٢) :

يرى « الزركشى » صاحب « البرهان فى علوم القرآن ، أن إعجاز القرآن وقع بجميع تلك الوجوه التى تحدث عنها العلماء الباحثون فى الإعجاز ، وليس بوجه واحد منها .

(١) هو الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم المعروف بابن الزملكانى — توفى سنة ٧٢٧ هـ .

(٢) هو الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى .. صاحب كتاب البرهان فى علوم القرآن توفى بمصر فى رجب سنة ٧٩٤ هـ .

فإعجاز القرآن ليس وجهاً واحداً ، وإنما هو وجوه كثيرة . . منها الروعة
التي له على قلوب سامعيه وأسماعهم ، سواء المقرئ والجاحد . . ومنها أنه لم يزل ،
ولا يزال ، غصّاً طرياً في أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين . . ومنها جمعه بين
صفتي الجزالة والعدوبة ، وهما كلمتضادين . . لا يجتمعان غالباً في كلام بشر . .

والزركشى إذ يقول هذا إنما ينظر في جميع الأقوال التي قيلت في الإعجاز ،
ويراها في جملتها أوصافاً للأحوال النفسية التي يجدها الناس حين يستمعون إلى
القرآن أو يقرءونه .

* * *

القول بالإعجاز بالصرفة

عرضنا فيما سبق وجوهاً من الإعجاز بالصرفة ، وهي جميعها تتفق على رأى أن العرب قد تحدّثوا بالقرآن ، وأنهم قد أرادوا القيام لهذا التحدى ، وحاولوا أن يقابلوا هذا النظم بنظم مثله ، فوجدوا أن كل كلام يقولونه لا يقام له وزن مع كلام القرآن ، فاستخزوا ، وصمتوا ..

ومع هذا فقد ذهب بعض الناظرين فى إعجاز القرآن مذهباً يخالف ما يكاد ينعقد عليه إجماع العلماء من أن الإعجاز فى القرآن كان فى أمور قائمة فيه ، يعجز الناس عن مجاراتها ، أو مساماتها .. كإحكام نظمه ، وروعة أسلوبه ، ودقة معانيه .. إلى غير ذلك من الأمور التى عدّها العلماء وجوهاً لإعجازه ..

وهذا المذهب المخالف لآراء العلماء هو مذهب من يقول « بالصرفة » بمعنى أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، أو بسورة من مثله ، لأن الله سبحانه قد صرفهم عن ذلك ، وأمسك بهم أن يقوموا له .. ولو قاموا له وقالوا لكان فى وسعهم أن يقولوا مثل قوله .. لأنه من جنس الكلام الذى جرى على ألسنتهم .. شعراً ، ونثراً ..

وأول من فتح الطريق إلى هذا القول - فيما نعلم - هو « النظام ^(١) » الرأس البارز فى المعتزلة ، وشيخها ..

يقول صاحب « الملل والنحل » : « وزعم النظام أن إعجاز القرآن « بالصرفة »

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام أحد رده وس المعتزلة ، ولديه تنسب فرقة النظامية ، وهو شيخ الجاحظ ، وعنه أخذ الجاحظ مذهباً فى الاعتزال .. توفى سنة بضع وعشرين ومئتين .

أى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم ،
لكن عاقبهم أمر خارجي « (١) .

وقد قال بهذا القول « الشريف المرتضى » .. وعدّ الصرف في ذاته أمراً
خارقاً للعادة يشهد للرسول وصدقه كما تشهد سائر المعجزات .. يقول : - أى
الشريف المرتضى - :

« بل صرفهم - أى الله - بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ،
فهذا الصرف خارق للعادة ، فصار كسائر المعجزات » .

ويعاقق الشهرستاني على هذا بقوله : « وهذا قول فاسد ، بدليل قوله تعالى :
« قُلْ أَتَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » (٢) .

فإنه - أى قول الله سبحانه في هذه الآية - يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ،
ولو سلبوا القدرة لم تنبئ فائدة لاجتماعهم ، لمنزله منزلة اجتماع الموقى « (٣) .

ونقول : إن القرآن ، وهو كلام الله ، لا يمكن أن يوازن به كلام ، فهو
لهذا معجز في ذاته ، ولو كان قد أعجز الناس بقوة خارجة عنه لما كان كلام الله ،
ولما كان معجزة ، وإنما كانت الصرفة هي المعجزة التي استند إليها .. ولكن
بهذا في عداد المعجزات الحسية ، التي تأخذ على حواس الناس وعلى عقولهم ،
فتصيبهم بالشلل العقلي والحسي معاً ..

ولو كان القرآن على تلك الصفة لكان للعرب فيه قول غير الذي قالوا فيه ،
ولما أخذتهم منه هذه الروعة التي جاءتهم منه حين سمعوه وعقلوه ..

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٢ .

(٢) سورة الإسراء: آية ٨٨ .

(٣) الملل والنحل هامش ص ١٤٣ .

فالعرب قد سمعوا كلاماً مألوفاً عندهم ، ولكنه فوق ما سمعوا . . جلالة ، وروعة ، وجمالاً . . لفظاً ومعنى !

ولو أن القرآن جاء على هذا الوجه الذى يمسك العرب إمساكاً ملزماً عن أن يقوموا له لعجبوا لذلك أشد العجب ، ولعرفوا أن الأمر ليس من جهة هذا القرآن الذى وصفوه بما وصفوه به من أنه « سحر يُؤثر » وأن فيه للحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . . وإن أسفله لمقدق ، وإن أعلاه لمثمر .

ولو أن القرآن جاء معتمداً على هذا الإعجاز الحسى لما كان لجيئه على تلك الصورة الكلامية ، ولا على هذا الامتداد الطويل — معنى ، ولما كان يمكن أن يستغنى عنه بأهون شيء يقطع ما بين النبی وبين قومه من جدل ومعاذة !

كان يكفي أن يضع الله سبحانه وتعالى بين يدي نبيه حصاة من حصى مكة ، أو حجراً صغيراً من أحجارها ، ثم يأمر نبيه أن يدعو قريشاً إلى حمل هذه الحصاة ، أو إلى زحزحة هذا الحجر ، ثم يكون من تدبير الله تعالى أن يأخذ على أيدي القوم فلا تمتد إليه ، أو يأخذ على قواهم فلا تقدر عليه !

فليس قول أسقط من القول بالصرفة فيما قيل من أقوال حول إعجاز القرآن : إنه قول لا معقول له . . إذ كيف يقف العرب أمام آيات القرآن هذه السنين الطويلة ، وهم ينظمون خلالها شعراً ، ويقولون نثراً ، وكان شعرهم الذى نظموه ، ونثرهم الذى قالوه أو كتبوه لا يقل روعة وجمالاً عما كان لهم من ذلك كله فى جاهليتهم — كيف يقف العرب أمام آيات القرآن عشرات السنين ، ومئاتها ، وهم يجدون قواهم كاملة ، ومساكناتهم التى كانت لهم لم يذهب منها شيء ، ثم يقال بعد هذا إن قوة القاهرة غير منظورة قد أمسكت بهم ، ولوت أعناقهم عن أن يتصدوا للقرآن ، ويعرضوا له ؟ ؟

و « النظام » الذى ابتدع هذه البدعة ماذا يحد فى نفسه من آثار هذه

«الصرفه»؟ أمدّت عليه منافذ القول، وطمست أمامه سبل البلاغة فلم يقل قولاً، ولم يذهب مذهباً؟ وكيف؟ وقد صال وجال، وحاجّ وجادل بأسلوب عربي مبين رصين؟ وكيف؟ وهو يرى ويسمع في مجالس العلماء والمتكلمين والشعراء في عصره — من آيات البلاغة والبيان ما حفظ التاريخ الكثير منه بين أيدينا؟ فأين كانت الصرفه؟ وكيف لم تُمسك بهذه الألسنة أن تصاول وتقاوّل؟

بل إن الأمر لأكثر من هذا، فلقد أمدّ القرآن العرب بصور من البيان، وألوان من البلاغة، أشرق بها بيانهم، وسمت بها بلاغتهم، واتسعت بها لغتهم، فولدت كثيراً من العلوم والفنون، وأثمرت هذه الثمرات الطيبة التي لم يكن للعرب قبل الإسلام عهد بها، ولا اتجاه إليها.

فكيف يساغ مع هذا أن يقال إن شيئاً وراء القرآن قد أمسك العرب عن القول، وختم على عقولهم وقلوبهم؟

الجاحظ والقرآن بالصرفه :

ومن عجيب القول في إعجاز القرآن قول الجاحظ في بعض أقواله: إن الإعجاز الذي وقع للقرآن كان بالصرفه .. إذ المعروف أن الجاحظ كان دائماً من القائلين بإعجاز القرآن ببلاغته ونظم بيانه ..

وقد تحدث الجاحظ بهذا الرأي في معرض الاحتجاج على الذين يشككون في أن يكون «سليمان» — عليه السلام — قد وهب الله له ملكاً لم يكن لأحد من بعده، وأن الجن كانت في بعض ممالك، ثم هو مع هذا يحلّ ملكة سبأ وملكها، حتى دلّه عليها وعلى ملكها المدهد! فكيف يصح هذا؟

ويرد الجاحظ على هذا بما حدث لموسى بن عمران ومن كان معه في التيه.. فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عاماً في مقدار فراسخ يسيرة، ولا يهتدون

إلى الخرج ، وما كانت بلاد التيه إلا من ملاءهم ، ومتنزهاتهم ، ولا يعدّم مثل
العسكر الأدلاء ، والجالين ، والمكارين ، والرسل ، والتجار . . ولكن الله
صرف أوهامهم ، ورفع القصد من صدورهم .

ثم يأتي « الجاحظ » ، بشاهد آخر فيقول : « ومثل ذلك أن النبي صلى الله عليه
وسلم لما بشره الله بالظفر وتمام الأمر ، وبشر أصحابه بالنصر ونزول الملائكة .
ولو كانوا لذلك ذا كرين في حال - لم يكن عليهم من المحاربة مثونة ، وإذا لم
يتكلفوا المثونة لم يؤجروا . . ولكن الله تعالى بنظره إليهم رفع ذلك في كثير
من الحالات عن أوهامهم ، ليحتملوا مشقة القتال ، وهم لا يعلمون : أَيْغْلِبُونَ
أَمْ يُغْلِبُونَ ، أَوْ يُقْتَلُونَ أَمْ يُقْتَلُونَ ؟

ثم يأتي لذلك بشاهد ثالث في شأن القرآن . . فيقول :

« ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن
بعد أن تحدّاهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه
لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة أعظمّت القصة على
الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولأق ذلك المسلمين عملا ، ولطلبوا
الحكمة والتراضي ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال . . فقد رأيت أصحاب
مسيمة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه
أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك
التدبير الذي لا يبلغه العباد ، ولو اجتمعوا له » (١) .

والجاحظ هنا لا يقول بالصرفه على إطلاقها ، ولكنها صرفه عن أمر هو معجز
في ذاته . . فالقرآن في رأى الجاحظ معجز في ذاته ، ولكن الصرفه حتمه من أن

(١) الحيوان للجاحظ جزء ٤ / ص ٣١ .

يتكلف للمعارضة بعض المتكلمين ، فيشوش على القرآن ، وذلك من شأنه أن يوقع في نفوس الأغرار والجهلة اضطرابا . .

ولاشك أن هذه من إحدى مغالطات الجاحظ وخلايقه ، بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان . .

ولو أراد « الجاحظ » أن ينقض هذا الرأي الذي أقامه على القول بالصرففة ؛ لنقضه بعمزة من قلمه ، دون أن يكبد ذهنه ، أو يطلق العنان لقلمه !

فليس الذي صرف العرب عن معارضة القرآن أسراً خارجاً عنه ، بل إن ما في القرآن ذاته من بُعد بعيد بينه وبين كل قول يقال هو الذي حجز العرب عن أن ينزلوا معه في تلك الحركة التي يعلمون علماً محققاً ، لاشك فيه أنهم إن فعلوا فضحوا أنفسهم ، وألقى بهم من حلق ! وأما من استبد به الجهل ، وركبه الغرور ، وضلّ عن وجوده ولم يعرف قدر نفسه ، فألقى بها في هذا المعترك ، فقد لقي جزاءه ، هُزءاً على الزمن ، وسخرية ، وخزياً ، ولعنات أصابت كل من حوله ، وكل من بعده من ولد وولد ولد !

لقد وُجد في الناس السفهاء الذين سولت لهم سفاهتهم أن يطاولوا السجاء ، وأن ينزلوا منازل الشمس ، فخرت على ألسنتهم سبعات مرذولة كأنما كانت قتيماً خرج من جوف أصحابها فخرى على ألسنتهم في تلك المقاطع الباردة القتة .. وحسبك أن تقرأ فقرات من « قرآن » مسيلة الكذاب ، أو من قرآن طلحة ، أو من قرآن سجاح لترى أن القوم لم يكونوا معارضين ، وإنما كانوا ساخرين ، أو هازلين ، أو مجانين ، ولو جدّ هؤلاء المعارضون لقالوا كلاماً أقل ما فيه أنه كلام عربي ، عليه ميا البلاغة والفصاحة ، شأن العرب الخالص ، ولو عقل هؤلاء القوم لوأروا هذا الهراء كما يوارى العاقل سوءته !

ولقد صرف « الجاحظ » نفسه لاعتراض معارضة للقرآن ، بل حتى عن البحث (٣٤ -- إصباح القرآن)

عن أسرار إبحازه ، إذ كانت من الدقة والخفاء بحيث لا يطولها عقل ، ولا يدركها فهم ، والجاحظ خير من يدرك هذا من البيان القرآنى على وجه لم يدركه إلا القليل ، من العالمين .

إن الذين صرّفوا عن معارضة القرآن لم يصرفهم صارف غير القرآن ذاته ، وغير ذلك المدى البعيد الذى بينه وبين بلاغة البلاء ، وفصاحة الفصحاء . . ولو أن ذلك المدى كان قريباً مطمئناً لكان لكثير من الناس مواقف في معارضته وإن لم يتألوا شيئاً ، أو يبلغوا غاية . . فلقد جُبلت النفوس على أن تطمع حيث لا مطعم ، وأن تناسر فيما لا ينال . . لكن لعل وعسى !

أما حيث ينقطع الأمل ، وحيث لا يجد المرء مكاناً لمسيح أمله حتى فى « لعل وعسى » فإنه عندئذ تموت فى نفسه كل دواعى الهم إلى هذا الأمر المؤيس ! وليس الإنسان وحده هو الذى يذهب هذا المذهب ، بل إن الحيوان أيضاً ليتهدى بغريزته إلى ما هو مؤيس فلا يُفرغ له جهداً ، ولا يلقاه بشيء من حوله أو حيلته ! إذ كان يعلم مقدماً أن ذلك أمر لا ينال ، أو شيء لا يرد !

وإن اسم القيس حين وصف فرسه ، بأنه « قيد الأوابد » لم يصفه وصفاً مجازياً قائماً على المبالغة ، ولكنه كان فى ذلك يترجم عن تجربة مشاهدة . . فإن ذلك الجواد فى سرعته وشدة انطلاقه إذا طلع على الحيوانات التى يراد صيدها به . . من ظباء ، وبقر وحشى ، وغيرها — كان إذا طلع عليها تقيدت فى مكانها فلم تفرّ من وجهه ، لأنها بإحساس صادق من غريزتها تدرك أن سعيها غير منجح ، وأنها فى يد هذا الجواد منذ انطلق نحوها . . فلن ينفعها الفرار ، ولن يفلتها من بين يديه أى متجه تتجه إليه !

وليس هذا شأن جواد امرئ القيس مع الحيوانات التى ينطلق إليها — وحدها ، وإنما هو شأن كل قوتين غير متكافئتين من قوى الحيوان . . القوى يسلك الضعيف ، ويقيده من قبل أن يسكه أو يلحق به !

إن الحيات والثعابين تصطاد كثيراً من الحيوانات بأعينها ، حين تفتتحها عليها فتشلّ حركتها ، وتسد وجهه النجاة في وجهها ، فتستسلم لها بلا مقاومة !
وأكثر من هذا ، إن علماء الحيوان ليحدثون عن « الأسد » أنه إذا طلع على فريسته لم تفقد حركتها إلى الفرار وحسب ، بل إنها لتتحرك ، ولكن لا إلى الفرار من وجهه ، بل إلى حيث تلقى بنفسها بين أنيابه ومخالبه .. ولهذا قيل :
* كالعير يقبل من دُعر على الأسد *

فالذين صُرفوا عن معارضة القرآن إنما قيّدهم عن ذلك اليأس المطبق ، الذي لا تلوح فيه بارقة أمل في الدنو من مقام القرآن .. وذلك بعد أن رأوا فيه شاهد ذلك العلو الذي لا يُطاول ، وهذا الشموخ الذي لا يُنال .

وليس شيء خارج القرآن ، أو قوة من ورائه ملكت على العرب ألسنتهم فلم تنطق بمعارضته ، أو صرفت نوازعهم وهمهم عن أن تتجه إلى تلك المعارضة .. بل إن الواقع ليشهد بأن كثيراً من العرب قد نازعته نوازعهم إلى لقاء هذا التحدي الذي تحداهم به القرآن ، فقال قائلهم كما حكى القرآن عنه : « سأ نزل مثل ما أنزل الله » .. وكما حكى عن جماعات منهم قولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ..

ولم يقف الأمر عند مجرد القول ، بل لقد أراد بعضهم أن يحقق هذا القول فعلاً .. في عهد النبي ، وبعد عهد النبي .. فكان « مسيلة الكذاب » ، وطليحة ابن خويلد الأسدي ، وقد ادعيا النبوة في عهد النبي ، وأخرجوا للناس قرآنًا يتحديان به القرآن .. فجاء قرآنهما المروي عنهما أسخف وأسمج كلام جرى على لسان عربي ! .. ثم كان بعد هذا من حاول المعارضة ثم حين بان له أنه إنما هو قزم يطاول السماء ، وأنه إنما يمد إلى الشمس يداً شلاء — استخزي ودس الخزي الذي معه في التراب ! .. ويذكرون في هذا المقام ابن المقفع ، والمتنبي ، وأبا العلاء

المعري ! وإن كان هؤلاء القوم - فيما نرى - إن صح ما قيل عنهم - لم يكونوا معارضين معارضة التحدى ، وإنما هي معارضة الرياضة على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والبيان ، ليكسبوا دربة ، وليفيدوا بلاغة وبياناً من الاحتكاك بالقرآن ، ومحاذاته ، كما يفعل ذلك كثير من الشعراء والكتاب ، بمعارضة من سبقهم من فرسان هذا الميدان ، وهم لا يريدون من تلك المعارضة التحدى - حيث لا متجّه له في هذا المقام - وإنما يريدون - كما قلت - مقابلة أنفسهم بأولئك الذين رأوهم المثل الأعلى عندهم ، في هذا الأمر الذى عارضوهم فيه .

أما أولئك الذين سوّلت لهم أنفسهم أن يخرجوا على الناس بقرآن يعارضون به القرآن ، ويدّعون به النبوة ، كما فعل مسيالة ، وسجاح ، والأسود العنسى ، الذين سجعوا سجعاً سموه قرآناً ، وادّعوا أنهم يتلقون ذلك من السماء - أما هؤلاء فإن ما جاءوا به من كلام فقد كان فضيحة لهم ، وخزياً قائماً عليهم أبداً الدهر . . إذ لم يكن لهذا الكلام وجه يُعرف به بين وجوه الكلام العربى . . وإنما هو هذر ، وسخف وهذيان !!

ابن سنان الخفاجى والقول بالصرفة^(١)

ومن القائلين بالصرفة « ابن سنان الخفاجى » فهو يرى أن أسلوب القرآن لم يبعُد كثيراً عن فصيح الكلام المختار من كلام العرب . . وأن الإعجاز الذى وقع من العرب إزاء القرآن إنما جاء من جهة أنهم سلبوا العلوم التى كانوا يتمكنون بها من معارضته . . يقول « ابن سنان » وهو يعارض رأى « الرمانى » الذى يرى أن إعجاز القرآن راجع إلى فصاحته ، وبلاغته ، وتلاؤم نظمه . . يقول :

« ولا فرق بين القرآن ، وبين فصيح الكلام المختار فى هذه القضية . . ومتى

(١) هو الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى ، أديب وشاعر ، أندلسى -

يرجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد أن في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه !

ثم يقول :

« ولعل أبا الحسن [الرماني] يتخيل أن الإعجاز لا يتم إلا بمثل هذه الدعوى الفاسدة^(١) !! والأمر بحمد الله أظهر من أن يعضده بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كل من علق من الأدب بشيء ، أو عرف من نقد الكلام طرفا » .
وهذا قول غريب من ابن سنان يخرج به عن إجماع العلماء ، وأهل الذكر في هذه القضية !!

فالمعروف أن العرب قد خرسوا أمام فصاحة القرآن ، وبُهرروا من روعة نظمه ، وجلال طلعته ، ووقع كلماته على القلوب .. وأنهم أداروا نظم القرآن على كل وجه فلم يستقيم معهم على أي ادعاء ادعوه فيه .. قالوا : « إنه قول شاعر » فردّهم عن ذلك نظمه الذي لا يلتقي مع الشعر في وزن ولا قافية ، وقالوا : « قول كاهن » .. فصرخ في وجههم صارخ الواقع من هذا البعد البعيد بين سجع الكهان ، وثقله ، وتكلفه ، وبين نظم القرآن وسلاسته ، ورشاقته .. وقالوا ، وقالوا .. فما صدقتهم أنفسهم في قول قالوه ، أو مدّعى ادعوه ..

ثم يقول ابن سنان :

« وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرفه العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك :

« وإذا كان الأمر على هذا — أي على أن العرب صرفوا عن معارضة

(١) أي القول بأن إعجاز القرآن راجع إلى فصاحته وبلاغته وتلاؤم نظمه .

القرآن صرفاً - فممن بمنزل عن ادعاء ما ذهب إليه - الرماني - من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والتلائم !
« ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ، وادعينا أنه أفضل من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم يفتقر في ذلك إلى ادعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة في الفصيح من كلام العرب . . . وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحاً ، وإنما الفصاحة لأمر عِدَّة تقع في الكلام ، من جملتها التلازم في الحروف وغيره . . . » .

ولا شك أن هذا الرأي الذي يدفع به ابن سنان إعجاز القرآن من جهة فصاحته رأى فائل متهافت ، لأنه يقيمه على قصور الحجة التي احتج بها غيره على فصاحة القرآن من تلك الجهة ، فجعل هذا القصور الذي تخيله من كلام « الرماني » حجة على القرآن نفسه !

وهذه الحجة التي يقول بها الرماني لم تكن هي كل ما قال في وجوه الإعجاز ، ولم يجعل الفصاحة في سلامة الحروف من التنافر وحسب ، كما أنه لم يجعل الفصاحة وحدها هي الوجه للمعجز في القرآن . . بل إنه عدّد وجوهاً منها هذا الوجه ، بل ومنها القول بالصرفة أيضاً !^(١) وهي التي يقول بها ابن سنان نفسه !
ويعود ابن سنان فيقول :

« فَيَمَّ يُنْكَر على هذا أن يكون تأليف الحروف في القرآن وفصيح كلام العرب واحداً ؟ ويكون القرآن في الطبقة العليا ، لما ضامّ تأليف حروفه من شروط الفصاحة التي التأليف جزء يسير منها ؟

« فقد بان بأنه على كلا القولين لا حاجة بنا إلى ادعاء ما ادعاه - الرماني - مع وضوح بطلانه وعدم الشبهة فيه !

(١) انظر ص ١٠١ من ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

« ثم يقال : أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة على ملذكرناه فيما تقدم ؟ فلا بد من نعم ! فيقال : فما عندك من تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها ؟ أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة الوسطى ؟ فإن قال في نفس الطبقة . . قيل له : أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ؟ ولولا ذلك لم يكن القرآن عربياً ، ولا كانت العرب فهمته . . فقد أقررت الآن أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا وهو الألفاظ المفردة ، ولم يتوجه عليك في ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن . . فهلا قلت إن في كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً كذلك ، فإن علم الناظر بأحدهما ليعلم « بالآخر » . وهذه مغالطة أخرى من ابن سنان ! إذ يسوى بين الكلام مفرداً مبعثراً في كل وجه وبين الكلام منظوماً مؤتلفاً وهذه تسوية ظالمة غير قائمة على منطق من الحق ، أو شاهد من الواقع . .

فلو صح هذا المذهب لما كان هناك تفاوت بين قول وقول ، وبين شاعر وشاعر أو كاتب وكاتب . . إذ كانوا جميعاً إنما يبنون ما يبنون من أساليب البيان من كتابات معروفة لهم جميعاً . . إنما تتفرق بهم السبل ، وتختلف المنازل ، فيصلو بعضهم ويسفّ بعضهم حين ينظمون هذا الكلم المفرد في أساليب من القول ! وحين يبنون من هذه الكلمات ما يدور في عقولهم من معاني ، وما يخرج في صدورهم من مشاعر وعواطف !

وقد كان لابن سنان إذ قال : إن نظم القرآن وفصح كلام العرب على حد سواء — كان له أن يقول : إن جميع الكلام الذي يتكلم به أهل اللسان الواحد على درجة واحدة من الفصاحة والبيان . . فلا فاضل ولا مفضول ، إذ أنهم جميعاً ينتفون من نبع واحد ، وينسجون كلامهم من مادة واحدة . . وهذا قول لا يستقيم له وجه ، ولا يستماع له طعم .

إن كل ذى لسان له مَقُولُهُ ، وله منطقُهُ ، وله الأسلوب الذى يحمل عنه آراءهُ ، وتصويراته . . . ولا يكاد يلتقى إنسان مع إنسان فى هذا ، فإذا ارتفع الناس إلى منازل الفصاحة والبلاغة تباينت منازلهم ، واختلفت طعوم كلامهم ، وإن خفى ذلك على من لم يكن من أهل الصناعة وأربابها . ولكنه عند الذين لهم حاسة الذوق الفنى لا خفاء فيه ، ولا لبس بين الفاضل والمفضول منه !

إن الإنسان ليس جاداً ، يخضع خضوعاً مطلقاً محكماً لمؤثرات الحياة المسلطة عليه ، فلا يملك معها من أمره شيئاً . . . كلا بل الإنسان ، وكل كائن حيٍّ إنما يتفاعل بالقوى الحيوية المودعة فيه مع مؤثرات الحياة التى تتصل به . . . فتجىء من هذا التفاعل مواليد مختلفة الصور والأشكال ، متعددة الملامح والسمات ، بتعدد الأحياء ، فرداً فرداً ، وإن وقعوا جميعاً تحت مؤثرات خارجية واحدة . . . هذه حقيقة قائمة فى الحياة ، وسنة من السنن الكونية فى الأحياء . . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ ، وَنَخِيلٌ . . . صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ . . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (١) .

ذكرت الرواة أن جريراً مرَّ بذي الرُّمَّة (٢) ، وقد عمل قصيدته التى أولها :
نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفْتَهُ الرِّيحُ ، وَامْتَنَحَ الْقِطَارُ (٣)
فقال له جرير : ألا أجيدك بأبيات تزيد فيها ؟ فقال : نعم . . . فقال جرير :

يَعُدُّ النَّاسُ ————— بِنِي تَيْمٍ بِبُوتِ الْحِجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارًا

(١) سورة الرعد : آية ٤

(٢) هو شاعر فحل من شعراء العصر الأموى ، معاصر لجرير .

(٣) نبت عيناك : أى انصرفتا ، وحزوى : مكان ، والقطار : اللطر .

يعدّون الرباب وآل تيم وسعداً ، ثم حنظلة الخيارا
ويسقط بينها المرثى لغوا كما أُلقيت في الدّيه الحوارا
فوضعها ذو الرمة في قصيدته ، ثم مر بالفردق ، فسأله عما أحدث من شعر ..
فأنشده القصيدة ، فلما بلغ الأبيات قال له الفردق : ليس هذا من بحرك !!
ما ضفها أشدّ لحين منك ! » (١) .

فهذا قول ، وذاك قول .. وإن جاء على وزنه ، وبجره !
فتسوية « ابن سنان » بين أسلوب القرآن ، والأساليب العربية الفصيحة
أمر لا يستقيم على وجه من وجوه الرأى أبداً ..
ولا نريد أن نذهب في مناقشة هذا الرأى الذى يقول « بالصرفة » إلى أكثر
من هذا ، فهو رأى - كما رأيت - متهافت ، ليس له وجه يرى فيه ما يرضى
أو يُقنع .

ونرى أن نختم هذا الفصل بكلمة للباقلانى يردّها على القائلين بهذا الرأى ..
يقول الباقلانى .

« ومما يبطل القول بالصرفة : أنه لو كانت المأرضة ممكنة ومُنْع منها
- لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام
ففضيلة على غيره في نفسه » (٢) .

وهذا - كما قلنا - لا ينسحب على القرآن وحده ، بل ينسحب على كل كلام ،
فلا يكون هناك حسن وقبيح ، أو فصيح وغير فصيح ، أو بليغ وأبلغ منه .. وهذا
كلام لم يقله أحد ، ولو قاله لما كان هناك من يستمع إليه ويستجيب له !

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٢ ، وقد وردت كلمة ما ضفها هكذا : (مضيفها)
وأظنه تصحيف وقد صححتها على هذا النحو .
(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١١٨ .

وبعد ، فإنه واضح من النظر في هذه الآراء والمذاهب التي قيلت في إعجاز القرآن أنها متشابهة متقاربة - فيما عدا القول بالصرقة - وأنها جميعها تفيض عن نبع واحد ، هو - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - هذا الرأي الذي صدر عن « الجاحظ » في وجه الدفاع عن « النظم » الذي كان قد أخذ الناس ينصرفون عنه إلى العناية بالمعنى ، وذلك في مجال الحياة الأدبية . . من شعر ونثر .

وبإيه منذ جعل « الجاحظ » لنظم الكلام هذه المنزلة في معايير البلاغة والبيان ، سلك الناس هذا المسلك ، ودخلوا به إلى إعجاز القرآن ، فأقاموه على هذا الوجه ، وأخذوه من هذا الجانب ، وكان ذلك داعية من دواعي هذا التشابه الذي بين آراء السابقين واللاحقين من الناظرين في إعجاز القرآن .

على أنه إن يكن هناك اختلاف بين رأى ورأى في تلك الآراء، فهو اختلاف في درجة الإحساس التي يجدها الناظرون في كلام الله ، وإن كانت جميع هذه الإحساسات تقع تحت سلطان الجلال والروعة والروحانية التي تطلع على الناظر في الكتاب الكريم ، أو المستمع لآياته . . وذلك ما يجعل لهذه الآراء طموماً ومذاقات مختلفة ، وإن صيغت من مادة واحدة ، وفاضت عن ينبوع واحد . . لأنها قد تلونت بلون الإناء الذي حملها ، وهرضها للناظرين .

• • •

والآن وقد أخذنا بحظنا من النظر في آراء من سبقونا من أهل النظر في كتاب الله ، وفي مواقع الإعجاز فيه - فإنه قد آن لنا أن نولى وجهنا شطر السبيل التي تسلك بنا المسلك الذي ننظر منه إلى القرآن بما أَرانا الله ، وبما انتقمنا به من نظرات السابقة ، عسى أن نجد جديداً ، أو نجد دارساً ، أو نُحدث في القلب منه ذكراً .

* * *

الباب الرابع

شبهات .. ودعاوى .. ومفتريات

وها نحن أولاء نسعى إلى القرآن الكريم ، ونستفتح الطريق إليه !

ويرتفع للنظر — فيما بيننا وبين القرآن — مسالك ودروب قد ألقى فيها ذوو الجهالات ، وأصحاب الأهواء كثيراً من الأشواك التي قد تطمس معالم الطريق ، أو تدعى قدم السالكين فيه !! فلا بد إذن — والأمر كذلك — من وقفة نرسل فيها من جنود الحق ريمها تقطع هذه الأشواك ، وتلقى بها في مكان محقق .. وإذا ذاك نأخذ طريقنا إلى كتاب الله .. طريقاً مستقيماً ، مطمئناً ، لا نسمع فيه الأذن هذا الطنين المريب ، ولا نقع للقلب منه هذه الرّيب المضللة ، فترى ما نرى بعين مبصرة ، وأذن واعية ، وقلب جميع سليم ..

وقفه :

حين يرتفع الكلام إلى منازل الفصاحة والبيان ، توزن أجزاءه بموازين دقيقة ، أدق مما يوزن به الذهب ، والجوهر النفيس .. وليس كذلك الكلام المردّد على الأفواه في لغة التخاطب .. إذ الكلام هنا لا وزن له ، ولا حساب فيه .. إنه يكال كإلّ التراب ..

ولقد علا القرآن الكريم هذا الملوّ الشامخ ، وارتفع ذلك الارتفاع البعيد عن متناول البلفاء والنفصحاء ، بهذا الإحكام المميز في تصميم بنائه ، وفق وضع كل حرف ، وكل كلمة ، وكل عبارة ، مكانها الذي لا يمكن أن يكون غيرها قائماً

مقامها فيه والذي إن زُحزحت عنه تغيّر وجه الكلام ، وربما فسد نظامه ، وانقرط عقده !

أرأيت إلى العين مثلا . ؟ لقد أبدعها الخالق على هذا التركيب العجيب ، الذي يخيّر الأبواب ، ويغلب القلوب ! وهي بهذا الوضع تؤدي وظيفتها كاملة على الوجه الذي أرادها الخالق له .

ثم أرأيت لو أن يد الطيب البارع الحاذق امتدت إليها ، وأزالت شيئاً منها عن موضعه ، فجعلت السواد مكان البياض مثلا .. أكان لهذه العين أن تظل كما هي ، قائمة على وظيفتها ، مؤدية لها ؟

ذلك - والله - ولكلامه المثل الأعلى - مثل كلام الله ، قد أحكم الحكيم العليم آياته ، فكانت على تلك الصورة البالغة غاية الكمال ، الجامعة له من جميع أطرافه .. إذا تبدل منه حرف ، أو تغيرت منه كلمة بان ذلك وظهر !

هذا ، ولقد حاول بعض الحقى والسفهاء أن يغمز القرآن ، وأن يقول فيه قولاً ليقال عنه : إنه هناك ! ! ، وإنه من أصحاب الرأي والنظر . . . وما هو - لو علم أو عقل - في العير ولا في النفير !

ما يضرّ البحر أمسى زائراً أن رمى فيه غلام بججر !
فن تحرصات المتخرصين ، ورميات الطائشين على القرآن القول بأن نظم القرآن قد جاء على غير الدرجة العالية من البلاغة والفصاحة . . وأنه لم يسلم من الاضطراب في مواضع كثيرة منه ! !

ويضربون لهذا مثلاً بالتكرار الذي وقع في قصص القرآن ، ويقولون : إن تكرار القصص القرآني على هذا الوجه الذي تتكرر فيه القصة الواحدة مرات - ليس وراءه غرض بلاغي ، وإنما هو أشبه بالإفلاس والاستغلاق ، حين لا يجد المتكلم طريقاً إلى الكلام ، فيبدىءه وبعيد فيما يقع له !

كما يدكرون في هذا المجال التكرار اللفظي لبعض الكلمات التي وردت في

سورة: الذاريات، والرحمن، والمرسلات.. ويعدّون هذا التكرار إفلاساً أيضاً؟
ويأخذون على القرآن أيضاً أنه لم يتخير ألفاظه وأساليبه من الأنماط العالية
التي جرى عليها الفصحاء البلقاء، من الشعراء والخطباء، وأنه في كثير من الأحيان
كان ينزل إلى مستوى دون هذا المستوى البليغ الفصيح.

ومن مواطن الغمز واللمز للقرآن - الحديث في النسخ الذي قيل إنه قد جاء
في القرآن، وكذلك ما يقال عن المحكم والمتشابه فيه..

وكل هذه المقولات لاتنال شيئاً من عظمة القرآن، ولا يرتفع غبارها إلى
سمائه العالية التي تنقلب عنها الأبصار خاسئة حسرياً!

وكل هذه المقولات أيضاً إنما هي من مواليد الجدل العقيم السقيم، ومن
تفثات الصدور المريضة الحمومة.. قد وُلدت لغير رِشدة، لأنها ليست لأصحاب
الحق في الكلام عن القرآن، والنظر فيه.. إذ أنهم ليسوا على شاكلة أولئك
الذين تحدّاهم القرآن وهم أرباب البلاغة وأصحاب البيان، وأهل الحكومة في وزن
الكلام، ومعرفة الفاضل والمفضول منه.. فحشموه، وسجدوا بين يديه،
وعرفوا أين يقع كلامهم منه!

فليست إذن المقولات التي تتناول على القرآن، وتحاول أن تنال منه بالتي
يَلْتَمِثُ إليها، أو يُعْمَلُ حساب لها، بعد أن سلم له أرباب البيان بالإعجاز، وبعد
أن عرضوه على كل وجه، وقلوبه من كل جانب، فلم يروا إلا مطالع الحسن،
ووجوه الكمال تلقاهم من حيث نظروا منه، وقلبوا فيه..

ومع هذا، فإننا سنعرض هذه المقولات، ونكشف عن وجهها.. وإن يكن
قد سبقنا إلى ذلك كثير من العلماء.. أحسن الله إليهم، إذ أحسنوا القول،
وجلّوا وجه الحق، وأزالوا دخان الشبهات والمفتريات.

وها نحن أولاء نجرى على سننهم، ونأخذ مأخذهم في موقف الدفاع عن
كتاب الله.. إذ هو دفاع عن الحق، ودفع للزور والبهتان.

القرآن .. لفظه ومعناه

« القرآن » - هذا اللفظ - الذى صار « علماً » على هذا الكتاب الكريم ،
والذى حل شريعة الإسلام - مامعناه فى لسان العرب ؟ وهل هو عربى أم معرب ؟
وهل هو اسم مشتق أو جامد ؟ وإذا كان مشتقاً ، فما هو فى المشتقات ؟
لقد وقع خلاف كثير بين العلماء فى الإجابة على هذه الأسئلة ، وعلى كثير
غيرها مما يتصل بهذا اللفظ . .

ونحن نجمل القول فيها ، فيما يلى :

ما معنى « قرآن » ؟

١ - قال « قتادة » : القرآن معناه التأليف . . يقال : قرأ الرجل إذا جمع
وألف قولاً ، وبهذا فسر « قتادة » قوله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » أى
تأليفه . . وهذا نحو قول الشاعر :

ذِرَاعِي عَيْطَلٍ أَدْمَاءُ بِكْرِ هِجَانَ اللّونِ لم تقرأ جَنِيناً^(١)
أى لم تجمع فى بطنها ولداً .

٢ - وقيل : القرآن . . مصدر من قولك قرأ الرجل إذا تلا . . يقال : قرأ يقرأ
قرآناً ، وقراءة ، وحكى أبو زيد الأنصارى « قرءاً » أيضاً . .

ومن هذا قول حسان بن ثابت يرفى هيمان بن عفان رضى الله عنه :
صَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السَّجُودِ بِهِ يَقَطَّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقِرْآنًا
أى قراءة^(٢) .

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم .

(٢) مقدمة التفسير لابن عطية ص ٢٨٢ رسالتان

- ٣ - وقيل هو اسم علم غير مشتق، خاص بكلام الله تعالى ، فهو غير مهموز ،
 وبه قرأ ابن كثير « قرآن » - من غير همز - وهو مروي عن « الشافعي » .
- ٤ - وقال قوم منهم الأشعري : هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا
 ضمنت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به القرآن ... - من غير همز -
- ٥ - وقال « الفراء » هو مشتق من القرآن لأن الآيات منه يصدق بعضها
 بعضها ، ويشابه بعضها بعضاً ، وهي قرآن ، وهو غير مهموز .
- والذي نراه .. أن « القرآن » مصدر للفعل قرأ قراءة وقرآنا ، أى حرّك لسانه
 بالكلام .. وقد كان أول ما نزل على الرسول الكريم من القرآن قوله تعالى :
 « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
 الأكرم »^(١) .. وهذه التسمية أولى ، لأنها أول كلمة نزلت من القرآن ، فناسب
 أن تكون عنوانا له .

هل لفظ قرآنه عربى أو مصرى ؟

من عجب أن يدعى أصحاب « الشطحات » من المستشرقين أن كلمة « قرآن »
 ليست عن أصل عربى ، وإنما هي معربة عن العبرية أو الحبشية ، أو النبطية . .
 إلى غير ذلك من المغربات التى يحاولون أن يظهروا بها فى الناس أنهم يعلمون دقائق
 العلم وخباياه ، والحق أنهم إنما يتخرصون تخرصات أشبه بتخرصات الكهان ! إنها
 رميات طائشة . . قد تصيب ، وقد تخيب أكثر مما تصيب !

وأعجب من العجب أن يتناقى كثير من هذه الأقوال ، بل ويتلفقوها فى لهفة
 وحرص ، كأنهم عثروا على ذخيرة من ذخائر العلم ، أو مكنون من مكنوناته ، ظانين
 أن كشف العلم لا تجىء إلا من بعيد .. من أوروبا أو أمريكا ، حتى ولو كان هذا
 العلم علم العرب ، ولسان العرب ، ودين العرب !! إن ذلك هو الخنزى والخسران !

(١) سورة العلق: آية ١ - ٢

ونسأل : هل ضاقت اللغة العربية كلها عن أن تجد الكلمة التي تجعلها عنواناً لكتابها المبين ؟ وإذا عجزت اللغة العربية عن أن تقدم كلمة واحدة هي رايتها ، والشارة الدالة عليها ، فكيف تستطيع أن تحمل هذه اللغة معجزة ، أساسها الكلمة ، وبينتها الكلام ؟ هل يعقل هذا ؟

لقد كانت كلمة « قرأ » ومشتقاتها من أكثر الكلمات جرياناً على الألسنة ، في الوقت المعاصر للرسالة النبوية الكريمة ، وكانت قریش قد بدأت تظهر عناية خاصة بأمر القراءة والكتابة . . فلما نزل القرآن تلقاه المسلمون في صدورهم ، وجعلوا يتلونه ويقرءونه مما حفظت صدورهم ، وكان المسلم حيث كان ، يردد ما حفظ من آيات الله . . قارئاً لنفسه ، أو مقرئاً غيره . .

وقد أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على الناس ما ينزل من كلمات الله :

« وَقرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ »^(١)

أبعد هذا يستقيم لقائل أن يقول إن لفظة « القرآن » غير عربية ؟ إن ذلك القول بأن لفظ القرآن غير عربي أشبه بقول من يقول : إن لسان العرب غير عربي . إذ القرآن هو معجزة هذا اللسان ، وإذ لفظة « القرآن » هي عنوان هذا القرآن ؟

* * *

ولا نقف عند هذا السخف أكثر من هذه الوقفة ، لنُدحض تلك الفرية المباحضة ، ولنفضح هذا البهتان العظيم !

* * *

(١) سورة الامراء آية ١٠٦

شخصية القرآن

ونعني بشخصية القرآن ما يسمى في هذا العصر « بطاقة تحقيق الشخصية »
التي تكشف عن حقيقة الإنسان وتدل عليه . .

وشخصية القرآن بهذا المعنى أوضح وأصدق شخصية يعرفها التاريخ . . إذ قامت
عليها شواهد كثيرة تؤكد صحتها ، وسلامتها من التحريف أو التبديل . . وذلك :
أولاً : التاريخ القرآني الذي يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يُملى
على أصحابه ما ينزل عليه من آيات الكتاب أولاً فأولاً وأن أصحابه قد تلقوا ما نزل
من الوحي لحفظوه في صدورهم بعد أو قبل ما كتب كتاب الوحي ما نزل منه . .
وثانياً : كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يقرءون في الصلاة المكتوبة ،
والنوافل ، بالليل والنهار ، كل يوم قدرًا كبيراً من القرآن ، بل وكثير منهم كان
يقرأ كل ما نزل من القرآن في يوم أو بعض يوم . .

وثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى . . قد وعد بحفظ القرآن من أن يطرأ عليه
خلل أو نقص وذلك في قوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١) » .

وفي قوله سبحانه :

« لَا تَحْرُكَ بِهِ إِسَاءَتِكَ لَتَعْمَلَ بِهِ . . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (٢) » .

ورابعاً : كان اليهود ، وهم أهل كتاب ، وأصحاب علم ودرس - كانوا يرصدون
حركات النبي ، ويتوفرون على التماس السقطات والزلات في أصل الوحي ، وصلة
الرسول بالسماء ، فيما كان ينزل عليه من قرآن . . ولو أنهم وجدوا سقطة لطاروا
بها ، ولملأوا الدنيا تشنيعاً وتهويلاً ، وهم مغيظون مُحَنَقُونَ يحسنون الكيد والديس

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) سورة القيامة آية ١٦ - ١٧

(٢٥ - إعجاز القرآن)

ولم يسجل التاريخ — تاريخ اليهود أنفسهم — أنهم قالوا في القرآن الكريم قولاً على كثرة ما كان من القرآن من ذمهم وتقريعهم ، وكشف معايبهم وفضح نواياهم الخبيثة . . ثم جاء نصر الله والفتح ، فأجلاهم الإسلام عن الجزيرة العربية كلها . . وكان مجال القول والتشنيع أمامهم فسيحاً ، ولكن الله أخرسهم ، وضرب على ألسنتهم فلم يقولوا في القرآن كلمة يطعنون بها على « شخصيته » ، في صورته التي هو عليها ، من يوم أن نزل إلى يوم الناس هذا .

وخامساً : الفرق الإسلامية الكثيرة التي قامت منذ صدر الإسلام وقد اشتهد بينها الخلاف ، وكثر الجدل . وطلب كل فريق وجه الغلب بأي سبيل ، فكثرت لذلك التقول على رسول الله ، كما كثرت مذاهب التأويل لآيات الكتاب تأويلاً يذهب إلى أبعد غايات الكفر والإلحاد .

ومع هذا فلم يكن من بين هذه الفرق حتى تلك التي خرجت من الإسلام في شطحاتها وتأويلاتها — لم يكن لأى منها أن يجروا على أن يزيد كلمة أو حرفاً في آى الكتاب الكريم ، فضلاً عن آية أو سورة . .

وليس ذلك إلا لأن القرآن كان من وضوح الشخصية وتحديد معالمها بحيث لا يمكن أن يجد أحد سبيلاً إلى زيادة حرف ، فضلاً عن كلمة ، فضلاً عن آية ! وصدق الله العظيم الذى صدق وعده ، وحفظ كتابه :
« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

فإذا جاء بعد هذا من يدخل في دعوى يدعيها على القرآن استناداً إلى رواية مختلفة ، أو خبر مكذوب — فإنه يجب أن يُردَّ رَدَّ الكافرين المقترين ، إذ مضى أصحاب الشأن الذين كان لهم أن يسجلوا على القرآن مثل هذا الادعاء في حينه وكان في يدهم كل وسائل الإذاعة والتسجيل ، والشهير — وأغنى بهم اليهود — ولكنهم لم يفعلوا ، وإن فعلوا ، فسقط بهذا دعوى كل مدع ، وافتراء كل مقتر — أثم .

سببه وضوحه :

هذا ، وما يستند إليه بعض الطاعنين في القرآن الكريم وفي صحة جملة هذا القول الذى ينسب إلى ابن عمر - رضى الله عنه ، وهو : « لا يقول أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله ، فقد ذهب منه قرآن كثير ، ولكن ليقل أخذت منه ما ظهر لى » .

وفى تأويل الضالين لهذا القول بأن قرآنا كثيراً قد ضاع وذهب افتراء على الله ، وتحريف للسكلم عن مواضعه ، وحاشا ابن عمر أن يقول ذلك فى القرآن ، وهو يقرأ قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . . ولوصح نسبة هذا القول إلى ابن عمر لكان معناه ينصرف إلى معنى القرآن لا إلى لفظه ، وأن الضمير فى ذهب منه يعود إلى قائل هذا القول ، وهو أنه أخذ القرآن كله ، بمعنى أن قائل هذا القول قد ذهب منه قرآن كثير لم يدرك معناه كاملاً ، ولم يأخذ كل ما تعطيه آياته وكلماته . . فعانى آيات القرآن وكلماته لا تنفداً بدءاً ، وأن توارد المسلمين فى جميع الأزمان على القرآن الكريم لا يستنفد المعانى التى يحملها . ولا يقطع الثمرات الشبيهة التى يجنونها منه ، فالقرآن كلام الله لا يخبو نوره أبداً . . وهذا ما يشير إليه قول ابن عمر « ولكن ليقل أخذت ما ظهر لى » أى ما انكشف للبصيرتى من معانيه ، وهذا من شأنه أن يجعل أهل القرآن على صلة دائمة به يردون موارده ، ويطعمون من ثمره كما طافوا به أو نزلوا بساحته .

نظم القرآن

يُحكى « الخطابي^(١) » في كتابه : « بيان إعجاز القرآن » وجوهاً منكراً لتلك المقولات الفضوحة التي تطلع في فصاحة القرآن وعلو مقامه فيها .. ثم يتولى تنفيذها ودحضها ..

يقول الخطابي :

« فإن قليل » : إنا إذا تلونا القرآن ، وتأملناه ، وجدنا معظم كلامه مبنيًا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة في مخاطبات العرب ، مستعملة في محاوراتهم . وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليلة .. وعدد الفقر والقرر من ألفاظه بالقياس إلى مبالذه ومياسيره عدد يسير .

« فكيف يُتوهم عليهم — أى على العرب — المجزؤ عن معارضته ، والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء ، مقتدرون على التصرف في أودية الكلام ، عارفون بنظوم قصيده ، ورجزه ، وسجعه ، وسائر فنونه ؟

« وإنما عاقبهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى في نفوسهم ، وأجدى عليهم في مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجرتهم إياه الحرب ، ومعالجته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه ، وكرهه لمطاولته على القول ، ومعارضته بالكلام الذي يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه ، والانتقاده ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ! فمالوا إلى هذا الرأي قصداً إلى اجتياحه واستئصاله إذ كانوا فيما يرون مستظهرين عليه مستعملين بالقدرة !

(١) الخطابي هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، صاحب الرسالة في بيان إعجاز القرآن (٣١٩ — ٣٨٨) .

هذا ضرب من ضروب الافتراء على القرآن ، والتطاول عليه في المقام الذي
تطاول به ، وقهر العرب من جهته . . وهو الفصاحة والبيان !
وأنت ترى كيف بلغ هذا اللجاج في الغنت ، واستكراه الباطل على أن
يولد باطلا ؟ . .

وأى زور وبهتان واقترأ على الواقع والتاريخ بعد هذا الزعم بأن العرب لم
يعجزوا عن معارضة القرآن ، ولو أنهم اتجهوا إلى ذلك لكان في متناول أيديهم
وأنهم إنما عدلوا عن معارضة القرآن بالقول إلى معارضته بالسيف ، لأن السيف
فيه حسم للأمر الذي بينهم وبين محمد ، ولأنهم كانوا مستظهرين بالقوة معتزين
بها ، مقتدرين على الغلب ! أى بهتان وأى زور هذا ؟

ونسأل : لماذا لم تلجأ قريش إلى السيف من أول يومها مع النبي ؟ ولماذا
تطاوله عشر سنين في مكة . . من مبعثه إلى هجرته ؟ وهل كان وهو بين يديها في
مكة أقوى منه وهو في المدينة بين المهاجرين والأنصار ؟

إن قريشاً لم تحتكم إلى السيف ، لأن فيه القضاء عليها ، وتمزيق وحدتها . .
ولقد حاولت أن تحمل النبي على ترك دعوته بكل وسيلة . . وعرضت عليه
المال الكثير من مالها ، ونزلات له عن سلطانها ليكون هو صاحب السلطان
عليها . . وأنها لم تحمل السيف إلا حين أعجزتها كل حيلة في صرف النبي عن أمره !
ولقد كان الاتجاه إلى معارضة القرآن ، والنزول إلى الميدان الذي دعاها النبي
إليه ، وتحداها به — كان ذلك أقرب شيء إلى إنهاء الخلاف الذي بينها وبين
النبي ، ولكنها وجدت أنها لن تصمد في هذا الميدان ، ولن تخرج منه إلا ومعها
الخنزى والهزيمة ! فعدلت عنه حفظاً لكرامتها ، وإبقاء على كبريائها . .

ونستمع إلى رأى الخطابي في الرد على بعض هذه المقتريات . . يقول :
« وأما ما ذكره من قلة الغريب في ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ،

فليست الغرابة مما شرطناه في حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام ، وتنزيله ، والتخير له .

ثم يذكر الخطابي زعماً آخر من تلك المزاعم . . فيقول :

« فإن قيل إنما لانسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها - وذلك - لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة ، وأهل المعرفة بها .

كقوله تعالى : « فأكله الذئب » وإنما يستعمل في مثل هذا - في فعل السباع خصوصاً - « الافتراس » .

« وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل ، لكان أحسن نظاماً ، وأثر فائدة ونفعاً ! » فالجواب : أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة ، وفي الآي المجموعة القليلة العدد - لتسكون أكثر لفائده ، وأعم لنفعه ، ولو كان لكل باب منه قبيل ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر فائده . . ولكان الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة به إلا في النوع الواحد ، الذي تضمنته السورة الواحدة فقط . فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظاً ، وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد » (١) .

وهذا رد - فيما نراه - كفيل بإسقاط هذا الادعاء . . وإن كان يمكن أن يقام لهذا التدبير القرآني في محيئه على تلك الصورة المنجمة - وجوه أوجه

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٤٩ .

وأوفى من هذا الوجه . . ولكن الدعوى أهون من أن يوقف عندها ،
أو يلتفت إليها . .

ولهذا فإننا لا نقف عند هذا المذيان ، ولا نُلقي إليه بالاً ، ولا نضيع معه وقتاً ،
وها نحن أولاء نجأوزه إلى غيره من مقولات القوم . . لنرى ما يقولون !!
يقولون : « افترسه السبع » . . هذا هو المختار الفصيح في معناها . . فأما
الأكل فهو عام ، لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع . . يريدون بذلك
أن استعمال كلمة « أكله الذئب » غير مناسبة للمعنى ، وأن المناسب أن يقال :
افترسه الذئب .

ويرد الخطأ على هذا بقوله :

« إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل . . حَسْبُ ، وأصل الفَرَس دق
العنق . . والقوم - أى أبناء يعقوب - إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً ،
وأتى على جميع أجزائه ، وأعضائه ، فلم يترك مَفْصِلاً ، ولا عظماً . .
وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بأثر باق منه ، يشهد بصحة ما ذكروه ،
فادعوا « الأكل » ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة . .
« والفَرَسُ » لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلا يصلح - على هذا - أن يعبر
عنه إلا « بالأكَل » .

ويجىء « الخطأ » بمقولات كثيرة من هذه المدعيات ، منها : قولهم في قوله تعالى :
« أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ »^(١) . . فهم يقولون :
« إن المشى في هذا ليس أبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك « امضوا »
أو « انطلقوا » لكان أبلغ وأحسن » ! .

ويرد الخطابي على هذا بقوله : [بل المشى في هذا المحل أولى ، وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ، ولزوم السجدة المعهودة ، في غير انزعاج منهم ، ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أن المشى أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله تعالى : « واصبروا على آلهتكم » والمعنى : كأنهم قالوا : امشوا على هيئتهم ، وإلى مَهْوَى أموركم ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به .

وفي قوله : امضوا ، وانطلقوا ، زيادة انزعاج ليس ^(١) في قوله [امشوا] والقوم لم يقصدوا ذلك ، ولم يريدوه ^(٢) .

وعرض « الخطابي » أشباهاً لهذه المزاعم ، ثم ينقضها ، وهي في حقيقتها منهارة من قبل أن يُعمل فيها معاول الهدم ، ولهذا فنحن لانقف عند هذا الهذيان ، ولا نلجئ إليه بالا ، ولا نضيع معه وقتاً . . . وها نحن أولاء نجاوزه إلى غيره من مقولات القوم ، لنرى ما يقولون !!

(١) اسم ليس ضمير مستتر تقديره هو يعود على قوله « لزيادة لزعاج » والجار والمجرور خبرها .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن — رسالة الخطابي — ص ٣٩ بتصرف .

التكرار في القرآن

وقعت في القرآن الكريم صور من التكرار اللفظي لبعض الجمل ، أو الكلمات أو الأحداث .. كالقصص ، ونحوها - وبعض هذا التكرار يمر دون أن يجد منه القارئ أو السامع شيئاً يلفتة إليه ، إذ يقع التكرار على نحو مألوف للأذن ، على ما جرت به الأساليب البيانية في اللغة ، وذلك كأن يتكرر اللفظ ، أو الجملة ، لغرض التوكيد .. كقوله تعالى :

« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ .. » .. وكقوله تعالى : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ .. »

فمثل هذا التكرار لا يجابه حاسة السمع بجديد لم تألفه الأذن من إعادة الجملة أو بعض أجزائها ، بصورتها كاملة ، أو بتغيير بعض حروفها أو حركاتها .. فذلك - كما قلنا - مما وقع كثيراً في أساليب الخطاب ، في لغتنا العربية .

وقد يحىء التكرار في القرآن على صورة غير مألوفة ، فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً غير مقصد التوكيد ، إذ يمتد ، ويطول في سلسلة تنتظم السورة كلها ، وتأخذ بها من جميع أطرافها .. كما في سورة القمر ، وفي سورة الرحمن ، وسورة المرسلات .. فلقد تكررت مقاطع خاصة في هذه السور الثلاث مرات . وبصورة واحدة ، دون تحوير أو تبديل فيها .

ففي سورة « الرحمن » تكرر قوله تعالى : فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبُونَ » إحدى وثلاثين مرة ، وكان هذا المقطع آية مستقلة من بين آيات السورة التي تبلغ ثمانياً وسبعين آية .

وفي سورة «المرسلات» تكرر قوله تعالى : «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ الْمَكَذِّبِينَ» إحدى عشرة مرة ، واعتبر هذا المقطع آية بذاتها من بين آيات السورة ، وهي خمسون آية .

وفي سورة «القمر» أيضاً حدث هذا التكرار في قوله تعالى : «فكيف كان عَذَابِي وَنُذُرِي» أربع مرات . . كما يذكرون في هذا الباب أيضاً سورة «الكافرون» وما وقع فيها من تكرار .

ولقد كان هذا التكرار على تلك الصورة المرددة مدخلاً يدخل منه أصحاب الأهواء ، ومرضى القلوب — على كتاب الله ، ليخوضوا فيه ويتخرسوا على نظمه ، وليطعنوا في بلاغته بهذا التكرار المتتابع ، وليقولوا إنه بهذا التكرار قد أدخل الاضطراب على الأسلوب ، وجعله ثقيلاً على اللسان والسمع معاً . . . وعلى هذا فإن أسلوب القرآن ليس على المستوى الرفيع من أساليب البلاغة ، وأن هذا الخلط الذي وقع فيه إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التي كانت تلتاب «محمدًا» فتخرج به عن وعيه !!

وتلك رميات طائشة ، وأحكام منقوضة ، لم تصدر عن رأى وفهم ، ولم تجيء من جهة لها في هذا الأمر قَدَمٌ ، أو لها فيه وزن وحساب !

إن الذين يقولون مثل هذا القول ، أو يحكونه عن غيرهم أعاجم ، أو أشباه أعاجم ، لم يذوقوا البلاغة العربية ، أو يتصلوا بأسرارها . . ولو أنهم رزقوا شيئاً من هذا لما طاوعتهم أسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ولرדם الحياء أن يقولوا قولاً لم يقع في حساب «قريش» وهي تنصيد التهم والمفتريات على القرآن الكريم حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زوراً من القول لقاتله فيه ، ورمته به . . ولكن الزور نفسه أعياها أن تمسك به في وجه هذا الحق المشرق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول ، وهي مرجع الفصاحة والبلاغة

وموطنهما ، فكيف يساغ هذا القول من أعاجم أو شبه أعاجم ؟ إن ذلك هو الضلال البعيد !

وبعد ، فما هذا التكرار الذى وقع فى القرآن ؟ وما مقام هذا التكرار ووزنه فى معايير البلاغة والبيان ؟

التكرار فى القرآن :

هو إعجاز من إعجازه ! ووجه جديد من وجوه البلاغة ، لم ينطق به من قبل للقرآن لسان ، فيجد فيه تلك الطلاوة والحلاوة ! .. على هذا الوجه الذى جاء به الكتاب الكريم .

ذلك أن كل كلام يتكرر ينقل ، ويسمج ، ويسقط !
أما التكرار الذى وقع فى القرآن فإنه كان فى المواضع التى جاء فيها نفماً جديداً من أنغام الحسن الرائع .. أضيف إلى تلك الأنغام السارية فى القرآن كله .

* * *

اقرأ هذه المقاطع .. أولاً :
« فَبَأَى آلاءُ رَبِّكَ أَنْ تَكْذِبَ »
« وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ » ..
« فكيف كان عذابي ونذر » ..

اقرأ المقطع الأول ، أو الآية الأولى .. وهى التى تكررت إحدى وثلاثين مرة فى سورة « الرحمن » ورددتها مرات متتابة ، من غير فاصل يفصل بينها ..
ماذا تجد ؟

أتحسث ثقلاً على السمع ؟

أتجد اضطراباً في اللسان ؟

إن كنت موسيقياً . . فليس لي معك حديث في هذا الأمر . . فأنت خبير به
عليم . . وما عليك إلا أن تدندن بالآية الكريمة ، وتحرك لسانك بحروفها حرفاً
حرفاً ، كما تحرك أصابعك على أوتار العود . . وسينتهي بك ذلك إلى أن تجد نفسك
في نشوة نغم علوى سماوى لم يقع لأذنك من قبل !

وإن لم تكن من أصحاب الموسيقى فرتل الآية الكريمة ترتيلاً قرآنياً . . مرة
ومرة ، ومرات . . واملأ فك بكلماتها ، وافتح أذنك لرنينها . . وسترى أنك
تنطق بلحن موسيقى يفيض رحمة ، وينبض جلالاً وقوة . . يهتف بالنفوس الشاردة
أن ترجع إلى ربها ، وبأقلوب الضالة أن تفر إلى خالقها . . وإلا فالويل والثبور !

* * *

واقراً الآية الثانية : « ويل يومئذ للكاذبين » ، واصنع معها صنيعك مع
الآية الأولى . . تجد فيها ما وجدت في سابقتها من تساوق النغم ، وتجاوب الكلمات
وتجاذب الحروف . . فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . . ولكن تعاضد ،
وتساند ، وانساق ، وتعانق . . بين الحروف والحروف ، والكلمات والكلمات !
وأحسبك قد وقعت على ما تكشف لك من اختلاف بين النغم الموسيقى هنا
والنغم الموسيقى هناك . . حيث اختلف اللقام . . فكان لكل مقام مقال ،
أو لحن !

« ويل يومئذ للكاذبين » .

ليس في هذا المقطع كله ذبذبة حنان ، ولا حرف لين . .
إنه بناء من صخر ، وجامد ، اجتمعت حروفه على تلك العمورة فكانت
قديفة منطلقة . . أو شهاباً منقضياً . . تقع على رؤوس الكاذبين الضالين !

* * *

واصنع بالآية الثالثة ، صنيعك بأختيها السابقتين . .

إنك تجد المعدن واحداً . .

« فكيف كان عذابي ونُدُرٍ ؟ » .

تماسك بين الحروف ، وتجاذب بين الكلمات . . وتساق في النغم المنطق

منها . فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . .

ثم هي كيان واحد . .

هدير الرعد . . ودمدمة الصواعق . . ثم سكون كسكون القبور ! !

* * *

ثم ماذا ؟

وهل قلنا في هذه الآيات الثلاث كل ما ينبغي أن يقال ؟ إنما لم نُلْقِ الآيات

إلا من جانب ضيق من جوانبها الفسيحة التي لا حدود لها . . والتي لو درنا حولها

الزمن كله ما بلغنا لها مدى ، ولا انتهينا منها إلى غاية .

اقرأ الآيات الثلاث معاً . . على هذا الترتيب السابق . . الأولى ، فالثانية ،

فالثالثة . .

هل وجدت شيئاً من هذا الجمع بينها على تلك الصورة ؟

اقرأها مرة أخرى . .

إنك تجد أمراً عجيباً ، وتديراً عجيباً !

الآية الأولى . . سؤال . . « فبأي آلاء ربكم تكذِّبان ؟ »

والآية الثانية . . جواب عن هذا السؤال : « ويل يومئذ للمكذِّبين » .

والآية الثالثة . . سؤال وجواب معاً : فكيف كان عذابي ونُدُرٍ ؟ .

فالسؤال في الآية الأولى يتوعد المكذِّبين بآيات الله ونعمه ويدعوهم إلى

الإيمان والعمل الصالح . .

وفى الآية الثانية ويل وعذاب وبلاء يلقي المكذبين الذين كذبوا بآلاء الله !
وفى الآية الثالثة بيان للحال التى تكشف عنها البلاء والويل والعذاب الذى
أحاط بالمكذبين والضالين ، وأذاقهم عذاب السعير !

* * *

والآيات الثلاث لم تقع فى القرآن على هذا الترتيب . . وإنما كل واحدة منها
آية فى سورة . . فالأولى — كما عرفت فى سورة « الرحمن » ، والثانية فى سورة
المرسلات ، والثالثة فى سورة القمر . .

وسورة الرحمن مدنية . . وقيل إنها مكية !

والسورتان الأخريان مكيتان . . بلا خلاف !

وقد يكون تخريجنا لهذه الآيات على هذا الوجه بعيداً عن الواقع ، قائماً على
الشطط والتعسف فى التأويل ! وذلك للفواصل البعيدة التى تفصل بين السور
الثلاث ، زماناً ، ومكاناً ، ثم لهذه الفواصل التى تفصل الآيات الثلاث من سورها ،
وترتيبها هذا الترتيب .

وذلك أمر لا ننكره !

ولكن ساقنا إليه — عرضاً — إحساسنا بما فى القرآن من أسرار ، فوقع لنا
هذا الخاطر على غير انتظار أو تدبير ، فصورناه خاطراً مرسلًا . لا رأياً محكماً
وقد ينقذ من الخاطر المرسل مالا ينقذ من رأى المحكم !

* * *

وقد كان حديثنا معك عن هذه الآيات المكررة حديثاً خاصاً بها ، من حيث
أنها فى ذاتها نغم موسيقى ، يلذ السمع ، ولا يثقل على اللسان ، وإن تكرر
عشرات المرات فى صورة مفردة . . . ولقد رأيت كيف كان هذا ، وكيف صدقتك
التجربة . فيما حدثتك عنه من شأنها على هذا الوجه .

ولكن هذه الآيات لم تجيء منقطعة هكذا عن غيرها ، ولا مسوقةً لهذا المساق المنفصل .. بل هي آية في سورة ، فإذا نظرت إليها مكررة ، قلت إنهن آيات في سورة ..

وأنت إذ تقرأ هذه السور الثلاث ، تجد لهذه الآيات في سورها موقعا غير الموقع الذي وجدته حين قراتها ، وحدها بعيدة عن الجو الذي يحيط بها ، فيما بين يديها وما خلفها من آيات ! وهنا يتجلى لك إعجاز القرآن ، ويبدو لك من هذه الآيات - في روعة نظمها ، وحسن نعمها - ما لم يبد لك من قبل .

ولا أريد أن آخذ عليك الطريق إلى كتاب الله الكريم لتتلوه هذه السورة .. فتقرأ السورة كلها ، وتتأمل وضع الآية المكررة فيها ، وتتجسس في نفسك ما يدخل عليك من هذا التكرار ، من روعة . وقهر وسطوة .. !
ولكن هذا لا يردني عن أن أسبقك إلى كتاب الله ، فأقتطف منه بعضاً من كل سورة من تلك السور ، لترتلها معاً .. ثم تعود أنت فتتفرد بنفسك ، وترتل ما شاء الله أن ترتل ..

انقرأ مطلع سورة الرحمن .
« الرَّحْمَنُ .. عَلَّمَ الْقُرْآنَ .. خَلَقَ الْإِنْسَانَ .. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ .. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ .. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ .. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ .. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ .. وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ .. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ .. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ .. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ .. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .. مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ .. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .. يَخْرُجُ مِنْهُمَا آؤَاوُ

والمَرْجَانُ .. فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَما تُكْذِّبانِ .. وَلَهُ الْجِوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ .. فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَما تُكْذِّبانِ .. » (١)

انظر كيف يطلع هذا المطلع على تلك الصورة الرائعة الفريدة من النظم ..
فأنت بين يدي خمس آيات تلاحت، وتماسكت، ودون أن يقوم بينها حرف عطف ..
إن ما بينها من ألف يجعلها في غنى عن أن يستجلب لها عاطف يعطف بعضها على
بعض !!

ثم انظر كيف بُنيت فواصل السورة من أول أمرها على النون قبلها ألف
مدودة .. هي نفس الفاصلة التي قامت عليها الآية المكررة « فَبَيَّ آلاءَ رَبِّكَما
تُكْذِّبانِ ! »

وانظر مرة أخرى إلى هذا التدبير الحكيم الذي تطلع به عليك هذه المقدمة
من الفواصل المتتابعة المتماثلة مع فاصلة الآية المكررة ... الرحمن .. القرآن ..
الإنسان .. البيان .. بحسبان .. يسجدان .. الميزان .. الميزان .. الأثام ..
للأنام .. الأكام .. الرياح .. ثم بعد هذا كله تحيء الفاصلة « تُكْذِّبانِ » ..
حيث لم تدخل الآية المكررة في السورة إلا بعد اثنتي عشرة فاصلة في اثنتي عشرة
آية .. كلها من نعم الفاصلة المكررة ، وعلى وزنها .. وهذا من شأنه أن يقيم
الأذن على هذا النعم ، ويربطها .. فإذا تكررت لفظة بعد ذلك لم تجد الطريق إلى
السمع مسدوداً عليها ، بل إن الأذن تنفتح لها ، وتدعوها إليها ، وتجذبها نحوها ..
وانظر مرة ثالثة .. فلقد سبق هذا التكرار المنتظر بتكرار يمهده ، ويعد
السمع واللسان لاستقباله ..

وذلك بأن تكررت كلمة « الميزان » ثلاث مرات في ثلاث آيات متتابعة دون

أن تفصل بينها آيات أخرى . . . ولا شك أن هذا تمهيد بليغ للتكرار الذي
سيجيء بعد هذا مباشرة : « فَبَأَى آلاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ » .
« إِنَّا فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ
شَهِيدٌ » (١) .

* * *

وفي سورة المرسلات . . . يجيء مطلعها هكذا :
« وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . . . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا . . . فَالْفَارِقَاتِ
فَرَقًا . . . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . . . عُذْرًا أَوْ نَذْرًا . . . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ . . . فَإِذَا
النُّجُومُ طُمِسَتْ ، وَإِذَا الدَّمَاءُ فُرِجَتْ ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ، وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتُتْ . . .
لَأَيُّ يَوْمٍ أَجَلَتْ . . . لَيَوْمٍ الْفَصْلِ . . . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . . . » (٢)
هذه أربع عشرة آية من أول السورة ، لم تذكر بينها الآية المكررة .
ثم بعدها مباشرة تجيء هذه الآية ، وتتابع . . . هكذا :
« وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ » .

* * *

« أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ » . . .
« ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ » . . .
« كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَارِمِينَ » . . .
وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ

* * *

« أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ » . . .

(١) سورة ق الآية ٣٧ .

(٢) سورة المرسلات الآيات من ١ إلى ١٣

« فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ .. »

« إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ .. »

« فَقَدَرْنَا ، فَنَعِمَ الْقَادِرُونَ . »

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »

* * *

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا .. »

« أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا .. »

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِجَاتٍ . »

« وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا . »

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . »

وهكذا تمضي الآية إلى آخر السورة على هذا النسق العجيب من النظم . . !

فعلى رأس كل آيتين أو ثلاث آيات ، أو أربع ، أو خمس . . تجيء الآية

المكررة وكأنها خاتمة المقطع « السيمفونية » الموسيقية ..

وأنت ترى أن هذه السورة الكريمة لم تتحد فيها فواصل الآيات كما رأينا

ذلك في سورة « الرحمن » مما كان له أثره العظيم في تجاذب الآيات ، وتعاقد فواصلها ..

ولكن الذي فات هذه السورة من اتحاد الفاصلة استعويض عنه بتقسيم السورة

إلى مقاطع ، كل مقطع منها يمثل وحدة من النغم .. في توازن الآيات ، وتماثل

الفواصل ! فكان هذا العمل المحكم عاملاً حاسماً في إقرار الآية المكررة بين

آيات السورة في وضع مطمئن مكين .

ومن التدبير الذي قامت عليه هذه السورة أن آياتها الأولى ، وهي أربع عشرة

آية ، لم تذكر فيها الآية المكررة . هذه الآيات لم تجيء على نسق واحد من النظم ،

ولا على وحدة واحدة من الفواصل .. بل جاءت على مقاطع ، كل مقطع منها يمثل
حالا من أحوال النظم ، على نحو ما ستكون عليه صورة النظم بعد أن تدخل عليه
الآية المكررة .. حين جاء على مقاطع ، كل مقطع يمثل وحدة من وحدات النظم
الموسيقى للسورة كلها ..

فسبحان من هذا كلامه !

* * *

وسورة القمر !

جاءت على نظم عجيب فريد ..

توازن في الآيات ، ووحدة في الفاصلة ..

فلقد جاءت الآيات كلها على وزن يكاد يكون واحدا .. أشبه بشطر البيت
من الشعر ..

وجاءت الفواصل كلها على صورة واحدة .. أشبه بالقافية في الشعر .. حرف
الروي فيها هو الراء ، مسبوقة بحرفين متحركتين قبلها ..
انظر :

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » ..

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِرٌّ »

« وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُسْتَعِرٌّ »

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ »

« حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ : فَمَا تُغْنِ الذُّرُ » ..

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ » ..

« خَشَمًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ » ..

« مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ . . يَقُولُ الْكَافِرُونَ . هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ . . »
 « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . . »
 « فَذَعَارَبَهُ أُنَى مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصَرَ . . »
 « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ . . »
 « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . . »
 « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِرَ . . »
 « تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّإِنْ كَانَ كُفِرَ . . »
 « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »
 « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ؟ »
 « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ . . فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »
 « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي »

فهذا التوازن بين الآيات - وإن لم يكن على صورة الشعر في تعادل التفعيلات بين صدر البيت وعجزه - قد جعل النغم الموسيقى ممسكا بها جميعها في لحن واحد متساوق الإيقاع ، يجرى قويا متدفقا كتدفق السيل ، حتى يقع على « القرار » فيستقر عنده ، ويسكن إليه !

وانظر . . أى قرار يحمل هذا البحر المتدفق ويحويه في صدره ؟ إنه حرف واحد هو حرف « الراء » . . وهو أقوى حرف في حروف اللغة العربية ، وأشدّها تماسكا . . فإذا وقف عليه بالسكون انبمعج في رخامة ، ولين ، وصار أشبه بالوادي العميق الرحب ، بين يدي جبل تنهر عيونه ، وتدفق سيوله !
 وانظر أيضاً :

فإنك لترى أن الآية المكررة هنا : « فكيف كان عذابى ونذر » لم تدخل على السورة إلا بعد أن جاء منها خمس عشرة آية .

وترى أيضاً ، ما أشرنا إليه من توازن الآيات ، ووحدة الفواصل .
وتمضى السورة على هذا النغم ، إلى آخرها . . حتى تعاقب الآية الأخيرة
«سورة الرحمن» التي عرفت أمرها من قبل ، وما فيها من تكرار الآية ، «فبأى
آلاء ربكما تكذبان» إحدى وثلاثين مرة . .

وسورة «القمر» هذه على ما جاءت عليه من هذا التوازن فى الآيات ، وهذا
التوافق فى الفواصل تعتبر مقدمة طبيعية لسورة الرحمن ، وانتقالاً من نغم عاصف
هادر إلى نغم ملاطف مواع . . حيث تبدأ سورة القمر مزججة مدممة . . ثم
تنتقم هذا الختام الرضى الودود . .

« إن المتقين فى جنّاتٍ وسهٍ . . فى مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ . . »
وهذا يمكن أن يوصل بين السورتين كأنهما سورة واحدة . .
« الرحمن . . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . . »

* * *

هذا مَثَلٌ للتكرار الذى جاء فى القرآن ، والذى نظر إليه بعض الناس نظراً
مقلوباً ، فأروه : اختلالاً فى النظم ، واضطراباً فى الأسلوب ، وإسقاطاً فى البيان . . على
حين أنه مذهب من القول لم يكن فى مقدور العرب أن يرتقوا إليه ، وضرب من
البلاغة حاوله البلغاء فوققوا دونه . . فلما جاء به القرآن على هذا الوجه ، رأوا فيه
وجه الإعجاز سافراً ، فخشعوا له ، وخرّوا ساجدين تحت قدميه !

وماذا يكون منهم غير الخشوع والسجود فى هذا المقام : ؟ وإذا هم لم يخشعوا
ويسجدوا لهذا الجلال ، وهذا الإعجاز ، فلأى جلال وإعجاز يخشعون ويسجدون !
لقد تحدّاهم القرآن بالنظم السهل المألوف فعجزوا عن مطاولته عجزاً
استثنائياً واستسلام . . وتحداهم بالجزل الفخم من النظم فأعياهم أن يرتقوا هذا
المرتقى ، وأن يطاعوا هذا المطلع ، وأقاموا على ما هم فيه من يأس واستسلام . .

ونسج لهم نسجاً جمع بين السمع السهل والفتح الجزل فزادتهم تلك الصورة من
النظم حيرة .. وحسرة ! ثم لقيهم بهذا النظم الفريد العجيب .. فنسج لهم من الآية
الواحدة سورة .. يعيد فيها الآية ويكررها بلفظها .. شأن الألسن العاجز ..
تشكسر الكلمة على فمها وتتكرر .. وإذا بهذا الكلام المكرر المعاد هو الفصاحة

كلها ، حواها من أطرافها ، وإذا هو الحسن كله ، جمعه من جميع وجوهه !

« فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ؟ » !

هذا ، وقد كانت هذه الظاهرة القرآنية - ظاهرة التكرار - موضع نظر
كثير من علماء السلف ، وكان لكل منهم رأي الذي استراح له ، واطمأن إليه
في حكمة هذا التكرار ، وفي أثره البلاغي في نظم القرآن وإيجازه ..

يقول الزركشي في كتابه .. « البرهان في علوم القرآن » :

« إن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشئ إرادةً لتحقيقه ، وقرب وقوعه ،

أو قصدت الدعاء عليه - كررته .. تؤكداً ، وكأنها تقيم تكراره مقام القسم

عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه ، حيث تقصد الدعاء .. »

« وإما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ،

وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة ، !

ثم يقول :

« وعلى ذلك يحمل ماورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد - في القرآن -

لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعيه إلى الشهوات ، ولا يقيم

ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع .. قال تعالى :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ .. قال في الكشف : « سهلناه للادِّكار

والاعتاظ ، بأن نسجناه بالمواعظ الشافية ، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد .. »

ثم يقول الزركشي متحدثاً عن التكرار وأثره :

« وفائدته العظمى التقرير .. وقد قيل : الكلام إذا تكرر تقرر » .

وقد أخبر الله سبحانه عن السبب الذي لأجله كرر الأفاضل والأخبار في القرآن ، فقال : « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .. وقال : « وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » ^(١) .

وكنا نحب أن يكشف لنا الزركشي عن هذا المعنى الذي تحدث عنه من شأن التكرار ووزنه في الكلام - فيعرض صوراً من التكرار القرآني ، ويحلّ روعة هذا التكرار ، وما كان له من أثر في تقرير المعنى وتوكيده ، دون أن يجور على النظم القرآني ، أو يأخذ شيئاً من انساقه وتجاذب كلماته ومقاطعته !
ولكن الزركشي وقف بنا عند رأيه في أن التكرار القرآني هو أسلوب من أساليب البيان العربي ، وأن القرآن جرى في هذا على ما كان للعرب من أساليب التكرار في مواقف التوكيد ، والدعاء ، والتقرير . . وذلك في جسيمات الأمور ، وعظائمها !

والقرآن الكريم وإن سلك هذا المسلك المألوف في التكرار إلا أنه خرج به عما كان يلحقه عادة من قلق النظم ، واضطراب الأسلوب ، وضعف الترابط بين أجزاء الكلام ، فيبدو وجه الكلام جافياً . . كالحجأ .
وهذا - كما قلنا - إعجاز آخر من إعجاز القرآن ، إذ أقام من الأسلوب القلق المضطرب ، المفكك - أسلوباً متساوفاً متجانساً ، متماسكاً . . في أروع نظام ، وأحكم بيان !!

وفي «أمالى المرتضى» مجلس خاص من مجالس الشريف المرتضى يشرح فيه ظاهرة التكرار في القرآن ، ويعرض آراء العلماء فيها ، فيردّ بعضها ، ويقبل بعضها ،

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي - جزء ٣ ص ٩ .

ويجرح رأياً ، ويعدل آخر .. ثم يدلى برأيه الذى ارتضاه لتفسير هذه الظاهرة :
يقول المرتضى فى معرض التكرار الذى جاء فى سورة : الكافرون :
« إن سأل سائل فقال : ما وجه التكرار فى سورة الكافرون ؟ وما الذى
حسن إعادة النفي لكونه عابداً ما يعبدون ، وكونهم عابدين ما يعبد ، وذكر ذلك
مرة واحدة يغنى ؟

ثم يجيب برأى ابن قتيبة جواباً على هذا السؤال ، وبالعلم الذى وجه إلى
هذا الرأى .. ثم يقول :

وعن هذا السؤال ثلاثة أجوبة كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة :
أولها : ما حكى عن أبى العباس ثعلب أنه قال : إنما حسن التكرار لأن
تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام : « قل يا أيها
الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، الساعة وفى هذه الحال «ولا أنتم عابدون ما أعبد»
فى هذه الحال أيضاً ، فاختص منه أى - من النبى - ومنهم - أى من الكافرين -
بالحال .. وقال من بعد : «ولا أنا عابد ما عبدتم» فى المستقبل «ولا أنتم عابدون
ما أعبد» فيما تستقبلون .. فاختلفت المعانى ، وحسن التكرار لاختلافها .

ثم يعلق على هذا الجواب بقوله « ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب
مختصة بمن المعلوم من حاله أنه لا يؤمن ^(١) .. وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت
فى أبى جهل والمستهزئين ^(٢) ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد .. وهم العاص

(١) وذلك لأن المفهوم من هذا المعنى تأييد النفي ، فالكافرون الموجه لهم الخطاب فى
هذه السورة محكوم عليهم أنهم لا يعبدون ما يعبد النبى أبداً لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال
بل يمضى معهم كفرهم الى قبورهم .

(٢) المستهزئون هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : «لنا كفيناك المستهزئين الذين يمجولون
القرآن عشرين» .

ابن وأئل السهمي والدايد بن المغيرة والأسود بن المطلب والأسود بن عديغوث ،
وعدي بن قيس » .

وبعد أن يعرض المرتضى الجوابين الآخرين عن التكرار في سورة الكافرون
يعرض للتكرار الذي وقع في سورة الرحمن .. فيقول :

« وأما التكرار في سورة الرحمن فإنما حسن التقرير بالنعم المعددة ، فكما
ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ، ووضع على التكذيب بها .. كما يقول الرجل
لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من
السكره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرار ،
لاختلاف ما يقرره به .. وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم .. قال مهامل
ابن ربيعة يرى أخاه كليباً :

على أن ليس ^(١) عدلاً من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما ضم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب إذا رجف العضاء من الدبور ^(٢)
وقد تكرر هذا اللفظ ثمانى مرات في ثمانية أبيات ..

ثم ذكر رثاء ليلي الأخيلية في « توبة بن الحمير » وقد كررت « نعيم الفتي »
أربع مرات ، في أربعة أبيات ، كما كررت شطر البيت : « لعمر المرء أبكى لفقده »
أربع مرات في أربعة أبيات :

ثم يقول : « فخرجت في هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار ، لاختلاف
المعاني الذي عدناها ، على نحو ما ذكرناه » !

(١) اسم ليس هنا ضمير يعود على جساس بن مرة ، وهو الذي قتل كليباً غدرأ .. أي
أنه ليس معادلاً لكليب في هذه الأمور التي ذكرها .

(٢) رجف : تحرك حركة قوية راجفة من البرد الشديد . والعضاء شجر له شرك ويريد
بهذا كناية عن الجذب الذي يقع في وقت البرد حين يحى الشتاء وترجف أشجار العضاء من البرد !!

وقال الحارث بن عباد (يرثى ابنه ، ويتأهب لطلب ثأره من قاتله المهلهل ابن ربيعة) :

قرباً مربط النعمة^(١) منى لفتح حرب وائل عن حيمال
وكرر قوله : « قرباً مربط النعمة منى » فى أبيات كثيرة من القصيدة ، المعنى الذى ذكرناه .

« وهذا هو الجواب عن التكرار فى سورة الرسائل فى قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » .

« فإن قيل : إذا كان الذى حسن التكرار فى سورة الرحمن ما عدده من آلائه ونعمه ، فقد عدد فى ذلك ما ليس بنعمة ، وهو قوله تعالى : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .

وقوله : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا : « فبأى آلاء ربكنا تكذبان ، وليس هذا من الآلاء والنعم ؟ قلنا : الوجه فى ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكره ووصفه ، والإنذار به ، من أكبر النعم لأن فى ذلك زجراً عما يستحق به العقاب ، وبعثاً على ما يستحق به الثواب ، فإنما أشار بقوله : « فبأى آلاء ربكنا تكذبان » بعد ذكر جهنم والعذاب فيها — إلى نعمته بوصفها — أى جهنم — والإنذار بعقابها ، وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة^(٢) !!

هذه هى سبيل التكرار فى القرآن . لا يحىء متكافئاً ، ولا يصدر عن عجز عن تناول اللفظ الذى يصلح المعنى عليه ، وإنما يحىء حين يحىء ليخدم المعنى ، ولا يخل بتساوق النظم بل يمد النغم الموسيقى بلون جديد يزداد به النغم روعة وقوة لا

(١) النعمة : اسم لفرس له .

(٢) أنالى المرتضى جزء ١ ص ١٢٠ وما بعدها .

ولكن لسائل أن يسأل : أما كان من الممكن أن يحىء القرآن بألفاظ مختلفة لهذا المعنى الذى حمله اللفظ الذى تكرر ؟ وألم يكن فى اللغة مرادف أو مرادفات لقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟ أولقوله : « ويل يومئذ للكافرين » ؟ إن ذلك لو حدث تخلف من حدة هذا اللون الصارخ فى التكرار .

والجواب على هذا أن القرآن لو أراد أن يعدل عن هذا الأسلوب الذى أراده على تلك الصورة لوجد أكثر من اتجاه يتجه إليه ، ليجىء باللفظ الذى يؤدى المعنى المراد ، ولأقام السورة على نظم غير هذا النظم ، ولأخرجها على نسق غير ذلك النسق .. مع احتفاظها بالمعنى المؤدى بها على صورتها التى جاءت بها ، سواء أكان ذلك فى سورة الرحمن أم سورة الرسائل أم فى غيرها من المواضع التى وقع فيها التكرار ...

ولكن هذا الأسلوب الذى جاءت عليه الألفاظ التى تكررت كان عن قصد ، وعن تدبير .. يبدو لنا منه - فيما نرى - :

أولاً : إيقاظ المشاعر ، وإفكات العقول بهذا الخروج على المألوف من الخطاب وذلك لما يقتضيه الموقف من يقظة ووعى ، وحذر من أن يفلت من بين يدي الإنسان ما ينبغى أن ياتى به هذا الموقف من استعداد نفسى ، وعقلى ، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة .. ولو جاء عرض هذا الموقف بأسلوب مألوف فلربما غفل عنه كثير من الناس ، ولربما التفت إليه من التفت منهم ، بنفس فاترة ، وعقل شارد !

وسورة الرحمن التى تكرر فيها لفظ : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » - معرض متكامل لنعم الله ، ولقدرة الله ، ولرحمة الله ، ولجلال الله وعظمته .. فإذا طوف بالإنسان فى هذا المعرض ، ولم يكن معه الدليل الذى يشير له إلى كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير ، وينبهه إلى ما ينبغى أن يتزود به من هذا

الخير - فلربما طاف ما طاف ثم خرج صفير اليمين . . لم يحمل من المعروضات
إلا صوراً وخيالات . . لا تلبث أن تزول . .

فكأن قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » هو الدليل الذى يصحب
قارئ السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها . . كلما عرضت آية من آيات الله ،
أو تجلت نعمة من نعمه ، طلع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم :
« فبأى آلاء ربكما تكذبان » دون أن يتغير وجهه ، أو صوته ، حتى يكون ذلك
آلف لقارئ السورة أو سامعها . . فإنه طوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه
الدليل ، ولا صوته . . وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسى ، واطمئنان قلبى . .
لا يجد المرء لو طلع عليه فى كل خطوة من رحلته تلك - وجه جديد ،
وصارخ جديد ! !

وكذلك الشأن فى مواقف الوعيد التى جاءت فى سورة المرسلات ، وما يطلع
وراء كل موقف من صارخ يصرخ . . « ويل يومئذ للمكذبين » . . فإن امتداد
هذا الصوت من أول السورة إلى آخرها دون أن يتغير وجه الصارخ ، أو تختلف
نبراته ، فيه تمكين قوى لهذا الصوت أن يزلزل النفوس ، ويملأ القلوب فزعاً وهلعاً
من هذه المواقف التى تعرضها الآيات ، فيفر منها إلى أى وجه يباعد بينه وبينها . .
ولو أن صوت هذا الصارخ تغير من موقف إلى موقف لما كان هذا الصوت ذلك
الواقع الشديد من التأثير على النفس ، ولو وجد السامع لكل صوت حالاً تنقله من
حالته التى هو فيها . . وهذه الخلقة تذهب بكثير من الأثر النفسى للصوت الواحد
الممتد ، وتجعله قطعاً ممزقة ، يجد المرء فى خلالها شيئاً من الراحة والأمن ، وإن
استقبل بعدها أشد الأصوات إزعاجاً وإرعاداً !

وكذلك أيضاً التكرار الذى جاء فى سورة القمر . . فهو زجر بعد زجر ،
وعذاب فوق عذاب . . فهذه المثالات التى نزلت بالضعفين المكذبين لرسول الله ،

وماساق الله إليهم فيها من مهاسكات — هي أو مثلها نذر للضالين المكذبين بمحمد
وهي ليست ببعيدة منهم ، إذ قد أصابت إخوة لهم من قبل :
« كذبت عاد .. فكيف كان عذابي ونذر »

فهذا السؤال الذي يقع مكرراً في أعقاب هذه المثالات التي أصابت قوم نوح
وعاد ، وثمود — ليس متوجهاً إلى أولئك الذين أيّدوا وأهلّكوا ، وإنما هو إلى
أولئك المعاندين المكذبين بمحمد ، فلينظروا في مخلفات هؤلاء الأقوام ، وليأخذوا
الجواب منها وهناك يجدون الجواب حاضراً طوفان يأخذ كل شيء وريح تنزع الناس
كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وصبيحة تتمزق منها الأجساد ، فإذا الناس كهشيم المحتظر !
ثانياً : إن تقرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب .. مع احتفاظه بمستواه الذي
عرف له من روعة النظم ، وجماله ، واتساق نغمه — هو شهادة قائمه تشهد للقرآن
بالإعجاز .

فال معروف عن التكرار أنه إذا وقع في كلام الناس نزل بالكلام عن درجة
البلاغة ، وأخل بمقتضيات الفصاحة ، وكسا الكلام برودة وسماجة .
ولم يقع التكرار في الأدب العربي إلا في ندرة ، وفي الشعر خاصة لأن الوزن
والقافية يعملان عملهما في تلطيف غثاء التكرار ، أو تخفيف ثقله : أما إذا وقع
التكرار في النثر — خطابة أو كتابة — فإنه يسقط الكلام ، ويذهب به ،
فلا يحسب في الأدب ، ولا يضاف إليه .

ومن عجيب أمر القرآن في هذا : أنه جعل التكرار الذي جاء به في سورة
الرحمن ، وفي سورة القمر ، وفي سورة المرسلات ، جعله آية مستقلة : تعقيباً على
آية سابقة فكانها بالنسبة للآية التي قبلها المصراع الثاني للبيت من الشعر أو الفاصلة
في الآية على حين أن الذي تكرر في الشعر كان يجرى دائماً صدر البيت ومصراعه
أول له : وذلك ليعفي القافية هذا العيب الناجم عن التكرار : ولو أن التكرار
كان في الشطر الثاني من الأبيات التي وقع فيها التكرار لفسد النظام واضطرب !

فانظر كيف جاء التكرار في القرآن متخيلاً المواطن التي تجنبها العرب فراراً من الثقل ، وخوفاً من السقوط . . فلم يحميوا به في النثر ، وجاءوا به في الشعر ، وفي الشطر الأول من البيت .

وجاء القرآن به في غير ثوب شعري ، وفي غير الصدر من الآية . . فكان ذلك إجحازاً من القرآن ، إذ أقام النثر في التأثير بما لم يقيم به الشعر ، كما احتمل نظمه هذا التكرار من غير أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته ، فجاء أخف وقعاً وألطف مدخلاً على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى .

ثالثاً : أن هذا التكرار في ذاته يخدم غرضاً أصيلاً من أغراض الدعوة وهو تثبيت القلوب على الحق ، وإقامتها على الشريعة التي تحملها تلك الدعوة .

فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التي تحملها العبارة المكررة ، ويمكن لها في كيان الإنسان ، ويقيم منها خاطراً ملحاً يتردد في صدره ، ويهمس في ضميره . وقد يعلو همسه حتى يكون صراخاً ، أو هتافاً ، أو دويماً .

انظر في أساليب الدعاية اليوم إنها تقوم على هذا الأسلوب ، الذي عرف له قدره وأثره ، في التمكن لفكرة ، أو التوجه لرأى أو مذهب :

فإذا أرادت دولة أن تدعو لسياسة معينة ، أو تنصر رأياً خاصاً لجأت إلى هذا الأسلوب . ففتحت أفواهها كلها ، وأبواقها جميعها : صباح مساء : تبدى القول وتعيده ، عشرات المرات ومئاتها :

ومع أن « البضاعة » التي تدعو لها ، وتنادى عليها كثيراً ما تكون بضاعة كاسدة ، أو فاسدة ، والأصوات المنطلقة بالدعاية لها كثيراً ما تكون أصواتاً كاذبة منافقة - ومع هذا فإن هذا الأسلوب يحقق دائماً بعض النتائج التي يهدف إليها ، وإن كانت نتائج مؤقتة لا يكتب لها البقاء طويلاً .

فكيف إذا كانت الدعوة قائمة على الحق والخير ، والدعاة الذين يدعون لها

لا يريدون إلا وجه الحق والخير ! — إن أسلوب التكرار هنا يشمر أطيب الثمرات ويأتي بأعظم الآثار :

يقول صاحب كتاب « الحضارة الإسلامية » في صدد الحديث عن التكرار في القرآن ، « والرد على الذين يعيبون القرآن من هذا الوجه : « يجب ألا يعزب عن البال أن « محمداً » كان ينبغي أن يعلم وأن يصلح^(١) : والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل التكرار بنفس الألفاظ تقريباً .

« ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب الخلقى لنفوسنا ؛ تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات الكتاب فإن كثيراً من آيات الكتاب لم يكن قصد النبي من نقله إلى الناس هو الاستشارة الفهنية بل توطيد معايير جديدة للتعقوى والأخلاق^(٢) » .

ويخطئ المؤلف إذ يقدر أن القرآن الذي وقع فيه التكرار إذا قرأه القارئ غير المسلم ، لا ليطلب فيه التهذيب الخلقى لنفسه ، بل مجرد قراءة لكتاب أدبي — تساوره آمال خاطئة في بلاغة القرآن الذي وقع فيه التكرار — يخطئ المؤلف أفدح الخطأ في هذا التقرير ، فإن التكرار الذي وقع في القرآن مع صرف النظر عما فيه من تهذيب نفسى وخلقى ، هو في ألفاظه — مجردة عن المعانى السكرية التى فيه — نغم موسيقى متناسق ، متساق ، يلذ السمع ، ويهز القلب ، وينعش الروح !

وحسن من المؤلف أن يعترف هنا بالآثر النفسى للتكرار وبموقعه من القلب وأنه تدبير حكيم في مقام الدعوة لإصلاح النفوس ، وإحياء القلوب : فهذا مقصد أصيل — كما قلنا — من مقاصد التكرار في القرآن .

(١) ليس القرآن من عمل « محمد » ولا من مقترحاته . . وإنما هو مبلغ لما أنزل إليه ، كما نزل ، لا يملك أن يزيد فيه حرفاً أو ينقص منه حرفاً .

(٢) حضارة الإسلام لجر ونياد ص ١٠٩ .

إن داعية التكرار قائمة في المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحياة الروحية والنفسية ، فتقتضى الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغي له من الحضور النفسى والعقلى ، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه لهذا الموقف ، والدعوة له ، والهتمام به . . . والتكرار — كما قلنا — أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه . . . نجده في الأذان حيث يدعى الناس إلى أهم أمر من أمور الإسلام ، وهو الصلاة . . . فيؤذن فيهم مؤذن الحق : حى على الصلاة . . حى على الصلاة . . حى على الفلاح . . حى على الفلاح . !

ولما كان التكرار ذا أثر قوى في مقام التذكير بالله ، والإنابة إليه ، كان الرسول الكريم إذا حدث بمحدث أعاده على سامعيه ثلاث مرات . . كما روى ذلك البخارى وغيره من أصحاب الصحاح .

كذلك كان شأن النبى صلى الله عليه وسلم مع نفسه . . فكان صلوات الله وسلامه عليه إذا همّه أمر لهج به ، وحرك به لسانه ، وألقى به على سمعه مرات كثيرة . عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة ، فقام بآية يرددّها ، وهى :

« إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وكذلك كان يفعل صحابة رسول الله فى المواقف التى يشعرون إزاءها بالرهبة والقهر . . فإذا حضروهم فيها من كلام الله شئ « أمسوا ليلة أو بعض ليلة يرددونه على ألسنتهم . . . فقد روى أن « تيمما الدارى » رضى الله عنه قام ليلة بالآية الكريمة : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ .. سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » . (١)

وروى أن سعيد بن جبيرة رضى الله عنه قام ليلة بالآية الكريمة : « وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » . (٢)

(١) سورة الجاثية آية ٢١ (٢) أى قام الليلة كلها بهذه الآية يتلوها ، ويردد تلاوتها

وعلى هذا فإن التكرار في القرآن قد كان أسلوباً من أساليب التمكن للدعوة الإسلامية، وترسيخ الأصول الأخلاقية التي تدعو إليها .. إلى ما كان فيه من تحد معجز بهذا الأسلوب الذي كان يتجنبه البلغاء ، ويخشون الدنو منه ، حيث كان داعية من دواعي سقوط الأسلوب ، واضطرابه وفساده ؟

تكرار القصص في القرآن :

هذا ، وفي القرآن ظاهرة أخرى من ظاهرات التكرار ، وهي ما وقع منه في القصص القرآني - فقد تكررت معارض القصة الواحدة في أكثر من موضع منه . وكانت هذه الظاهرة أيضاً مما لفت أنظار العلماء إليها ، وحرك أقلامهم وألستهم لها . فهذا أبو بكر البلاقاني يقول عنها في كتابه إعجاز القرآن :

« إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً - من الأمر الصعب ، الذي تظهر فيه الفصاحة ، وتبين البلاغة .

» وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونموا .

- أي العرب - بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله - مبتدأ به ومكرراً :

ويكشف صاحب البرهان عن سر التكرار في قصص القرآن فيقول :

« ومنه » - أي من التكرار - تكرار القصص في القرآن ، كقصة إبليس في السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء : « قال بعضهم : ذكر الله موسى في القرآن في مئة وعشرين موضعاً ، وقال ابن العربي : ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين ، وقصة موسى في سبعين آية :

ثم يقول :

« وإنما كررها - أي القصة - لفائدة خَلَّتْ عنه في الموضع الآخر : وهي أمور : أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً : ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر ثعباناً ؟

الثانية : أن الرجل - وذلك في صدر الإسلام وقيل أن يكمل نزول القرآن - كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه - أي عن القرآن - ما نزل بعد صدور^(١) الأولين ، وكان أكثر من آمن به - بالقرآن - مهاجريا . فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين . وكذلك سائر القصص . فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة لقوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين ، وهم الحاضرون .

الثالثة : تسليمة لقلب النبي صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبياء مثله . . مع أهمهم .. قال تعالى : « وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »^(٢)

الرابعة : أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . . ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا^(٣) . «

وتدبير القرآن في هذا يكشف لنا عن وجه جديد من وجوه الإعجاز فيه . . إذ قد وضع القصة بهذا الموضع منه ، وأنزلها تلك المنزلة فيه ، وأناط بها هذه المهمة العظيمة ، فجعلها عبرة وعظة ، وفجر من جنباتها ينابيع الحكمة والموعظة الحسنة ؟ .

فلقد كان القصص المألوف في الحياة العربية قبل القرآن قصصا خياليا خرافيا ، يساق لاهو وبزجى للترفيه عن النفس وللتخفيف من قسوة الحياة في البادية والهراب منها ، حيث لا تمتنع للناس في هذه الحياة الجافية القاسية إلا الأرهام والخيالات ،

(١) أي بعد رجوع الجماعات التي أخذت حظا من القرآن ثم عادت إلى أهلها أو هاجرت

(٢) سورة هود آية ١٢٠

(٣) البرهان في علوم القرآن جزء ٣ / ص ٢٧

يتخذونها مركبا تنتقل بهم لحظاتٍ إلى عالم الأمان والأحلام ، ثم يصحون بعدها
كما يصحو النائم من حلم .. لا يمك من بشيء !

هكذا كان القصص العربي ، قبل القرآن ، لا يستدعي العقل ، ولا يتجه إليه ..
إذ كان كله تقريبا حديثا جاريا على السنة الحيوان ، أو الجن .. وهذا من شأنه
أن يدعو المرء إلى أن يلقاه في غفلة من عقله حتى يمكن أن يستمع إليه ، وتقبل
أذنه ما فيه من شطحات ومفارقات !

ومثل هذا القصص لا يمكن أن يتلقى منه الإنسان عبرة أو عظة ، كما لا يمكن
أن يلتقى به الإنسان إلا على لهو أو ما يشبه اللهو ، ولا يأخذه مأخذ الجد بحال .
أما قصص القرآن فقد جاء على غير هذا الضرب من الأحاجي الواهية ،
والحكايات المهلهلة .

جاء هذا القصص معرضاً حياً لكثير من أحداث الحياة الماضية ووقائعها ..
فلقد تخير من تلك الأحداث والوقائع التي عيّرت - ما كان فيه موضع عبرة
وعظة فبعثها من مرقدها ، بشخصياتها كلها ، بأحوالها ، وأزمانها ، وأمكناتها ،
حتى لكانها لأول مولدها في الحياة .. لم يغب منها شيء ، ولم يذهب الماضي
بشيء من حدثها وحيوتها ..

إنك تقرأ القصة من كتاب الله فإذا أنت في حياة غير الحياة التي أنت فيها ،
وفي زمن غير زمانك ، وفي مكان غير مكانك .. إنك في الحياة التي عاشت فيها
تلك القصة ، وفي زمانها ، ومكانها ، ومع أهلها ، وما يتقلبون فيه من حياة !
تقرأ قصة موسى وفرعون .. فإذا بك قد انتقلت من القرن العشرين الذي
تعيش فيه ، إلى ما قبل الميلاد بعدد عديد من القرون .. وإذا أنت في مصر ،
ومع فراغة مصر .. وإذا أنت مع الأحداث التي وقعت بين موسى وفرعون ..
تراها ، وتسمعها وتشارك فيها ، وتفعل معها .

وتقرأ قصة أصحاب الكهف .. وقد انطوى فيها عنصر الزمن ، فلم يكن في القصة ذكر لحدث تاريخي ، أو لشخص من أشخاص التاريخ يشير إلى حدود الزمن في هذه القصة - ومع ذلك فأنت تشم من القصة ريحاً ينبعث من أعماق الماضي السحيق .. ريحاً يشير إلى مهاب ذلك الزمن ومطلعه .. !

إن ما تقررره القصة من اختلاف الناس في أشخاص أصحاب الكهف، وعددهم، وهذا اللفظ الكثير الذي يدوَّى في سمع الحياة عنهم - هو إشارة بليغة إلى حدود الزمن الذي عاشوا فيه .. وأنه كان لعهد نزول القرآن بقصتهم زمناً بعيداً ، قد اتسع مداه ، حتى دارت أخبار هؤلاء نفر في الحياة ، وطوّفت في الدنيا كلها .

ومكان القصة ، وأشخاصها ؟ ..

أين هذا المكان ؟ ومن هم أولئك الأشخاص ؟

المكان هو الدنيا كلها .. حيث يكون الخير والشر .. والهدى والضلال .. والأشخاص هم في كيان الناس جميعاً ، وفي ضمير المجتمع الإنساني كله .. حيث تقع الناس على مواقع الخير والشر ، وحيث يتجه الناس إلى وجهات الهدى والضلال .

وأنت تجد من هذا التدبير أن عنصر المكان ووجه الأشخاص ليس له أثر في اتجاه الغاية التي تهدف إليها القصة .. إذ كانت غايتها متجهة إلى الناس جميعاً في كل مكان !

أما عنصر الزمن وإن جاء متخفياً فقد كان مجيئه على هذا الوجه مقدوراً بقدر الحاجة إليه .. ذلك أنه وإن يكن هدف القصة غير مقيد بزمان ، ولا محدود بمكان ، فإن للزمن أثره في إضفاء لون من الإكبار والأجلال على الأحداث التي ضمت عليها القصة ، وبالتالي يعظم في النفس موقع العبرة والعظة منها^(١)

(١) تجد تفصيلاً وافياً ، وتحايلاً كاملاً للقصص القرآني في كتابنا « القصة في القرآن » (نعت الطابع)

المحكم والمتشابه

وكما أنه ليس في القرآن أعلى وأسفل ، كذلك ليس فيه محكم ومتشابه ، إذ جميع آياته محكمات . . كما يقول الله سبحانه وتعالى في وصفه لكتابه الكريم :

« كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »^(١) .

أما قوله سبحانه وتعالى :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . . فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ »^(٢) .

فليس معنى التشابه هنا المعلق الذي غميت سبله ، وطُمست معالم الفهم منه ، إنما هو ما احتمل أكثر من وجه من وجوه الرأى والنظر . . وذلك خلاف المحكم الذى لا يحتمل إلا قولاً واحداً ، ولا تتباعد فيه المسافات بين مطارح النظر . .

وفي الآية تدبير محكم يكشف عن معنى دقيق ، يُلاحظ لحظاً ، ويستشف استشفافاً ، فالقراءة المتفق عليها في الآية هي الوقوف عند قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » ثم تستأنف القراءات بعدها بقوله « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ . . كل من عند ربنا . . »

وعلى هذه القراءة يكون مفهوم الآية أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، وبهذا ينقطع نظر الناس عنه ! وهنا يقوم استفهام : لماذا هذا المتشابه من الآيات؟ إنها آيات معطلة . . تتلى ولا تفهم ، وتحسب في القرآن وكأنها ليست منه . . فما حكمة وجوده

(٢) سورة آل عمران : آية ٧

(١) سورة هود : آية ١

في القرآن؟ وما داعية وضعها بهذه الصفة فيه؟ وقد تجد الجواب على هذا سابقاً لهذا السؤال في الآية نفسها، على هذا المفهوم الذي فهم من قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلا الله» وذلك في قوله تعالى: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله». . . فهذا المتشابه إنما كان - على هذا الفهم - ابتلاءً وامتحاناً للمؤمنين، وللذين في قلوبهم زيغ. . . فأما الذين آمنوا فيقولون: «آمنّا به كل من عند ربنا» وأما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون هذا المتشابه، ويتأولونه على وجه الذي ترضاه قلوبهم المريضة.

ولكن يمكن أن يكون للآية مفهوم آخر إذا أنت وصلت القراءة فمطقت قوله تعالى «والراسخون في العلم» على قوله تعالى «وما يعلم تأويله إلا الله» ويكون ذلك من عطف النسق، وتنتلي الآية الكريمة هكذا: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» من غير وقف على لفظ الجلالة، ويكون قوله تعالى: «يقولون آمنّا به» حال من «الراسخين في العلم» أي والراسخون في العلم يعلمونه كذلك قائلين «آمنّا به»، كإيماننا بالحكم، إذ كل من عمد ربنا. وهذا التفسير قال به كثير من المفسرين.

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: يخبر الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات وواضحات لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة عند كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه فيه الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس!! لهذا قال تعالى: «هن أم الكتاب» أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه. «وأخر متشابهات» أي تحمل دالاتها موافقة الحكم، وقد تحتل شيئاً آخر، من حيث اللفظ والتركيب، لآمن حيث المراد.

ثم يورد ابن كثير آراء السلف في تأويل الحكم والمتشابه، فيروي عن ابن عباس أنه قال: المحكمات كقوله تعالى:

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ،
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَعَانَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ إِنَّا بِأَقْسَطِ لَكُمْ
نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ،
ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ (١) » .

وقوله تعالى : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »
إلى ثلاث آيات بعدها (٢) .

وقيل : « المتشابهات » : أى المنسوخة ، والمقدم والمؤخر والأمثال والأقسام (٣)
وما يؤمن به ولا يعمل به . . . ويروى عن ابن العاص عن أبيه عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ،
وما تشابه منه فآمنوا به » .

« وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : « وما يعلم تأويله » أى الذى
أراد ما أراد « إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » ، ثم ردوا تأويل
المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة ، التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل

(١) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) الإسراء : ٢٣ ، ٣٤ ، ٢٥ .

(٣) أى ما قسم الله تعالى به من مخلوقاته .

واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدّق بعضه بعضاً ، فنقضت الحجّة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر .

وروى الإمام أحمد في موطنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع قوماً يتدارمون^(١) فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، فضرّبوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدّق بعضه بعضاً ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكفّوه إلى عالمه^(٢) . . . أى الله سبحانه وتعالى .

ويقول الشريف المرتضى في أماليه : « إن سأل سائل عن قوله تعالى : « قَالُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِيعٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ^(٣) » .

الجواب . . قلنا : ذُكر في هذه الآية وجهان مطابقان للحق :

أحدهما : أن يكون الراسخون معطوفين على اسم الله تعالى ، فكأنه قال :

« وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ، وإنهم مع علمهم » يقولون آمنا به « فوق قوله : « آمنا به » في موقع الحال ، والمعنى أنهم يعلمونه قائلين « آمنا به كل من عند ربنا » وهذا غاية المدح لهم لأنهم إذا علموا ذلك بقلوبهم وأظهروا التصديق به على ألسنتهم فقد تكاملت مدحتهم ، ووصفهم بأداء الواجب عليهم . .

والوجه الثاني : أن يكون قوله : « والراسخون في العلم » مستأنفاً ، غير معطوف على ما تقدم ، ثم أخبر عنهم بأنهم « يقولون آمنا به » ويكون المراد بالتأويل — على هذا الجواب — المتأول ، لأنه قد يسمى تأويلاً . قال تعالى :

(١) أى يتجادلون ويتخاصمون

(٢) تفسير ابن كثير — الجزء الثاني

(٣) سورة آل عمران / آية : ٧

« هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله^(١) » والمراد بذلك لا محالة المتأول الذي لا يعلمه العلماء ، وإن كان الله عز وجل عالماً به كنجوى وقت الساعة ومقادير الثواب والعقاب وصفة الحساب ، إلى غير ذلك ، فكأنه قال : « وما يعلم تأويل مجمله على المعنى الذى ذكرناه إلا الله ، والعلماء يقولون آمنا به^(٢) » .

ويقول « ابن قتبية » فى الكشف عن حكمة ما ورد فى القرآن من آيات يبدو فيها التشابه عند من لا يُحكم النظر إليها ، أو يردّد البصر فيها :

« وأما قولهم : ماذا أراد بإزالة التشابه فى القرآن من أراد بالقرآن لعباده الهدى ؟ والجواب : هو أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار ، والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليها إلا اللقن^(٣) ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفى .
« ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر !

« ومع الحاجة تقع الفسكرة والخييلة ، ومع الكفاية يقع المعجز والبلادة ! !
« ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً لم يكن عالم ، ولا متعلم ، ولا خفى ولا جلى ، لأن فضائل الأشياء ، تعرف بأضدادها ، فنخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والخلو بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالسكبير ، والظاهر بالباطن . .
وعلى هذا المثال كلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلام صحابته والتابعين وأشعار الشعراء ، وكلام الخطباء . . ليس منه شيء إلا وقد يأتى فيه المعنى اللطيف الذى يتجهر فيه العالم المتقدم ، ويقر بالتقصير النقيب المبرز^(٤) . »

(١) سورة الأعراف : ٣

(٢) أمالى الشريف المرتضى : ١ ص ٤٣٩

(٣) يظهر عليها : أى يطلع على أسرارها ، واللقن : الفطن الذى

(٤) مشكل القرآن ، لابن قتبية ص ٣٩

ويكشف ابن قتيبة هنا عن وجه مشرق من وجوه البلاغة ، وسر دقيق من أسرار البيان ، وهو عرض المعاني متخفية في سُرُر رقيقة تُشَفَّ عن مضمونها ، ولا تفصح مكنونها . .

وهذا الملاحظ البارع من ابن قتيبة يقوم على الاعتراف بالأثر النفسي ، الذي يحدثه حب الاستطلاع لما وراء المستور ، حيث تلوح من وراء الستر مخايل تنير الخيال ، وتحرك الشعور ، وتستدعي الرغبة إلى كشف الجہول !

فما جاء في القرآن الكريم من متشابه إنما هو من هذا القبيل ، الذي يُلوِّح ولا يصرِّح ، ويشفِّ ولا ينكشف ! فتظل النفوس أبداً عالقة به ، والأبصار دائماً شاخصة إليه ، والعقول حائرة فيه ، والقلوب مجتمعة عليه !

ويقول « عبد الجبار » في كتابه المغنى في تفسير قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . . الآية :

« اعلم أن الأولى في معنى قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ والراسخون في العلم » أن يكون عطفاً على ما تقدم ، ودالاً على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله ، بإعلام الله إياهم ، ونصب الأدلة على ذلك ، فيكون قوله تعالى : « يقولون آمنا به » دلالة على أنهم برسوخهم في العلم يجمعون بين الاعتراف والإقرار ، وبين المعرفة ، لأن الله تعالى مدحهم بذلك ، ولا يتكامل مدحهم إلا بضم الإيمان والتصديق وإظهار ذلك إلى المعرفة بتأويله . .

« يبين ما قلناه أنهم لو كانوا لا يعترفون تأويله ، لكان حالهم وهم راسخون في العلم كحال غيرهم ، أنهم يعترفون بأنه من عند الله ، ويؤمنون به فلا تكون لهم مزية على غيرهم ، والكلام يدل على أن لهم مزية ، ويبين ذلك قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب » ، فكيف

صح في الحكم أن يكون أصلاً للمتشابه ، وليس له معنى يستدل بالمتشابه عليه ، فلا بد أن يكون له تأويل يدل عليه الحكم»^(١)

ويقول « الزركشي » في تفسير هذه الآية : « ومنهم — أى العلماء — من رجّح أنها — أى الواو — للعطف . . وضعف الأول — أى ضعف هؤلاء العلماء رأى الأول القائل بأن الواو للاستئناف — لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ، وبذل به على معنى أراده .

« فلو كان المتشابه لا يعلمه إلا الله لمازمننا ، ولا يسوغ لأحد أن يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم المتشابه ، فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله : « وما يعلم تأويله إلا الله » جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، والمفسرون من أمته . . ألا ترى أن ابن عباس كان يقول : « أنا من الراسخين في العلم » ويقول هند قراءة قوله تعالى في أصحاب الكهف « ما يعلمهم إلا قليل » أنا من أولئك القليل !!

وقال مجاهد في قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم » يعلمونه « ويقولون » آمنا به « ولو لم يكن للراسخين في العلم حفظ من المتشابه إلا أن يقولوا « آمنا به » لم يكن لهم فضل على الجاهلين ، لأن الكل قائلون بذلك . . ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية — أى هذا الوقت — توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا متشابه لا يعلمه إلا الله بل أمرؤوه — أى المتشابه — على التفسير ، حتى فسروا الحروف المقطعة » .

* * *

وقال الراغب الأصفهاني في تفسيره : وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً ، وإلا لآدى إلى رفع فائدة الانتفاع به ، وحملوا قوله تعالى :

(١) « المغنى » لمجد الجبار جزء ١٦ ص ٣٧٨ .

« والراسخون » بالعطف على قوله « إلا الله » وقوله « يقولون » جملة حالية^(١) ويعقب الزركشى على الآراء التي ذهب إليها المفسرون في هذه الآية فيقول: من عبر بخطابه عن حقيقة المراد ، قال تعالى :

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(٢)
نم قال : « إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ »^(٣)

« أى على لسانك ، أو السنة العلماء من أمتك .

لأن المعاني إذا دقت تداخلت وتشابهت على من لا علم له بها كالأشجار إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أفنانها^(٤) واشتبهت على من لم يعين النظر في منبت^(٥) كل فَن^(٦) . قال تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا ، وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ »^(٧) .

وهو على اشتباكه غير متشابه .

وكذلك سياق معاني القرآن العزيز، قد تتقارب المعاني، ويتقدم بعض الخطاب ويتأخر بعضه عن بعض، لحكمة الله في ترتيب الخطاب والوجود، فتشترك المعاني وتشكل إلا على أولى الأبواب، فيقال في هذا الفن متشابه بعضه ببعض .

(١) البرهان في علوم القرآن جزء ٢ ص ٧٣

(٢) سورة النحل آية : ٤٤

(٣) سورة القيامة آية : ١٩

(٤) في الأصل « أمثالها » وهذا لا يستقيم مع السياق

(٥) في الأصل « منبت » وهو تصحيف صححناه على هذا النحو

(٦) في الأصل « فن » وهو تصحيف صححناه على هذا النحو

(٧) سورة الأنعام آية ١٤١

وأما المتشابه في القرآن العزيز فهو يشابه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز والبشارة والندارة ، وكل ما جاء به ، وأمه من عند الله » (١) .

ويقول صاحب كتاب المعاني : « القرآن محكم من جهة النظم والإعجاز كما قال تعالى :

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، نُمَّ فُصِّتَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » (٢) .
وقوله تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخُبْرِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا » (٣) .

فكله متشابه . . من تشابه ألفاظه بعضها ببعض وبعضه محكم من جهة احتماله وجهاً واحداً ، لا يرتاب فيه ، وبعضه متشابه من احتماله وجوها كثيرة لا يقطع على واحد منها قاطع ، كما أنه في بابه علم ساطع .

« وذلك لقوله : « مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » فاللأى هن أم الكتاب مثل قوله : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ » (٤) ، وقوله : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ » وقوله : « هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ » إلى آخر السورة . . (٥) .

وأما المتشابه فإنه مثل قوله تعالى : « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ » (٦) وقوله : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ » وقوله : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ » وما أشبهها .

لم هذا المقتضاه ؟

فإن قيل : ولأية علة أنزل المتشابه ، وهو يحتمل التأويلات .. فهلا جعله كله

(١) البرهان في علوم القرآن جزء ٢ ص ٧٠

(٢) سورة هود آية ٢ (٣) سورة الزمر آية ٢٣

(٤) سورة الأنعام الآيات / ١٤١-١٥٢-١٥٣

(٥) سورة آية ١٠٦ الحشر / ٢٢-٢٤-٢٤ (٦) سورة الزمر / ٥٦

محكما دالاً على ما أَراده ، ليكون أ كَشَفَ للحق ، وأقع للشبهة مع قوله تعالى :
« لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ بَيِّنَةً » .

وإذا لم يكن في المتشابه المأخوذ منه المراد لبس ولا خفاء فهو إلى التشكك أقرب وكان متناقضاً، ولم يكن من عند حكيم، والكلام المبين الذي لا تتداخل فيه الشكوك أشبه بكلام الحكيم الذي يريد هداية عبده ؟

والجواب على هذا :

« أن الله سبحانه احتج على العرب بالقرآن إذ كان فخرهم ورياستهم بالبلاغة وحسن البيان ، والاختصار والإطناب ، وكان كلامهم على ضربين : أحدهما الواضح الموجز ، الذي لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره ، والآخر على المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات ، وهذا الضرب هو المستحلّ عندهم ، الغريب من ألفاظهم ، البديع في كلامهم . . فلما قرأهم الله سبحانه فعبّزهم عن المعارضة بمثل سور أو سورة منه ، أنزله على الضربين ، ليصح العبز منهم ، وتأت كد الحجاج ولزومها إياهم ، فكانه قال عارضوا « محمدا » صلى الله عليه وسلم في أي الضربين شئتم . . في الواضح أو في المشكل ، ولم يقدرُوا عليه .

ولو أنزله كله واضحاً محكما بحيث لا يخفى على أحد سمعه لوجد المشركون مقالا ، وقالوا : ما باله لم ينزل بالضرب المستعجب عندنا والمستحلّ في طباعنا ؟ لأن ما فيه الإشارة والكناية والتشبيه والتعريض كان أفصح وأعرب . مع أن غاية الفصاحة ، ونظم البلاغة شوب التعريض بالتصريح ، والمجاز بالحقيقة ، لتعريف القول في كل فن من فنون البلاغة . . !

فكان قوله تعالى : « آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجِءَ النَّهَارِ » أذهب في معنى البلاغة من أن يقول في أول النهار ، وقوله : « وعنده أم الكتاب » أبلغ من أن يقول « أصل الكتاب » وقوله :

« فَقَدْ مَوَّأَ بَيْنَ يَدَيَّ نَجَّوَاكُمْ صَدَقَةٌ » .
 أبلغ من أن يقول : قدموا قبل نجواكم صدقة .
 وقوله : « أَنْ لَكُمْ قَدْ مَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّكُمْ » .
 أبلغ من أن يقول : لكم ثواب عمل صالح .
 وقوله : « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ » .
 أفصح من أن يقول : فَأَتَى أَمْرُ اللَّهِ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ » .
 وكذلك قول الله : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » .
 أحسن من أن يقول : « فَأَتَاهُمُ أَمْرُ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » .
 وقوله : « يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ » .
 أفصح من أن يقول : فرطت في أمر الله ، أو طاعة الله .
 « وَأَمْرٌ آخَرُ :

وهو أن يشغل أهل العلم برد التشابه إلى الحكم فيطول بذلك تفكيرهم ،
 ويظهر بالبحث عنه اهتمامهم ، ولو أنزله كله محكما لاستوى فيه العالم والجاهل . .
 فشغل العلماء به ، ليعظم ثوابهم ، وتعلموا منزلاتهم ، ويكرم عند الله ما بهم . .
 « وَأَمْرٌ آخَرُ .

هو أن الله سبحانه وتعالى لو أنزل الكتاب كله ليس فيه ما يحتاج إلى استخراج
 ولا نظر عالم ، لسكان يستوى فيه العالم وغيره ، وكان ذلك يحملهم على ترك التدبر
 لمعانيه والإقبال عليه ، إذ ييأسوا من أن يكون في باطنه غير ما في ظاهره . فشغلهم
 باستخراج حكمه الباطنة فصاروا لا يشبعون منه ، لما يهجمون عليه في كل وقت ،
 يتدبرون من عجائب حكمه ، وغرائب فرائده .

ويجوز مع ذلك أنه لو كان — أي القرآن — تنقطع منه الفوائد لاجتازوا
 عند المصير إلى انقطاع فوائده إلى الضجر منه ، والاستخفاف بحقه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن : « هو الذى لا يخلق
عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » (١) .

وإذن فالأى الذى ينبغى أن نراه فى القرآن هو أن كل ما فيه من حروف ،
وكلمات وآيات هو محكم ، بمعنى أنه غير محجوب عن أنظار الناظرين ولا محجوز
عن فهم المتدبرين والمتذكرين .

« كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرُوا الْأَبْأَابُ »
وهذا الفهم لسكلام الله على هذا الوجه هو الذى يحفظ وحدة هذا الكتاب ،
ويجعل منه آية واحدة من آيات الله ، التى تشيع الحكمة من كل جانب منها ،
وتنفجر ينابيع الهدى من كل جهة من جهاتها .

أما إذا قيل إن من القرآن ما هو متشابه لا يذنب منه نظر ، ولا يتجه إليه عقل
فإن ذلك من شأنه أن يمزق وحدة القرآن ، وأن يقيم فيه الحواجز والسدود ، وأن
يجعل بعضه قرآنا ، وبعضه أصواتا ، تنطق ولا تفهم . وقد ذم الله اليهود إذ ذهبوا
بالكتاب الذى بين أيديهم مذهبا يعملون فيه بعضه ، ويهملون بعضه — فقال تعالى :
« أَفْتَوْمِنُون بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ .. وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٢)

وإذا كان الذين يقولون بوجود التشابه فى القرآن لا يكفرون به ، بل يؤمنون
به كما يؤمنون بالحكم ، فإن إيمانهم هذا على وجه واحد ، وعلى درجة واحدة —
إيمان عجز واستسلام . . أما الإيمان بالحكم فإيمان قائم على نظر ، وفهم ، وإقناع ،
على أن الإيمان بالتشابه إيمان قلق مذهور ليس له جذور وتمسك به فى قلب صاحبه .

* * *

(٢) البقرة / ٨٥ .

(١) كتاب المبانى ص ١٧٦ وما بعدها .

القرآن .. قديم أو حادث ؟

كانت هذه المسألة في فترة من فترات المسلمين مثار فتنة عاصفة، كادت تذهب بوحدة الجماعة الإسلامية ، وتمزق شمل المسلمين . .

ولقد ولدت هذه الفتنة من احتكاك المذاهب الكلامية التي ظهرت في العصر العباسي، فكان المعتزلة أول من أثاروا المعارك، وأداروا الجدل بخلق القرآن، وأن هذا الكلام الذي نقرؤه ونسمعه من كتاب الله ليس كلام الله القديم، وإنما هو مخلوق لله كسائر المخلوقات . .

وهذه ليست بنت يومها هذا الذي ظهرت به في شدتها وحدتها أيام الخليفة العباسي ، المأمون . . وإنما كان « الجعد بن درهم » أول من فتح فيه بهذا الشر الأعمى . . أيام هشام بن عبد الملك ، الخليفة الأموي، الذي بعث به إلى « خالد ابن عبد الله القسري » أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ، فكان ذلك سبباً في لوم هشام له والعزم عليه بقتله، فذبح خالد ذبح الشاة . . وذلك في يوم عيد الأضحى بعد أن صلى بالمسلمين صلاة العيد، ثم قال لهم : أيها الناس انصرفوا وضحوا ، يقبل الله منكم ، فإني مُضحٌّ بالجعد بن درهم . . ولم تمت هذه البدعة بموت صاحبها . . فتلقاها عنه « الجهم بن صفوان » و « حفص الفرد » وغيرهما حتى صارت بعد ذلك قولاً ومذهباً لفرقة كبيرة من أصحاب الكلام وهم المعتزلة ، الذين جهروا بهذا القول ، ووقفوا به في وجه الجماعة الإسلامية كلها . وقد تصدَّى لهم أهل السنة ، والتهمت معارك الكلام بين الفريقين ، ثم تطور هذا الصراع إلى معارك مادية انتصر فيها الخلفاء العباسيون وخاصة « المأمون » للمعتزلة ، وقد اشتد البلاء في تلك الفترة على الذين عارضوا القول بخلق القرآن، وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (٢٨ - أعجاز القرآن)

أحد الذين ابتُلُوا في أنفسهم من أجل هذا ، فُعَذِّبَ وسجن ، وأهين . .
ولقد اتسعت مذاهب القول في هذه الفتنة ، وعاش المسلمون زمناً في صراع
دائم متصل . . لا حديث لهم ، إلا في هذا الأمر ، ولا شأن يعينهم من الحماية غيره .
يكفر بعضهم بعضاً ، بل ويقتل بعضهم بعضاً . . إلى أن خمدت ريح هذه الفتنة
في أيام الخليفة العباسي « المتوكل » ، ثم لم تقم لها قائمة إلى اليوم . والحمد لله
رب العالمين . .

ونحن إذ نعرض لهذا الأمر اليوم ، فإنما نعرض له لأنه يمثل وجهة من النظر
في كتاب الله ، ولأنه « مفهوم » ، وقع لبعض الناظرين في القرآن . . وإن يكن هذا
النظر منحرفاً مضطرباً ، وإن يكن هذا المفهوم خاطئاً زائفاً . .
إنه على أي حال جانب من النظر في كلام الله ، ورأى وقع عند جماعة لها
وزنها ولها خطرهما في التفكير الإسلامي . . هم جماعة « المعتزلة » الذين هم أصحاب
لسن وفصاحة ، ومنطق . .

منشأ هذا القول :

ومنشأ القول بأن القرآن مخلوق لله ، وحادث غير قديم ، يرجع إلى مفهوم
المعتزلة لصفات الله . . من إرادة ، وقدرة ، وسمع وبصر ، وكلام ، ونحوها . .
فأهل « الحديث » يرون أن هذه الصفات قديمة ، لأنها قائمة بالذات . . يقولون :
إن الله يريد بإرادة قائمة بالذات ، وليست عين الذات ولا غيرها ، وهكذا في سائر
الصفات . والمعتزلة يريدون أن القديم واحد لا يتبعض ، ولا يتجزأ . . وبهذا نفوا
ما أثبت أهل الحديث من صفات الله ، ونزهوه سبحانه عن ثبوت صفات قائمة
بذاته من القدرة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام ، وقالوا : إن الله - سبحانه -
قادر بذاته ، يريد بذاته . . متكلم بذاته . .

ومن هذا نشأ الخلاف حول الكلام القرآنى : أهو قديم ، لأنه صفة لله عز وجل ؟ أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات ؟ وبهذا القول قال المعتزلة : فالقرآن عند المعتزلة ليس صفة لله ، بل إن الله سبحانه خلق هذه الحروف والأصوات فى جسم محدث ، يسمعه النبىؐ منه ، وهذا هو الوحي عندهم ، ومن احتجاجهم لهذا قولهم : حقيقة المتكلم من فعل الكلام . . فهو فاعل الكلام فى محل . . بحيث يسمع ، ويُعلم أنه كلام ضرورة ، لأنه لو كان المتكلم من قام به الكلام ، لوجب أن يكون كلامه إما قديماً ، وإما حادثاً ، وإن كان قديماً ففيه إثبات القديمين . . ومما يختص بهذه المسألة من الاستحالة أنه لو كان - الكلام القرآنى - قديماً ، وهو أمر ونهى ، لزم أن يكون - هذا الكلام - كلاماً مع نفسه من غير مأمور ، ولا منهى . . ومن الحال الذى لا يتمارى فيه أن القول بآنا « أرسلنا نوحاً إلى قومه ^(١) » ولا نوح ولا قومه - إخبار عما ليس كما هو . . فهو مع استحالة كذب ، ومع كذبه محال . . وقوله : « اخلعْ نَعْلَيْكَ » ^(٢) » لموسى ، ولا موسى ولا الطور ، ولا الوادى المقدس طوى - خطاب للمعدوم ، والمعدوم كيف يخاطب ؟ . . وكذلك جميع ما فى القرآن من الأوامر والنواهى والأخبار . . فوجب أن يكون الكلام يحدث عند حدوث المخاطب ، فى الوقت الذى يصل الكلام إليه ، فيكون الكلام حادثاً » ^(٣) .

* * *

هذا لون من ألوان الاحتجاج للقول بخلق القرآن . . قابله علماء السنة بالرد والجد . . فكانت معركة طاحنة ، اشتبك فيها المسلمون جميعاً ، عامة وخاصة ، محكومين وحاكمين .

(٢) سورة طه / ٦١

(١) سورة الأعراف / ٦٥

(٣) النهاية لشهرستانى ص ٥٩

الخليفة المأمون يقود هذه المعركة :

ومما جعل لهذه القولة من أقوال المعتزلة أثراً في الحياة ، وصدى في التاريخ ، أن الخليفة العباسي « المأمون » قد جعل نفسه طرّفاً في هذه القضية ، فقاد هذه الحملة الداعية إلى القول بخلق القرآن . ودعا الناس إلى متابعتة ، والأخذ بهذا الرأي الذي وافق المعتزلة فيه .

وقد أعلن « المأمون » رأيه هذا في سنة ٢١٢ هـ ، وكان يظن أنه متى أعلن رأيه للعلماء ، وفقهاء الأمة أن يحييوه ، وأن يروا ما رأى . . ولكن حدث غير ما كان يتوقع ، فإنه ما كاد يحجر بهذا الرأي حتى قامت قيامة الناس ، وغلا غليانهم وركب كثير منهم طريق العناد ، وأخذت كثيراً منهم الحمية والغيرة فذهبت بهم مذهباً بعيداً في الخلاف ، ودخل في روع كثير منهم أن الأمر أمر جهاد في سبيل الله ، ودفاع عن دينه وحماية لكتابه . . فكفّر بعضهم بعضاً ، وأراق بعضهم دم بعض ، وعرض كثير منهم نفسه للتلف والهلاك . .

وقد كان الأمر أهون من هذا ، لو لم ينزل الخليفة إلى ميدان المعركة ، ولو لم تأخذ المسألة طابعاً ذاتياً ، وشخصياً ، في كثير من المواقف ، دفاعاً عن مركز مرموق عند العامة ، في جانب ، أو عند الخليفة ، في الجانب الآخر . .

فليس لهذا الخلاف كبير أثر في شأن القرآن ، وفي شأن الأحكام التي جاء بها ، والشريعة التي حملها . . إنه من عند الله - على أي حال - وكونه قديماً أو حادثاً ، غير مخلوق ، أو مخلوق ، لا يغير من هذا شيئاً . .

ولكن الأمر - كما قلنا - كان باباً من أبواب الجدل ، التي فتحت على المسلمين في تلك الفترة ، والتي ولدت منها المعتزلة وما تولد منها من فرق .

ولا بأس من أن نلقى نظرة على هذه المعركة ، ونقف وقفات عند تلاحم القتال واشتداد الصراع بين طرفي النزاع ، ففي هذا ما يكشف لنا عن بعض ماعند الفريقين من آراء وتصورات لهذه القضية ..

في المصحة :

مرت أربع سنوات من إعلان المأمون رأيه في خلق القرآن دون أن يجد لهذا الرأي صدًى عند العلماء والفقهاء ، إلا أن يكون ذلك الصدى عن أصوات الاستنكار ، والاستهجان ، والاستخفاف ، والتهجم .. تلك الأصوات التي انطلقت من أفواه العلماء والفقهاء والعامة جميعا ..

عندئذ رأى « المأمون » أن يستعين بسلطانه في سَوْق الفقهاء إلى رأيه ، وحملهم - بهذا السلطان - على متابعتِهِ .. وخاصة أولئك الفقهاء الذين يَكُونُ مناصب الفتيا والقضاء في الدولة .. فلا يكون الخليفة على رأى ، ويكون وُلاته على خلاف هذا الرأى !

ومكذا تصوّر المأمون الأمر ، حين وقع تحت تأثير نزعاته الذاتية ، وحين وقع في نفسه أن الأمر يتعلق بالخلافة وهيبتها ، وبالخليفة وسلطانه ..

فانظر كيف استبد الإحساس الذاتي بالمأمون ، وكيف استولى على عقله ، فخذله ذكاؤه ، وخانته حكيمته .. وهو من هو ذكاء ، وحكمة ، وحلم ، وعلم ؟

ولكن الهوى حين يغلب ، والنفس حين تجمح : « إن النفس لأمارة بالسوء » . ولو أن المأمون تخفف قليلا من محاباته لنفسه ، ونظر إلى الأمر في حدوده الموضوعية ، بعيداً عن شخصه أو أشخاص مخالفيه - لو أنه فعل ذلك لما ركب رأسه على هذا الوجه ، ولما اشتط هذا الشطط البعيد ، الذي كاد يذهب بالخليفة ، وبالاخلافة والدولة جميعا ..

في سنة ٢١٨ هـ ، وكان المأمون غازياً في أطراف الدولة على حدود الروم -
بعث بكتاب إلى إسحق بن إبراهيم عامله على بغداد . .
وقد شرح في هذا الكتاب أن واجب الخليفة ؛ بوصفه إماماً للمسلمين أن
يجتهد في إقامة الدين ، ويتحرى وجه الحق للمسلمين . .
ثم ذكر ما عليه الجمهور - من حشو الرعية ، وسفلة العامة - من الجباله بالله
حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم ، مع النصوص
الدالة على خلاف هذا . .

ثم يقول في هذا الكتاب : « ثم هم - أي العلماء ومعهم الجمهور -
الذين حاولوا بالباطل ، فدَعَوْا إلى قولهم ^(١) ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة .
وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، يبطل لقولهم ، ومكذب دعواهم ،
يرد عليهم قولهم ونحلتهم . . ثم أظهروا - مع ذلك - أنهم أهل الحق ، والدين ،
والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل ، والكفر ، والفرقة . . فاستطالوا بذلك على
الناس ، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمّت ^(٢) الكاذب ، والتخشم
لغير الله ، والتكشف لغير الدين - إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم ،
تزييناً بذلك عندهم ، وتصنعاً للعدالة والرياسة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ،
واتخذوا دين الله وليجةً إلى ضلالتهم » . .

هذا هو رأى المأمون في مخالفيه الذين يقولون بأن القرآن قديم غير مخلوق . .
ولو أنصف لقال هذا القول نفسه في أصحاب مذهبه القائلين بأن القرآن مخلوق . .
لأنهم إنما أمسكوا بهذا القول ، وشدوا عليه بالخصاص حين رأوا خليفة المسلمين
يتمذهب بمذهبهم ، ويستجيب لدعوتهم . . فتناولوا على الناس بهذا ، وركبهم

(١) أي دعوا الناس إلى القول بأن القرآن قديم .

(٢) السمّت . الطريق ، والتمجج .

الفرور . . فكان منهم هذا الدفاع المستميت في سبيل هذا الوليد الذي وُلِدَ لهم ،
وتبناه الخليفة عنهم ، ووضع الدولة كلها لخدمته . . !

ثم يقول « المأمون » في كتابه هذا إلى إسحق بن إبراهيم :
فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا
إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق
القرآن وإحاثته .

« وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله
واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده وبقينه » !
أرأيت إذن كيف سلط « المأمون » سيف سلطانه على رقاب رعيته ممن
خالفه في رأيه . . . وكيف تجسد هذا الخاطر الأسود في نفسه ، فصار يرى به كل
من خالفه مارقاً عن الدين ، خارجاً على الشريعة ، غير أهل لأن يوثق به ، وأن
يقلد للخليفة عملاً من أعمال الدولة ؟ ! !

وفي هذا يقول المأمون في كتاب آخر كتب به إلى هامله في بغداد :
« وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه ^(١) المقالة حفظاً في الدين ، ولا نصيباً
من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحلّ أحداً منهم محلّ الثقة في أمانة ، ولا عدالة
ولا شهادة ، ولا صدق في قول ، ولا حكاية ، ولا تولية شيء من أمر الرعية . . »
وماذا يلد الججاج والعناد غير هذا الباطل ؟ وماذا يقم بين يدي صاحبه غير
البنى والعدوان ؟ لقد أهدر المأمون إنسانية كل إنسان لا يقول بقوله ، ولا ينزل
عند رأيه . . فليس لإنسان يخرج عن هذا الرأي حق من الحقوق الاجتماعية ،
أو السياسة ، أو المدنية . . في المجتمع الذي يعيش فيه . . وهذا شر ما يعرف الناس
من ظلم وعدوان في مصادمة الرأي ومصادرته !

(١) يريد من قال بأن القرآن قديم غير مخلوق .

اللسان أولاً :

وامتثالاً لأمر أمير المؤمنين « المأمون » جمع إسحق نحو ثلاثين رجلاً من

العلماء والفقهاء ..

وجعل يسألهم ، ويتلقى إجاباتهم ، ويردّها عليهم مهدداً متوعداً ..

وهذه نماذج مما سجل التاريخ لهذه المحاورات ..

مع بشر بن الوليد :

دعا إسحق بن إبراهيم بشر بن الوليد .. وسأله :

— ما تقول في القرآن ؟

قال : قد عرفتَ مقالتي لأمر المؤمنين ، غير مرة !

قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى !

قال : لم أسألك عن هذا .. أمخلوق هو ؟

قال : لم أسألك عن هذا .. أمخلوق هو ؟

قال : الله خالقُ كلِّ شيء !

قال : أمّا القرآنُ شيء ؟

قال : هو شيء !

قال : فمخلوق هو ؟

قال : ليس بمخلوق !

قال : ليس أسألك عن هذا .. أمخلوق هو ؟

قال : ما أحسنُ غير ما قلت لك ، وقد استعهدت^(١) أمير المؤمنين ألا أتكلّم

فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك !

(١) أي أعطيت عهداً .

مع علي بن أبي مقاتل :

ودعا إسحق علي بن أبي مقاتل . . وسأله :

ما تقول يا علي ؟

فقال : قد أسمعتُ كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع !

فقال له : القرآن مخلوق ؟

قال : القرآن كلام الله !

قال : لم أسألك عن هذا . .

قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا !

مع أبي حمزة الزياتي :

وسأل أبا حسان الزياتي :

القرآن مخلوق هو ؟

قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم حججنا وصلاتنا ، ونؤدي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا انقمروا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا ! !

قال : القرآن مخلوق هو ؟

فأعاد حسان مقالته .

فقال إسحق : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ^(١) !

قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر الناس بها ، ولا يدعوهم ، وإن أخبرني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة

(١) أي إن أمير المؤمنين يقول : إن القرآن مخلوق .

المؤمنون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه !
قال : ما أمرني أن أبلغك شيئاً !

قال : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا عليها الناس ! ! » .

وقد أَلِمَّ المؤمنون لهذا الخلاف عليه أشدَّ الألم ، ولم يشأ أن يرجع خطوة إلى
الوراء ، بل لقد أَمعن في الشدة على مخالفيه ، وأخذهم من حلاقيهم قَوْداً إليه . .
ومن جهة أخرى كان العامة يرصدون مواقف العلماء والفقهاء ، ويحسون
عليهم المفوات والعيثرات . . فإذا لان واحد منهم في قول ، أو تحاذل في رد ،
أو ضَعُفَ إزاء تهديد أو وعيد أسقطه العامة من مكانه في نفوسهم ، ولهبجوا
بالتشنيع عليه ، وأطلقوا ألسنتهم بالسوء فيه . .

ولهذا فإن كثيراً من الفقهاء قد حملهم هذا الموقف من العامة على أن يصمدوا
للمحنة ، وأن يلقوا بالبلاء في عزم وثبات . . بل إن ذلك قد جعل بعضهم يبالغ
في عناده ويشتط في دفاعه . . ليكبر في عين العامة ، ويحسن ذكره على ألسنتهم .
واقدر كاد هذا الموقف يقضى على إمامين جليلين من أئمة المسلمين . .

أما أحدهما فهو الإمام البخاري ، شيخ الحديث . . إذ رأى منه العامة فتوراً
في موقفه من القول بخلق القرآن ، وذلك أن الإمام البخاري رأى أن بعض العلماء
يفصل بين لفظ القرآن ، ومعناه ، ويقول : كَفَيْ^(١) بالقرآن مخلوق ، فقال البخاري
بهذا القول - وما فيه من بأس - ليتقى به سعيير الفتنة . ولهيها . . ولكن العامة
رأوه قد خان أمانة العلماء ، وتخلّى عن الموقف الذي كان ينبغي أن يكون فيه من
هذه الفتنة ، وألا يتزحزح عن موقفه ولو أخذته السيوف !

(١) أي أن التفظ بكلمات القرآن هو الحادث ، وهو المخلوق .

وأما الإمام الآخر فهو « أحمد بن حنبل » فلقد وقف الموقف الذى دونه
رسوخ الجبال وثباتها ، والذى هز مشاعر العامة ، وحرك أشواقها إلى الاستشهاد
والتضحية . . ولو بلا ثمن !!

يقول صاحب « حضارة الإسلام » : « وعندى أن الحيل للماهرة التى كان
المعتزلة يظنون أنهم يدفعون بها عن كلام الله خطر « التجسيد »^(١) ليست مقنعة
تماماً ، ولكن لامراء أنهم هدوا بسجيتهم هداية حسنة ، وأنهم لسكى يصونوا
فكرة وحدانية الله لم يجدوا بداً من القول بخلق كلامه !

ثم يقول : « وكذلك لن يتطرق الريب إلى أن استدلال علماء السنة لم يكن
ما فيه من تمويه وانحراف هو العامل فى انتصار وجهة نظرهم ، فإن متانة مركز
السنة نشأت فى الواقع من أن المؤمنين عامة فى توقيهم للقرآن كانوا يطالبون
أو — على الأقل — يظهرون أى تبرير عقلى لمواظفتهم ، يصون هذا التوقيع وإن
بلغ ذروة السخافة التى لا يُحمد ، والتى ترضى النفوس من ناحية الدين على
أن نجاحهم لا يعود الفضل فيه مع ذلك إلى رجحان فكرة على أخرى ، وإنما
يعود إلى موافقة آرائهم لما كانت تصبو إليه نفس المؤمن الساذج »^(٢) .

وعلى ما فى هذا القول من تحامل على علماء السنة ، فإن فيه مسحة من الحق ،
إذ كان علماء السنة فى الواقع واقعين تحت تأثير رأى العام الذى لا يقبل قولاً فى
القرآن لم يقل به سلف هذه الأمة .

أحمد بن حنبل فى مواجهة المنة :

وجاء دور « أحمد بن حنبل » فثبت فى وجه المنة ثباتاً كاد يزلزل أركان
الخلافة ويصف بها .

(١) التجسيد : هو ما تقول به المسيحية من أن المسيح هو كلمة الله تجسدت فى هذا الجسد
الذى ظهر به الناس .

(٢) حضارة الإسلام لجرونيياوم ص ١٣٥

استدعى إسحق بن إبراهيم وجوه العلماء والفقهاء ليأخذ إقرارهم جميعاً
ويبعث به إلى المأمون . .

وقد أقرّوا جميعاً بما طلب إليهم أن يقرّوا به ، وهو أن « القرآن مخلوق » ،
ما عدا أربعة منهم ، فإنهم أبوا أن ينزلوا عن رأيهم . فأمر بهم « إسحق » ،
فشدوا في الحديد .

وفي اليوم التالي أعاد عليهم السؤال فأجابه واحد منهم . . فأطلقه ، ثم جىء
بهم في اليوم الثالث ، وسئلوا فأجابه ثان . . وبقي اثنان صمّا على رأيهما ، وأبىا
التحول عنه بأي حال . . وهما : « أحمد بن حنبل » و « محمد بن نوح » . . فوجه
بهما إلى المأمون في « طرسوس » ليقموا بها حتى يعود المأمون من غزوته في بلاد
الروم . ولما بلغا « الرقة » جاء الخبر بموت المأمون (١) ! !

وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم ، وهو ولي العهد من بعده أن يقوم
لهذا الأمر ، وأن ينقذه على الوجه الذي رآه . .

وقد تلقى « المعتصم » هذه الوصية ، ودخل بها في الفتنة مكرهاً ولكنه سرعان
ما أنس لريحها ، واستطعم مرارتها .

فأمر بإحضار « أحمد بن حنبل » وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من
العلماء ، فأبى أن يتحول عن رأيه ، ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من ضرب وتعذيب
في مجلس المعتصم نفسه ، وفي مجننه مقيداً بالسلاسل والأغلال !

وبقي ابن حنبل في هذا السجن والعذاب حتى مات « المعتصم » (٢) ، وجاء بعده
ابنه الواثق . . فسار مسيرة أبيه في هذه المحنة ، وبقي « أحمد بن حنبل » في محنته
حتى مات الواثق (٣) أيضاً ، وجاء بعده الخليفة « المتوكل » .

ولم يكن « الواثق » راضياً عن هذه « الممثلة » التي تمثل على المسرح الإسلامي

(١) مات المأمون سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) (٢) توفي المعتصم سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م)

(٣) توفي الواثق سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) .

فأظهر أنه على عهد سلفه من هذه الفتنة ، ولكنه لم يكن يضمّر لها غير الاستخفاف والاستهزاء ..

ولقد كشف إحساس الناس عما في صدر « الوائق » من ضيق بهذا الأمر ، ومن كراهية له ، فجاءوا إليه فيه عن طريق المفاكحة والمداعبة ، ليكون ظاهر أمره وباطنه سواءً فيه ، وبهذا تنجلي هذه الفتنة عن المسلمين وتنشع غيومها .

دخل عبادة « الضحّاك » على « الوائق » يوماً فقال : يا أمير المؤمنين .. أعظم الله أجرك في القرآن ! ! فقال « الوائق » : ويلك ! القرآن يموت ؟ قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت ! ! بالله يا أمير المؤمنين - من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن ؟ فضحك « الوائق » وقال : قاتلك الله ! أمسيك ! .

أرأيت كيف ينتهى الأمر بهذه الفتنة التي ذهب فيها كثير من خيرة العلماء والفقهاء ، والتي كادت تذهب بالإسلام وبالمسلمين جملة ؟ !

إنها مسألة ما كان ينبغي أن تثار أصلاً ، وإذا أثرت فما كان ينبغي أن يكون فيها خلاف ، ولو أثرت ووقع فيها خلاف لما كان يجوز أن يذهب مذاهب الصراع الفكري والدموي ، على هذا النحو الذي ذهب إليه !

ولكن هكذا أراد الله أن يمتحن المسلمين بهذه البلوى ، ثم كان من فضله ورحمته بهم ما أراحهم من السلامة والعافية بعد الشدة والحنة .

في أواخر خلافة « الوائق » جرى إليه بشيخ يرسف في الأغلال ، فسأله أحمد بن أبي دؤاد^(١) في حضرة « الوائق » عن قوله في القرآن ؟

فقال له الشيخ : لم تنصفني المسألة .. أنا أسألك قبل الجواب ..

أهذا الذي تقوله يا بن أبي دؤاد - من خلق القرآن - شيء علمه رسول الله

(١) كان أحمد بن دؤاد الرأس المفكرة واليد العاملة في هذه الفتنة .

صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، رضى الله عنهم أو جهلوه ؟
قال : بل علموه !

قال الشيخ : فهل دَعَوْا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟
قال : بل سكتوا !

قال الشيخ : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت ؟
فسكت ابن أبي ذؤاد . . وأعجب «الواقى» كلامه ، وقام الواقى وهو يقول :
هَلَا وَسِعَكَ ما وسعهم ؟ رجعل يكرر هذا القول مرارا !!
وهكذا استخزت الفتنة ، ونامت في صدور أصحابها . . فلما مات «الواقى»
بوجاء «المتوكل» كانت الأنواء مهيأة للصمت ، فلا تنطق بشيء في هذا الأمر
أبد الدهر !!

يقول الشيخ «محمد الخضرى» تعليقا على هذه الفتنة : « وهذا الذى فعله
«المأمون» أول تجربة وآخرها ، لأنه لم يفكر أحد من قبله فى مثل هذا ، ولما
انتهت تجربته بالفشل ، لم يعد أحد من الخلفاء إلى مثله . »

ويقول الشيخ الخضرى أيضا فى التعليق على «القضية» ذاتها : « وقد كبر
الخلاف فى مسألة من أهون المسائل ، وأيسرها حلا ، فإن «المأمون» قال : إن
أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة ، أو سببا لرياسة ، فإن الخلاف يعظم سببه ،
أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلا ، إذا لم يكن أساسا لنحلة ،
أو سببا لرياسة . » وهذا يكاد يكون صحيحا ، ومع اعترافنا بأن الخلاف لا يحمل له
فى هذه المسألة ، لا نرى للمأمون حقا - وهو سلطان الأمة - أن يصادرها فيما
تعمد ، على الشك الذى سنّه (١)

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى «الدولة العباسية» ص ١٢٥

الجاحظ في المعركة:

وقد كان « الجاحظ » من المعاصرين لهذه الفتنة ، بل ومن المشاركين فيها..
« وحسبك بمعركة يدخلها الجاحظ ، ويُجرى فيها قلمه ، ويستخدم لها أسلوبه ،
ويعطيها بيانه !

لقد كان الجاحظ معتزلياً ، بل ورأساً في المعتزلة ، وصاحب فرقة من فرقها..
ولهذا فإنه في هذه المعركة في الجبهة القائلة بخلق القرآن ..
وإذن فنحن مع الجاحظ هنا نتلقى منه أقوى الحجج عند أصحاب هذا القول ،
فهو خير من يُبين عنهم ، ويتحدث بما في عقولهم وقلوبهم ..
ونحن هنا أيضاً مع الجاحظ نتلقى منه نظرة من نظراته في القرآن ، ومفهوما
من مفاهيمه لكلام الله !

كتب « الجاحظ » رسالة في « حجج النبوة » .. وهو في هذه الرسالة
يعرض لإعجاز القرآن ، ثم يعرض لنظمه ، ثم يدخل في موضوع «خلق القرآن»
حين ينظر في الكلام الذي نظم منه القرآن .. أهو قديم أم حادث؟ ومخلوق هو
أم غير مخلوق؟

وهكذا نجد الجاحظ وجهاً لوجه مع هذه القضية ، وإذا هو محامى دُعائها ،
ومقيم الحجج والأسانيد لها .

والجاحظ إذ يكشف عن رأيه في القول بخلق القرآن يدير الحديث بينه وبين
صاحب له ، على عاداته في معظم رسائله فهو إذ بوجه القول إلى صاحبه هذا ، يضعه
موضع السائل ، ويضع هو نفسه موضع الجيب على ما يسأل عنه .

يقول الجاحظ على لسان صاحبه هذا : وقلت ، وزعموا أنه يلزمك أن تزعم
أن القرآن ليس بمخلوق إلا على المجاز ، كما ألزم ذلك نفسه معمر وأبو كلفة ،

وعبد الحميد وثمالة^(١) . . وكل من ذهب مذهبهم ، وقاس قياسهم ! فتفهم فهمك .
الله ، ما أنا واصفه لك ، ومُورده عليك . »

يقرر الجاحظ هنا أن مذهب كثير من أصحاب المعتزلة - كعمر وغيره - في القول بخلق القرآن مذهب متناقض ، إذ أنهم إذ يقولون إن القرآن مخلوق ، يقولون في الوقت نفسه ، إنه ليس بمخلوق ! ولكن لا على سبيل الحقيقة ، بل على الجواز ، لأنه في حقيقته مخلوق ! ولكن لأنه كلام الله يمكن أن يقال - على سبيل التجوز - إنه غير مخلوق !

وهنا يحاول الجاحظ أن يقيم لأصحابه رأياً مستقيماً غير مضطرب ، ولا متناقض . .
يقول الجاحظ :

« اعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم . . وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلّص بحقهم ، وإلا لذهابهم^(٢) عن قواعد قولهم ، وفروع أصولهم . . فليس لك أن تضيف العجز الذي كان منهم إلى أصل مقالاتهم ، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم . . ! »

إن أصحاب الجاحظ قد خرجوا على الأصل الذي كان لهم وهو القول بأن القرآن مخلوق ، وأنهم وقد عجزوا عن الدفاع عن هذا الأصل ، فلا يُحمّل عجزهم على أصل المذهب ، ولا يؤخذ به غيرهم من أصحاب هذا المذهب . .

ثم يقول « الجاحظ » :

« فربّ قول شريف الحسب ، جيد المركب ، وافر العرض ، برىء من العيوب سليم من الأفتن قد ضيعه أهله ، وهجّنه المفترون عليه ، فالزموه ما لا يلزمه ، وأضافوه إليه ما لا يجوز عليه . . »

(٢) لبيد هم

(١) هؤلاء أصحاب مقالات في خلق القرآن

ثم يقول مصوراً ما كان ينبغي أن يكون من مقالة أصحابه هؤلاء :

« ولو زعم القوم - على أصل مقالاتهم - أن القرآن هو الجسم دون الصوت ، والتقطيع ، والنظم ، والتأليف ، وأنه ليس بصوت ، ولا تقطيع ولا تأليف . . . إذ كان الصوت عندهم لا يُخترع كاختراع الأجسام المصورة ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة . . . والصوت عَرَض لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه . . . ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد ضلَّ أحدهما صاحبه . . . ولا بد من مكانين : مكان زال عنه ، ومكان زال إليه . . . ولا بد من هواء بين المصطكين . . . والجسم قد يحدث وحده ، ولا شيء غيره !

« والصوت على خلاف ذلك ، والعرض لا يقوم بنفسه ، ولا بد من أن يقوم بغيره ، والأعراض من أعمال الأجسام ، لا تكون إلا منها ، ولا توجد إلا بها وفيها . . . والجسم لا يكون إلا من جسم ، ولا يكون إلا من مخترع الأجسام . . . » وليست لكون^(١) الجسم علة توجيه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً ، وإلا ابتداءً ، واختراعاً . . . والصوت لا يكون عن علة موجبة ، ولا يكون إلا توليداً ، ونتيجة ، ولا يحدث إلا من جرمين ، كاصطكاك الحجرين ، وكقرع اللسان باطن الأسنان ، وإلا من هواء يتضاغط ، وريح تحتق ، ونار تلتهب . . . « هكذا الأمر عندهم . . . فلو قالوا : لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة دون المجاز على مجازي اللغة - إلا وقد بان^(٢) الله عز وجل باختراعه ، وتولاه بابتدائه ، وكان منه على الاختيار والابتداع الذي يمكن تركه ، وإنشاء عقيبه بدله منه » على خلاف ما كان تولده ونتيجته من أجسام يستحيل أن يخلق من أفعالها ، ويحمله الله منها . . .

ثم يقول .

(١) لكون الجسم : أى لوجوده . . . من الكينونة وهى التكوين .
(٢) أى انفرد

« والقرآن على غير ذلك .. جسم وصوت . وذو تأليف . وذو نظم وتقطيع
وخلق قائم بنفسه ، مستغن عن غيره ، ومسموع في الهواء ، ومرئى في الورق ،
ومفصل وموصل ، وذا اجتماع وافتراق ، ويحتمل الزيادة والنقصان ، والقناء والبقاء
وكل ما احتملته الأجسام ، ووصفت به الأجرام - كل ما كان كذلك فخلق في
الحقيقة دون المجاز ، وتوسع اللغة .

« فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا في القياس ، ووافقوا أهل الحق ^(١)
وكانوا مع الجماعة ، ولم يضاهوا أهل الخلاف والفرقة . . »

وهذا الذى يقرره الجاحظ هنا يحتاج إلى شيء من البيان والتوضيح ، لأن
بيان الرجل يقصر عن الوفاء بالمعنى ، بل لأن المعنى في ذاته دقيق ، يقوم على
تركيبات ومصطلحات علمية وكلامية . .

يريد « الجاحظ » أن يقرر أن القرآن « جسم » ، له خواص الأجسام كلها
من تقطيع وتأليف ، وفصل ووصل !

وأصحابه - من المعتزلة - يقولون إن القرآن « جسم » ولكنهم ينفون عن
هذا الجسم ما به من صوت ، وتقطيع ونظم وتأليف .. إذ الصوت عندهم لا يخترع
كاختراع الأجسام المصورة ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة .

ويرد « الجاحظ » على هذا بأن القرآن جسم وصوت معاً .. فهو ذو تأليف ،
وذو نظم وتقطيع ، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره ، ومسموع في الهواء ،
ومرئى في الورق .

وأن الصوت المنبعث من كلمات القرآن هو دليل على أن القرآن « جسم »
إذ أن الصوت لا يكون إلا من احتكاك جسمين . .

(١) يريد بهم المعتزلة لأنهم كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والحق ، إذ قالوا إن أعمال
العبد كلها مكتسبة ، وبها يثاب ويعاقب .. وبهذا يكون عدل الله .

وإذا كان القرآن جسماً فينبغي أن يكون له مما للأجسام من احتمال الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء .. وما كان كذلك فهو مخلوق في الحقيقة دون المجاز .
ثم يعرض « الجاحظ » لموقف الإمام « أحمد بن حنبل » من القول بمخلق « القرآن » أمام « المعتصم » ويرى أن الإمام أحمد لم يجد جواباً مقنعاً لما سئل عنه !
يقول « الجاحظ » يخاطب القائلين بأن القرآن قديم غير مخلوق :

« وقد قال صاحبكم — أي ابن حنبل — للخليفة « المعتصم » يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاء والمحصلين — إغذاراً وإنداراً : امتحنتني ، وأنت تعرف الحنة وما فيها من الفتنة ، لم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة ؟ قال المعتصم : أخطأت . بل كذبت ! وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الإسلام ما عرض لك ! فسؤالي إياك عن نفسك ليس من الحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسيلك هذه السبيل !

« وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا بإقراره ويعاينوا انقطاعه ، فيقضى ذلك استنصارهم ، فلا يمكنهم جحد ما أقر به عندهم !
فأبى — المعتصم — أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال : لا أريد أن أوتى بقوم إن آهنتهم سرت فيهم سيرتي فيه ، وإن بان لي أمرهم أنفذت حكم الله فيهم وهم — ما لم أوت بهم — كسائر الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة وما من شيء أحب إلي من السر ، ولا شيء أولى بي من الأناة والرفق . ! وما زال به ^(١) رقيقاً ، وعليه رقيقاً ، ويقول : لأن أمتجيك ^(٢) بحق أحب إلي من أن أقتلك بحق ..
حتى رآه يعاند الحجة ، ويكذب صراحاً عند الجواب .. وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه .. أن أحمد بن أبي دؤاد قال له :

(١) أي ما زال المعتصم رقيقاً يا ابن حنبل — حسب قول الجاحظ .

(٢) أي أحفظ حياتك .

أليس لا شيء إلا قديم أو حديث ؟

قال : نعم !

قال : أو ليس لا قديم إلا الله ؟

قال : نعم ؟

قال : فالقرآن إذن حديث !

قال : ليس أنا متكلم !

وكذلك كان يصنع في جميع مسائله حين كان يجيبه في كل ما سأل عنه حتى إذا بلغ الحق ، والموضع الذي إذا قال فيه كلمة واحدة برىء منه أصحابه قال : ليس أنا متكلم !

فلا هو قال في أول الأمر لا علم لي بالكلام ، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة خضع للحق^(١) .

وواضح من هذا تحامل الجاحظ على هذا الإمام الجليل .. ابن حنبل فهو يقيم للخليفة المعتصم حجة قاهرة وعدلا ظاهرا ، وأناة وحلما ، على حين يرمى هذا الإمام المقيد بالأغلال ، المساق إلى ساحة الهوان والاستهزاء — يرميه بالعجز ، والقصور والكذب .. وهذا اعمر كجور في الحكومة ، وظلم مبين للحق والإنصاف ! ولماذا يحمل هذا الإمام على أمر لم يكن في نظر المسلمين من أصحاب رسول الله وخلفائه ؟ وما هي جنايته إذا هو لم يقل به ، ولزم الحدود التي لزمها الصحابة والتابعون .. تأسيأ بهم ، أو تخرجاً من الخروج عن طريقهم ؟ !

وماذا يصير المسلم لو لم يقل بهذا القول أو ذاك في شأن القرآن . فلم يقل إنه قديم ، أو حديث ، غير مخلوق أو مخلوق .. ووقف عند القول بأنه : قرآن وكتاب مبين ، وأنه كلام رب العالمين .. كما قال الله تعالى فيه :

(١) من رسالة حجج النبوة للجاحظ ص ١٤٨ وما بعدها من « مجموعة رسائل الجاحظ »

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » ؟ (١)
ماذا على المسلم لو وقف عند هذه الحدود التي وقف عندها أصحاب الرسول
وخلفاؤه ؟ أليس ذلك هو أعدل طريق وأقومه ؟
ولماذا يلقي المرء بنفسه في هذا اللجاج من القول ، ويخوض فيما لا محصل له إلا
الخلاف والفرقة ؟ .

كان السلف من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم لا يخوضون في مثل
هذه المهاترات التي لا تلد إلا شراً .

سئل جعفر بن محمد رضى الله عنه عن القرآن ! أخالق أم مخلوق ؟
فقال : ليس خالقاً ولا مخلوقاً ، ولكنه كلام الله عز وجل !
وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول القرآن كلام الله عز وجل ويستفزع
قول من يقول إن القرآن مخلوق . قال مالك : « يوجع ضرباً ، ويحبس حتى
يموت » (٢) .

وهكذا . . كان شأن السلف رضوان الله تعالى عليهم . . لا يتجاوزون هذا
القول في القرآن . . إنه كلام الله . . وكفى . .

هذا ، ولابن قتيبة - وهو سني - رأى في هذه القضية ، نراه خير حكم وقع
فيها . . يقول « ابن قتيبة » :

« أعدل القول فيما اختلفوا فيه من القراءة واللفظ - أن القراءة لفظ واحد
يشتمل على معنيين : أحدها عمل والآخر قرآن ، إلا أن العمل لا يتميز من القرآن
كما يتميز الأكل من المسأكل ، فيكون المسأكل المضموع والمبلوع ، ويكون
الأكل المضغ والمبلع ! !

(١) سورة التوبة آية ٦

(٢) الشريعة للأجري ص ٧٩

« والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم الماء كقول بنفسه وحده ، وإنما يقوم
بواحدة من أربع : كتابة ، أو قراءة ، أو حفظ ، أو استماع .
فهو — أى القرآن — بالعمل فى الكتابة قائم .. والعمل خط ، وهو مخلوق
والمكتوب قرآن ، وهو غير مخلوق .
« وهو — أى القرآن — بالعمل فى القراءة قائم ، والعمل تحريك اللسان
واللهوات بالقرآن ، وهو مخلوق ، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق .
وهو — أى القرآن — بحفظ القلب قائم فى القلب ، والحفظ عمل ، وهو
مخلوق ، والحفوظ قرآن وهو غير مخلوق .
وهو — أى القرآن — بالاستماع قائم فى السمع ، والاستماع عمل ، وهو
مخلوق ، والمسموع قرآن غير مخلوق » .
ثم يقول :

« وهذا مثل لون الإنسان ، لا يقوم بجسمه ، ولا تقدر أن تقرر اللون فى
وهبك حتى يكون متميزاً من الجسم ، وكذلك القدرة ، لا تقدر أن تفرد عنها
الجسم ، وكذلك الاستطاعة والحركة ، كل واحدة منها لا تقدر ، وإنما تقوم بالجسم
والجراحة ، ولا تنفرد عنهما .. كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع : الكتابة ،
والقراءة ، والحفظ ، والاستماع — ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفرداً عنها .
فإذا قلت : قرأت ، أو تلوت ، أو لفظت — دل قولك على : فعل وقرآن ،
كل واحد منهما قائم بالآخر هير متميز منه .

فإن قال قائل : ما تقول القراءة ؟ قلت : قرآن متصل بعمل .
فإن قال : أن مخلوق هو أم غير مخلوق ؟ قلت : سألت عن كلمة واحدة تحتها
معتيان : أحدها مخلوق ، وهو العمل ، والآخر غير مخلوق ، وهو القرآن ^(١) .. »

(١) ابن قتيبة للدكتور عبد الحميد سند الجندى « نقلا عن كتاب . » الاختلاف فى اللفظ
لابن قتيبة « س ٦٣ وما بعدها » .

وأنت ترى أن ابن قتيبة يفرق بين القرآن في ذاته ، وبين الأعمال التي تتصل به . من كتابة ، أو قراءة . أو حفظ ، أو استماع .. فالقرآن في ذاته غير مخلوق ، لأنه كلام الله القديم .. وأما هذه الأعمال فهي مخلوقة لأنها من عمل البشر وإن لصقت بالقرآن ، ودارت في فلكه ..

وهذا رأى إن رضىه أهل السنة واطمأنوا له فلن يرضاه المعتزلة ، وإن يحدوا فيه تصنعاً .

* * *

وبعد .. فماذا في هذه المعركة من معطيات عن الإعجاز ؟ وهل فيها ما يكشف

لنا عن وجه من وجوهه ؟

والحق أن « القرآن » في ذاته لا يتأثر بشيء من هذا الخلاف الذي لا ينقض شيئاً من أحكامه ، ولا يغير لفظاً من ألفاظه ، ولا يس الجهة المنزل منها .. فهو عند المعتزلة ، كما عند المسلمين جميعاً .. مصدر التشريع ، وهو الكلام الذي تلقاه الرسول الكريم من ربه وحياً .. نزل به الروح الأمين على قلبه .

ولكن شعور المسلم يختلف في كل من النظرتين اللتين ينظر بهما إلى كتاب الله ، فهو إذا نظر إلى القرآن وتلقاه على أنه كلام قديم خالد ، وأنه إلهى .. وأنه روح من روح الله ، استشعر لهذا الكلام جلالاً ، وروعة ، وسطوة .. إنه بين يدي كلام .. لا كالكلام ..

أما إذا نظر إلى القرآن بالعين التي ينظر بها المعتزلة ، ورآه خلقاً مما خلق الله ، وإن يكن قد سوى في أروع صورة ، وأجل نظام — فإنه مع هذا لا يجد هذه الروعة ، ولا يستشعر هذا الجلال الذي كان يتدسس إلى كيانه في موقفه الأول ! وعلى أى فإن أعدل نظر ينظر به إلى كتاب الله أن يتجرد من الإحساس بأنه مخلوق أو غير مخلوق .. حديث أو قديم .. وحسب الناظر في كتاب الله أن يعلم أنه من عند الله ، وأنه كلام الله !

النسخ في القرآن

ومسألة النسخ في القرآن من الأمور التي كانت ولا تزال مدار جدل وخلاف بين علماء المسلمين ، كما أنها كانت ولا تزال داعية تخرص وتقول على القرآن الكريم . . من أعداء الإسلام .

وبكلمة واحدة نخرس بها أولئك الذين يتربصون بالقرآن وأهله . . ثم نتركهم في غيظهم وكدهم ، لننظر في هذا الخلاف الذي بين المسلمين في أمر النسخ . . والكلمة التي نقولها لأعداء هذا الدين هي قول الله تعالى في الكتاب الكريم « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(١) » .

فهذا التحدى القائم عليهم بحفظ الله تعالى للقرآن ، كما قام على آبائهم ، ويقوم على أبنائهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - هذا التحدى هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن . . فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفاً أو يغيروا كلمة ، أو يزيلوا آية من كتاب الله - كان لهم أن يقولوا في هذا الكتاب ما يحلو لهم من تشنيع ، عليه واستهزاء به . . وهيهات هيهات !! فلقد ذهبت سدى جميع تلك المحاولات التي بذلها أعداء الإسلام منذ قام الإسلام إلى اليوم ليشوهوا وجه هذا الدين ، بالتشويش على كتابه ، والتشكيك في صحته .

أما الخلاف الذي بين المسلمين في أمر النسخ فإنه وقع نتيجة الاختلاف في فهم الآية الكريمة :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٢) » .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٦

(١) سورة الحجر : آية ٩

فالذين قالوا بوجود النسخ في القرآن وأخذوا بمنطوق الآية ، دارت أعينهم
في كتاب الله يلتمسون مصداق هذه الآية ويستخرجون الشواهد لآيات منسوخة
بآيات ناسخة لها .. وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسر عليها تلك الآية
الكريمة .. فكان النسخ عندهم أمراً لا بد من وقوعه في القرآن .. إذ نطقت به
آية من آياته .

والذين لم يفهموا الآية الكريمة على هذا الوجه فلم يروا في القرآن الكريم
فاسخاً ولا منسوخاً - هؤلاء جعلوا الآيات التي قيل إنها منسوخة وجهاً من التأويل
بحيث يبقى حكمها ، كما بقيت تلاوتها .. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل .

فأولاً : ما هو النسخ ؟

يحيى النسخ بمعنى المحو والإزالة وذلك كما في قوله تعالى :
« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
فِي أَمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (١) » .

ويأتي بمعنى التبديل كما في قوله تعالى :
« وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ (٢) »
ويأتي بمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه نسخت الكتاب إذا نقلت
ما فيه إلى كتاب آخر .. قالوا ولا يقع هذا المعنى من النسخ في القرآن .. إذ نقل
الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمى نسخاً بالمعنى الذي يفهم منه إزالة
حكم الآية أو تلاوتها ..

هذا هو النسخ في لسان الشرع ، وهو في اللغة قريب من هذا .. فيقال تناسخ
الشيطان إذا حل أحدهما محل الآخر ، كما يتناسخ الليل والنهار ، ويقال : تناسخت

(١) سورة الحج آية ٥٢

(٢) سورة النحل .. آية ١٠١

الأزمنة أى تبع بعضها بعضاً ، ومنه تناسخ الأرواح ، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى آخر ، عند من يعتقد هذا المذهب .

ثانياً : ما هو المنسوخ ؟

اختلف العلماء فى المنسوخ ، ف قيل هو ما رفع تلاوة تنزيله كما رفع العمل به ..

ورد هذا القول بأن الله نسخ التوراة والإنجيل بالقرآن ، وهما متلوان .

وقيل لا يقع النسخ فى قرآن يتلى وينزل .

والقول بأن من القرآن ما نزل وتلى ، ثم نسخ قول فيه تعسف شديد ، وفيه

مدخل إلى الفتنة والتخرص . .

فإذا ساغ أن ينزل قرآن ويتلى على المسلمين ثم يرفع ، ساغ لكل مبطل

أن يقول أى قول ، ثم يدعى له أنه كان قرآناً ثم نسخ ، وهكذا تتداعى على القرآن

المفتريات ، والتلبيسات ، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء !

ثم من جهة أخرى . . ما حكمة هذا القرآن الذى ينزل لأيام ، أو شهور ثم

يرفع ؟ وكيف يكون رفعه أبقراً يقول للناس إن آية كذا قد رفعت أو نسخت

فلا تجعلوها قرآناً ، ولا تقرأوها ؟ أم أن هذا - النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور

الناس ما قد حفظوا من القرآن المنسوخ ؟ وإذا رفع من الصدور بتلك المعجزة ،

فهل تكون معجزة أخرى يرفع بها ما كتب بأيدي الكرام الكاتبين من كتاب

الوحى بين يدي النبي ؟ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة

من المعجزات فما الذى يدل على أن قرآناً كان ثم رفع ؟ إن هذا قول مسرف فى

البعد عن مجال المنطق والعقل !

هذا ، وليس فى القرآن ما يشير إلى آيات كانت قرآناً ثم رفعت .. ولو كان

ذلك لكانت الإشارة إليها تأكيداً لمكانها فى القرآن ، وتلاوتها فيما يتلى منه ،

ولما أمكن بذلك رفعها أو نسخها على هذا المعنى .

أما أن يكون رفع هذه الآيات المنسوخة من صدور الناس بمعجزة حتى يحى

محواً فلا يذكر أحد من أمرها شيئاً ، فإن ذلك معناه ألا يكون هناك خبر عن هذه الآيات ، وألا يقوم في الحياة شاهد — يشهد لها بأنها كانت ثم ذهبت . . . ومن الذى يخبر عنها ويشهد لها ، وليس عند أحد علم بها أو ذكر لها ؟

والحديث الذى يروى عن أن رجلين كان الرسول الكريم قد أقرأهما سورة ثم أصبحا لا يذكران منها شيئاً ، وأنهما حين أخبرا النبي بذلك صرّفهما عن الحديث عنها^(١) — نقول : إن هذا الحديث ليس موثقاً ، ولا متواتراً ، حتى يقوم حجة على القرآن ، وإنما يبدو فيه التلفيق ، والنهات والدس !

فلم يعرف من هما هذان الرجلان ؟

ولم اختصا من دون صحابة الرسول بهذه السورة ؟

وأين كان كتاب الوحي الذين كانوا دائماً أبدأ في حضرة الرسول وبين يديه ؟

ولم تنزل هذه السورة في مطلع شمس ثم تغرب عند مغربها ؟

إن ذلك منطق لا يقبله كتاب الله ، ولا يرضاه دين الله !

ثالثاً : هل فى القرآن نسخ :

قلنا من قبل إن هناك رأيين بين علماء المسلمين : رأى يقول بأن النسخ

موجود فى القرآن ولهم على هذا ، الاستدلال بالآية الكريمة :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » .

(١) روى الطبرانى عن أبو سنبل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد عن أبيه عن العباس عن ابن الأفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها ، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرأ منها على حرف ، فأصبحنا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لأنها مما نسح وأنسى » فلهذا عفا « وسليمان بن أرقم — أحد رواة هذا الحديث . . . ضعيف .

قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :
« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » (١)

فقد كانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا
ونفقتها في مال الزوج ، وهذا معنى قوله تعالى :

« متاعاً إلى الحولِ غيرَ إخراج » فنسخ ذلك بالآية المشار إليها . وصار
تربصها أربعة أشهر وعشرة أيام . ولها نصيبها المعروف في الميراث .

وهكذا يعدون الآيات المنسوخة والناسخة في إحدى وسبعين سورة من
القرآن الكريم (٢) .

أما الذين يقولون بأن لا نسخ في القرآن فيتأولون هذه الآيات ، ويعطونها الحكم
الذي تضمنته . وسنرى لذلك شواهد عند موقفنا مع الذين يذهبون هذا المذهب .

القول بأنه لا نسخ في القرآن

وكثير من العلماء أيضا يرى أن النسخ في القرآن ليس نسخاً بمعنى الإزالة ، على
نحو ما فهمه القائلون بالنسخ ، وإنما هو نسخاً وتأخير ، أو مجمل أخر بيانه أوقت الحاجة ،
أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم
عام لخاص ، أو لمداخلة معنى في معنى . . وأنواع الخطاب كثيرة ، فظنوا ذلك
نسخاً ، وليس به ، وإنه الكتاب المهيمن على غيره ، وهو نفسه متعاقد

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة
بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف . .

(١) سورة البقرة آية ٢٣٤ (٢) الإنفاق في علوم القرآن جزء ٢ ص ٢١

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٢ : ص ٤٤

ولست كذلك . بل هي من المنسأ .. بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله في وقت ما لعلته . توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر .. وليس ينسخ .. إذن أن النسخ معناه الإزالة ، حتى لا يجوز امتثاله أبداً .

وتطبيقاً لهذا الرأي نجد أن لا تعارض بين الآيات التي تختلف أحكامها في الأمر الواحد ، إذ كل حكم له حال تخصه ، وعلة تدور معه ، وجوداً وعدماً .

فمثلاً : قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

وقوله تعالى بعد هذا : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (١)

ليس بين الآيتين تعارض ، وإن اختلف منطوق الحكم فيهما .. فالآية الأولى تقرض على المسلمين حكماً في حال هم فيها أهل للوفاء بهذا الحكم ، لما فيهم من قوة إيمان وثبات يقين .. فإذا كانوا في تلك الحالة كان واجباً عليهم إذا التفتوا في ميدان الحرب بأعدائهم أن يثبت العشرون منهم لمئتين من أعدائهم ، وأن تثبت المئة للألف . فلما علم الله أن في المسلمين ضعفاً حين كثر عددهم ، ودخل فيهم من دخل ، وليس فيهم مافي هؤلاء النفر القليل الكرام الذين سبقوا إلى الإسلام .. من كرم المعدن وصفاء الجوهر ، والتعرف على الحق ، والبدار إليه - لما علم الله هذا من أمر المسلمين خفف عنهم ، وجعل أمرهم يسراً ، ففرض عليهم ألا تفر المئة من المئتين ولا الألف من الألفين ؟

(١) سورة الأنفال . . الآيات ، ٦٥ ، ٦٦

وانظر كيف كانت أعداد المسلمين في الآية الأولى : « عشرون » و « مئة »
ثم أصبحت في الآية الثانية هكذا « مئة » و « ألفا » !

وإن ذلك ليكشف لك عن المعنى الذي أشرتُ إليه من قبل ، وهو أن
الضعف الذي عرض للمسلمين في هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية ،
وفي عهد النبي ، لم يكن من جهة السابقين إلى الإسلام ، فهو لاء كانوا كلما مرت
الأيام بهم في الإسلام وفي صحبة الرسول ، ازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولكن الضعف
وقع على مجموع المسلمين حين كثر عدد الداخلين في الإسلام ، ولا شك أن هذه
الأعداد الكبيرة التي دخلت أفواجا في دين الله ليس فيها ما في هذه الصفوة
التي سبقت إلى الإسلام ، من كرم المعدن ، وصفاء الجوهر ، حيث هُدوا إلى الإسلام
بفطرتهم ، وجاءوا بما في عقولهم من رَشَد ، وما في قلوبهم من تجاوب مع الحق
الذي يدعو إليه هذا الدين ، وليس الشأن كذلك في كل من دخل في الإسلا
مع الأفواج الداخلة فيه .

وطبيعى أنه إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التي كانوا عليها قبل
هذا الضعف عاد الحكم الأول ، فإذا ضعفوا عادوا إلى حكم الآية الثانية ، الذي
لا ينبغي لهم أن ينزلوا عنه أبداً . . حتى في أضعف أحوالهم . . المئة تغلب مئتين ،
والألف يغلبون ألفين !!

وفي هذا ما فيه من تكريم للإسلام والمسلمين ، ورفع درجتهم بهذا الدين ،
حتى في أنزل منازلهم ، وأسوأ أحوالهم !!

* * *

ومن هذا أيضاً قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا
اهْتَدَيْتُمْ » (١) .

فقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف^(١) وبقوله تعالى :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا »
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٢) .

والحق أن هذه الآية وغيرها من الآيات الداعية إلى المهادنة ليست منسوخة ،
وإنما حكمها باق . . يعمل به في الحال التي تناسبه .

فقد نزلت هذه الآية والمسلمون لم يكونوا في قوة ظاهرة ، إذ نزلت - وهي
في سورة المائدة - بعد سورة الفتح ، التي نزلت بعد صلح الحديبية . . وهذا يعني
أن قريشاً كانت لاتزال في عداوتها وفي قوتها ، وأنها كانت تتربص بالنبي
وبالمسلمين . . كذلك كان اليهود ، وكانت كذلك معظم قبائل العرب . . عداوات
تحيط بالمسلمين من كل جهة ، فاحتضت هذه الحال أن يقف المسلمون موقفاً حكيماً
من أعدائهم : أن يصلحوا من أنفسهم أولاً ، وأن يدعموها بالإيمان ، وبالإخلاص .
وأن يقيموها على البر والتقوى وأن يعدوها للصراع المتوقع بينهم وبين أولئك
الأعداء المحيطين بهم من كل جهة ، ثم ليدعوا أعداءهم وشأنهم ، وألا يحملوا
أنفسهم على المكروه منهم ، فهم قلة قليلة في وجه قوى كثيرة مغیظة متربصة !
ولهذا كان توجيه الله سبحانه وتعالى لهم قائماً على هذا الوجه الذي تنطق
به الآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »
فهذا ما كان يلائم حال المسلمين وهم في تلك الحال !

(١) وهي قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ -
ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين آوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون »
(٢) سورة الأنفال / ٣٩

فلما قوى أمر المسلمين ، وصارت إلى يدهم الغلبة على أعدائهم وجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . والمقاتلة عليهما .

« ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » — عاد الحكم . . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيت هوى متبعاً ، وشحاً مطاعاً ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك » .

« وهو سبحانه وتعالى حكيم ، أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم حين ضعفه ما يليق بتلك الحالة ، رافة بمن اتبعه ، ورحمة .

إذ لو وجب القتال من أول الأمر لأورث حرجاً ومشقة . . فلما أعز الله الإسلام ، وأظهره ، ونصره ، أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة ، من المطالبة بالدخول في الإسلام ، أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب — أو بالإسلام أو القتل إن لم يكونوا من أهل الكتاب . ويعود هذان الحكما — أعنى المسألة عند الضعف ، والمسايفة عند القوة — بعودة سببهما ، وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسألة ، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته ^(١) »

« ما نسخ من آية . . . »

ونعود إلى هذه الآية الكريمة التي فتحت على المسلمين باباً فسيحاً للتأويل ، ثم الخلاف في هذا التأويل ، والانتقال به إلى دائرة فسيحة في القرآن ذاته . . حيث يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكماً ، وإن بقيت تلاوتها . .

ونحن إذ ننظر في هذه الآية الكريمة نسأل أولاً :

« هل إذا جاء في القرآن الكريم شرط أوجب أن يقع هذا الشرط ، وأن

يتحقق تبعاً لذلك جبراً به ؟

(١) انظر البرهان في علوم القرآن جزء ٢ ص ٤٣ .

وإذا تحقق هذا الشرط الواقع في الآية الكريمة وتحقق معه جوابه ، فكان ما يقول به القائلون من وجود النسخ في القرآن - أيكون هذا النسخ على ذلك المعنى الذى ذهب إليه القائلون به ؟

والجواب على هذا : أن ليس من الحتم اللازم أنه إذا ورد في القرآن أسلوب شرطى أن يقع هذا الشرط ، وإنما الحتم اللازم هو أنه إذا وقع الشرط فلا بد أن يتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط . .

فما أكثر ما وردت أساليب شرطية في القرآن غير منظور إلى وقوعها ، ولا إلى تحقيق جوابها ، ومن ذلك قوله تعالى لنبيه الكريم :

« وَإِنْ تُطِيعُوا كَثْرًا مِّنْ فِي الْأَرْضِ بِضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضا :

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

الْوَتِينَ ^(١) » .

« وقوله تعالى في خطابه له :

« لئن أشر كُنتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ » .

« ولم يقع شرط أى آية من هذه الآيات الكريمة ، ولم يقع جوابها كذلك .

وعلى هذا يجوز في الآية الكريمة : « ما ننسخ من آية أو ننسها » ألا يقع

شرطها ولا جوابها . . وتكون من قبيل القضايا الفرضية التى يراد بها العبرة

والعظة . . ووجه العبرة في هذه الآية الكشف عن قدرة الله وحكمه ، وإنه قادر على

أن يبدل ويغير من آياته . . لحكمة يعلمها دون أن يكون هذا عن تناقض أو بداء

كما يقول اليهود^(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فهو سبحانه المالك لكل شيء ، القائم على كل شيء المدبر لكل شيء . . « قَوْلَهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ » .
والذى نأخذه من هذا ، أن النسخ الذى أشارت إليه الآية الكريمة ليس لازماً أن يقع ، وإنما وقوعه أمر احتمالى ، يشهد له الواقع أو لا يشهد . . فإن شهد له الواقع اعتُبر ، وإلا فلا .

وإذن فلا نستصحب معنا هذا الحكم الذى تقضى به الآية لو وقع شرطها وجوابها — لا نستصحب هذا الحكم ، ونحن ننظر فى الآيات التى يقال إنها ناسخة أو منسوخة . . بل ننظر فى تلك الآيات نظراً منقطعاً عن كل تأثير لهذا المفهوم الذى فهمت عليه الآية الكريمة .

كذلك ينبغى أن ننظر فى آية النسخ ذاتها بهذا الاعتبار ، وهو أنها واقعة فى شرط يحتمل وقوعه وعدمه ، ودلالة الحال هى التى تشهد لهذا أو ذاك .

والآن ننظر فى آية النسخ :

« مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

هذه الآية الكريمة قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها دفاعاً عن أمر أراد الله للمسلمين ، وهو تحويل قبلتهم التى كانوا عليها من بيت المقدس إلى البيت الحرام . وهذا التحول كان حدثاً كبيراً من أحداث الإسلام : كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين ، ومدخلاً كبيراً للطعن فى الدين ، والتخريف على الرسول الكريم .

(١) اليهود يرون أن القول بنسخ حكم أو بإبداله بغيره رحمة بالعباد ، أو امتحاناً ؛ لا يجوز أن يقع من الله ، لأن ذلك بداء عليه ، بمعنى أن الله قد أبطل هذا الحكم أو غيره حين بدا له فيه ما لم يكن قد بدا له من قبل . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكان من تدبير القرآن لهذا الأمر أن قدم له هذه الآيات السكينة لتكون
قوة للمسلمين يدفعون بها كيد اليهود ، ووسوسة الشيطان ..
واستمع لتلك الآيات ثم استمع للأمر الذى الذى جاء بعدها ..
يقول الله تعالى :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ، أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
كَسِئْلِ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »
فهذا الاستفهام الإنكارى الذى يتجه به القرآن إلى المسلمين - فيه تحذير لهم
من أن يكونوا مع النبي كما كان اليهود مع موسى ، كلما جاءهم بأمر ، لم يتلقوه
بالامتنال والطاعة ، بل قابلوه بالحدرد والريب ، وواجهوه بالأسئلة الكثيرة التى
تنبئ عن خبث طويّة ، وفساد سريرة .

وتحويل القبلة أمر وشيك الوقوع ، وقد كان المسلمون يُصَلُّون إلى بيت
المقدس ، سبعة عشر شهراً ، فإذا وقع هذا التحويل نزع بهم نوازع كثيرة.
تدعوهم إلى التساؤل : فيم كنا ؟ ولم كان هذا ؟

ثم إن من وراء ذلك اليهود ، يُلقون إليهم بما يفتح للشيطان طارقاً كثيرة فى
قلوب لم يتوثق فيها الإيمان بعد ، فكان هذا التحذير من قبل أن يقع الأمر الذى
من شأنه أن يثير شكاً وتساؤلاً - كان تدبيراً حكيماً ، ووقاية للمسلمين من داء
أصيب به اليهود قبلهم فعزّ شفاؤهم منه .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى بعد هذا :

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا »

حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْتَرُوا ، وَأَصْفَحُوا ،
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ .. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وهذا تحذير آخر من الله سبحانه ، أن يستمع المسلمون إلى ما قد يلقاهم به
اليهود عند وقوع هذا الأمر ، وهو تحويل القبلة إلى المسجد الحرام - من تلبيسات
وتلفيقات ، ودسائس ، يشوشون بها على المسلمين ، ويشيرون فيهم غبار
الشكوك والريب .

ثم يقول الله بعد هذا :

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ
كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .. تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

وهنا إشارة ثالثة إلى موقف اليهود والنصارى من هذا الحدث المرتقب ، وهو
أنهم سيتخذون منه ذريعة للطعن في الإسلام ، وبأن من لا يستقيم على وجهتهم التي
يتجهون إليها في الصلاة ، فليس على دين . . وإذن فلا يدخل الجنة ! وأن الجنة لن
يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ، حيث تذهب كل طائفة من هاتين الطائفتين
إلى أن دينها هو الحق . . حيث لم تتحول عن قبلتها .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى بعد هذا :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ
الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ . كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ

قَوْلِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » (١) .
فقد كشف الله سبحانه في هذه الآية عن الافتراءات التي يرمى بها أهل الكتاب بعضهم بعضاً ، وأضاف إليهم غير أهل الكتاب ، وهم الذين لا يعامون علماً من كتاب ، وهم العرب الذين يقولون : إن دينهم الذي هم عليه هو الدين الحق . . . فاليهود ، والنصارى ، والعرب ، كل منهم يرى أن الدين الذي هو عليه هو الحق وأن ما وراءه هو الباطل ، وهم جميعاً يَتَقَوَّنُ الرسول الكريم والكتاب الذي جاء به - بهذه العقيدة الفاسدة .

ويقول الله بعد هذا :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ، أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (٢) .

وهذا وعيد لليهود وغيرهم ممن يشوشون على المسلمين أمرهم في التوجه إلى المسجد الحرام ، وبذلك فهم أهل لأن يوصفوا بأنهم يَسْعَوْنَ في خراب مساجد الله وَصَدَّ النَّاسَ عَنْهَا .

وتدبر قول الحق سبحانه : « مساجد الله » وهو المسجد الحرام ، فإن هذا المسجد وإن كان قبلة المسلمين ، فإنه سيكون للمسلمين مساجد في أقطار الأرض تعمر بالمصلين .. فهو ليس مسجداً ؛ بل هو سيكون مساجد في كل مكان ! ثم يقول الله سبحانه : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمُؤَوِّجُهُ اللَّهُ . . . إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٣) .

(١) سورة البقرة آية : ١١٣

(٢) سورة البقرة آية : ١١٤

(٣) سورة البقرة آية : ١١٥

وإنك لترى في هذه الآية تمهيداً قوياً للأمر الذي سيذعوه الله - سبحانه -
المسلمين إليه ، بعد هذا ، وهو التحول إلى المسجد الحرام . . فإذا تحول المسلمون
بقبلتهم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، فإنما هم في الحالين يتجهون إلى الله
« والله المشرق والمغرب » ،

ويجىء بعد هذا قوله تعالى :

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا - سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ
أَصْحَابِ الْجَحِيمِ .. وَإِنْ تَرْضَىٰ عِنْدَ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مَلَّتَهُمْ
قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ
الْعِلْمِ مَالَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (١) .

والآية الأخيرة من هذه الآيات صريحة فيما تنطوى عليه نفوس أهل الكتاب
من إصرار على مخالفة النبي وترصصهم به . . وفي هذا تحذير مما سيقع منهم من كيد
حين يجىء أمر الله بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام .

ثم تجىء آيات بعد هذا تذكر بنى إسرائيل بما أنعم الله به عليهم ، وتحذرهم
يوم الحساب ، يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً . ويدعوهم إلى أن يتقوا الله
فيما يقولون من كذب وبهتان في محمد وشريعته ، وهم يعلمون أنه نبي الله ،
وأن شريعته شريعة الله .

ثم تجىء بعد ذلك هذه الآيات :

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّيَ الْعَالَمِينَ » (١) .

فهذه الآيات ترفع للمسلمين صورة كريمة للبيت الكريم ، وتطلع عليهم بذكريات هذا الماضي الذي يفخر به العرب جميعا ، وهو اليوم الذي أقيم فيه هذا البيت بيد أبويهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما السلام . . في هذا ما يحرك في المسلمين مشاعر قوية من التعاطف والحنو على هذا البيت . . فإذا جاءهم بعد هذا كتاب الله يدعوهم إلى التوجه إليه ، وقع ذلك الأمر في قلوبهم موقع الغبطة والرضا . ثم تتجه الآيات بعد هذا تسأل اليهود متحدة: أكانوا شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، وهل سمعوا ما وصى به بنوه من بعده . ثم تحكي قول اليهود والنصارى معا : « كونوا يهوداً أو نصارى تهتدوا » وترد عليهم قولهم هذا « بل مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ثم تدعو المسلمين إلى الإيمان بالله ، وما أنزل

إليهم وما أنزل إلى النبيين من قبل . إذ دين الأنبياء واحد ، هو الإسلام الذي يرجع إليه كل دين : « إن الدين عند الله الإسلام » .

ثم يحىء بعد هذا قوله سبحانه وتعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ : اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ . . . يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١)

فانظر كيف كان دفاع القرآن عن هذا الأمر الذي جاء به ، ودعا المسلمين إليه . . . إنه إلى الآن لم يحىء الأمر المرتقب ، وهو دعوة المسلمين إلى أن يحولوا قبلتهم إلى البيت الحرام . . . ومع هذا كانت هذه المواقف التي كشف فيها القرآن عن طوايا النفوس ، وما يحمل أهل الكتاب في نفوسهم — وخاصة اليهود — من ضغينة وحقد على الإسلام ، وفي الآية السابقة أول هجوم مباشر على أهل الكتاب الذين سيخوضون في هذا الحادث وبشوشون فيه على المسلمين . . . وقد وصفهم « القرآن بأنهم » سفهاء » . . . وهذا أنسب وصف يوصف به قوم يسترخصون عقولهم ، فيصرفونها عن الحق عمداً إلى الباطل قصداً . . .

وأنت ترى أن الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام لم يأت بعد ، ولهذا لم يكن لأهل الكتاب ولا لغيرهم حديث عنه ، وإنما سبق القرآن إلى الكشف عن المستقبل ، وأطلع المسلمين على ما سيلقى به أهل الكتاب هذا الأمر . « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ » . . . إنهم لم يقولوا بعد شيئاً ، ولكنهم سيقولون ، ويقولون حين يحىء الأمر المرتقب . . . وقد تولى القرآن الرد على هذا التساؤل السفيه من جماعة السفهاء . « قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » .

ثم يلتفت بعد هذا إلى المسلمين ، أصحاب هذا الأمر . . . فيقول لهم :
« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » (١) .

ثم يلتفت إلى الرسول الكريم لفظة خاصة مع هذه اللفظة العامة فيقول له :
« وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ
يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ . . . إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » (٢) .

فهذه الآية الكريمة فيها تعطين لقلوب المسلمين ، وتسكين لنوازع الفتنة التي
قد يسوقها إليهم السفهاء من الناس ، يحاولون أن يشككوه في دينهم ، وأن يقيموا
منه على غير ثقة ولا طمأنينة !

ثم إن ما كان من توجه المسلمين بالصلاة إلى بيت المقدس أولاً ، ثم تحوّلهم
إلى البيت الحرام ثانياً - ما كان ذلك إلا ابتلاء من الله ، واختباراً لما عند المؤمنين
من إيمان بالله وبرسوله ، واتباع لما يأمر به ، من غير توقف أو ارتياب . وإن
كان احتمال هذا الموقف قاسياً ، ولكن الذين هدام الله وثبتهم على الحق لا يجدون
له في أنفسهم أثراً من ضيق ، وخاصة بعد أن وعدهم الله بأن صلاتهم التي صلوها
إلى المسجد الأقصى ما كان الله ليضيعها . . . وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله
بالناس لرءوف رحيم » .

لقد استكلت القضية وجوه دفاعها ، ومع هذا لم يظهر موضوع القضية بعد . . .
وهنا تجيء أول آية تكشف عن هذا الموضوع ، فتدعو النبي الكريم إلى التحول
بالصلاة إلى البيت الحرام . . . وفي هذا يقول الله سبحانه :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِيْلَةً تَرَضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَلِهِمْ يَعْلَمُونَ^(١) » .

فهذا هو الأمر المرتقب ، الذي أعد له القرآن هذا الدفاع من قبل ، ومهد له السبيل إلى قلوب المسلمين ، فأطلعهم على ما سيكون من أمر اليهود وغيرهم من تخرص ، وزور ، وبهتان !

ثم تجيء الآيات بعد هذا فتدَّعُم هذا الأمر بوجوه أخرى من الدفاع ، بعضها يتجه إلى اليهود وأنهم مهما رأوا من آيات فلن يتبعوا قبلة النبي ، والنبي كذلك لن يتبع قبلتهم ، وأهل الكتاب مختلفون فيما بينهم ، لا يتبع بعضهم قبلة بعض . . . وهم يعرفون هذا الأمر الذي نزل على النبي كما يعرفون أبناءهم ، ولكن فريقاً منهم يكتُمون الحق وهم يعلمون .

وبعض وجوه الدفاع يتجه إلى النبي فيدعوه إلى اليقين والاطمئنان إلى أمر ربه . . . « الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » .

وإنك لترى من هذا كله أن آية النسخ كانت مقدمة الدفاع في قضية التحول بأقبلة إلى المسجد الحرام . . وكأنها تقول للمسلمين ولأهل الكتاب : إن الله سبحانه وتعالى إذا نسخ آية من آياته وبطل حكمها من أحكامه بحكم آخر فذلك بمقتضى حكمته ورحمته بعباده . .

وقد نسخ الله سبحانه كثيراً من الشرائع التي تقدمت شريعة الإسلام . .

يقول ابن كثير في تفسيره :

(١) سورة البقرة آية : ١٤٤ .

« والذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ هو الكفر والعناد ، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد — كما أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك ، وكما أباح لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بني إسرائيل قتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل ^(١) » .

وعلى هذا فإن أقرب مفهوم إلى النسخ الذي تشير إليه الآية : « ما نسخ من آية » هو نسخ الأمر بالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس وجعله إلى المسجد الحرام . وكلا المسجلين آية من آيات الله ، إذا قاما بأمره ، وأفاض عليهما من فضله . . فإذا نسخ المسجد الحرام المسجد الأقصى فإنما هو نسخ آية بآية وتبديل نعمة بنعمة . . « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تبارك الله رب العالمين ^(٢) » .

أما قوله تعالى « أو ننسها » ففيه قراءتان : ننسها ، وننسأها . فعلى القراءة الأولى يكون من النسيان ، بمعنى أن الله سبحانه يعفى آثار بعض شرائعه التي شرعها ، وأحكامه التي كان قد فرضها في أجيال الماضين ، قال أبو بكر الرازي : « إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ، ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكتبه في المصحف ، فيندرس على الأيام ، كسائر كتب الله القديمة ، التي ذكرها في كتابه ، في قوله :

« إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » ولا يعرف اليوم منها شيء ^(٣) .

(١) تفسير ابن كثير - الجزء الأول (٢) انظر أحكام القرآن لأبي بكر الرازي .

(٣) سورة الأعلى / آية ١٨ ، ١٩ .

وعلى القراءة الثانية يكون من النساء وهو التأخير ، ومعنى هذا أن الله سبحانه قد يؤخر نسخ آية إلى أجل معلوم ، كما أخر نسخ التوجيه إلى بيت المقدس منذ وجه المسلمون وجوههم إليه في الصلاة إلى أن أمروا بالتحول إلى المسجد الحرام بعد سبعة عشر شهرا .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن آية النسخ ليست متجهة إلى نسخ آيات القرآن الكريم وإنما إلى نسخ قبلة وإحلال أخرى مكانها .. وأن النساء هو تأخير الحكم الذي دُعي به المسلمون إلى التحول إلى البيت مدة بلغت سبعة عشر شهرا كانوا يتجهون خلالها نحو بيت المقدس .. وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى ، فيها امتحان وابتلاء لعباده :

« مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » (١)

تأويل ما يبرو فيه الفسخ :

من آيات الأحكام ما يبدو فيها النسخ ، إذ كانت القضية واحدة والأحكام فيها مختلفة .. وأوضح مثل لهذا ، الآيات التي جاءت في الخمر ، ومثلها الآيات التي وردت في الربا .. فقد جاء في الخمر آيات في عدة مواضع من القرآن .. وفي كل موضع حديث عن الخمر يختلف عما تضمنته الآيات الأخرى ، وذلك في صدد تحريمها .. وكذلك جاء من الربا ..

ويرى العلماء أن ذلك كان لحكمة تربوية ، قصد بها التلطف ، في الدخول على النفس دخولا مترققا ، في تحريم أمور ذات ارتباط وثيق بها ، وسلطان قاهر عليها .. وفي انخلاع النفس عنها جملة ليس مما يؤمن معه سلامة النفس أو تقبلها لهذه الأمور إذا هي حُمِلت عليها دفعة واحدة ، على هذا الوجه المفاجيء ، فقد

(١) سورة آل عمران : آية ١٧٩ .

تخور كثير من النفوس ، وقد تتصدع وتنحل ، إذا هي واجهت الأمر مرة واحدة ، دون تمهيد وإعداد .

ففي الخمر حين أراد الله - سبحانه - أن يحرمها ، سلك ذلك المسلك التربوي الحكيم ، الذي لا يرى ألطف ولا أحكم ولا أعدل مدخلا منه الى النفس . . .
كان أول إشارة إلى الخمر تلك الإشارة التي تضمنها وضعاً غير كريم بين النعم التي أنعم الله بها على عباده . . فقال تعالى :

« وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا » (١)

فالرزق الحسن الذي يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب ليس منه هذا السكر الذي يتخذ من هذه الثمرات ، وفي هذا ما يفتح للكثير من ذوى البصائر سهيلاً إلى العزوف عن هذا السكر وتجنبه ، إذ كان رزقاً غير حسن . . ثم تجيء الآية التلوية بعد هذا ، وفيها تشنيع على الخمر وتقبيح لها . . وذلك في قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » (٢) .

فقد قرّن الخمر إلى الميسر ، وجعلهما في مقود واحد ، إذ كانا من فصيلة الفساد والشر على سواء ، ومن تدبير القرآن هنا أنه لم يغفل الوجه الآخر لهذه المنكرات . . فكل شيء وإن بلغ ما بلغ من السوء له جانب آخر غير سيئ . . إذ ليس هناك شر خالص ، أو خير محض ، فيما يدور في دنيا الناس ، وفيما يتقلبون فيه . .

لم ينكر القرآن هذه الحقيقة الواقعة وهي أن للخمر والميسر منافع ، ولكن هذه المنافع ليست شيئاً إلى جانب الإثم والضرر الذي ينجم منهما .

فإذا ربح إنسان من الميسر مرة فإن خسارته المحققة أضعاف ما يربح . وإذا كان للخمر عند شاربها لذة أو نشوة في أول عهده بها فإنها تنتهي به إلى تدمير كامل لقواه العقلية ، والجسدية والنفسية .

فالخمر والميسر « فيهما إثم كبير . ومنافع للناس . . وإثمهما أكبر من نفعهما » ومن هذه الإشارة البليغة يتلقى كثير من العقلاء دعوة صريحة إلى ترك هذين الأمرين اللذين يحسب جانب الخسارة فيهما كبير إلى ما قد يقع لبعض الناس منهما من نفع .

ثم تجيء بعد هذا إشارة أصرح وأوضح من سابقتها ، وذلك في قوله تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » (١)

« فقد حرمت هذه الآية على المؤمن أن يدخل في الصلاة وهو في حال سكر ، لا يعلم ما يقول .

والصلاة تتكرر في اليوم خمس مرات . . في أوقات متفاوتة تكاد تجعل الليل والنهار قسمة بينها . . وهيئات أن يشرب شارب الخمر عقب صلاة من الصلوات ثم تدركه الصلاة الثانية وقد صحا من خمارها ، أو أفاق من سكرها . . وهبه حرص مرة ومرة على ألا يشرب حتى السكر . . فمن له أن يمسك نفسه هكذا أبداً عند هذا الحد ؟ ومن يحميه من نزعة نفسه ونزعة شيطانه ، ووسوسة إخوان السوء الذين في مجلس شرابه ؟ لقد دعت هذه الإشارة كثيرا من المسلمين إلى أن يمسكوا عن شرب الخمر . . وأن يحرموها على أنفسهم ، على حين ظل بعضهم يلقاها بين الحين والحين ، ولم يكن بعد هذا إلا إشارة أخيرة تقطع الأمر وتفصل فيه . . حتى لقد كان كثير من المسلمين يتوقعون أمر الدماء في هذا ، ليجدوا منه سلطاناً على أنفسهم

إذا هي دعتهم إلى هذا الأمر الذي لم تجيء الشريعة بتحريمه تحريماً قاطعاً ، وحتى يروى عن عمر رضى الله عنه أنه كان يقول : « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً » وكان أن نزل قوله تعالى :

« إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ أَعْلَنَ لَكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَهْدِيَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ . . فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (١)

وبهذا يجيء الحكم القاطع في تحريم الخمر . . فتصبح منذ اليوم محرمة على المسلم ، بهذا الحكم القاطع .

والسؤال الوارد بعد هذا هو : ماذا يقال في هذه الآيات التي سبقت آية التحريم القاطع للخمر ؟ أهى منسوخة بتلك الآية ؟ وهل هناك سلسلة من التناسخ بينها ، بحيث ينسخ اللاحق السابق منها ؟

والجواب على هذا ليس جواباً واحداً . . فإذا قلنا بوجود النسخ في القرآن كان وانحماً أن هذه الآيات منسوخة بالآية الأخيرة ، وكانت مراحل النسخ متتابعة ، ينسخ بعضها بعضاً . . اللاحق منها ينسخ السابق .

أما إذا قلنا بأن لانسح في القرآن كان الجواب بأن هذه الآيات جميعها عاملة . . تلاوة وحكما . . وأن اللاحق منها هو منسأ ، تأخر نزوله ، ووجب امتثال كل في وقته ، الحكمة توجب ذلك الحكم الذي تضمنه ! وهنا يلقانا هذا السؤال : كيف يمكن التوفيق بين هذه الأحكام المختلفة في أمر واحد هو الخمر . . فهي رزق غير حسن ، وهي إثم ونفع ، وإثمها أكبر من نفعها ، وهي محرمة إذا دخل بها شارحها الصلاة وقد سكر منها ، ثم هي محرمة حرمة مطلقة من كل قيد .

هذه سلسلة من الأحكام واقعة على أمر واحد هو الخمر . .
فأى الآيات ، أو بمعنى آخر أى أحكام هذه الآيات يلزم المسلمين العمل به
والوقوف عنده ؟

وقبل : الإجابة على هذا السؤال نسأل سؤالاً آخر ونجيب عليه ، وهو : هل من
شأن هذا النهى القاطع الملزم الذى جاءت به آخر آية فى تحریم الخمر ، هل من شأن
هذا النهى أن يحول بين المسلمين وبين الخمر ؟ أو بمعنى آخر : هل فيه من القوة
الذاتية ما يعضم المسلمين جميعاً عن الخمر ، أو يحميمهم جميعاً - فرداً فرداً - من
الضعف النفسى إزاءها ؟

والجواب على هذا إنما نأخذه من الواقع التطبيقي فى الحياة للأوامر والنواهى
التي جاءت بها الأديان . وهى أن أى أمر أو نهى لن يستقيم الناس جميعاً عليه ،
ولن يلزموه إلزاماً كاملاً ، فإما أكثر الذين يخرجون على تلك الأوامر والنواهى
فلا يأتون منها ما أمر الله به ، ولا ينتهون عما نهى الله عنه .

فالأديان تنهى عن الكذب ، وكثير من أتباع هذه الأديان يكذبون والأديان
تنهى عن الظلم ، وكثير من أتباع هذه الأديان يظلمون ، والأديان تنهى عن السرقة ،
وكثير من أتباع هذه الأديان يسرقون ، وهكذا الشأن فى كل ما تأمر به الأديان
أو تنهى عنه . لا يستقيم الناس جميعاً على أوامرها ونواهيها .

والأديان تسلم هذا مقدماً ، ولهذا تفرض عقوبات دنيوية وأخروية للمخالفات
التي تقع من أتباعها . . والخمر التي نهى الإسلام المسلمين عنها ، قد رصد الشارع
العقوبة للمقابلة لمن يشربها ولا ينتهى عما نهى الله عنه منها . .

والسؤال هنا : إذا شرب مسلم الخمر فما موقف الإسلام منه وما موقفه هو
من الإسلام ؟

أما الإسلام فإنه يراه آنفاً يستحق العقوبة الرادعة فى الدنيا وعلى الجليل .
وأما هو فهو - على ما به من إثم - مسلم ، آثم ، هاق . . ولا نلتفت هنا إلى
(٣١ - لمجاز القرآن)

قول من يقول بتكثيره ، فقد شرب الخمر من شربها من المسلمين في عهد النبي وفي عهد خلفائه الراشدين وقامت البيئة الواضحة التي توجب الحد عليهم وحدوا .. ومع ذلك فقد بقي معهم إسلامهم .. وكأوا يشهدون مشاهد المسلمين في الصلاة وغيرها .. وإذن فقد يشرب المسلم الخمر ، يشربها ويدمغ بالإثم والعصيان ، ولكن على أى هو مسلم ، لا تسقط عنه الواجبات المفروضة على المسلم ، ومن بينها الصلاة . وليس هناك إلا حائل واحد يحول بينه وبين الصلاة في هذا الحال ، وهو أن يكون في حال سكر لا يدري معها ما يقول .. وهنا نجد الآية الكريمة : « يأبى الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . نجدها - عاملة غير معطلة ، فهي تفرض حكمها على من خالف ما نهى الله عنه من أمر الخمر ، فشربها حتى سكر ، فهذا لا يقرب الصلاة حتى يفوق من سكرته ، ويعلم ما يقول . بقيت بعد هذا الآيتان : الأولى والثانية ، وهى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقأ حسناً » . وقوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وهاتان الآيتان تعرضان بالخمر وتضعانها موضعاً غير كريم ، وتزنانها بميزان يقل فيه خيرها ويكثر شرها .

هى رزق .. ولكنها رزق غير حسن .

وهى نفع .. ولكن إثمها أكبر من نفعها .

وهى رفس ، ولكن بعض الناس يلطخ نفسه بهذا الرفس !

فجميع هذه الأوصاف هى للخمر ، وهى أوصاف خسيصة كلها ، ولكنها درجات فى الخسة ، من حيث النظرة التى ينظر بها إليها .. وهى على جميع جهات النظر موسومة بسمية القبيح والإثم والرفس ..

وإذن فالآيات الأربع الواردة فى شأن الخمر لا تعارض بينها ، ولا ينسخ بعضها

بعضاً ، كلها عاملة تعطى الحكم المناسب كما تعطى الرخصة ، المناسب .

وما قيل في آيات الخمر يقال أيضاً في آيات الربا .

فالآيات التي نزلت في شأن الربا . . جاءت على مراحل متدرجة على نحو
ما جاء في شأن الخمر . . فأول ما نزل في شأن الربا هو قوله تعالى :

« وَمَا آتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ، فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا
آتَيْنَا مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ » (١)

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى في شأن اليهود :

« وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَكُلِّمِهِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » (٢) .

وإذ كان الربا مما حرّمه الله على أهل الكتاب فهو أمر مذموم ، اقتضت
حكمة الله تحريمه .

وهذه الإشارة تدعو كثيراً من المسلمين إلى أن ينفروا من هذا الأمر
ويحذروه ، وإن لم يكن قد حرّم عليهم بعد .

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ » (٣)

فإنه هنا ليس نهياً قاطعاً في تحريم الربا تحريماً مطلقاً ، وإنما وقع تحريمه
في صورة خاصة ، وهي أن يكون أضعافاً مضاعفة . . وهي تقابل في تحريم الخمر
قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » .

(٢) سورة النساء : ١٦١ .

(١) سورة الروم : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٣٠ .

ثم كانت الكلمة الأخيرة في الرّبا . . فنزل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » (١)

هذا ، ويرى كثير من العلماء أن ماجاء في الربا ، والخمر نيس من قبيل النسخ ، لأن النسخ عندهم إزالة حكم شرعى بحكم شرعى آخر . . والخمر والربا لم يكن قد جاء فيهما حكم شرعى مجملهما ، ثم بتحريمهما ، فيكون الحكم الثانى ناسخاً للأول ، وإنما هما مما كان مباحاً للعرب ، ثم المسلمين ، حيث وجدهما الإسلام ، ثم حرّمهما بعد ذلك ، وقد ظلت الخمر غير محرمة إلى صلح الحديبية ، ثم جاء القرآن بتحريمها ، وكذلك الرّبا لم يحرم تحريماً قطعاً إلا قبيل وفاة النّبى الكريم .

ولكن - إذا قيل فى القرآن نسخ - ألا تعتبر هذه المراحل التشريعية للأمر الواحد ، واختلاف الحكم فى كل مرحلة منها ما يقيم للقائلين بالنسخ الشرط الذى يطلبونه له ، وهو إزالة حكم شرعى بحكم شرعى آخر ؟ ثم ألا تكون كل مرحلة من هذه المراحل مفارقة بحكم ينسخها ، ثم تجيء المرحلة الثانية فتتسخ حكمها ؟ وعلى أىّ فئدة كان رأينا ، فى الآيات التى نزلت فى الخمر والرّبا أن لا تناسخ بينها وأنها جميعها محكمة ، تلاوة وحكما . . وهذا ما يستقيم مع القول بأن لا نسخ فى القرآن أصلاً . . أما إذا قيل بأن هناك نسخاً ، فإن هذه الآيات ، هى أقرب شاهد لدهوى النسخ !

* * *

وندع هذه الآيات التى يلتقى معنا فيها الذين يقولون بالنسخ ، وإن كان هذا اللقاء على وجه مختلف بيننا وبينهم . . وننظر فى آيات أخرى يقطعون القول بنسخها .

فمن ذلك قولهم في قوله تعالى :
« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ، وَالْمَسَاكِينُ ، فَارْزُقُوهُمْ
مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » (١)

يقولون : إن هذه الآية منسوخة بآية المواريث . .
والقول بنسخ هذه الآية يسد على الفقراء واليتامى باباً من أبواب الرحمة
أراد الله سبحانه أن يفقهه عليهم ، كما أنه يقطع أمرة المودة بين ذوى القربى
التي أمر الله بها أن توصل !

وما عدل الإسلام ، وما أحكم أحكامه التي تفجلى في كل آية من آياته . .
وهنا في هذه الآية الكريمة التي يريد بعض العلماء منزل المسلمين منها . . إنها
تدبير حكيم من الإسلام ، وآية من آيات خلود هذا الدين .

فالمرات الذي يتركه الميت لورثته هو خير غير مرتقب ، قد شمل أعداداً من
الناس بحكم قرباتهم لهذا المورث . . وهناك حيون كثيرة تتطلع إلى هذا الخير ،
وتتبع مواقفه التي وقع فيها ، وخاصة ذوى القربى الذين لانصيب لهم فيه بين
الورثة . . كذلك من يحضر قسمة الميراث من فقراء ومساكين . . إنهم يرون
مائدة منصوبة حافلة بألوان الطعام ، وهم جميع يسيل لعابهم إلى لقمة أو لقيمت
عما عليها . .

هذا هو الموقف ، كما يراه القرآن ، وكما تشهده الحياة ، فإذا لو ذهب الورثة
بكل هذا الميراث . . فلم يكن لذوى قرباهم المحرومين منه شيء ، ولم يكن للفقراء
والمساكين الذين تتلمظ شفاههم إلى نفحة منه — شيء ؟

ماذا يكون ؟

أحقاد ، وأضعان ، وعفواوات ، تثير السخط والنقمة ، وتذهب بالإخاء والمودة بين الناس والناس !

وتأمل قوله تعالى : « إذا حَضَرَ القسمة » أى إذا كانت قسمة الميراث بمحضر منهم وبمشهد ..

فهذا الحضور هو شرط في أن يُرزَق هؤلاء الحاضرون من هذا الخير الذى شهده ، ورأوا الأيدى تمتد إليه ، وتنال منه !

وأنت ترى مافى هذا التوجيه السامى ، من تلك السياسة الحكيمة التى تقوم عليه فى تربية الأمم ، ودعم بنائها ، وإقامته على أُمس وطيدة من التضامن الاجتماعى ، والتجاوب الإنسانى بين الناس والناس ، وحراسة المجتمع من أن تدخل عليه آفات التباغض ، والتحاسد ، التى هى أفكك الأدواء فى تقويض بناء الجماعات ، وتفتيت وحدتها ! وإن فى هذه اللفتة السامية لإعجازاً من إعجاز القرآن ، وشاهداً من شهود الحق لسلامة الدين الإصلاحي ، وسلامة مبادئه التى قام عليها ، وعمق نظراته التى تنفذ إلى صميم النفس الإنسانية ، وتتعرف إلى مهاب الخير والشر فيها !

إن « ضريبة » التركات التى تفرضها كثير من الدول ، وتحتجز بها جزءاً من ميراث الورثة ليست إلا تطبيقاً لهذا المبدأ الكريم ، وإلا وحيماً من وحيه ، وإن كان البون شامعاً ، والمدى بعيداً بينها وبين ملء به القرآن ، وشرعه الإسلام !

فالإسلام لم يجعل هذا الأمر على وجه ملزم ، بل جعله دعوة مطلقة للخير ، والبر ، فى مقام يحضره داعيان من دواعى الخير والبر . . . وهما : الوجد ، والموت . . إذ المال موجود عتيق بين يدي من سيصير إليهم من الورثة ، وهو لم يقع فى أيديهم بعد . . . ومن أجل هذا ، فإن النفس لا يغلبها حرص عليه ، والضمير به ، كما يكون لو وقع فى اليد ، وصار فى حوزة صاحبه .

والموت شهود مذكور في هذه الحالة — حالة قسمة المال الموروث — حيث كل شيء في هذا المال يذكر بالميث وبالموت معاً .. ومن أجل هذا فالنفس أيضاً لا يغلبها الشبح ، ولا يمسك بها عن الإنفاق في سبيل الله داعي الحرص على الحياة ، في هذا الوقت الذي يطل منه عليها شبح الموت !

ولا يطلب الإسلام في هذه الحال إلى الورثة أكثر من التصديق على ذوى القربى ، والفقراء والمساكين ، الذين يشهدون هذا الخير ، ويحضرون قسمته .. وهذا أمر لو لم تقم له أية داعية أخرى غير داعية هذا الحضور ، وغير ما ينبىء عنه حال الحاضرين — لكان التصديق فيه محمولا عليه بمشاعر المودة والرحمة ، التي لا يرى حال أكثر إثارة منها لدواعي المودة والرحمة بين الناس والناس .. وبين الذين يملكون والذين لا يملكون !!

فكيف وقد قام من بين يديه ومن خلفه داعيان قويان ، يهتفان بالبر والمودة والإحسان .. وهما — كما عرفت — الوجد والموت !

ولو ذهبت تبحث عن أية داعية من تلك الدواعي في « ضريبة » التركات لما وجدت لها أثراً ، ولما أحسست لها وجوداً ..

هذه الآية من الآيات الكثيرة التي قيل إنها منسوخة ، وهي — كما رأيت — دعوة كريمة من دعوات الإسلام إلى البر والإحسان ، وقوة من قواه العاملة في حراسة المجتمع ، وحمايته من التفتت والانحيار !

* * *

وآية أخرى

هي قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ، وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا

إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ حَرَجْنِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَا فِي
أَنْفُسِنَا مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(١)

وقد أشرنا من قبل إلى القول بأنها منسوخة بقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِنَا أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . . . فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَئِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا
بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » ^(٢)

وأنت ترى أن الآية التي يقال إنها منسوخة سابقة للآية التي قيل إنها
نامسوخة ، وهذا أمر لا يستقيم عليه مفهوم النسخ الذي ينبغي أن يكون فيه للنسخ
سابقاً للناسخ ، متقدماً عليه . . . كما لا يستقيم ذلك على الشرط الذي اشترطه القائلون
بالنسخ وتواردت عليه أمثلتهم له ، بتقديم الآية المنسوخة على الآيات الناسخة !
هذه واحدة . . . لانتفت كثيراً إليها . . .

والذي يهمنا أن نلتفت إليه هو الحكمة المستوحاة من نسخ الآية أو هدم
نسخها . . . وهل يمكن التوفيق بين الآيتين — الناسخة والمنسوخة — وإبقاء حكمها ،
دون تعارض أم لا ؟ .

وننظر في الآية الأولى ، التي قيل بنسخها . . . فنجد أنها تدعو إلى أن يكون للمرأة
المتوفى عنها زوجها حق متعلق بتركته — غير مالها من حق في الميراث — وهذا
الحق هو أن يفرض لها في مال زوجها المتوفى نفقة هام ، مع الاحتفاظ لها بمسكنها
الذي كانت تأوي إليه في حياته معها .

هذا ماتدهو إليه الآية إذا قلنا إنها غير منسوخة .

أما إذا قيل بأنها منسوخة فليس للمرأة شيء من هذا كله ، وإنما الذي لها

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٤

(١) سورة البقرة آية : ٢٤

ميراثها المفروض لها ، وقد تقسمه معها زوجة أخرى ، أو ثالثة ، أو رابعة !
هذان أمران يتوجهان إلى المرأة التي يتوفى عنها زوجها . .
فأى الأمرين أقرب إلى الإسلام ، وأشبه بحكمة تعاليمه ، وسموها ، وإنسانيتها ؟
امرأة كانت في كنف زوج وفي ظل من جناحه . . ثم يعرّيها الموت من هذا
الجناح الذي كان يظللها ومن هذا الكنف الذي كانت تلوذ به . .
ثم إذا جاء الإسلام ليقل عثرتها ، ويحف دمعها بتلك المواساة الكريمة ،
فلا يهبجها أحد أن تخرج من هذا العش الذي أفتته وسكنت إليه ، وأنست به . .
إلى أن تذهب الأيام بيمض حزنها ، وإلى أن تفتتح لها وجهات جديدة في الحياة ،
تسبح إليها ، وتقوى على السير فيها - إذا جاء الإسلام بهذه المواساة العكسية
أيسكون ذلك مما يعرض له الإسلام نفسه - بعد هذا - بالنقض ، فيقبض يداً
كان قد بسطها للبر ، والإحسان ، في حال هي أدعى دواعي البر والإحسان ؟ ولم
هذا ؟ الآن المرأة قد فرض لها نصيب بين ذوى القروض من الورثة ؟
وماذا يمنع من هذا ؟ أهو الحديث الشريف الذي يقول : « ألا لأوصية لوارث ؟ »
إن يكن ذلك من مفهوم هذا الحديث ، فهو من مفهوم خاطئ ، إذ أن الوصية التي
يشير إليها الحديث هي الوصية التي يوصى بها المورث حال حياته ، فيفضل بها بعض
الورثة على بعض ، وبهذا يثير بينهم دواعي العداوة والفتنة ، فيقطع بينهم علائق
المودة ، التي من شأنها أن تقوم بين ذوى القربى !
هذه هي الوصية التي عناها الرسول الكريم في قوله : « ألا لأوصية لوارث »
ولكن الوصية التي تشير إليها الآية هنا هي وصاة من الله سبحانه إلى ورثة الزوج
أن يرحموا هذا الحق لزوجهم ، وأن يتمتعوها متاعاً حسناً إلى الحول في بيت زوجها
من غير إخراج إلا أن تخرج هي بمحض إرادتها . . لزوج أو غيره ! أذلك . أم
أن تلقى هذه الأرملة في عرض الطريق ، وتنبذ بالعراء ؟

وقد يقول قائل : إن في ميراثها المفروض لها من زوجها ما يحفظ عليها وجودها
ويطيب نفسها !

وهب أن الميراث الذي تفاله يذهب بوحشتها . ويخفف من مصائبها - وهيئات -
أفكل الأزواج يورث زوجته من المال قدر ما يفعل في نفسها هذا الفعل ، فيكون
فيه الدواء والعزاء ؟

وماذا يكون حالها ، إذا لم يكن في تركة الزوج - وهو الغالب - ما يلائم يدها
وعينها ، ويذهب ببعض حزنها ؟

إن ما تدعو إليه الآية الكريمة هو وحده الدواء والعزاء معاً المتوفى عنها
زوجها في جميع أحوال المورثين ، فقراء كانوا أو أغنياء .. حتى ولو لم يترك الزوج
مالاً أصلاً ، فإنه إذا حرمت المرأة في هذه الحال مالها من حق المتعة حولاً كاملاً
فلن تحرم القرار لمدة عام في المش الذي عاشت فيه مع زوجها . أوفى ذلك ما فيه من
حكمة بالغة ، وتدبير حكيم .

هذا ، وكثير من العلماء على أن هذه الآية منسوخة - كما قلنا - وكثير منهم أيضاً
يرى أنها غير منسوخة ، وأن لكل من الآيتين حكماً يخالف الأخرى .. فالآية :

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»

- هذه الآية خاصة بتقرير العدة ، وتحديد مدة التريض اللازمة لاستبراء الرحم ..

فالتي بتوفى عنها زوجها ، ولم تكن حاملاً فعدها أربعة أشهر وعشر ليال ، وإن
كانت حاملاً فعدها وضع الحمل ، ولو وضعت بعد الوفاة بيوم أو ليلة ، وإن كان
ابن عباس يرى أن تعتد بأبعد الأجلين ، وضع الحمل ، أو أربعة أشهر وعشر ليال ..
وذلك للجمع بين هذه الآية والآية الكريمة :

« وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » ^(١)

(١) سورة الطلاق : آية ٤

أما قوله تعالى « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » .

فهو لتقرير حكم آخر لا شأن له بالعدة ، وهو ما ينبض من الرعاية والنفقة والسكى للمتوفى عنها زوجها ..

فهذه الآية تتجه إلى تقرير حكم ، والآية الأخرى تتجه إلى تقرير حكم غير هذا الحكم .

وقد قال كثير من العلماء بأن لا نسخ في هذه الآية .

روى البخارى ، قال : حدثنا إسحق بن منصور ، حدثنا رَوْحٌ ، حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد . . قال :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » .

قال : كانت هذه العدة تعتد بها المرأة عند أهل زوجها على سبيل الوجوب ، فأنزل الله :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ^(١) »

قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ، إن شاءت سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت .. وهو قول الله :

« غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ »

(١) ومعنى لا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف أى لا حرج بعد هذا الأجل فأخذ به المرأة نفسها من التزين والتجميل بما لا يخرج عن المألوف .

وقال ابن عباس : نَسَخَتْ هذه الآية عِدَّتَهَا عند أهلها ، فتمتد حيث شاءت ، ولا سكنى لها .. ثم أسند البخارى عن ابن عباس أن هذه الآية لم تدلّ على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر ، وإنما دلت على أن ذلك من الوصاة بالزوجات ، أن ~~يمكن~~ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا ، ان اخترن ذلك ، ولهذا قال : «وصية لأزواجهم» أى يوصيكم الله بهنّ وصية ، كقوله : « يوصيكم الله فى أولادكم » ، وقوله : «وصية من الله» ..

ونخلص من هذا كله إلى أن القول بالنسخ فى هذه الآية فيه خروج سافر على المعنى الظاهر منها ، كما فيه تفويت ظاهر لمصلحة أراد بها الإسلام تطيب القلوب ، وتسكينها فى ساحة اليأس والاضيق !

* * *

وهكذا لم تدبرنا الآيات التى قيل إنها منسوخة ، ونهضنا وجه الحكمة فيها — لو فعلنا لما وجدنا فى الكتاب الكريم آية واحدة لاتعطى حكما ، أو تضمن بالتخير الكثير الذى نزلت به من السماء ، هدى ورحمة ، ونورا .

* * *

معارضة القرآن

ومن الشُّبه التي يثيرها - قديماً وحديثاً - أصحاب الأهواء وذوى الآراء المنحرفة المخرفة - القولُ بأن هناك من عارضوا القرآن ، وقابلوا التحدي ، وصمدوا له ، ونجحوا فيه . . وأصحاب هذه الأقوال فريقان :

فريق لا يحسن اللغة العربية ، ولا يعرف مواقع البلاغة في أساليبها ، وإنما تغلب على لسانه رطانة أجنبية ، وبعض كلمات هربية ، فيحسب أنه بهذا قد ملك . وازين الحكم فيما يحسن وما لا يحسن من كل شيء . . ومن هذا الفريق معظم المستشرقين الذين كعبوا في القرآن وفي بلاغة القرآن . . ومن هذا الفريق أيضاً قوم يحسنون العربية ، ويعرفون الكثير من أسرارها ، ومع هذا يلج بهم الضلال والعناد .

هذا الفريق بطائفتيه أو طوائفه يمسك بين يديه تلك الرقاعات والسخافات التي يقال عنها إنها مما هورض به القرآن ، ثم لا يردم الحياء عن التلويح بهذه الحفنة من القراب في وجه الشمس ، وفي وضوح النهار ، وعلى مشهد من الناس !
وندع هؤلاء الآن إلى أن نلتقي بهم وبمعارضاتهم بعد أن نصفى حسابنا مع الفريق الآخر ، من هؤلاء المنازعين في إيجاز القرآن . .

والفرقة الأخرى تضرب صفحاً عن هذه المعارضات أو السخافات التي احتفظ بها التاريخ ، إذ تراها ضرورياً من السخف الذي لا يشفع له شافع من التمويه والتلبيس ، ليدخل به على عقول الناس ، حتى العامة والدماء ، لأنه كلام مفضوح ، عارٍ من كل ما يستر هواره ، ويدارى سوءاته .

ولهذا فقد لجشوا إلى الكذب والادعاء ، فقالوا : إن هناك معارضات كثيرة

قد كانت في عصر النبوة وبعد عصر النبوة ، وأنها كانت جديرة بأن تلتقى بالقرآن ،
وتصمد له ، ولكن غلبة الإسلام ، وسطاوة سيفه في أيامه الأولى قد ذهبت بكل
ما قيل ، ثم وأدت كل ما كان مضمراً في الصدور ، أو مردداً في الخواطر .
هذه هي دعوى القوم ! هي مجرد فروض وهمية ، لا يسندها دليل ولو ظني ،
ولا تقوم لها حجة ولو داحضة . . وإنما هي الزور نصاً ، والبهتان خالصاً . .

المرء قديم :

وهذا الداء — كما قلنا — قديم ، ظهر مع ظهور الخلافات المذهبية التي أجلبت
بخمليها ورجلها على مقررات الشريعة ومقدساتها فخاضت فيها ، وأوغل كثير من
أربابها في خوضه حتى اجترفته التيار فكان من المفرقين . . ومن سَمُوا بالزندقة
والإلحاد في العصر العباسي الأول وما تلاه . .

وطبيعي ألا يكون لهذه الدعوى وجود في صدر الإسلام ، ولا في العصر
الأموي ، لأنها إنما ادعت لهؤلاء الذين عاصروا الدعوة الإسلامية ، ولا يصح أن
ينسب إليهم شيء مكذوب عليهم إلا إذا كانوا غائبين ، ولا يُرجى لهم إياب . .
ولو كان الأمر على غير هذا ، وادعى مدّعي أن هناك من المعاصرين من عارض
القرآن ، ولم يكن بين يديه هذه المعارضة ، ولم يدلّ على صاحبها ، لما وجدنا كلامه
أذنًا تسمع ، حتى ولو كانت أذن فتنة وسوء ، إذ لا شيء هناك تسمعه . .

ولهذا ساغ دائماً لكل مفترٍ أن يفترى على الأموات ، وأن ينسب إليهم
أقوالاً لم يقولوها . . وهذا وإن كان مما لا يحفل الناس كثيراً به ، ولا يقيمون
وزناً له ، إلا أنه يجد عند الأغرار والسذج من يسمع ويهيمخ ! نقول — إن هذه
الدعوى لم تظهر لأول ظهورها إلا بعد أن ذهب أصحاب الشأن في هذه الدعوى . .
فساغ أن ينسب إليهم أنهم عارضوا القرآن ، ولكن لسبب ، أولاً أكثر من

سبب اخفقت معارضاتهم ، وعفى عليها الزمن !! وهكذا يمكن أن يحىء في كل زمن من يقول : إن أهل الزمن الذى قبله قد عارضوا القرآن ، ولكن لم يُقدَّر لهذه المعارضة أن تظهر لظروف وأسباب ، يقيمون بها وجوهاً مسوَّدة لهذا الكذب المفصوح !

وقد قام في كل عصر كثير من علماء المسلمين يردّون على مقتريات المفقرين ، يأخذون عليهم الطريق الذى جاءوا منه لرمى الإسلام بهذه الأباطيل .. وكان القول بمعارضة القرآن الموهومة ، واحداً من آحادها .

وقد تصدّى للرد على هذه الدعوى أكثر الذين كتبوا فى إعجاز القرآن كالجاحظ ، والباقلاني ، وعبد الجبار ، والزماني ، وغيرهم .. .
ويكفى أن ننظر فى قول من هذه الأقوال .. . وإيكن ما يقوله « عبد الجبار » - إذ كان - فيما نرى - قد اهتم لهذا الأمر ، وأعطاه جانباً من النظر والعناية .

ماذا يقول « عبد الجبار » !

عقد « عبد الجبار » فى الجزء السادس عشر من كتابه « المغنى » فصلاً خاصاً بالرد على دعوى القائلين بأن هناك معارضات قد قامت فى وجه القرآن ، ولكن التاريخ لم يحتفظ بها .

وقد سلك فى هذا « الفصل » أسلوبه المنهجى فى كتابه كله ، وهو إيراد الاعتراضات على لسان من يصحّ منه الاعتراض فى الأمر ، أو غيره ، ثم يتولى دفع هذا الاعتراض ، بما يقيم له من حجج وأسانيد .. .

« وعبد الجبار ، فى إيراد الاعتراض أمين أمانة تامة على الدعوى التى بين يديه .. يشرح وجهة نظر خصومه فيها ، وقيم لهم حججهم عليها ؛ بالقوة وبالروح التى يقيم بها حججه هو لدفع هذه الدعوى .. .

وهذا - كما ترى - أسلوب بارع من أساليب البعث عن الحقيقة ، وتجليتها ، وذلك يوجب كل القروض الممكنة لبنائها .. حتى إذا استكملت حفظها وبلغت غايتها .. ساطع عليها ما بيده من حجج فنقضها حجراً حجراً .. ولا تنس أن عبد الجبار « معتزلى » أى أنه من علماء الكلام ..

وذلك هو أسلوب المعتزلة ، وتلك هى طريقة للتكلمين فى لقاء خصومهم ، وفى دفع ما يوردون عليهم من اعتراضات على آرائهم .

ولا نستطيع أن نأتى على جميع « الدفوع » التى جاء بها « عبد الجبار » لإسقاط هذه الدعوى ..

ولكننا نختير بعضاً منها .. إذ قليلها يغنى عن الكثير فى دفع هذا « الإفك » الهزيل !

١ - لا يجوز أنه تنفى الأسباب وتختلف النتائج :

يقول « عبد الجبار » : لو كان القوم أتوا بالمعارضة ؛ لكان حالها كحال القرآن ، فيما يقتضى وجوب نقله ، لأن قرب العهد واحد ، والحاجة والدواعى فيهما ^(١) تنفق ، فكان يجب أن ينقل ، على حد واحد .. فإذا لم يحصل نقل المعارضة علمنا أنه لا أصل لها !

« بل لو قيل : إن الدواعى إلى نقل المعارضة - لم كانت ^(٢) - أقوى منها إلى نقل القرآن ، لصح ذلك .. لأن التنافس فى المعارضة أقوى منها فى الابتداء ، وهذا متعالم فى أحوال الأمور : المبتدئ بالشئ لا تكون دواعيه كدواعى من ينافس فى المعارضة ، وكذلك يكون نقله أقوى من نقل المبتدئ .. لأن العادة - جارية - فى نقل الشئ ؛ أنه ^(٣) فى قوة الدواعى بحسب قوته فى حصوله ووجوده .

ومتعالم من حال القوم أنهم بلغوا النهاية فيما يتصل بإبطال أمر رسول الله

(١) أى فى القرآن وفى المعارضة . (٢) أى لو وجدت .. وكان هنا فعل تام .

(٣) خير لأن العادة .

صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبق ضرب من ضروب الدواعى إلا وحصلت فيهم .. فلا يد من أن تكون حالم في المعارضة، وحرصهم عليها ، أقوى من حال القرآن، وكما لا بد من ذلك فيها ، فكذلك في النقل ، لأنه يختص بمحصول الظفر به في الطَّلَبَةِ ، والملمس في التخلص به من العادة ، والأنفة ، وحفظ الأموال والرياسات. ثم يقول فكيف يصح مع قوة هذه الدواعى أن يظفروا بالمعارضة التي فيها إبطال أمره - صلى الله عليه وسلم - من كل وجه ، وقلب حاله ومراده فيما ادعاه ، أو عكسها إلى خلافه - ولا تنقل ، وهذه حالها ؟ ، وقد علمنا أن هذه الطريقة ، كما قويت في الأصل ؛ فإنها تقوى على الأيام ..

ثم يقول : «ويجب في هذا وجه آخر.. لأن الحاجة فيما يرجع إلى الدين تقتضى قوة النقل ، فما هو حجة أولى من نقل الشبهة ^(١) .. ولو صحت المعارضة لكانت كالحجة ، وكان القرآن كالشبهة ، لأن المعارضة تُعْلَمُ من حاله أنه ليس بمعجزة ، وتكون المعارضة - وهى التي كشفت ذلك من حال القرآن ، ودلت عليه - حجة ، فكان يجب أن تكون بالنقل أولى من القرآن .

هذا دفع من تلك «الدفع» التي يردّها «عبد الجبار» دعوى المدّعين بوجود معارضة للقرآن لم يقدر لها أن تظهر ، وتحيا في الحياة ..

وهو - كما ترى - دفع لا يُردّ ، إذا كان القرآن قائماً على رموس القوم يقرّعونهم بالتحدى .. فكيف إذ قاموا له وتحذوه ، وانتصروا - لم يسجل لهم هذا الانتصار ، على حين سُجِّلَ القرآن ، وظل محفوظاً في الصدور ، وفي المصاحف المطهرة ، أذلك مما يعقله عاقل ؟ حرب تدور .. وتلتقى فيها قوتان .. وتنتصر إحداها ، وتنهزم الأخرى . ثم يتولى التاريخ تسجيل أسماء المهزمين ، ومواقفهم في الحرب ، دون أن يحتفظ بشاهد واحد يشهد المنتصرين بأنه كانت لهم جبهة ، وكان لهم لقاء مع الجبهة الأخرى .. أهدأ مما يعقله عاقل ؟ كلا .. ثم كلا ..

(١) يريد أن يقول : إن الأمور المتعلقة بالدين - أى دين - تقتضى قوة النقل .
(٣٢م - أعجاز القرآن)

٢ - ما نقل مع المعارضة وما لم ينقل :

ويقدم « عبد الجبار » دفعاً آخر .. فيقول :

« على أنه قد نقل مالا فائدة فيه من المعارضة الركيكة الحكيمة عن « مسيلة » فكيف يصح ألا تنقل المعارضة الصحيحة ، مع ما يحصل به ^(١) من الفائدة ؟ ..
« وإنما ضعف نقل هذه المعارضة لركاكتها ، وخرجها عن أن يعتد بها ،
فلذلك ضعف نقلها ، فليس لأحد أن يقدح بذلك فيما قدمناه من وجوب نقل
المعارضة على وجه يظهر !

« ولنا أن نقدح بذلك في قولهم : لأنها لو كانت ^(٢) لكان نقلها أظهر من هذا
الأمر السخيف الركيك .. يبين ذلك أنه : لا يجوز أن يعظم حال واحد من العلماء
بكتاب ألقه حتى وقع فيه التنافس العظيم ، فينقضه بعض العلماء بنقض صحيح ظاهر
الحال في الصحة ، فلا ينقل ذلك ، وينقل النقض الركيك ، الذي تعاطاه بعض أهل
زمانه . لأن ذلك يوجب قلب العقول والعادات .. فكيف يصح - والحال
ما ذكرناه - أن يقال : إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل ؟ »

٣ - العقل والعادة يكذبانه هذه الدعوى :

ثم ينتقل عبد الجبار بعد هذا إلى دفع آخر يدفع به هذه الدعوى ، وهو أنها في
عرضها هذا المعارض قد جاءت غير جارية مع سنة الحياة ، ومع مألوف العادات التي عاش
فيها الناس .. حيث تبدو هذه الدعوى بمعزل عن كل معلوم ومشهود .. يقول :
« فلو جاز أن يقال : إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل ، ويجوز مع ذلك ما فيه
من قلب العقول والعادات - ليجوز أن يقال : إنه قد كان مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم قرآن أعظم من هذا القرآن ، حتى صار لعظم حاله بحيث

(١) أى بالمثل (٢) أى لو كانت هناك معارضة ذات وجه ينظر إليه

(١) أى بالمثل

لا يشك أحد من الفصحاء أنه مما لا يمكن فيه معارضة ومساواة ، ولم ينقل ، وإن كان قد نقل هذا القرآن !! بل كان يجب أن يحوز في زمانه من ادعى النبوة ، وظهرت عليه المعجزات الباهرة ، ونسخ شريعته ، ودل على بطلان أمره ، ولم ينقل شيء من أمره !! . . . وإنما يستحسن ارتكاب مثل ذلك من يستهزئ بنفسه ، ودينه ، ويستعمل المباهة ، فأما من صدق^(١) نفسه ، ونصحها ، وأنصف منها فسينزه نفسه عن ارتكاب هذه الجهالات ! .

٤ — لماذا تنقل المعارضة بعدرم النقل دونه غيرها مما رصوا به النبي ؟

ودفع آخر يقدمه « عبد الجبار » لنقض هذه الدعوى ، وهو أن الذين حاربوا الدعوة الإسلامية قد حفظ التاريخ كل وسائل حربهم لها ، بل سجل القرآن كثيراً منها . . فكيف لا يبقى دليل أو شاهد على أعظم وأهم ضربة كانت تصيب صميم الإسلام لو أنها وقعت ؟ . . يقول :

« وبعد فقد نُقل سائر ما كانوا يتعاطون مما لا يؤثر في حاله صلى الله عليه وسلم وحال القرآن : كالهجو والوقعية ، وكنسبته إلى السحر . . وغير ذلك . . فكيف يحوز ألا تنقل المعارضة ، مع ما فيها من الفوائد^(٢) ، لو كانت وقعت ؟

« على أننا نعلم بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم — عصرًا بعد عصر — أن فيها من يعادى النبي ، ممن يرجع إلى فصاحة ومعرفة بهذا الشأن ، فقد كان يجب إن لم تُنقل المعارضة أن يبتدئها من يتحدث في هذه الأعصار . . !!

٥ - الفلبية والفهر من دواعي الاعتذار والنقد ، مع اليكتم والاستتار :

يقول « عبد الجبار » :

- (١) في الأصل « صدق » بتشديد الدال ، والصحيح بفتحها . . لأن النفس متهمة ، فكيف يصدقها ويقبل ما تدعو إليه ؟
(٢) أى الفوائد التى تعود على المعارضين المعاندين .

فإن قال - أى المعارض - هلا جوتزم القول بأنه إنما لم ينقل أغلبية مستجيبيه ،
وتخوفهم منهم ؟

قيل له : لا تسئل عن هذا من يعرف أحوال العرب ، وأحوال الأخبار . .
لأن المتعالم من حال الأخبار : أنه لا ينقطع بهذا الجنس من الخوف ، بل لا ينقطع
بشيء من الخوف ، لأن الخوف إنما يقتضى ترك الإظهار ، لا ترك النقل ، وربما
دعا المنع إلى الإكثار من النقل ، وهذه طريقة معروفة فيما يقع المنع فيه - من سلطان
وغيره - أنه يكون أقرب إلى الانتشار ، من حيث تقوى الدواعى ، وتزداد بمحصل
المنع ، وإنما لا يقع الإظهار فى أحوال مخصوصة ، وذلك لا يمنع من النقل ، لأن
المقتضى لظهوره ، ووقوع العلم به ليس بالإعلان ، وإنما هو الخبر ، فلا فرق
بين أن يُجهر به ، أو يسر به ، فى وقوع المعرفة . . فكيف يصح - والحال
هذه - أن يدعى للأمر الذى يجب نقله أن الخوف يمنع من ذلك ؟

« على أن الخوف إنما يقدح فيما لم يتقدم ظهوره ، فأما إذا تقدم ذلك فيه فلا يقع
المنع به (١) . . وقد كان يجب فى المعارضة - لو وقعت - أن تظهر حالها فيمن
يعاديه صلى الله عليه وسلم ، وقد علمنا أنهم كانوا كثرة عظيمة . . قد كانوا أكثر
من المستجيبين عدداً . . فكيف يقال : إن الخوف منع من ذلك ؟ وكيف يصح
فى الخوف الذى لا يجرى مجرى المواطأة أن يمنع من نقل الأخبار ؟ وإنما يجرى هذا
الجرى بأن يكون صادراً عن سلطان ، فتجمعهم الخفاة فى حال أو أحوال ، أما إذا
لم يكن كذلك ، فلا بد من أن يخاف البعض دون البعض ، أو تختلف الاعتقادات
فيه ، فلا يجوز فى مثله (٢) أن يكون مانعاً من الأخبار الظاهرة . . يبين ذلك أنه :

(١) يريد أن يقول : لأن الخوف كان هو العفة الغالبة على الجانب الذى فيه الدعوة
الإسلامية فى أول أمرها ، وكان يجب لهذا أن تظهر المعارضات التى عارضها القرآن ، وأن
تذاع : وأن نسد الطريق على الإسلام لئلا كان أصحابها هم أصحاب القلب والقدرة ، على حين
كان المسلمون فى ضعف ظاهر (٢) الضمير يعود إلى الخوف .

تقدُّ نُقلت المعارضةُ الركيكة ، ولم تمنع الخافَةُ منها ، فكيف تمنعُ من المعارضة الصحيحة ؟

« وبعد .. فإن المعارضة - لو صحت - لتقويت أحوال الكفار بها ، وظهرت للأجلبها أحوالهم ، فكان يصير سبباً للقوة ، وزوال أسباب الخوف .. والمتعالم من حال الخائف ، أن يبذل جهده في التوصل إلى زوال خوفه ، فكان يجب - على هذه الطريقة - نقلُ المعارضة من وجهين أحدهما التخلص من الشريعة ، وإبطال أمره صلى الله عليه وسلم .. والثاني زوال الخوف من مستجيبه ! » (١).

* * *

وأحسب أن في هذا القدر كفاية في الردّ على هذه الدعوى التي تتصيد المفتريات وتبنى منها أعشاشاً تسكن إليها القلوب المريضة ، حيث يبيض فيها الإلحاد وتفرخ الزندقة !

ولم تكن بنا حاجة إلى الوقوف عند هذه القرية المفضوحة ، إذ لا وجه لها تظهر به في الحياة .. ولكن الردّ عليها في الواقع رد على مفتريات كثيرة مثلها ، تجيء من هنا ومن هناك ، لتثير في جو الإسلام أدخنة وسجبا ، تغشى بها كثير من العيون ، وتمرض بها كثير من القلوب ..

هذا ، وقد كنا تركنا من قبل أصحاب القول الذين يحتجون بتلك المعارضات التي احتفظ بها التاريخ لمن قيل عنهم إنهم عارضوا القرآن ، كسُيَلمة ، وابن المقفع ، والمعري ، وغيرهم ..

وها نحن أولاء نعود إليهم انرى ما في أيديهم من هذه المعارضات ، وما لهم فيها من ركن يؤوون إليه !

(١) المغنى لعبيد الجبار - الجزء السادس عشر ، مطبعة وزارة الثقافة ص ٢٥٠ وما بعدها.

المعارضة والمعارضون :

إن المروى من هذه المعارضات يُشعر الناظر فيه أنه كلام موضوع ، أريد به السخرية والاستهزاء بمن نُسب إليهم أنهم عارضوا القرآن ، أو حاولوا أن يعارضوه . فما ينسب إلى «مسيلة» وقد كان ادّعى النبوة أيضاً في حياة النبي - لا يمكن أن يكون كلام عربيّ يعرف لسان قومه سليقة وطبعاً . . إذ هو كلام ركيك سخيف ، لا يصدر عن عربيّ لم تفسد لسانه العُجمة . . كـمسيلة ، وقومه ! وإنما الذي يُرد إليه هذا الكلام هو الإمعان في الهزء والسخرية بهذا «النبي» بنسبة هذا السخف إليه ، وجعله « قرآنه » الذي أوحى إليه من شيطانه أو شياطينه ! وقد يكون « لمسيلة » معارضة للقرآن ، غير هذا « الهذر » السمج . ولكنهما مع هذا كلام لا يقوم للقرآن ، فأسقطها مسيلة نفسه ، قبل أن تسقط هي من حساب التاريخ !

إن للعرب خطباً مُفجّمة ، وحِكماً رائعة معجبة ، يترقرق عليها ماء الحسن والملاحة . . فيها روعة آسرة ، وجمال أخاذ . . ولو ادّعى مدّع من هؤلاء الخطباء النبوة ، وأراد أن يعارض القرآن لكان له قول غير هذا القول السخيف الساقط ، وإن كان في أعلى مراتبه لا يجاوز هضبة على أرض تطاول سماء القرآن !

استمع إلى كلمات لقس بن ساعدة^(١) في بعض خطبه: «أيها الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وعوا . . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . في هذه آيات محكمات . . مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، . . نجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماوات

(١) هو قس بن ساعدة الإيادي ، يضرب به المثل في مواقف الخطابة ، فيقال : «أخطب من قس بن ساعدة» . . وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم ، واستمع إليه وهو يخطب في عكاظ على جبل أورق ، فحمد له قوله وما يحمل من كريم المعاني . .

أبراج .. مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ؟ .. أَرْضُوا فَأَقَامُوا ، أم حُبِسُوا
هناك فناموا أيام عشر إيام .. أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ : أين المعروف
الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم ينكر ؟ أَقْسَمَ قُسٌ قَسماً بالله : إن الله ديناً هو أَرْضَى
من دينكم هذا .. »^(١)

أهذا كلام تُشَمُّ من ريحه نفحة نبوة ، وريح نبى ! .. إنه ثمرة من ثمار
البلاغة العربية الطيبة الناضجة .. أما هذا السخف الذى ينسب لمسيلمة ، فما هو
من هذا الكلام فى شيء .. إنه عبث عابث ، وهذيان مجنون !

يروى عن عمرو بن العاص أنه كان بالبحرين مبعوثاً من رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فلما مات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وارتد بعض العرب ، ومنهم
مسيلمة وقومه ، أقبل عمرو يريد المدينة ، فر بمسيلمة ، وكان قد أخذ منه الأمان ،
فقال مسيلمة لعمرو : إن « محمداً » أرسل فى جسيم الأمور وأرسلت فى المحقرات !
فقال عمرو . أعرض على ما تقول : فقال ياضفدع نقي فإنك نعم ماتنقين ، لا واردة
تنفرين ، ولا ماء تكدرين .. ياوبر ياوبر^(٢) ، يدان وصدر .. حضر
نفرا^(٣) ، قال عمرو : ثم أتى أناس يختصون إليه فى نخل قطعها بعضهم لبعض ، فتسجى
بقطيفة ، ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ماجاء بنو أبى
أسلم من محرم ! » ، ثم تسجى الثانية فقال : « والليل الدامس والذئب المامس ،
ما حرمته رطباً إلا حرمته يابس^(٤) .. قوموا ، فما أرى عليكم فيما صنعتُم شيئاً »
قال عمرو : أما تعلم ؟ ولما نعلم إنك لمن الكاذبين^(٥) .

والصنعة ، والتعمل ، والعبث كلها واضحة فى هذا الخبر وأنه كذب وتلفيق ..

(١) البيان والتبيين للعاجظ : جزء ١ ص ٢٤٧ (٢) الوبر دويبة كالسنور .

(٣) الحضر : عدو الفرس ، والنفر : نقاره وجوجه .

(٤) هكذا « يابس » والذى عليه الأعراب : يابساً !

(٥) من أعجاز القرآن للخطابى ص ٥

فلم يكن مسيامة بالذى يرى نفسه أنه دون محمد شأنًا ، وقد بَعَثَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حياته كتابًا قال فيه : أنا شريكك في الأمر ، فلنا نصف الأرض ولكم نصفها ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون ! ، وهذا خبر ثابت موثق فكيف يرضى « مسيامة » لنفسه أن يكون نبيًّا إلى الضفادع ، والسحالي ، والسنانير ؟ ثم لقد أبى واضع هذه القصة إلا أن ينسب إلى مسيامة الجهل بلغة قومه ، فيخطيء في إعرابها ، كما في كلمة « يابس » وهي واقعة حالا ، يجب نصبها !

ولا تحسب أن « مسيامة » وهو عربى صميم ، له ما للعرب من بلاغة وفصاحة يرضى لذوقه العربى أن يهرف بمثل هذا الساقط المردول من الكلام ، بل نحسب أنه لم يحاول أبداً أن يكون له قرآن ، وأن الذى أفهم قريشاً وأعجزها ، وأخذ على لسانها في معارضة القرآن هو الذى أفهم مسيامة وأعجزه ، وأخذ على لسانه . . فلم يقل شيئاً يجعله قرآنًا له .

والذى نظنه ، بل ونكاد نستيقنه أن الذين أرادوا أن يهزوا بمسيامة ويستخروا منه ، ويشوهوا وجهه ، ويلطخوه بالسواد ، على ماشوهه الكذب ، ولطخه الادعاء — هؤلاء قد عمدوا إلى هذا العبث من القول ، فنسبوه إليه ، وعلقوه برقبته ، ليزداد به خزيًا ، وسخرية ، على الدهر وإيكون حديثاً يسمر به السمار فى معرض السخرية والاستهزاء ، بكل ذى صفة تجره إلى مجالس الساخرين المستهزئين ! ولا نقول هذا فى مسيامة وحده ، بل ذلك هو رأينا فى كل معارضة للقرآن

نسبت إلى غيره ، وجبى لها بشاهد من مثل هذا الكلام المردول المعطوب ! وإذا كان التاريخ لم يحتفظ لمسيامة بغير هذا الكلام الساقط الذى يمكن أن يُتَحَكَّكَ به ، وأن يقال : إن الرجل سخيف ممسوس بالهلوسة والوسوسة ، لا يصدر عنه إلا مثل هذا الهذر والهذيان ، فماذا يقال فى المعرّى ، وهو مالك زمام البلاغة والبيان ، منظومًا ومنثورًا ؟ أترأه حين يَلْتَقِ القرآن معارضًا ينسى كل ما كان

فى قلبه وعلى لسانه من فصاحة وبيان ؟ وكيف يُعقل هذا ؟ وقد كان المقام يقتضيه أن يُدِيم التفكير ، ويطاول التأمل ، حتى يحىء بأحسن ماعنده فى مواجهة أحسن الكلام وأبلغه ؟ روى ياقوت الحموى فى كتابه : « معجم الأدباء » عن معارضة أبى العلاء للقرآن . . فقال :

« وما ظهر منه — أى من أبى العلاء — فى بعض كلامه : « أقسم بخالق الخليل ، والريح الهابّة بليل ، ما بين الأشرط ومطالع سهيل — إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف ^(١) الذيل . . اتقى مدارج السبل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج ، وما إخالك بناج . . » وقوله — أى قول أبى العلاء — : « أذات العائذة ^(٢) أباه ، وأصاب الوحدة ورباه ، والله بكرمه اجتباها ، أولاها الشرف بما حباها ، أرسل الشمال وصباها ولا يخاف عقباها . . » ^(٣)

إن يكن هذا من كلام أبى العلاء ، فلن يكون إلا عن معابثة أرادها وقعد لها ، وإلا ، فإن أبا العلاء لا يرضى لنفسه أن تنزله إلى هذا السخف فى مقام الجد أبداً . . وأنه إذا كان لأحد أن يتهم أبا العلاء فى دينه ، فإنه لاسبيل لأحد أن يتهمه فى أدبه ، فإن ذوقه للكلام ، وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه — يحميه من أن يزلّ وينزلق فيتصدى لمعارضة القرآن ، ويأتى بنفسه فى هذا البحر ليكون من المغرّقين . . إن المعرّى لأعقل من هذا ، وأعرف الناس بمكانة القرآن ، ومكان الناس منه . . وقد عُرف عنه أنه كان دائماً يزين أدبه بما يقبّس من كلمات القرآن ، وآياته . . فهل من يفعل هذا يتصدى للقرآن معارضاً أو يلقاه منازل ؟

استشفع لقوم عند أمير « المعرّة » أسد الدولة . . فقال له فيما قال : مولانا السيد الأجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها — كالنهار المانع ^(٤) ، اشتد هبيره ^(٥)

(١) مكفوف : أى قصير (٢) العائذة : الطفلة الصغيرة

(٣) معجم الأدباء / جزء ٣ / ص ١١٠ (طبعة دار المأمون)

(٤) النهار المانع : يقال منع النهار إذا ارتفعت شمس ، وبلغت غاية ارتفاعها .

(٥) هبيرة : لقع الحر .

وطاب إبراده^(١) وكالسيف القاطع ، لأن صفحه ، وخشن حداده : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ،^(٢) .. أهذا شأن من يعارض القرآن ، ويتصدى له ؟ وهو يعرف من بحره ، وينظم من درره ؟

ويسجل أبو العلاء في « رسالة الغفران » رأيه صريحاً قاطعاً في إعجاز القرآن .. فيقول : « وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز ، ولقى عدوه بالإرجاز ، ماحذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال .. ماهو من القصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شا كل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس ، لو فهمه المصنّب لتصدّع ، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه الخلقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب .. فتبارك الله أحسن الخالقين »^(٣) .

وكفى بهذا حجراً يرُمى به أبو العلاء في فم المتخربين عليه ، والمتقدمين به في معركة لم يخفها ، ولم تنزع به نفسه إلى الدخول فيها أبداً .. وإذ بطل ما يدعيه المدّعون للنبي الكاذب « مسيامة » ، وبطل ما يدعيه المدّعون للأديب الصادق : « المعري » فقد بطل كل قول يقال في معارضة القرآن من أدعياء نبوة ، أو أرباب بيان !

[تم بحمد الله]

(١) الإبراد : البرد الذي يعقب الحر ، وذلك في الغداة والعشي (الأبردان) ..

(٢) معجم الأدياء جزء ٣ .

(٣) رسالة الغفران ص ٢٦٣ .

فهرس

الصفحة

٣	مقدمة
٢٢	مدخل إلى البحث

الباب الأول

٥٧	كلمات الله ... وكلام الناس
		منطق التجربة ٥٨ - ماذا في كلمات القرآن ٦٠ - رحلة إلى الملا
		الأعلى ٦٧ - كلام الناس وحدوده ٧٠ - مع وقائع التاريخ ٧٢ -
		كلمات القرآن وآثار الزمن ٧٦ - ماهذا القرآن ؟ وما هذا الكلام
		الذي صيغ منه ٧٩ - زمان المعجزة ومكانها ١٠٣ - ولماذا العرب
		وحدهم ١٠٨

الباب الثاني

٨٧	المعجزة ... في زمانها ومكانها
		ما المعجزة ٨٧ - لماذا تتعدد المعجزات وتختلف ٨٨ - هل المعجزة
		لازمة للرسول ٩١ - الناس والمعجزات ٩٣ - المعجزة الخالدة ٩٦
		وقفه مع الشعر الجاهلي ١١٥ - الإسلام والشعر الجاهلي ١٢١ -
		ماذا في الشعر الجاهلي ١٢٨ - اللغة العربية ومكانتها بين اللغات ١٣٥
		هل القرآن حجة على غير العرب ١٣٦ - الله أعلم حيث يجعل رسالته ١٣٩
		ماهو الإعجاز في القرآن ١٤٠ - لماذا اختلف الناس في الاستدلال
		على وجه الإعجاز ١٥٠

الباب الثالث

الصفحة

- آراء ومباحث فى الإعجاز ١٥٢
من نظرات السابقين فى الإعجاز - قليل من كثير ١٥٢
- الملاحظ ١٥٧
رأيه فى الإعجاز ١٥٧ - الملاحظ ووجوه الإعجاز ١٦٤ - رأى
الملاحظ ١٦٧ - الملاحظ ... والقول بالعرفه ١٧٦
- الخطابى [٣٨٨ - ٣١٩] ١٧٩
مع بيان إعجاز القرآن ، للخطابى ، وماذا يقول الخطابى فى هذا
١٨٢ - لاختلاف فى الإعجاز ١٨٣ - بماذا وقع الإعجاز - إنكار
الإعجاز بالصرقة ١٨٥ - هل كان الإعجاز بما فى القرآن من أخبار
غيبية ١٨٦ هل الإعجاز فى النظم الذى انفرد به القرآن ١٨٧
- الباقلانى [رأيه فى الإعجاز] ١٩٤
القرآن معجزة الرسول ١٩٤ - ما الدليل على أن القرآن معجزة
الرسول ١٩٥ - ما رجه الإعجاز فى القرآن ١٩٧ - القرآن يتحدى
العرب ١٩٨ - ماذا عند الباقلانى من وجوه الإعجاز ٢٠٤ - نظم
القرآن عند الباقلانى ٢٠٥ - ما يرجع إلى جملة القرآن كله ٢٠٦ -
الباقلانى وذوقه للقرآن ٢٠٩
- عبد الجبار (رأيه فى الإعجاز) ٢٢٢
من هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار - رأيه فى الإعجاز ٢٢٢ -
ما الكلام الفصح النظم المخصوص ، وأثره فى البلاغة ٢٢٤ - أين
تكون مواقع الفصاحة فى الكلام ٢٢٥

الصفحة

عبد القاهر الجرجاني (رأيه في الإعجاز) ٢٤٤

دلائل الإعجاز - أول الطريق ٢٤٤ - ماذا عند عبد القاهر من

دلائل الإعجاز - هل التعرف على الإعجاز ممكن ٢٥٥ - على الطريق

- لاجدال في الإعجاز ٢٥٧ - ماذا أعجز العرب من القرآن ٢٥٨

بين اللفظ والمعنى - ما البلاغة وما الفصاحة ٢٦٠ - الكلمة في

انفرادها واجتماعها ٢٦٢ - في ثنايا الطريق - اللفظ والنظم ٢٧٣

خاتمة المطاف ٢٧٨ - وأخيراً ٢٨٤ - الرسالة الشافعية للجرجاني

٢٨٩ - بين العرب والقرآن ٢٩٢

الزخشري (رأيه في الإعجاز) ٢٩٧

لماذا اختار الزخشري هذا المنهج ٢٩٩ - ماذا عند الزخشري

في إعجاز القرآن ٣٠١ - وقوع الإعجاز بعد التحدى ٣٠٢ -

إشارات إلى وجوه الإعجاز ٣٩٤ - أمثلة من تفسير الزخشري ٣٠٦

القاضي عياض (٤٧٦ - ٥٤٤ هـ) ٣١١

كلمة عنه - ورأيه في الإعجاز ٣١١

ابن عطية ٣١٩

ما المعجز من القرآن ٣١٩

الرافعي (والإعجاز) ٣٢٦

مع الرافعي في إعجازه ٣٢٨ - ما الإعجاز - الرافعي والآراء

التي قبلت في الإعجاز ٣٢٩ - القرآن عند الرافعي ٣٣٠ -

أسلوب القرآن ٣٣٨

الصفحة

٣٤٢	فريد وجدى (رأيه فى الإعجاز)
٣٥٤	آراء متفرقة فى وجوه الإعجاز
	أبو حيان التوحيدى ٣٥٤ - الراغب الاصفهانى ٣٥٥ - السكالى -
	الفخر الرازى ٣٥٨ - حازم ٣٥٩ - المراكشى ٣٦٠ - الزملىكانى -
	الزركشى ٣٦٢
٣٦٤	القول بالإعجاز بالصرقة
٣٦٧	الجاحظ والقرآن بالصرقة
٣٧٢	ابن سنان الخفاجى والقول بالصرقة

الباب الرابع

شبهات ... ودعاوى ... ومفتريات

٣٧٩	وقفه
٣٨٢	القرآن ... لفظه ومعناه
	مامعنى « قرآن » ٣٨٢ - هل لفظ قرآن عربى أو معرب ٣٨٣
٣٨٥	شخصية القرآن
٣٨٨	نظم القرآن
٣٩٣	التكرار فى القرآن
٤٢١	المحكم والمتشابه
٤٣٣	القرآن قديم أو حادث
	منشأ هذا القول ٤٣٤ - الخليفة المأمون يقود هذه المعركة ٤٣٦ -
	فى المعركة ٤٣٧ - مع على بن أبى مقاتل - مع أبى حسان الزبائدى
	٤٤١ - أحمد بن حنبل فى مواجهة الحقنة ٤٤٣ - الجاحظ فى
	المعركة ٤٤٧

- النسخ فى القرآن ٤٥٦
- هل فى القرآن نسخ ٤٥٩ - القول بالنسخ فى القرآن ٤٦٠ - القول
بأن لا نسخ فى القرآن ٤٦١ - ما نسخ من آية ... ٤٦٥ -
تأويل ما يبدو فيه النسخ ٤٧٧ - وآية أخرى ٤٨٧
- معارضة القرآن ٤٩٣
- الداء القديم ٤٩٤ - لا يهوز أن تتفق الأسباب وتختلف النتائج ١٩٦
ما نقل من المعارضة وما لم ينقل ٤٩٨ - المعارضة والمعارضون ٥٠٢
فهرست الموضوعات ٥٠٧

